د. محمد شحاته ربيع

أستاذ علم النفس المشارك
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض

تاريخ علم النفس ومدارسه

تاريخ علم النفس ومدارسه

تأليف

الدكتور محمد شحاته ربيع

أستاذ علم النفس
عميد معهد الدراسات العليا للدفاع الاجتماعى
وزارة التعليم العالى - القاهرة



الكتاب : تاريخ علم النفس ومدارسه

المؤلف : د. محمد شحاتة ربيع

رقم الإيداع : ٢٢٠٥

تاريخ النشر : ٢٠٠٤

الترقيم الدولي : I. S. B. N. 997 -215 -702 - 0

الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)

ت : ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٧٩٥٤٣٢٤

التوزيع : دار غريب ٣،١ شارع كامل صدقى الفجالة – القاهرة

ت ٥٩٠٢١٠٧ – ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر – الدور الأول

ت ٢٧٣٨١٤٢ - ٢٧٣٨١٤٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾

صدق الله العظيم

(النساء : ١١٣)

الإهـــــداء

إلى صاحب المعالى

الأستاذ الدكتور عبد الله الشبل مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (سابقا) .. وفاءً لجزء من فضله ،،

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

عنوان هذا الكتاب هو « تاريخ علم النفس ومدارسه » وهو يخدم مقررا دراسيا يحمل هذا الاسم أو اسما قريبا منه، ويغطى مساحة تاريخية تمتد من العصور الوسطى الأوروبية حتى التاريخ الحديث والمعاصر.

وقد قسم هذا الكتاب إلى قسمين القسم الأول يعرض لتاريخ علم النفس مركزا على أهم فروع هذا العلم - أما القسم الثانى فيتناول مدارس علم النفس الكبرى بالعرض والمناقشة .

وهذا التقسيم هو من قبيل التقسيمات التعليمية - لا العلمية - والتى من شأنها أن تسهل على طالب العلم فهم المادة العلمية فى الكتاب، ولكن واقع الأمر أن كلا من القسمين متداخلان مع بعضهما البعض أشد التداخل .

ويدور القسم الأول حول الفصول الآتية :

يتناول الفصل الأول علم النفس الحديث والمعاصر فى فذلكة تاريخية تقوم على ربط تاريخ علم النفس فى عصوره المختلفة، وكأن هذا التاريخ سلسلة مترابطة الحلقات، كما يبين هذا الفصل الفوائد التى يجنيها طالب العلم من دراسة تاريخ علم النفس.

ويتناول الفصل الثانى موضوع التراث الإسلامى فى الحضارة الأوروبية متحدثا عن منافذ انتقال هذا التراث عبر صقلية وطليطلة ومتحدثا كذلك عن حركة نقل هذا التراث الإسلامى إلى لغة اللاتين مما أثر تأثيرا شديدا على العقل الأوروبى فى العصور الوسطى ومطلع العصر الحديث.

ويتناول الفصل الثالث موضوع علم النفس فى العصور الوسطى الأوروبية متحدثا عن الفلاسفة المسيحيين واليهود الذين ناقشوا موضوع علم النفس ومنهم القديس « أوغسطين » ، «وموسى بن ميمون» والقديس « توما الأكوينى» و « سجر البرابنتى» وغيرهم، ويظهر من هذا الفصل الأثر الدامغ للتراث الإسلامى على الفكر الأوروبى فى ذلك الوقت .

ويتناول الفصل الرابع تاريخ علم النفس الفلسفى فى مطلع العصر الحديث حيث كان الفلاسفة هم علماء النفس - ويتحدث عن لفيف من الفلاسفة كلهم من أوروبا مثل «ملانثون» و «بيكون» و «ديكارت» و «كنط» و « شوبنهور» و «نيتشة»، فقد عالج هؤلاء الفلاسفة قضايا متعددة مثل نظرية المعرفة بعامة وكيف تتحول المحسوسات إلى معقولات. كما درسوا قضية الإنسان ومصيره وأخلاقه.

وفى الفصل الخامس حديث عن بدايات علم النفس التجريبى - فنتعرض بالدراسة لعدد من عمالقة العلماء الألمان الذين انفردوا - دون غيرهم - بأن يكونوا المؤسسين الحقيقين لعلم النفس التجريبى - جاء معظمهم من مجال الفسيولوجيا ومن هؤلاء العلماء « موللر » و «فبر» و «فخنر» - كما نعرض فى هذا الفصل شيئا من أعمالهم وإنجازاتهم التى لا تضارع - وكذلك نجيب على سؤال مهم مضمونه: لماذا كانت ألمانيا - دون غيرها من الدول - هى قائدة علم النفس التجريبى الحديث؟

وفى الفصل السادس نتحدث عن تاريخ حركة القياس النفسى وهى حركة تضاهى وتزاحم حركة علم النفس التجريبى؛ لأن حركة القياس تهدف إلى إعداد الاختبارات النفسية فى جميع المجالات: مجال الذكاء، والقدرات، والشخصية،

وهذه الحركة هى تجمع حشد من العلماء الذين أسهموا فى إثراء « الخزانة السيكولوجية » وإمدادها بما تحتاج من اختبارات، وأشهر أبطال هذه الحركة «بينيه» و «ترمان» و «وكسلر» و «رورشاخ» وغيرهم من أسماء لامعة .

وفى الفصل السابع نتحدث عن تاريخ علم النفس المرضى - فنعرض للأساليب العلاجية فى العصور القديمة والوسطى عند « أبوقراط» و«جالينوس» و«ابن سينا»، والأساليب العلاجية غير الصحيحة فى العصور الوسطى ثم نتحدث عن ظهور الاتجاهات الإنسانية فى مطلع العصر الحديث، ثم الإنجازات الباهرة فى مجال الأمراض النفسية والعقلية - ونلحق بهذا الفصل حاشية عن تاريخ علم النفس الإكلنيكى .

وفى الفصل الثامن نتحدث عن تاريخ علم النفس الاجتماعى من خلال رجالاته العظام من أمثال « روسو» و «تارد» و «بارتلت» و« فلويد ألبورت» و «مظفر شريف» و « سليمان آش» .

أما الفصل التاسع فيعرض لتاريخ علم النفس الجنائى حيث يعرض لجهود علماء النفس فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى الموضوعات المتصلة بالجريمة والتحقيقات الجنائية - ومن العلماء الذين يتعرض لهم هذا الفصل « شترن» و « منستربرج» ثم يبين الفصل بزوغ علم النفس الجنائى كفرع مستقل على يد «توش».

أما الفصل العاشر فيتناول تاريخ علم النفس الصناعى وجهود الرواد الأوائل من أمثال « سكوت» و «تايلور» و «بركس»، وكيف تطور هذا الفرع من علم النفس بحيث يضع المعارف السيكولوجية فى خدمة العملية الإنتاجية ووضع الشخص المناسب فى المكان المناسب .

أما الفصل الحادى عشر فيتناول تاريخ علم نفس النمو متحدثا عن الرواد الأوائل فى هذا المجال مثل « هول » و « شترن» و « بوهلر» و « جيزل » و «بياجيه» و« كولبرج» ومشيرا إلى إنجازاتهم التنظيرية والتطبيقية .

وبهذا الفصل الحادى عشر ينتهى القسم الأول من الكتاب – ورغم أن هناك بعض فروع علم النفس لم يتناولها هذا القسم بالتأريخ إلا أن الفروع التى عولجت هى فى نظر المؤلف الفروع الهامة والرئيسية والتى تعطى القارئ فكرة « مناسبة» عن تاريخ علم النفس .

أما القسم الثانى الذى يتناول مدارس علم النفس فإنه يدور حول الفصول الآتية :

يتناول الفصل الثانى عشر المدرسة الترابطية التى ترى أن الترابط أساس فى تفسير النشاط العقلى، هذه المدرسة الترابطية هى تجمع أكثر منها مدرسة وهى على قسمين الترابطية الفلسفية يمثلها بعض الفلاسفة على رأسهم « هوبز» و«لوك» و « باركلى » . والترابطية الجديدة عند ثلاثة من كبار علماء النفس هم «أبنجهاوس» و « بافلوف » و « ثورنديك » .

ويتناول الفصل الثالث عشر المدرسة البنائية، وهى مدرسة ألمانية عريقة أسسها « فونت » و « تتشنر » وإلى هذه المدرسة ينسب فضل تأسيس علم النفس التجريبى الحديث . وقد اتخذت هذه المدرسة الشعور موضوعا لعلم النفس والاستبطان منهجا له. وسوف نبين لماذا ماتت هذه المدرسة البنائية رغم عملقة مؤسسيها، كما سنعرض فى هذا الفصل لقوتين تابعتين للبنائية هما علم نفس الفعل عند « برنتانو » ومدرسة « فرزيبورج» عند « كولبه » .

وفى الفصل الرابع عشر نتحدث عن المدرسة الوظيفية، وهى مدرسة أمريكية متأثرة بنظرية النشوء والارتقاء عند «دارون» وأشهر رجال هذه المدرسة «وليم جيمس» و « ستانلس هول» و « إنجل » .

وفى الفصل الخامس عشر نتحدث عن مدرسة الجشطلت – وهى المدرسة الألمانية العريقة التى أسهمت فى دراسات الإدراك والتعلم، ونتعرض لعلمائها الثلاثة «فرتيمر » ثم « كوفكا » و «كهلر». وكذلك نشرح أهم مبادئ هذه المدرسة. ونختم هذا الفصل بالحديث عن نظرية المجال عند « ليفين » .

وفى الفصل السادس عشر نتحدث عن مدرسة التحليل النفسى أشهر مدارس علم النفس وأكثرها تأثيرا داخل علم النفس وخارجه، وهذه الشهرة وهذا التأثير لا يعنيان - بالطبع - أنها أقوى المدارس! . وفى هذا الفصل نعرض لمؤسس هذه المدرسة «فرويد» ثم مجموعة من العلماء أمثال « يونج » و «أدلر» و «هورناى». وفى هذا العرض نهتم بدراسة الحياة الشخصية لعلماء مدرسة التحليل النفسى، وذلك لنبين أثر هذه الحياة الشخصية على نظرياتهم .

وفى الفصل السابع عشر نتحدث عن المدرسة السلوكية - أشهر المدارس الأمريكية - ونبين طبيعة العصر التى ظهرت فيه السلوكية. ونتحدث عن رجالاتها العظام مثل « واطسون» و «تولمان» و «جوثرى» والرأس الكبير « سكنر ». والذى لا شك فيه أن السلوكية قوة كبيرة، وما هذا الفصل إلا تلخيص سهل لبعض إنجازات هذه المدرسة أما عرض إنجازاتها بشيد من التوسع فيلزمه مؤلف خاص .

وفى الفصل الثامن عشر نتحدث عن المدرسة الغرضية أو القصدية ودراسات « مكدوجل » - عالم هذه المدرسة الوحيد - فى مجالات علم نفس الحيوان، وعلم النفس الفسيولوچى، والمناظرة التى جرت بينه وبين « واطسون ».

وفى الفصل التاسع عشر نتحدث عن أهم المذاهب المعاصرة، فنعرض تطور التحليل النفسى ممثلا فى نظريات « ألبورت » و «موراى» و«أريكسون» ثم لتطور السلوكية حيث الثورة المعرفية عند « بندورا » ثم نتحدث عن القوة الثالثة وهى علم النفس الإنسانى عند « ماسلو» و «روجرز» ، ونختم هذا الفصل بالحديث عن الظاهراتية عند « هوسرل » و«بونتى» .

وفى الفصل العشرين نتحدث عن علم النفس الروسى وهو على ثلاثة أدوار الدور التمهيدى الذى غلبت فيه الأفكار الفلسفية الأراتكية على الدراسات النفسية، ثم الدور التأسيسى حيث و ضعت المبادئ العامة لعلم النفس الروسى وهذه المبادئ تقوم على أساس النظرية المادية، وفى هذا الدور نجد كبار علماء النفس الروس أمثال « ششنوف » و «بافلوف» و «بخترف». أما الدور الثالث من علم النفس الروسى الحديث والمعاصر فهو امتداد للدور التأسيسى، وظهر فيه علماء كبار مثل

«فيجوتسكى» و «روبنشتين». ونختم الحديث فى هذا الفصل بنقد للتوجهات الماركسية التى حجمت علم النفس الروسى ومنعته من الانطلاق .

وفى الفصل الحادى والعشرين نتحدث عن علم النفس اليابانى حيث نتناول المراحل الثلاث التى مر فيها هذا العلم من المرحلة الفلسفية التى سادت أواخر القرن التاسع عشر ثم المرحلة التجريبية التى سادت أوائل القرن العشرين ثم المرحلة المعاصرة التى ظهر فيها علم النفس اليابانى «التأملى»

وفى الفصل الثانى والعشرين نتحدث عن علم النفس الصينى ونناقش فيه الموقف التنظيرى لعلم النفس الصينى المعاصر وتأثره بأفكار « ماوتسى تونج» واهتمام علماء النفس فى الصين بفروع بعينها مثل علم نفس النمو وعلم النفس الصناعى .

وفى الفصل الثالث والعشرين نتحدث عن علم النفس الهندى، وفيه نناقش التوجهات البوذية والهندوكية فى النظر إلى النفس الإنسانية، كما نتعرض لممارسات اليوجا كرياضة بدنية ونفسية ثم نناقش علم النفس الحديث والمعاصر فى الهند.

ولعل الفصول الأربعة الأخيرة من العشرين حتى الثالث والعشرين والتى تعرض لموقف علم النفس فى روسيا واليابان والصين والهند غير معروفة لقراء العربية. وقد حررنا هذه الفصول لمجرد عرض صورة لعلم النفس خارج دول غرب أوروبا فى التاريخ الحديث، والتى أسس فيها علم النفس - وخارج الولايات المتحدة الأمريكية التى استقر فيها « علم النفس المعاصر » وقد شعرنا شعورا قويا أثناء تحرير هذه الفصول الأربعة أن علم النفس المعاصر قد استقر فى الولايات المتحدة الأمريكية لا ينازعها فى ذلك منازع .

ثم ينتهى الكتاب بخاتمة نثبت فيها موقفنا من التأريخ لعلم النفس. وهذا الموقف هو الموقف الوسط الذى يأخذ من كل مدرسة إنجازاتها وإسهاماتها ويبتعد عن تعسفاتها ومبالغاتها.

وفى ختام هذه الخطبة فإننى أتمنى أن يستفيد طلاب العلم من هذا الكتاب، وأن يكون عونا لهم على معرفة تاريخ علم النفس ومدارسه بصورة عامة تمكنهم من تكوين « نظرة طائرة » على هذا الفرع الهام من فروع العلم .

كما أننى أود فى هذا المقام التوجه بالشكر إلى أفراد أسرتى زوجتى وأبنائى الذين وفروا لى وقتا هادئا - وهم أحوج الناس إليه - لجمع المادة العلمية لهذا الكتاب. كما أتوجه بالشكر إلى الأستاذة عزة الحرفة التى راجعت هذا الكتاب مراجعة لغوية.

وأرجو من الله سبحانه وتعالى أن يجعل عملنا خالصا لوجه الله الكريم إنه نعم المولى ونعم النصير. وبالله التوفيق.

الزيتون ـ القاهرة فى صيف ٢٠٠٢

المؤلف



القسم الأول

تاريخ علم النفس

الفصل الأول
علم النفس الحديث والمعاصر
فذلكة تاريخية

بينا فى كتابنا « التراث النفسى عند علماء المسلمين » الرحلة التاريخية لعلم النفس خلال العصور القديمة والوسطى - حيث عرضنا لإنجازات علماء الحضارة اليونانية فى علم النفس القديم وإنجازات علماء الحضارة الإسلامية فى علم النفس الوسيط .

ويعتبر المؤرخون فتح الترك للقسطنطينية سنة ١٤٥٣م - وما تبعه من انهيار الإمبراطورية البيزنطية وهجرة علمائها إلى إيطاليا نقطة التحول من العصر الوسيط إلى العصر الحديث، فما ذلك إلا لظهور هذه الأحداث وآثارها فى جملة الأحداث التى كونت نسيج التطور . ذلك أن المؤرخ المدقق لتاريخ علم النفس يرى أن التدرج هو قانون التحول العلمى بل التحول الاجتماعى أو التحول السياسى، تعمل على هذا التحول أسباب لطيفة عملا متصلا حتى يجىء يوم وقد برز للعيان تغير واضح وملحوظ .

وبالنسبة لعلم النفس فإنه يعتبر من أقدم العلوم إن لم يكن أقدمها على الإطلاق - ذلك أن الاهتمام بدراسة النفس الإنسانية قديم قدم التفكير البشرى، حيث انصرف اهتمام الفلاسفة وعلماء الدين إلى التفكير والتساؤل عن هذه النفس الإنسانية البالغة من التعقيد مبلغا كبيرا، وما تشتمل عليه هذه النفس الإنسانية من ميول وإنحيازات ودوافع واندفاعات وغرائز. وحاجات وما ينتابها من مشاعر الأفراح والأتراح وما تبديه من قدرة هائلة على التعلم والاستدلال والتفكير. هذه النفس

الإنسانية التى هى معجزة إلهية كبرى حيث خلقها الله سبحانه وتعالى وألهمها فجورها وتقواها .

لقد عكف الفلاسفة ورجال الدين قرونا متطاولة على التفكير فى هذه الموضوعات- ومع ذلك فإن علم النفس بالمعنى الحديث والمعاصر يعتبر من أحدث العلوم بحيث تصدق المقولة التى قالها عالم النفس الألمانى الشهير «هرمان أبنجهاوس» : أن علم النفس له ماضٍ طويل وتاريخ قصير .

ويجمع الجمهور من مؤرخى علم النفس على اعتبار عام ١٨٧٩ م هو التاريخ الذى ولد فيه علم النفس الحديث والمعاصر - وهو التاريخ الذى أنشأ فيه «فونت» مختبرا لعلم النفس فى مدينة « ليبزج» فى ألمانيا .

ولعل أبرز ما يميز علم النفس القديم - عند علماء اليونان وعلم النفس الوسيط عند فلاسفة الإسلام وعلم النفس فى مطلع العصر الحديث - هو أن علماء النفس هؤلاء أثناء تناولهم لموضوعات علم النفس المختلفة كان تفكيرهم يغلب عليه الصبغة الأرائكية القائمة على النظر والتأمل بينما يقوم علم النفس الحديث والمعاصر على دراسات تجريبية وإحصائية.

وسوف نقرأ فى صفحات هذا الكتاب كيف انتقل علم النفس من مرحلة العصور الوسطى ومطلع العصر الحديث إلى المرحلة الحديثة والمعاصرة، أى انتقل من التفكير الأرائكى إلى التفكير التجريبى، وسوف نرى أن هذا الانتقال كان تدريجيا هينا لينا. إذ لا توجد طفرات فجائية - فى نظرنا على الأقل - فى تاريخ علم النفس، ومع ذلك فإننا نتفق مع جمهور المؤرخين على اعتبار عام ١٨٧٩ م هو العام الذى نبدأ به تاريخ علم النفس الحديث والمعاصر .

إن هدفنا فى هذا الكتاب هو أن نعرف كيف بدأ علم النفس ؟ وما الدروب التى سار فيها؟ ومن رجالاته العظام؟ وما المدارس التى أسسوها؟ وما الإنجازات التى حققوها؟

ومن المهم أن نعرض – فى التقديم التاريخى لعلم النفس – للعلاقة بين علم النفس من ناحية وبين كل من العلم والتاريخ من ناحية أخرى، فعلم النفس يعرف بأنه العلم الذى يدرس سلوك الإنسان بقصد الوصول إلى القوانين التى تحكم هذا السلوك. ولابد لنا أن نسأل ما العلم ؟.

العلم : هو الدراسة المنظمة فى مجال ما بقصد الوصول إلى القوانين العامة وذلك عن طريق المنهج العلمى، والعلم من شأنه أن يمكننا من زيادة معارفنا عن الظواهر التى يبحثها . ويتميز العلم بمجموعة من الخصائص تميزه من النشاطات الإنسانية الأخرى مثل الفن والأدب، وهذه الخصائص تتعلق بالنواحى الآتية :

الغـــرض : ذلك أن الغرض أو الهدف الأساسى للعلم، هو أن يقدم تقريرا موضوعيا عن الظواهر التى يدرسها .

مجال الدراسة : حيث يتخذ كل علم من العلوم مجالا للدراسة، فمثلا مجال الدراسة بالنسبة لعلم النفس هو السلوك الإنسانى، وقد يحدث تداخل فى هذا المجال، لأن كلا من علم النفس وعلم « الفسيولوچيا» يدرسان العلاقة بين حدة الانفعال وارتفاع ضغط الدم، ومن تنازع الاختصاص هذا تنشأ مجالات جديدة مثل علم النفس « الفسيولوچى ».

النتــائج : ذلك أن كل علم من العلوم يحاول الوصول إلى نتائجه عن طريق اختبار الفروض بالطريقة العلمية، وكلما كان العالم دقيقا فى تنفيذ خطوات الطريقة العلمية كانت النتائج التى يتوصل إليها نتائج دقيقة .

التنبؤ والضبط: حيث يحاول العلم أن يتنبأ بالظواهر ويحاول أن يضبطها، لأنه بدون التنبؤ والضبط لا يكون للعلم فائدة تطبيقية تذكر .

النظرية مقابل التطبيق : وتمثل العلاقة بين النظرية والتطبيق – أو بين العلم البحت والعلم التطبيقى – مشكلة أساسية، ولكن مهما كان الأمر فإن النظر يجب أن يكون فى خدمة التطبيق، كما أن التطبيق هو أحد المصادر الهامة للمشكلات التى يمكن للنظر أن يدرسها بالطريقة العلمية .

تحديد المصطلحات: حيث إن لكل علم من العلوم مصطلحاته الفنية التى يستخدمها ويعرفها أهل هذا العلم، ويجب على العالم أن يستخدم اللغة الفنية العلمية. وقد قام علماء النفس بجهود ممتازة فى سبيل إصدار القواميس ودوائر المعارف لشرح مختلف المصطلحات الفنية التى يزخر بها علم النفس .

* * *

تلك أهم خصائص العلم، ونرى أنها تنطبق فى أغلبها على علم النفس، وبذلك يمكن لنا أن نجيب على السؤال: هل علم النفس علم؟ .

نجيب بدون تردد - نعم.

وبعد توضيح فكرة « علمية » علم النفس نتأدى إلى دراسة مفهوم « التاريخ » إذا كنا بصدد التعرض لتاريخ علم النفس ونسأل: ما التاريخ ؟ - والإجابة التى تتبادر إلى الذهن هى أن التاريخ تسجيل للأحداث وشرح وتوضيح لأهميتها، فمثلا نقول : إن « فونت » أنشأ أول مختبر لعلم النفس فى مدينة « ليبزج » عام ١٨٧٩م، ولكننا عادة لا نتوقف عند هذه الحقيقة بل نحاول أن نتبين أهميتها فى تاريخ علم النفس الحديث، وكيف أثرت على تطور علم النفس وتطور مناهج البحث فيه، ذلك أن طلاب علم النفس بحاجة إلى معرفة الأحداث الأساسية والحاسمة فى تاريخ علم النفس، فتجاهل الماضى معناه إهمال لمصدر أساسى لفهم هذا العلم لأنه إذا كان لنا أن نفهم الحاضر فلابد لنا أن نفهم الماضى ، وفى دراسة الماضى أمور مستفادة أهمها: تجنب ما حدث فيه من أخطاء أو تجاوزات، وعدم تكرارها، والاقتداء بكبار العلماء أصحاب الإنجازات الكبيرة وما تحفل به حياتهم من مواقف جديرة بالإعجاب.

وثمة سؤال أساسى نتوجه به ونحن نقدم على دراسة لتاريخ علم النفس، هذا السؤال هو: كيف حدثت التطورات العلمية والتاريخية فى علم النفس؟ كيف تقوم نظرية علمية على أنقاض نظرية أخرى؟ كيف تحل مدرسة من مدارس علم النفس محل مدرسة أخرى ؟.

ونقول – فى معرض الإجابة عن هذا السؤال –: لقد سادت فى دراسة تاريخ العلم– نظرية الرجل العظيم، وذلك خلال القرن التاسع عشر، ثم سادت خلال القرن العشرين نظرية « روح العصر » – وكل من هاتين النظريتين تفسر تاريخ العلم.

وبالنسبة لنظرية الرجل العظيم : Great man ، فقد سادت وانتشرت فى ذلك الوقت، حيث نشر المفكر الإنجليزى الكبير « توماس كارليل » Carlyl (١٧٩٥/ ١٨٨١ م كتابه الشهير « البطولة والأبطال » والذى بين فيه: أن التاريخ هو تاريخ الرجال العظام، وعلى ذلك فيمكن أن نعد الرجال العظام فى تاريخ علم النفس ، من الألمان « فخنر » و « فونت »، « أبنجهاوس» ، ومن الإنجليز: « مكدوجل »، ومن الفرنسيين: «بينيه»، ومن الروس: « بافلوف »، ومن الأمريكيين: «واطسون» و«سكنر».

أما إذا أخذنا بنظرية « روح العصر » Zeitgeiot، والتى قال بها «كوهن» Kuhn فى كتابه عن « الثورات العلمية» – الذى أصدره عام ١٩٧٠ – فإنه يمكن القول : إن روح العصر هى التى أملت على «فرويد» نظريته فى الشخصية، وهى التى أملت على « تتشنر » النظرية البنائية.

وسوف نأخذ – أثناء عرض هذا الكتاب – بموقف يجمع بين نظريتى «الرجل العظيم » من جهة و «روح العصر» من جهة أخرى، ونمزج بين أعمال الرجال العظام فى تاريخ علم النفس وطبيعة العصر الذى عاشوا فيه ، وهذا أدعى إلى فهم تاريخ علم النفس فهما جيدا .

وفى هذا المقام يحق لنا أن نتساءل عن المنابع التى تكون منها نهر علم النفس، أى القوى التى أثرت فى نشأته بصورة مباشرة أو غير مباشرة؟ وإجابة على هذا التساؤل، أو يمكن القول : إن الثقات من مؤرخى علم النفس يجمعون على عدة منابع هى :

الفلسفة : حيث كان الفلاسفة – قبل أن يعلن مولد علم النفس عام ١٨٧٩م – هم القائمون على دراسة علم النفس الأرائكى وموضوعاته، مثل تحليل العقل ونظرية المعرفة ، وكان علم النفس يعد جزءا من الفلسفة، وسوف تظهر الفلسفة منبعا أساسيا عندما نتحدث فى فصول الكتاب عن فلاسفة كبار – تناولوا الدراسات النفسية الفلسفية النظرية بمعالجات جيدة .

الفسيولوجيا: حيث أثر التقدم فى الفسيولوجيا - أو علم وظائف الأعضاء - على تقدم وازدهار الدراسة التجريبية فى علم النفس، وكان التقدم فى الدراسات الفسيولوجية فى القرن التاسع عشر تقدما كبيرا ، وسوف تتضح أهمية الفسيولوجيا من حيث كونها منبعا لعلم النفس عندما نتحدث عن العلماء الألمان فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين سواء من كان منهم « خارج » المدارس أم داخلها .

البيولوچيا : حيث أثرت الدراسات فى البيولوچيا أو علم الحياة، على الدراسات النفسية فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين، ويبدو ذلك واضحا فى تأثر عدد كبير من علماء النفس بنظرية « دارون » فى النشوء والارتقاء .

وفى دراسته عن « الانفعال عند الإنسان والحيوان » لفت الأنظار «دارون» إلى دراسة علم نفس الحيوان وعلم النفس المقارن، وسوف تتضح أهمية البيولوچيا من حيث كونها أحد منابع علم النفس عندما نتحدث عن الوظيفية والسلوكية .

الطب: حيث أفادت الدراسات الطبية التى تلقاها بعض علماء النفس فى الاهتمام بدراسة السلوك اللاسوى، وتفسير أسبابه ومحاولة علاجه، وتبدو أهمية هذا المنبع عندما نتعرض بالدراسة لمدرسة التحليل النفسى .

* * *

وفى هذا ختام هذه الفذلكة التاريخية نطرح سؤالا، هو: لماذا ندرس تاريخ علم النفس؟ - هذا سؤال حيوى والإجابة أن دراسة تاريخ علم النفس تحقق لطالب العلم الفوائد التالية :

● إعطاء طالب العلم الشعور بالتواصل بين الأجيال المختلفة من العلماء والمفكرين ، ذلك أنه لا يمكن أن ينسب العلم أو أى تخصص إلى شخص معين أو جيل معين أو شعب معين، وإنما العلم - وعلم النفس جزء من العلم - هو تراث الإنسانية جمعاء شاركت فيه الشعوب المختلفة خلال الأحقاب المتطاولة .

● إعطاء طالب العلم أمثلة بكفاح العلماء ومعاناتهم فى سبيل طلب العلم - كغاية سامية شريفة - بحيث يشعر بالتواضع من جهة وبالحماس لتقليد هؤلاء العلماء من جهة أخرى .

● تكوين الحاسة النقدية : ونقصد بهذه الحاسة النقدية القدرة على النقد البناء وعدم التعصب للآراء والانحيازات السابقة والنظر إلى المسائل المطروحة بموضوعية وإيجابية .

ونذكر فى هذا المقام القول الذى يقول « أن الغرض مرض » ومعنى ذلك أن تصورا معينا سبق لنا أن كوناه معتقدين بصحته اعتقادا مطلقا فنرى فيه الصواب ونرى فى غيره الخطأ - هذا التصور قد يكون خطأ وقد يكون الصواب فى غيره .

● معرفة التطور الهائل الذى حدث في تاريخ علم النفس وأدى إلى هذا الكم من المعارف، هذا إلى جانب معرفة التوجهات المختلفة التى تحكم دراسة علم النفس حيث يركز بعض العلماء على دراسة الشعور ويركز البعض الآخر على دراسة السلوك ويهتم بعضهم بدراسة التعلم ويهتم البعض بدراسة القياس النفسى إلى غير ذلك من موضوعات .

● قد لا تهتم بعض مجالات العلم الأخرى - مثل العلوم الطبيعة - بدراسة تاريخ هذه العلوم ولكن الأمر بالنسبة لعلم النفس على خلاف ذلك نظرا للصلة الوثيقة بين مراحل تطور علم النفس عبر العصور المختلفة وهذا الاهتمام بدراسة تاريخ علم اللفس راجع كذلك إلى أن الموضوعات التى يناقشها المحدثون والمعاصرون هى نفس الموضوعات التى ناقشها القدماء والأوسطون وإن كان هؤلاء قد غلب على تفكيرهم الجانب الأرائكى أما أولئك فقد غلب على تفكيرهم الجانب التجريبى الإحصائى .

ولعل أهمية دراسة تاريخ علم النفس هى من قبيل الأمور البينة بذاتها والتى لا تحتاج أن ندلل عليها بما أوردناه من أدلة سابقة !

★ ★ ★

الفصل الثانى

التراث الإسلامى فى الحضارة الأوربية

حدث تواصل فكرى بين التراث الإسلامى إبان العصور الوسطى وبين الحضارة الأوربية ، إذ إن هذا التراث كان المعين الذى استقت منه الحضارة الأوربية أسباب نهضتها

وقد كان انتقال التراث الإسلامى إلى الحضارة الأوربية عن طريقين :

أولا : صقلية

حيث فتحها المسلمون على يد الأغالبة عام ٢١٢ هـ (الموافق ٨٢٨ م) وفدوا إليها بعقلياتهم ومذاهبهم ، ووفدت معهم إليها طائفة من الكتب العربية أو المنقولة إلى العربية متنوعة فى ثقافتها ، ومن هنا بدأ التلاقح والإخصاب فما هى إلا فترة قصيرة استراحت فيها بعض الراحة من الحروب والفتن حتى أنتجت إنتاجا متنوعا فى العلوم والمعارف المختلفة.

وفى مدينة « بلرم » التى اتخذها المسلمون عاصمة لهم فى صقلية أنشأوا أول مدرسة للطب لم يعرف مثلها فى العالم اللاتينى آنذاك ، وطالت أيام المسلمين فى صقلية حتى سنة ٤٨٤ هـ (الموافق ١٠٩١ م)

وعندما سقطت صقلية فى أيدى النورمان ساروا على نهج المسلمين فى التسامح وتنشيط الحركة العلمية فى الجزيرة ، فأبقوا المسلمين على عاداتهم ودينهم ولسانهم واستعملوا فريقا منهم فى حروبهم وحاشيتهم فكان منهم القواد والعظماء والعلماء فى خدمة الدولة الجديدة وظلت اللغة العربية هى اللغة الرسمية طوال

عصر النورمان – وهكذا تخلق النورمان بأخلاق رعاياهم وعاملوهم معاملة نادرة فى التسامح الدينى والسياسى حتى اتهم البابوات أمراء النورمان بالميل إلى الإسلام – ومازالوا بهم حتى قضوا عليهم بهذه التهمة .

ويذكر من الحكام النورمان الذين اهتموا بتشجيع عملية نقل التراث الإسلامى إلى الحضارة الأوربية " رجار " أو " روجر " الذى أنشأ أكاديمية يعمل فيها العلماء المسلمون مع العلماء النصارى والعلماء اليهود جنبا إلى جنب ، وأحس بالحاجة إلى ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية ، ومن أمثلة ذلك أنه استحضر الكتب الجغرافية المؤلفة بالعربية أو المترجمة إليها من اليونانية مثل كتاب "العجائب للمسعودى" وكتاب الجغرافية " لبطليموس " – بل إن "رجار" استقدم العالم الجغرافى "الشريف الإدريسى" وبالغ فى إكرامه . وطلب منه أن يبقى فى صقلية وأن يحقق أخبار البلاد أى جغرافيتها – بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب . وجهز " رجار " "الإدريسى" بمجموعة من المساعدين والمصورين ليصاحبوه فى أنحاء جزيرة صقلية – ولما تكامل ذلك العمل أثبته الشريف الإدريسى فى كتاب سماه " نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق " وهو من الكتب المهمة فى الجغرافية ، بل لقد عمل " الإدريسى" لـ "رجار" كرة أرضية من الفضة رسم عليها العالم ببره وبحره وسهوله وجباله وأنهاره وبحيراته !

ويذكر فى هذا المقام كذلك "فردريك الثانى" حاكم " نابلى " و "صقلية" الذى كان محبا للعرب وكان يعتقد أن العرب يمتازون بحرية الفكر والإخلاص للعلم ، وأصبح بلاطة معقلا للثقافة العربية والحرية الدينية . وقد نسب إلى هذا الأمير الافتراءات التى تضمنت اتهامه بالإلحاد واللامبالاة الدينية . وذلك لأن التراث العربى الإسلامى كان ينظر إليه نظرة ريبة وشك فى العصور الوسطى التى تميزت بالإنغلاق العقلى والتزمت الفكرى .

ثانيا : طليطلة

تمكن الأسبان من استعادة طليطلة عام ٤٧٨ هـ (الموافق ١٠٨٥ م) – وأخذ ملوك " قشتالة " يعملون على رفع مستوى شعوبهم ، ويذكر فى هذا المقام أن

"ريموندو" أسقف طليطلة وكبيرمستشارى ملك " قشتالة " هو الذى شجع النقل من العربية إلى اللاتينية ، ومن المهم أن نذكر أن " ريموندو " ظل يشغل منصبه أسقفا لطليطلة منذ سنة ١١٢٥ حتى وفاته سنة ١١٥١ ، وهذه فترة طويلة ساعد فيها على ترجمة تراث عظيم من العربية إلى اللاتينية .

ويذكر فى هذا المقام كذلك ملك قشتالة " الفونسو العاشر " الملقب بالحكيم ، وقد دفعه اهتمامه الشخصى إلى تشجيع حركة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية وإلى لغة قشتالة الأسبانية .

وتفسير الإقبال على ترجمة التراث العربى الإسلامى إلى اللغة اللاتينية هو التفسير الذى يورده الفيلسوف العربى الكبير ابن خلدون من ولع المغلوب بتقليد الغالب .

ومن أهم المترجمين فى تلك الحقبة :

أ - جنديسالفى (؟ - ١١٨٠م)

وهو أحد رجال المركز الذى أسسه أسقف "طليطلة" « ريموندو » وهذا المركز كان عبارة عن ديوان للترجمة أدى للغرب خدمات جليلة لا تقدر . وقد ساعده فى عملية الترجمة أحد اليهود الذى تنصر ، واسمه "يوحنا داود" أو" يوحنا الأسبانى" . ومن أهم ما ترجماه أجزاء من كتاب الشفاء لابن سينا هى المنطق وما بعد الطبيعة ومقتبسات من الطبيعيات وكتاب إحصاء العلوم للفارابى ورسالة فى العقل والمعقول للكندى ومقاصد الفلاسفة للغزالى .

ومن الطريف أن " جنديسالفى " أعد كتابا عن تقسيم الفلسفة مأخوذا بتصرف من كتاب " الفارابى " إحصاء العلوم ، وله كتاب كذلك فى خلود النفس مأخوذ من كتاب النفس لابن سينا .

ب - يوحنا الأسبانى الفلكى

ولانعرف كثيرا عن سيرته الذاتية ، ويخلط الكثيرون بينه وبين يوحنا الأسبانى. ويذكر أنه ترجم من العربية إلى اللاتينية عام ١١٣٤م كتاباً فى الرياضيات للخوارزمى وبفضل هذه الترجمة عرفت أوربا الصفر فأدخلته فى نظامها العددى (لاحظ أهمية الصفر فى الرياضيات !)

جـ - جيرار الكريمونى (؟ / ١١٨٧م)

من مدينة كريمونا بإيطاليا، وهو زميل " جنديسالفى " بديوان طليطلة وبقى فيها مايَنيف عن عشرين عاما نقل فيها العديد من ذخائر التراث العربى الإسلامى مثل رسالة للكندى فى المناظر ورسائل فى العقل والمعقول والنوم والرؤيا . (جيرار الكريمونى كان من أشد المعجبين بفيلسوف العرب) . كما ترجم كتاب القانون فى الطب لابن سينا ، وكذلك كتاب المناظر للحسن بن الهيثم .

د - هرمان الألمانى (؟ / ١٢٧٢م)

لا نعرف الكثير عن سيرته الذاتية ولكنه ترجم من العربية إلى اللاتينية العديد من الذخائر مثل كتب ابن رشد عن الشعر والأخلاق والخطابة .

هـ - ميخائيل سكوت (؟ / ١٢٣٥م)

أسكتلندى - ترجم بطليطلة سنة ١٢١٧م بمعاونة أحد اليهود كتاب علم الهيئة للبطروجى وكتاب الحيوان لأرسطو وكتاب النفس وكتب الحس والمحسوس والنوم واليقظة والذاكرة .

وهو شخصية عجيبة نشأت حولها العديد من الأساطير فقد قصد إيطاليا سنة ١٢٢٠ وعرف فيها بمزاولة السحر ولكنه مع ذلك كان موضع حظوة فى البلاط البابوى من سنة ١٢٢٤م إلى سنة ١٢٢٧م ثم التحق ببلاط " فردريك الثانى " ملك صقلية حيث واصل أعمال الترجمة لكتب أرسطو وشروح ابن رشد عليها . ومن الطريف أن نذكر أن

دانتى الليجيرى (١٢٦٥ - ١٣٢١م) مؤلف " الكوميديا الإلهية " وضع " ميخائيل سكوت" فى أصل الجحيم بسبب ما نسب إليه من قوى سحرية خارقة !!

تأثيرات التراث الإسلامى :

ويمكن أن نشير إلى بعض التأثيرات التى أحدثها نقل التراث العربى الإسلامى إلى أوروبا فى النقاط الآتية :

● من أبرز مظاهر الحياة الفكرية فى القرن الثالث عشر الميلادى النزاع حول أرسطو وشراحه الإسلاميين خاصة شارحنا الأكبر ابن رشد ، وقد أثارت الكتب التى ترجمت فى تلك الفترة تصورا أنها تخالف الدين بحيث استدعى ذلك تدخل السلطات الكنسية ففى عام ١٢١٠م أنكر مجمع كنسى عقد فى باريس تدريس كتب أرسطو وشروحها فى الفلسفة الطبيعية ، وفى عام ١٢١٥م نشرت لائحة جامعة باريس فإذا بها تنص على الاستمرار فى تدريس منطق أرسطو وتبيح تدريس كتاب الأخلاق ولكنها تؤيد تحريم كتاب الطبيعة وشروحه ، وتحرم تدريس كتاب ما بعد الطبيعة وشروحه . وهذا التحريم كان منصبا على التدريس فقط ، ولكنه لم يتناول الدراسة الخاصة ولا تدوين الشروح ، ثم إنه كان مقصورا على جامعة باريس لصدوره عن سلطة محلية . فلما أنشئت جامعة تولوز سنة ١٢٢٩م برعاية نائب البابا أعلنت عزمها على تدريس الكتب المحرمة فى باريس.

● ويؤكد أستاذنا ومعلمنا يوسف كرم على أن الفلسفة الأوروبية فى القرن الثالث عشر هى عبارة عن مواقف مختلفة من المعلم الأول أرسطو والشيخ الرئيس ابن سينا . والشارح الأكبر ابن رشد ، كما يشير يوسف كرم إلى أنه من ملامح القرن الثالث عشر الفكرية ظهور الأرسطوطالية الرشدية في كلية الآداب بجامعة باريس على يد مجموعة من الأساتذة يدينون بالولاء لفلسفة أرسطو وتأويل الشارح الأكبر لهذه الفلسفة .

● ولعله من نافلة القول أن نقول أن أرسطو اشتهر عند الأوربين فى العصور

الوسطى باسم الفيلسوف فإذا ذكر الفيلسوف فى كتاب من كتب ذلك العصور فإن أرسطو هو المقصود ، واشتهر ابن رشد كذلك باسم الشارح الأكبر أو المعقب .

ويذكر الأستاذ العقاد أنه حسب " ابن رشد " شهادة لشروحه أن الكتب التى نقلت عن اليونانية لم تغن عن هذه الشروح ، بل وبعد أن حرم أسقف باريس دراستها فى جامعتها وسماه رأس الضلال فى منتصف القرن الثالث عشر قامت هذه الجامعة نفسها بعد قرن فأخذت على أساتذتها المواثيق الا يعلموا شيئاً لا يوافق مذهب أرسطو كما شرحه ابن رشد ، وأصبحت كتبه مادة لا تنفد للدرس والمناقشة فى الأديرة والجامعات .

● كما يؤكد " مونتجمرى وات " على أن أوربا ظلت حتى القرنين الخامس عشر والسادس عشر تعتمد على التراث العربى الإسلامى فى عدة مجالات، وبالذات مجال الطب . ودليل ذلك قوائم الكتب المطبوعة ، ومن أشهر هذه الكتب موسوعة الحاوى " للرازى " أعظم أطباء العالم فى العصور الوسطى .

وفى عام ١٤٧٣م طبع كتاب القانون فى الطب " لابن سينا" - باللغة اللاتينية طبعا - ثم طبع مرة أخرى عام ١٤٧٥م وصدرت طبعته الثالثة قبل طبع أول كتاب لجالينوس ، وإذ استمر هذا الكتاب يدرس حتى بعد سنة ١٦٥٠م فيعتبر أنه أكثر ما درس فى الكتب الطبية فى التاريخ .

ويذكر " مونتجمرى وات " معلومة طريفة عن أحد المؤلفين الطبيين الأوربيين وهو " فيرارى دا جرادو " حيث ذكر ابن سينا أكثر من ثلاثة آلاف مرة ، وذكر كل من " الرازى " وجالينوس " ألف مرة فى حين لم يذكر أبو قراط " غير مائة مرة - و خلاصة القول أن الطب الأوربى - وهذا مجرد مثال - كان مجرد امتداد للطب العربى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر بل وحتى منتصف القرن السابع عشر .

● كما يؤكد " جو ستاف لوبون " أنه لا يمكن إدراك أهمية شأن العرب فى الغرب إلا بتصور حال أوربا حينما أدخل العرب الحضارة إليها . فإذا رجعنا إلى

القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد حين كانت الحضارة الإسلامية فى أسبانيا ساطعة جدا رأينا أن مراكز الثقافة فى الغرب كانت أبراجا يسكنها متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون !! وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين الذين يقضون أوقاتهم فى مطالعة قدم الأقدمين !

ويؤكد " جوستاف لوبون " كذلك أن نهضة أوربا كانت بسبب دخول العلوم العربية إلى أوربا من مراكز هذه العلوم فى أسبانيا وصقلية وإيطاليا، ثم يسترسل "جوستاف لوبون " فى ذكر ما سبق أن نوهنا إليه فى عملية نقل التراث الإسلامى إلى الحضارة الأوربية . ويشير " جوستاف لوبون " إلى مقولة تقول " لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا فى الآداب عدة قرون "

ومن الأمثلة التى يذكرها " جوستاف لوبون " أن لويس الحادى عشر " عندما حاول تنظيم أمور التعليم سنة ١٤٧٣م فى فرنسا أمر بتدريس مذهب الفيلسوف العربى " ابن رشد " على أساس أن ابن رشد كان هو الحجة البالغة فى الفلسفة فى الجامعات الفرنسية آنذاك .

● ويذكر أستاذنا " عمر فروخ " أن أثر الفكر الإسلامى فى أوربا النصرانية كان عظيما رغم أن أوربا وقفت من الفلسفة الإسلامية عموما موقفين متعارضين - موقفا إيجابيا مطلقا وموقفا سلبيا عنيدا ، غير أن كلا الموقفين كان يدل على قيمة تلك الفلسفة . وعلى سبيل المثال - لا الحصر - يذكر أستاذنا عمر فروخ أن أثر الفيلسوف المسلم ابن طفيل (تعرضنا له بالحديث المفصل فى كتابنا التراث النفسى عند علماء المسلمين فالتمسه ثمة إن شئت) كان أثرا كبيرا على هذا الفكر ويدلل على ذلك بما يلى :

- أن قصة حى " بن يقظان " التى ألفها " ابن طفيل " ترجمت إلى اللغة العبرية سنة ١٣٤٩م وترجمت إلى اللغة اللاتينية سنة ١٦٧١ م . وترجمت ثلاث ترجمات إنجليزية أعوام ١٦٧٤ ، ١٦٨٦ ، ١٧٠٨م وترجمتين إلى الهولندية فى عامى ١٦٧٢ ، ١٠٧١م وترجمتين إلى الألمانية فى عامى ١٧٢٦ ، ١٧٨٣م وترجمة إلى

الأسبانية عام ١٩٠٠م وترجمة إلى الروسية عام ١٩٢٠م وقد طبعت كل ترجمة من هذه الترجمات مرات مدة !

- أن موسى بن ميمون " الفيلسوف اليهودى (نعرض له فى موضع قادم) تأثر فى كتابه " دلائل الحائرين " بقصة حى بن يقظان . كما تأثر ألبرت الكبير (نعرض له فى موضع قادم) رغم نقده الشديد لها ورغم أن محاولات ألبرت الكبير سارت على نفس خطى " ابن طفيل " فى محاولة التوفيق بين الفلسفة والدين .

- أن جان جاك روسو (نعرض له فى موضع قادم) تأثر فى كتابه المسمى "إميل " أو "فى التربية" بأفكار ابن طفيل التى بسطها فى حي بن يقظان - حيث أشار " روسو " إلى أن طبيعة الإنسان طبيعة خيّرة .

- أشار الفيلسوف الألمانى " ليبتز " (نعرض له فى موضع قادم) إلى قصة حى بن يقظان ومدح الأفكار التي وردت فيها .

- نشرت قصة روبنسن كروزو لأول مرة سنة ١٧١٩م من تأليف المؤلف الإنجليزى " دانيال ديفو " . وقد أشار الشاعر والناقد الإنجليزى (المعروف آنذاك) " الكسندر بوب " إلى أن قصة " حى بن يقظان " كانت من النماذج الممتازة التى سار على منوالها " دانيال ديفو ". ومضمون قصة "روبنسن كروزو " أن أحد الأشخاص عاش وحيدا لمدة تزيد على ربع قرن فى جزيرة معزولة وقد توصل بعقله إلى أن يكتشف بعض الأمور ويتعلم العديد من الصناعات . ورغم أن احتمال تأثر دانيال ديفو بقصة حى بن يقظان وارد تماما . إلا أن ثمة فروقا كبيرة بين القصتين . لأن حى بن يقظان مر بجميع المراحل التى يمر بها العقل البشرى وصولا إلى أعلى درجات المعرفة . بينما شخص " روبنسن كروزو " غلبت عليه المعارف العملية ، كما أن الغاية الفلسفية والتأمل والنظر فى النفس وأحوالها أمر أساسى عند " حى بن يقظان " ولكنه أمر عارض عند روبنسن كروزو .

ونعلق على ما سبق بعبارة موجزة تقول أن أوربا استيقظت من سباتها العميق فى العصور الوسطى على علوم العرب المسلمين وآدابهم وحضارتهم التى انطلقت من الأندلس وصقلية إلى بقية بلاد أوربا .

حاشية : التراث الإسلامى فى عيون المعاصرين

يذكر مؤرخ علم النفس الكبير "جميس برنان Brenan ميلاد الرسول محمد ﷺ على أنه واحد من أخطر الأحداث فى العصور الوسطى ، ويدلل على ذلك بأن أتباع محمد ﷺ من المسلمين استطاعوا خلال قرن واحد فقط من الزمان أن يهزموا الإمبراطورية البيزنطية ويستولوا على معظم أملاكها فى آسيا ، كما أنهم استطاعوا إسقاط الإمبراطورية الفارسية ثم قاموا بضم مصر وشمال إفريقية واستعدوا لفتح أسبانيا !

ويذكر " برنان " باحترام تاريخ الدعوة الإسلامية وبدء نزول الوحى على سيدنا رسول الله منذ عام ٦١٠م يتلقاه عن الروح الأمين جبريل عليه السلام . وهذا الوحى هو القرآن الكريم كتاب المسلمين المقدس . ويذكر " برنان " كذلك أن هذا الرسول الكريم استطاع خلال حياته توحيد معظم جزيرة العرب تحت لواء الإسلام وتابع أتباعه توسيع رقعة الإمبراطورية .

كما يشير " برنان" بعظيم الاحترام إلى أن الدولة الإسلامية الفتية عندما نجحت فى احتلال هذه الممالك الشاسعة، وخاصة ممالك الدولة البيزنطية فإن المسلمين استدمجوا فى حضارتهم ما عند هذه البلاد من حضارة ذات أصل يونانى عتيق وعريق ، مؤكدا على دور الدولة العباسية التى سادت العالم خلال العصور الوسطى (من ٧٥٠م - ١٢٥٨م)

هذا الدور الذى تمثل فى نقل التراث اليونانى العظيم إلى الحضارة الإسلامية الفتية، مشيرا إلى علماء الحضارة من أمثال الشيخ الرئيس " ابن سينا " .

ونعترف لهذا المؤرخ الكبير بالموضوعية والحيدة ، إذ يعترف أن الحضارة الغربية تشكر للحضارة الإسلامية حفاظها على تراث الإنسانية مما مكن "المدرسيين المسيحيين " من الاستفادة من هذا التراث وترجمة هذا التراث الإسلامى إلى اللغة اللاتينية لغة العلم فى العصور الوسطى ومطلع العصر الحديث على نحو ما بينا فى الصفحات السابقة .

الفصل الثالث

علم النفس فى العصور الوسطى الأوروبية

إذا نظرنا إلي تاريخ علم النفس فى العصور الوسطى ومطلع العصر الحديث نجد أن علم النفس كان جزءا لا يتجزأ من الفلسفة سواء فى الشرق الإسلامى أو الغرب الأوربى .

وإذا كان علم النفس فى التراث الإسلامى فى هذه العصور الوسطى قويا راسخا فإنا نجد هذا العلم ضعيفا خفيفا فى الغرب الأوربى، ورجالاته هم مجموع من المدرسيين أى الذين يدرسون الفلسفة اليونانية عامة والأرسطية خاصة فى المدارس والجامعات . ورغم ضعف علم النفس الأوربى فى العصور الوسطى إلا أنه يمثل حلقة فى سلسلة تطور علم النفس .

ونتحدث عن هؤلاء العلماء من خلال النقاط الآتية :

القديس أوغسطين (٣٥٤/ ٤٣٠م) Augustine of Hippo :

هو أشهر فلاسفة المسيحية فى العصور الوسطى، ويعتبر قمة شامخة فى الفكر الفلسفى والنفسى فى تلك العصور . وتدور محاولاته الفلسفية حول الربط بين الفلسفة اليونانية عامة وفلسفة « أفلاطون» و«أفلوطين » خاصة وبين الأفكار المسيحية .

ولد فى «تاغسطا» عام ٣٥٤ م (تعرف هذه المدينة الآن باسم سوق أهراس شرق الجزائر) كان السكان وثنيين، وكان أبوه وثنيا كذلك أما أمه فكانت مسيحية ذات أخلاق طيبة وفضائل جمة شديدة التأثير فى زوجها وابنها .

توقف عن التعليم وهو فى سن السادسة عشرة بسبب العوز المادى فعاش فى وسط من الشباب العابث وانغمس فى اللذات رغم نصائح أمه العزيزة على قلبه، ثم تابع التعليم وكان شغوفا بالقراءة لذا كان متفوقا على أقرانه .

وفى عام ٣٨٣ م نزح إلى «روما» ثم « ميلانو » ليتعلم الخطابة وفى عام ٣٧٨ م تم « تعميده » على يد القديس « إمبراوز » فى روما ثم عاد إلى « تاغسطا » ورسم كاهنا فى « هيبونا » (وهى مدينة عنابة فى الجزائر الآن قرب الحدود التونسية) وفى عام ٣٦٦ أصبح الأسقف فى تلك المدينة وبلغ مجدا رفيعا .

ثقافته تدور حول العلوم الدينية والفلسفية واللغوية ويقال أنه كان ضليعا فى اللغة اللاتينية لغة العلم فى ذلك العصر .

أهم مؤلفاته على الإطلاق هى « الاعترافات » التى سجل فيها أفكاره وسيرته الذاتية ورحلته من الشك إلى اليقين - ومن كتاب « الاعترافات » نستنتج أنه شاب متزن يميل إلى الهدوء.ولديه قدرة هائلة على الاستيعاب من جهة أخرى. كما يظهر من سيرته الذاتية أنه أصيب بأزمات صحية عديدة منها أوجاع فى المعدة وأخرى فى التنفس. ورغم ذلك فإنه كان عاكفا على طلب العلم ومثابرا فى ذلك أيما مثابرة .

وقد مر خلال تحوله من الوثنية إلى المسيحية بعدة مراحل نوجزها فيما يلى:

- المرحلة الأولى: البحث فى الكتاب المقدس وهو فى سن التاسعة عشرة ولكنه لم يجد فى الكتاب المقدس مبتغاه .

- المرحلة الثانية: بقى تحت تأثير مذهب المانوية Manicheism فى المدة بين ٣٧٣ إلى ٣٨٣ (والمانوية هى مذهب إثنينى يقوم على أن الحياة تقوم على التقابل بين الضدين الضوء وهو الخير والظلام وهو الشر، وهذا الصراع بين الخير والشر، يحتدم أيما احتدام عند الإنسان حيث تمثل الروح الخير ويمثل الجسد الشر وأن الجسد هو الذى يجر الإنسان إلى الآثام والشرور) وكان تأثر «أوغسطين»

بالمانوية بسبب العقلانية إذ كان المانيون يعتمدون على براهين عقلية فى هجومهم على الكتاب المقدس، وخاصة فى القصص التى وردت فيه عن الأنبياء . (هذه نقطة خطيرة نظرا لأن قارئ العهد القديم من الكتاب المقدس أو التوراة يصدم بما هو منسوب فيها للأنبياء من آثام وفواحش مثل الزنا والزنا بالمحارم وشرب الخمر إلى غير ذلك من موبقات لا تستقيم مع صفات النبوة بحال) .

– المرحلة الثالثة : وهى تدور حول الشك فيما يحيط بنا من معارف حيث شعر « أوغسطين » أن الحقائق بعيدة المنال! ومع ذلك فإنه لم يشك فى وجود الله سبحانه وتعالى ولا ارتاب يوما فى الحقائق الرياضية مثل ٣ + ٥ = ٨.

– المرحلة الرابعة : التأثر بالأفلاطونية المحدثة (راجع كتابنا التراث النفسى عند علماء المسلمين لمزيد من المعلومات) وهذه الأفلاطونية المحدثة هى أفكار يونانية مطعمة بالتراث الشرقى. وقد استفاد من هذه الأفكار وإن كان قد عدل الكثير منها .

– المرحلة الخامسة : المسيحية حيث كانت خاتمة مطاف تجواله الفكرى وحيرته، وكأنه ألقى عصا الترحال بعد طول تجول ووجد فى المسيحية ضالته المنشودة (.. يرى المؤلف أن التسمية الدقيقة للمسيحية هى النصرانية وتلك التسمية بالنصرانية تستند إلى الآية الكريمة : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ٥٢) أى أن أتباع عيسى عليه السلام هم أنصار الله أو النصارى .

نظريته فى النفس :

يمكن أن نلخص نظريته النفسية فى النقاط الآتية :

– يرى «أوغسطين» الرأى السائد فى العصور القديمة والوسطى وهو أن الإنسان مكون من نفس وبدن ولا يعيش إلا بهما معا .

– يؤكد على وحدة النفس وأنها جوهر عاقل صنع لكى يسوس بدنا .

- الإنسان هو نفس قبل كل شيء، والنفس تتميز عن البدن بأنها غير مادية لا طول لها ولا أبعاد بينما الجسد له طول وبعد ويحتل حيزا . والنفس على يقين بوجودها حتى فى حالة الشك. إن النفس حية وهى التى تمنح الحياة وتقوم بكل الوظائف فى البدن .

- يميل « أوغسطين » إلى القول بأن النفس خالدة بعد الموت أى أنها لا تفنى بفناء البدن والنفس خلقها الله من العدم صاعدة صوبه متجهة إليه ثم إنها مخلوقة قبل البدن. ولكن كيف تحل فى البدن؟ إنها تحل فى الأجسام ساعة أن تخلق هذه الأجسام .

- كيف تتصل النفس بالبدن ؟، تلك مشكلة. يحلها «أوغسطين» بالقول أن النفس و الجسم لا يؤلفان شخصين بل إنسانا واحدا، النفس هى الإنسان الباطن والجسم هوالإنسان الظاهر. دون أن تصير النفس جسما أو يصير الجسم نفسا، وليس محل النفس جزءا معينا من الجسم كالرأس أو القلب بل الجسم كله .

- الإدراك نوعان : الأول مدركات مادية ناشئة عن انتباه النفس للتغيرات الحادثة فى الجسم، هذه التغيرات جسمية بحتة يعقبها الإدراك وهو فعل النفس وحدها . والثانى مدركات معنوية مثل إدراك الله سبحانه وتعالى والنفس والملائكة، إنه إدراك نابع من النور الحقيقى الذى ينير لكل إنسان آت إلى هذا العالم، إنه إدراك إشراقى بكل معنى الكلمة .

- الإرادة الإنسانية حرة، فالإنسان قادر على قبول تصور ما أو رفضه، ودليل ذلك أن أوامر الله ونواهيه تكون لغوا إذا لم نكن مسئولين عن أفعالنا إذ لا تكليف ولا تبعة بغير حرية . إن الإنسان هو رب أفعاله لا يخضع لقدر أعمى ولا لتأثير النجوم كما يقول البعض، وإذا صدق المنجمون فما ذلك إلا من قبيل الصدفة لا غير. وقانون الإرادة الإنسانية هو اتباع الخير لأنه يطابق النظام الإلهى واجتناب الشر لأنه يعارض هذا النظام. وعلى ذلك فإن طاعة هذا النظام فضيلة تستحق الثواب ومخالفته رذيلة تستحق العقاب .

- الفضيلة الكبرى هى محبة الله، وهذه المحبة تتضمن الفضائل جميعا فهى تجمع بين الحكمة والفطنة والشجاعة والعدالة والسعادة، وهذه كلها وإن كانت فضائل دنيوية إلا أنها مؤدية إلى غاية أبعد منها وهى الحياة الآجلة بعد الموت .

- وهو فيلسوف مسيحى (أو بالأحرى نصرانى) مخلص، حيث يرى أن المسيحية (أو النصرانية) نجحت فى تعريف الناس بالأسلوب الذى يعيشون به الحياة، بينما فشلت فى ذلك المذاهب الفلسفية؛ ذلك أن الفكر الفلسفى لا يؤدى إلى سكينة النفس وهدوئها ولكن هذه السكينة وهذا الهدوء إنما يحققهما الإيمان الدينى. ومعنى هذا أن فلسفته تسودها المسحة الدينية .

- مهمة العقل فى نظره هى قبول الحقائق التى أتى بها الدين وأن الإنسان بدون معونة الله سبحانه وتعالى غير قادر على معرفة الحقائق .

- فلسفته تقوم على التفاؤل، حيث يرى أن مثال الخير وصورته هو أرقى الأمثلة وأحسن الصور . وهذا الخير هو بمثابة الضوء الذى ينير الحياة فنبصر من حولنا .

- أهم ركن فى نظريته النفس هو ما يسمى « مثلث أوغسطين النفسى Psy-chological Triad» وهذا المثلث يتكون من ثلاثة أضلاع: الذاكرة والفهم والإرادة، ورغم أن «أوغسطين» لم يؤلف كتابا فى علم النفس إلا أن « اعترافاته » حافلة بالتأملات والتحليلات النفسية والوصف الدقيق لمحتويات الشعور، وخاصة عندما يتحدث عن الانتقال من الشك إلى اليقين وما يصاحب ذلك من استبصار عميق . وقد عبر « أوغسطين » باقتدار ووصف نفسى أخاذ عن ذكرياته وانفعالاته ومشاعره ورغباته .

- يذكر أن « أوغسطين » كان قديرا على مخاطبة جماهير المستمعين إليه؛ وذلك راجع إلى قدرته الفائقة على سبر أغوار النفس البشرية التى مكنته من مخاطبة الناس على قدر أفهامهم . وكانت مواعظه الدينية جذابة خلابة وتلبى حاجات المستويات الفكرية والعقلية المختلفة للنظارة الذين يستمعون إلى عظاته.

ويذكر كذلك أن « أوغسطين » يحتل مكانة ممتازة فى تاريخ علم النفس الوسيط لأنه كان ضليعا فى فهم أعماق النفس الإنسانية وما تزخر به هذه النفس من اختلاجات وانفعالات بحيث يعد من علماء النفس المذكورين .

بيتر أبلارد (١٠٧٩ / ١١٤٢م) Peter Abelard :

فرنسى - هو فيلسوف ورجل دين وهو من المدرسيين الذين اهتموا بالمزج بين الفلسفة اليونانية (الأرسطية خاصة) وبين الدين المسيحى ويقال أنه كان خطيبا لسنا خلب ألباب الجماهير وجذب جموعا غفيرة من طلاب العلم .

وهو مشهور بقصته مع فتاة تدعى « هلويز Heloise » (١١٠١ - ١١٦٤ م) كانت بينهما علاقة حب وتزوجا فى السر وأثمر الزواج طفلا - ثم أعلن «أبلارد» عن هذا الزواج وأقنع «هلويز» بالانخراط فى سلك الرهبنة . ويقال أن خطابات عاطفية متبادلة بينهما نشرت بعد وفاتهما بمئات السنين (الخطابات نشرت عام ١٦١٦ م) .

نظريته فى النفس :

ويمكن تلخيص نظريته فى النفس فى النقاط الآتية :

- أن خطايا البشر هى نتيجة عصيان الوصايا الربانية كما أنه يرى أن النية الصالحة هى الأساس فى السلوك بل هى أهم من العمل الصالح نفسه .

- يؤكد على مسئولية الإنسان، بمعنى أن الإنسان مخير لا مسير، وهذا أدى إلى صدامه مع السلطات الكنسية لأنه يغالى فى تصوره عن الإرادة الحرة .

- له كتاب بعنوان « اعرف نفسك » وهو حوار بين فيلسوف ومسيحى يرمى إلى استكشاف الأخلاق المسيحية بالعقل، ويعتبر أن الوصايا الأخلاقية ما هى إلا مجرد إصلاح للأخلاق الطبيعية. ويرجع المسألة الخلقية إلى ضمير الإنسان وبيئته، ويترتب على ذلك أن الخطيئة شخصية أى أن الإنسان مسئول عن أفعاله، وأنه لا محل لخطيئة أصلية موروثة عن أبينا آدم، وأن الخلاص أمر شخصى وأن

استحقاقات المسيح لا تعود علينا مما كان سببا لاتهامه بالزيغ عن الدين. ومع ذلك يؤكد على أن الإنسان عليه أن يحسن توظيف عقله وتحكيمه لأن هذا العقل منة إلهية عظيمة .

موسى بن ميمون (١١٣٥/ ١٢٠٤م) Maimodes (Moses Ben Maimon):

هو أبو عمران موسى بن ميمون، ويطلق عليه بعض مؤرخى الفكر « موسى المصرى » ولد فى ١١٣٥ م فى مدينة قرطبة من حواضر الأندلس فى العصور الوسطى. وكان أبوه « موسى بن يوسف» سليل أسرة عريقة من علماء الدين ترجع إلى كاتب « المشنا » « يهوذا هاناسى » بل إلى الملك داود أو بالأحرى النبى داود عليه السلام – وكان أبوه عالما تلموديا (لمعلومات عن المشنا والتلمود راجع المداخلة). وعلى أثر غزو الموحدين قرطبة فى ١١٤٨ م تركت أسرة ابن ميمون المدينة وتجولت لمدة ثمانى أو تسع سنوات فى مدن الأندلس، ثم تركوا الأندلس واستقروا فى فاس عام ١١٦٠ م ثم استقرت الأسرة بعد ذلك فى مصر عام ١١٦٥ م حيث كان اليهود ينعمون فيها بحرية كبيرة لم ينعموا بها فى تاريخهم الاضطهادى الطويل، وقد درس أثناء وجوده بالأندلس العديد من العلوم وعلى رأسها الفلسفة والطب.

وفى مصر المحروسة وفى عصر السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى الذى تولى الحكم فى ١١٧١م أصبح « موسى بن ميمون » أحد كبار مستشاريه وعظمت سلطة « ابن ميمون » على تجمعات اليهود فى العالم أجمع ولكنها كانت أقوى ما تكون على يهود مصر ،وفى عام ١١٧٥م أصبح حاخام القاهرة كما أصبح طبيبا فى بلاط صلاح الدين!

ومن أطرف ما يقال فى سيرة « ابن ميمون » أنه اعتنق الإسلام أثناء وجوده فى الأندلس مكرها بسبب تعصب الموحدين الذى قاموا بغزو قرطبة وأكرهوا غير المسلمين على الدخول فى الإسلام (الأصل أنه لا إكراه فى الدين وإن صح ذلك عن الموحدين فهو سلوك لا يمت إلى الإسلام بصلة). ثم ارتد « ابن ميمون » عن

الإسلام بعد مغادرته الأندلس . وفى عام ١١٨٧ م وجه إليه بعض حساده تهمة الردة عن الإسلام، ولكن « الفاضل » وزير الناصر « صلاح الدين » تصدى لهؤلاء الحساد ودافع عن « ابن ميمون » على أساس أن العقيدة التى تفرض بالقوة ليست صحيحة والارتداد عنها لا يعد ردة بالمعنى الصحيح، بل إن هذا الوزير «الفاضل» - بل الفاضل حقا - هو الذى عينه رئيسا لكل التجمعات اليهودية فى مصر، وقد توارث أبناؤه هذه الوظيفة الشرفية من بعده حتى القرن الرابع عشر الميلادى .

وبعد هذه الحياة الحافلة توفى فى عام ١٢٠٤ وحملت جثته إلى «طبرية» بفلسطين حيث دفن فى قبور أولياء بنى إسرائيل .

وله مؤلفات عديدة تتناول مجالات اللاهوت اليهودى والفلسفة، ولكن أعظم مؤلفاته وأهمها على الإطلاق هو « دلائل الحائرين » الذى صدر عام ١١٩٠ م .

ويعتبر كتاب « دلائل الحائرين » ذروة التفكير الفلسفى واليهودى فى العصور الوسطى - ويهدف الكتاب إلى عرض أفكار « ابن ميمون » فى التوفيق بين الفلسفة والدين .

ويقع هذا الكتاب المهم فى ثلاثة أجزاء :

يبحث الجزء الأول فى ماهية الله وكيفية إدراكه وتعريفه وتوحيده كما يبحث فى الكتاب المقدس عن طريق العقل والمنطق .

يبحث الجزء الثانى فى إثبات وجود الله وبراهين ذلك، وكذلك يتحدث هذا الجزء عن حركة الأفلاك وماهية الملائكة وفى حقيقة النبوة وماهيتها .

يبحث الجزء الثالث فى أمور الإنسان وصلاح نفسه وبدنه ويعرض المعاناة التى لقيها « ابن ميمون » فى محاولته التوفيق بين الفلسفة والدين .

نظريته فى النفس :

يمكن أن نلخص هذه النظرية فى النقاط الآتية :

- النفس عنده هى التى تحرك الإنسان وهى صورته كما أنها واحدة وإن تعددت وظائفها، وبعض هذه الوظائف تسمى نفوسا ولذلك يتوهم الكثيرون أن هناك العديد من النفوس .

– النفس لها عدة وظائف برغم أنها واحدة – وهى القوة الغاذية والقوة الحساسة والقوة المتخيلة والقوة الشهوانية والقوة العاقلة. وهذه القوة العاقلة هى الصورة الحقيقية للإنسان .

– عملية الإدراك تتم عن طريق نشاط العقل المنفعل بما يأتيه من القوة الحساسة ويساعد العقل الفعال العقل المنفعل على هذا الاستقبال وهذا العقل الفعال هو عقل خارج الإنسان وكأنه نوع من المعونة الإلهية تعين العقل المنفعل وترشده وتهديه .

– ومما يتصل بموضوع الإدراك والمعرفة موضوع النبوة (ناقشنا موضوع النبوة بتوسع وإفاضة فى كتابنا التراث النفسى عند علماء المسلمين فالتمس ذلك ثمة إن شئت) وقد جاءت نظرية النبوة عند « ابن ميمون » متأثرة بآراء الإسلاميين إلى حد كبير حيث يرى أن النبى نظرا لطبيعته الروحية والجسمانية أكثر الناس قابلية لاستقبال الفيض المستمر الآتى من العقل الفعال (يرى المؤلف أن أدق تمثيل للعقل الفعال هو الروح الأمين أو جبريل ملك الوحى) .

– الوحى أمر ثابت لا شك فيه، ولكل فرد استعداد لاستقباله، إن النبوة هى فيض من الله سبحانه وتعالى بواسطة العقل الفعال، وهناك نوعان من الفيض . فيض من الله سبحانه وتعالى على القدرة العقلية وحدها ومن هذا الفيض تخلق طبقة العلماء المتأملين . وفيض من الله سبحانه وتعالى على القدرة الخيالية ومن هذا الفيض تخلق طبقة رجال الدولة والمكشوف عنهم حجاب الغيب (كذا) أما النبى فإن الفيض بالنسبة له يكون على القدرتين معا على القدرة العقلية وعلى القدرة الخيالية .

مداخلة:

المشنا : موسوعة التشريعات العبرية، وقوانين مستمدة من التوراة. وجامع المشنا هو « يهودا هناسى » الجد الأكبر « لموسى بن ميمون » والمشنا بمعنى المثنى أو المكرر أى أنها تكرار وتسجيل للشريعة .

التلمود: هو تفسير وتبسيط للمشنا - ولا تقل أهمية التلمود لدى معظم اليهود عن أهمية العهد القديم نفسه ، بل تزيد لدى بعض فرقهم عن أهمية العهد القديم .

العهد القديم : ويشتمل العهد القديم على تسعة وثلاثين سفرا، والعهد يراد به الميثاق والعهد القديم يمثل الأسفار المقدسة التى ترتبط بالديانة الموسوية ، أما العهد الجديد أو الأناجيل فهو يرتبط بالديانة المسيحية (النصرانية) وتنقسم أسفار العهد القديم إلى أربعة أقسام :

الأول : كتب موسى عليه السلام وهى أسفار خمسة (التكوين - الخروج - اللاويين - العدد - التثنية) والثانى الأسفار التاريخية وهى اثنا عشر سفرا تعرض لتاريخ بنى إسرائيل بعد استيلائهم على بلاد الكنعانيين وبعد استقرارهم فى فلسطين، وتفصل تاريخ قضاتهم وملوكهم وأيامهم والحوادث البارزة فى شئونهم، وهى أسفار («يوشع» والقضاة وراعوث وصموئيل الأول والثانى والملوك الأول والثانى وأخبار الأيام الأول والثانى وعزرا ونحميا وإستير) والثالث أسفار الأناشيد وعددها خمسة أسفار وهى (أيوب ومزامير داود وأمثال سليمان والجامعة من كلام سليمان ونشيد الإنشاد لسليمان) والقسم الرابع : يسمى أسفار الأنبياء يعرض كل منها لتاريخ نبى من الأنبياء الذين أرسلوا بعد موسى وهارون عليهما السلام وعدد أسفاره سبعة عشر وهى أسفار (أشعياء، أرمياء، مراثى أرمياء ، حذقيال ، دانيال ، هوشع ، يوئيل ، عاموس ، عوبديا ، يونس، ناحوم ، حبقوق، صفنيا ، حجى ، زكريا ، ملاخى) .

حاشية : كتاب عن ابن ميمون

إسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب) هو أستاذ اللغات السامية بكلية دار العلوم فى مصر فى الثلاثينيات من القرن العشرين، والذى أصدر كتابا بعنوان « موسى بن ميمون حياته ومصنفاته » عام ١٩٣٦ ونشرته مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. وإلى هنا والأمر عادى أما ما يثير العجب والإعجاب حقا فهو السماحة التى كان يتمتع بها اليهود فى ذلك الوقت إذ إن الذى قدم لهذا الكتاب هو العالم الجليل الشيخ مصطفى عبد

الرازق الأستاذ بالجامعة المصرية ، وهو شخصية كارزمية تتمتع بعظيم الحب والاحترام فى مصر والعالم الإسلامى - لاحظ التواصل العلمى بين أحد رموز الإسلام وبين أستاذ يهودى، ولاحظ كذلك التعايش السلمى والبعد عن التعصب المقيت مما يدل على أن مصر المحروسة - وغيرها من البلاد الإسلامية كانت تعامل اليهود المقيمين بها أطيب معاملة وكانوا جزءا لا يتجزأ من المجتمع المصرى .

بل إن رئيس الطائفة الإسرائيلية فى الهزيع الأول من القرن العشرين صاحب المعالى يوسف قطاوى باشا شغل وزير المالية فى مصر ا (توفى يوسف قطاوى باشا فى عام ١٩٢٤) .

ومن أسرة قطاوى كذلك جوزيف أصلان قطاوى الذى تولى منصب رئيس الطائفة الإسرائيلية فى مصر بعد وفاة «قطاوى الكبير». بل إن جوزيف أصلان قطاوى كان عضوا بارزا فى حزب الوفد المصرى ورأسماليا كبيرا بل كان عضوا فى البرلمان المصرى عام ١٩٢٢ عن دائرة « كوم أمبو» وهى معقل عائلة قطاوى . وهذا اليهودى المصرى كان دائما ما يعلن بسبب احتضان مصر له أنه يهودى الديانة مصرى الهوية - وكان يعارض بشدة فكرة إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين !! وقد توفى عام ١٩٤٣ .

ألبرت الكبير (١٢٠٠/ ١٢٨٠) Albert the Great :

ألمانى - ولد فى «بافاريا»، اهتم بدراسة اللاهوت فى المدة من ١٢٢٨ إلى ١٢٤٠م فى العديد من أديرة ألمانيا ثم ذهب إلى باريس منارة الفكر أوربا المسيحية منذ عام ١٢٤٠ ليتابع دراسة اللاهوت فى جامعتها. وأتم هذه الدراسة عام ١٢٤٢م وأصبح عضوا فى هيئة التدريس بكلية اللاهوت بجامعة باريس فى نفس العام، واستمر فى منصبه فى الفترة من ١٢٤٢ إلى ١٢٤٨ م . وكان يعتمد فى تدريسه على كتب « أرسطو » (كانت دراسة هذه الكتب أمرا ممنوعا فى ذلك الوقت) وكان إقدامه على الاعتماد عليها فى تدريسه عملا شجاعا أكسبه نجاحا عظيما وشهرة كبيرة .

وعاد إلى « كولونيا » بعد ذلك فى العام ١٢٤٩ م ليؤسس بها مركزا دراسيا للإخوة الدومنيكان واستغرق فى هذه المهمة من عام ١٢٤٨ إلى عام ١٢٥٤ م. واشتغل بالتدريس

فى « كولونيا » فيما بين ١٢٥٧ إلى ١٢٦٠ م - وظل حتى وفاته مثابرا على التدريس والتأليف (الإخوة الدومنيكان هى جماعة دينية مسيحية أسسها القديس دومينيك الأسبانى الذى عاش بين ١١٧٠-١٢٢١ م وهذه الجماعة تهتم بالوعظ والتربية الدينية) .

له العديد من المؤلفات، وهى شروح على كتابات «أرسطو » والذى يهمنا منها هو شروحه على موضوعات النفس والحس والمحسوس والذكر والتذكر والنوم واليقظة والأخلاق، وهى موضوعات علم النفس التقليدى فى العصر القديم والعصر الوسيط.

نظريته فى النفس :

يمكن تلخيص هذه النظرية فى النقاط الآتية :

- النفس جوهر واحد أى قوة عامة واحدة وإن كانت ذات قوى عديدة فهى مبدأ للحياة النباتية والحسية والعقلية على السواء. وهى متحدة بالجسم وهى صورة له ولكنها كذلك مختلفة عن الجسم لأنها تستطيع إدراك الكليات أو المفاهيم المجردة (مثل مفهوم الخير أو الشر) . يرفض « ألبرت الكبير » فكرة العقل الفعال التى تنسب إلى «أرسطو » وأخذ بها بعض فلاسفة الإسلام، وهو عقل خارج الإنسان ومفارق له يمكن العقل الهيولانى الذى هو مجرد استعداد للمعرفة من التحول إلى عقل بالفعل يعرف ويدرك ويفكر.

- يأخذ « ألبرت الكبير » بالتعريف الأرسطى والسينوى للنفس على أساس أنها صورة البدن كما أنه يرى أن النفس خالدة بعد الموت .

- ربط بين أجزاء المخ والوظائف النفسية المختلفة - شأن فلاسفة الإسلام - فمثلا افترض أن الشعور يقع فى التجويف الأمامى فى المخ وأن الذاكرة تقع فى التجويف الخلفى .

- المعرفة هى عملية تجريد سواء كانت هذه المعرفة حسية أو عقلية، والتجريد العقلى أرقى من التجريد الجسى ؛ لأن التجريد الحسى انفعال بالمحسوس واستقبال له، أما التجريد العقلى فهو استخلاص خصائص هذا المحسوس .

- جميع المعارف مستمدة من الإحساس ما خلا المبادئ الأولية مثل مبدأ عدم التناقض فهى معانٍ نظرية فى النفس .

وفى ختام الحديث عن البرت ألكبيـر « نذكر أنه واحد من فلاسفة العصور الوسطى الذين تتلمذوا على شرح « ابن رشد »، و لكنه مع ذلك هاجم ابن رشد هجوما ساحقا وذلك فى كتاب له بعنوان « فى وحدة العقل ضد ابن رشد » صدر له عام ١٢٥٦م. و لا يهمنا فى هذا المقام الخلاف الفلسفى ولكن أثبتنا هذه المعلومة لبيان أثر « ابن رشد » خاصة وفلاسفة الإسلام عامة على الفكر الأوروبى فى العصر الحديث. وكان «إلبرت الكبير » يتصور - وهو فى ذلك واهم - أن « ابن رشد » مفكر يحارب الأديان، ومن هنا كان هجومه عليه، كما هاجمه كذلك « تلميذه » « توما الإكوينى » .

توما الأكوينى (١٢٥٥ / ١٢٧٤ م) St Tomas Aquinas :

هو فيلوسف ورجل دين إيطالى مسيحى ولد فى مدينة « روكاسيكا» جنوب إيطاليا بالقرب من مدينة « نابولى »، انضم إلى الإخوة « الدومنيكان » . وقد درس «توما الأكوينى» فى جامعة « نابولى » فى المدة بين ١٢٣٩ إلى ١٢٤٣م . وكان انضمامه إلى الإخوة الدومنيكان عام ١٢٤٤ وهو ما عارضته أسرته معارضة شديدة بحيث اضطر إخوته إلى حبسه فى برج قلعة تابعة للأسرة ! ويقال أن مدة الحبس طالت إلى سنتين ولكنه استطاع الهرب حيث ذهب إلى كولونيا فى ألمانيا وتتلمذ على يد « ألبرت الكبير » (عرضنا له سابقا) فى المدة من ١٢٤٨ إلى ١٢٥٢م ثم ذهب فى نفس العام ١٢٥٢ م إلى «باريس » حيث استكمل دراسته اللاهوتية .

وفى فترة نضجه العلمى والدينى عمل محاضرا فى جامعة باريس فى المدة بين ١٢٥٤ إلى ١٢٥٩ م ثم انتقل فى العام ١٢٥٩ إلى إيطاليا وبقى فيها إلى العام ١٢٦٩م متقلدا ا لعديد من الوظائف الدينية والعلمية. ثم عاد إلى «باريس» وبقى فيها من ١٢٦٩ إلى ١٢٧١م أستاذا ضليعا فى العلوم الفلسفية والدينية. ثم عاد إلى جامعته الأم « نابولى » عام ١٢٧٢ م حيث أسس مركزا عاما لطائفة « الدومينكان» وقام بالتدريس فيه بين عامى ١٢٧٢ و ١٢٧٣ م، وفى عام ١٢٧٤ م استدعاه البابا

« جـريجـوار العـاشـر » إلى مـدينة «ليون» وأثناء سـفـره مـرض وتوفى فى ٧ مـارس ١٢٧٤م ودفن فى «فاسا نوفا» وهى مكان بين «نابولى» «وروما» .

ويبدو أن حياته العلمية والشخصية حافلة بالتنقل والحل والترحال . ولكن الذى يهمنا فيها أنه أثناء دراسته فى «نابولى» و«باريس» قرأ أعمال « أرسطو » وشروح « ابن رشد » عليها . ويعتبر «توما الأكوينى » مثالا على الفلاسفة المدرسيين (والفلسفة المدرسية Scholasticism هى فلسفة المدارس والجامعات فى القرون الوسطى الأوروبية وبدأت فى القرن العاشر الميلادى وامتدت إلى القرن السادس عشر . و قامت هذه الفلسفة المدرسية على التوفيق بين تعاليم المسيحية وبين الفلسفة الأرسطية ومعظم الفلاسفة الذين نتعرض لهم فى هذا المقام من المدرسيين) .

وأهم مؤلفات « توما الإكوينى » التى تهمنا فى مجال علم النفس هى شروحه على المؤلفات الأرسطية مثل الحس والمحسوس والذكر والتذكر والسياسة والأخلاق. وقد دعاه إلى إعداد هذه الشروح أن شروح « ألبرت الكبير» لا تطابق النص الأرسطى تماما .. أما شروح «ابن رشد» فقد ادعى « توما الإكوين» أنها تمثل خطرا على المسيحية !

وكانت المهمة المهمة للقديس « توما الإكوينى » هى المزاوجة بين علم النفس الأرسطى والديانة المسيحية وقد اعتقد أن الإيمان والعقل كل منهما يؤدى إلى نفس النتيجة متأثرا فى ذلك بالشارح الأكبر بالطبع . وقد أكد العديد من الثقات من علماء الاستشراق أن «توما الإكوينى » هو تلميذ بل وعالة على «ابن رشد» فى شروحه على أرسطو، ولكن من الغريب - مع ذلك - أن « توما الإكوينى » كان خصما لدودا للشارح الأكبر .

ومن طريف ما يذكر فى هذا المقام أنه فى باريس حاضرة الثقافة الأوربية فى العصر الوسيط كان ثمة معهدان علميان يتنافسان: الأول جامعة « السوربون » تناهض « ابن رشد » وتناصر « توما الإكوينى »، والثانى جامعة « باريس » تناهض

«توما الإكوينى» وتناصر « ابن رشد » بحيث يمكن القول أن طلاب العلم فى ذلك الوقت انقسموا إلى قسمين: رشديين، ولا رشديين .

وكذلك من طريف ما يذكر فى هذا المقام أن بعض مفكرى العصور الوسطى فى أوروبا تصوروا أن الشارح الأكبر « ابن رشد » هو مفكر يحارب الأديان!! وأول الأدلة على ذلك أنه توجد صورة فى كنيسة القديسة «كاترين» فى إحدى مدن إيطاليا وهى مدينة « بيزة » صورة من رسم أحد الرسامين المشهورين آنذاك واسمه « ترينى » يظهر فيها «توما الإكوينى » كقديس صالح حوله أشعة ساطعة ومن بين هذه الأشعة الساطعة شعاع يصعق « ابن رشد » وغيره من الفلاسفة، ويقال أن هذا الرسم « الغريب » يرجع تاريخه إلى عام ١٤٣٠ على الأرجح .

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن توما الإكوينى تتلمذ على أعمال « ابن رشد» ثم هاجمه هجوما ساحقا .. ماذا نقول: لقد شرب من مائه ثم أنكر إناءه !

نظريته فى النفس :

أسهبنا كثيرا فى الحديث عن حياة « توما الإكوينى » والجو العلمى و الفكرى الذى نشأ فيه، وعذرا لهذا الاستطراد لأن ذلك مما يقتضيه سياق هذا الموضوع، ونوجز نظريته فى علم النفس فى النقاط الآتية :

- النفس الإنسانية حالة فى الجسم من ناحية مفارقة ومغايرة له من ناحية أخرى .

- النفس الإنسانية فعلها التعقل وهو لا يتم بآلة جسدية (لاحظ الأخطاء فى المعلومات الفسيولوجية عند توما الإكوينى من حيث عدم الإلمام بوظائف المخ خلافا لفلاسفة الإسلام) وهو يرى أنه من المستحيل أن نتعقل بآلة جسدية!

- النفس الإنسانية العاقلة إلى جانبها قوتان هما النفس الحساسة والنفس الغاذية .

– النفس هى الصورة الجوهرية للإنسان، والجسم هو المادة التى تتحد بها النفس، فالنفس إذن هى صورة البدن.

لمزيد من توضيح نظرية «توما الإكوينى» فى النفس نقول أن النفس عنده ليست مفارقة تماما للمادة أى الجسم، بل هى صورة الجسم؛ ولذا فإن النفس الإنسانية تختلف عن «الجوهر الملائكى» . ورغم أن « توما الإكوينى » يرى أنه من المستحيل أن نتعقل بآلة جسدية إلا أن النفس الإنسانية تحتاج فى تعقلها أى عملها الخاص إلى الجسم (هنا إشكالية سيحاول «توما الإكوينى» التخلص منها)

– الجسد ليس شرا فى حد ذاته كما أنه ليس سجنا للنفس بل هو خادم لها وأداة أوجدها الله سبحانه وتعالى لخدمة الإنسان. إن اتحاد النفس بالجسد ليس عقابا لها بل هو وسيلة تحقق النفس من خلالها كمالها، بمعنى أن اتحاد النفس بالجسد لا يكون على حساب النفس بل هو من أجل مصلحتها. والنفس الإنسانية هى أدنى درجة من الملائكة .

– أما خلود النفس فهو كمسيحى مؤمن وكفيلسوف توفيقى بين الفلسفة والدين يؤمن بأنها خالدة رغم أنها حالة بالبدن وهذا الحلول معناه استحالة بقاء النفس مستقلة عن البدن . وهو يحل هذه الإشكالية – الصعبة حقا – بأن يقول أن البعث هو بعث بالأرواح والأجساد معا – فالنفس الإنسانية هى صورة الجسد الحى وعند الوفاة تترك النفس الجسد، وهى عند البعث تتحد بالجسد مرة أخرى فالذى سيبعث هو ذات الجسد وذات النفس .

ومن الواضح تأثر « توما الإكوينى » بالمعلم الأول « أرسطو » فى قوله أن النفس الإنسانية هى صورة الجسم، ولكن « توما الإكوينى » شأنه فى ذلك شأن فلاسفة الإسلام يأخذ برأى « أفلاطون » فى أن النفس جوهر عاقل قائم بذاته خالد لا يصير إلى الفناء..

– ما غاية الحياة الإنسانية ؟ وما السعادة ؟ إن هذه الغاية وتلك السعادة إنما هى فى معاينة الله سبحانه وتعالى وهى لا تتحقق إلا فى الحياة الآجلة أما فى

الحياة العاجلة فإن السعادة الميسورة لنا سعادة ناقصة تقوم أولا بمعرفة الله ومحبته وثانيا بمزاولة الفضائل وأخيرا بصحة الجسم وبالخيرات الخارجية - وهذه الخيرات الخارجية مثل المال والقوة والكرامة تستخدم كوسائل للحياة الفاضلة ذلك أن الفاقة والسقم قد يعوقان عن أعمال فاضلة كثيرة .

- إن الانفعالات النفسية كالغضب والفرح حركات للنزوع الحسى . وهى ليست خيرا أو شرا بالذات - ولكن هذه الانفعالات إذا خضعت للعقل كانت خيرة فالغضب للحق خير والغضب لمنفعة شخصية شر والإنسان عليه أن يتبع الخير ويتجنب الشر، بمعنى أن الخير مندوب إليه والشر مهروب منه .

سجر البرابنتى (١٢٤٠ - ١٢٨٤ م) Siger of Barabant :

فرنسى - لا يعرف تاريخ مولده بالضبط، ويقال أنه ولد عام ١٢٣٥ م ولكن المرجح أكثر أنه ولد عام ١٢٤٠ م. وهو زعيم حركة الرشدية اللاتينية التى أثرت على الحركة الثقافية والفكرية بجامعة باريس لمدة ربع قرن ! وهؤلاء الرشديون كانوا يعولون بالأكثر على شروح « ابن رشد » ويعتبرونها المرآة الصافية لفكر « أرسطو »

أشهر هؤلاء الرشديين هو « سجر البرابنتى» الذى شغل منصب التدريس فى كلية الآداب جامعة باريس، وفى تدريسه كان « أرسطيا » جريئا لا يبالى باللاهوت المسيحى (لاحظ أيها القارئ الكريم أن «أرسطو» يعتبر فيلسوفا ملحدا) . ويقال أنه بدأ تدريسه بجامعة باريس منذ عام ١٢٦٥ م وكانت حياته بهذه الجامعة سلسلة من الاضطرابات حيث أنكر أسقف باريس القضايا « الرشدية » عام ١٢٧٠ م، ولكن «سجر» لم يستجب لذلك واستمر فى تدريس « الأرسطية الرشدية » . وفى عام ١٢٧٧ م صدر حكم بابوى بتجريمه بسبب أفكاره الجريئة التى كان يضمنها محاضراته. وقد قتل على يد كاتبه الذى أصابه الجنون كما يقال ! أهم أعماله هى شروح على بعض كتابات « أرسطو » وخاصة كتاب النفس، ويذكر كذلك أن « توما الإكوينى » هاجمه هجوما ساحقا بسبب آرائه الجريئة .

نظريته فى النفس :

يمكن تلخيص نظريته فى النفس فى النقاط الآتية :

يفرق بين النفس العاقلة من جهة والنفس الحساسة النباتية من جهة أخرى وهاتان النفسان تتحدان لتكونا نفسا واحدة كأن النفس ذات طبيعة مركبة .

- النفس خالدة ورغم أنها متحدة بالبدن إلا أنها لا تفنى بفنائه .

- تتكون النفس من عقل فعال وعقل منفعل والعقل المنفعل هو المتأثر بما حوله من محسوسات أما العقل الفعال فهو الذى يمنح العقل المنفعل القدرة على التأثر والإحساس بما حوله .

- يشير « سجر » إلى موضوع الصور الخيالية وهى صور شخصية يكونها العقل المنفعل عما حولنا من مدركات .

ومن الواضح أن نظرية « سجر » فى النفس مشتقة من النظرية الأرسطية والنظرية الرشدية، وإن كان قد حور بعض نقاط النظرية الأرسطية - مثل خلود النفس - حتى لا يتهم بالإلحاد والهرطقة . (ذلك لم ينجه من التهمة كما سبق أن أشرنا أثناء الحديث عن أحداث حياته) .

جان دنس سكوت (١٢٦٥/ ١٣٠٨ م) Jahn Duns Scotus :

إنجليزى - ولد فى إسكتلندا التحق بالسلك الكهنوتى، وفى عام ١٢٩١ م رسم كاهنا على « نورثجتون» فى المدة بين ١٢٩٢ إلى ١٢٩٧ م، استقر فى «باريس» ولكنه عاد إلى إنجلترا عام ١٢٩٧م ليقوم بتدريس اللاهوت فى « إكسفورد » و « كمبردج ». ثم عاد إلى باريس عام ١٣٠٢ م وفى عام ١٣٠٧م سافر إلى «كولونيا» وبقى فيها حتى وفاته .

له العديد من المؤلفات التى تربط بين الفلسفة واللاهوت، ويسمى عند مؤلفى الفلسفة « المعلم المرهف » أو « الحكيم المرهف » ويذكر أنه اطلع على

مـؤلفـات أرسطو وعلى مـؤلفـات « ابن سـينا » الذى كان يفضله على « ابن رشـد »، ويذكر كذلك أنه كان لا يوافق على آراء « أرسطو » وعلى آراء « توما الإكوينى » .

نظريته فى النفس :

ونلخص نظريته فى النفس فى النقاط الآتية :

- يؤكد فى نظريته فى المعرفة على أنه إلى جانب المعرفة التجريدية هناك كذلك المعرفة الحدسية، ومن خلال هذه المعرفة الحدسية يستطيع الإنسان أن يصل إلى اليقين وعلى هذا فإن الإنسان بهذه المعرفة الحدسية يستطيع معرفة الله معرفة يقينية إيجابية .

- يرى أن الله محبة وكون الإنسان أحد مخلوقات الله هو تمجيد لهذا الإنسان ورفعة لشأنه .

- أكد على أهمية الإرادة عند الإنسان بحيث أطلق بعض مؤرخى علم النفس على مذهبه « الإرادية Voluntarism » .

وليام الأوكهامى (١٢٨٥ / ١٣٤٩) William of Okham :

إنجليـزى - و لد فى مـدينة «أوكـهـام» ، وهى بلدة صـغـيـرة قـرب «لندن» درس فى «إكسفورد» ولكنه لم يكمل دراسته لسبب آرائه المثيرة للجدل، ويسمى عند مؤرخى علم النفس « الشـيـخ الجليل Venerable inceptor » له صدامـات مع السلطات الكنسيـة بسبب آرائه الجريئة التى ضمنها كتاباته فى الفلسفة واللاهوت .

نظريته فى النفس :

يمكن تلخيص نظريته فى النفس فى النقاط الآتية :

- إن المبدأ الأسمى الذى يحكم وجهة نظره هو مبدأ القدرة الإلهية المطلقة . هذه القدرة الإلهية المطلقة أفعالها تامة لا ينالها تناقض ولا يلحقها نقص، وهذا الإيمان بالقدرة الإلهيـة المطلقة ليس فتحا قام به العقل بل هو حدس إيمانى مباشر. والمعرفة

المؤكدة هى المعرفة الحدسية . وبهذه المعرفة الحدسية ندرك الأمور المحسوسة والأمور العقلية والمعانى الراقية . إلا أن أعلى مراتب المعرفة ، هى المعرفة عن طريق الوحى والتى بها - وبها فقط - ندرك أن لنا نفوسا روحية خالدة - ثم إن الإرادة الإلهية هى التى تحدد لنا ما الخير وما الشر، الخير مندوب إليه والشر مهروب منه !

اشتهر عند مؤرخى علم النفس بما يسمى « قانون أوكهام لحد السيف -OKham's razor» وهذا القانون مؤداه أنه إذا طرح حلان لمشكلة معينة وكان كل من الحلين صحيحا ومقبولا فإن الحل الأ كثر بساطة هو الأكثر ملاءمة والأكثر قبولا . ويقال أن « لويد مورجان » (سنعرض له عند الحديث عن المدرسة السلوكية) قام بإحياء قانون «أوكهام » واشتق منه قانون الاقتصاد أو التوفير Low or Parsimony والذى به يفسر سلوك الكائن الحى بأبسط التفسيرات الممكنة .



الفصل الرابع
علم النفس الفلسفى

إذا نظرنا إلى تاريخ علم النفس منذ القرن السابع عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر ، نجد أنه كان خلال تلك الفترة جزءا من الفلسفة ، إذ جلس الفلاسفة على كراسى علماء النفس ، فتاريخ علم النفس فى هذه الحقبة - شأنه فى العصور القديمة والوسطى - هو جزء من تاريخ الفلسفة .

وثمة مبحث أساسى من مباحث الفلسفة ، وهو مبحث المعرفة ، والذى أدى إلى الالتصاق الدائم بين علم النفس والأم الكبرى الفلسفة ، لأن مبحث المعرفة فى الفلسفة يدرس موضوعات هى من صميم علم النفس - سواء علم النفس القديم أم الحديث - مثل العمليات الحسية والعمليات الإدراكية والعمليات العقلية والمعرفية وتكوين المفاهيم الكلية ، فهى موضوعات ذات أرضية مشتركة درسها الفلاسفة من القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر . فكانوا فلاسفة وعلماء نفس ، ولكن ما إن انتهى القرن التاسع عشر وبدأ القرن العشرون حتى استقل علم النفس عن الأم الرؤوم متخذاً أساليب تجريبية وإحصائية ، متخليا عن التفكير الأرائكى ، مكونا فرعا جديدا من العلم تزدحم فيه النظريات والتطبيقات والبحوث .

وإذا كان علم النفس « ابن الفلسفة » فقد تململ هذا الابن حتى يظن البعض أنه لا يمت للفلسفة بصلة ، ولكن ما هذا رأي مؤرخ مدقق لعلم النفس . أما الفلاسفة الذين نتحدث عنهم فى هذا الفصل فهم مجموعة لا تربط بينهم مدرسة معينة ، ولكن تربط بينهم صلة معينة ، إنهم مفكرون درسوا موضوعات نفسية

وأسهموا - كل حسب مقدرته - فى إثراء التراث النفسى الفلسفى إثراء عظيما ، ونتحدث عنهم خلال النقط التالية :

« فيليب ملانثون » Melanthon (١٤٩٧ / ١٥٦٠م) :

ألمانى ، هو صاحب الفضل فى صياغة المصطلح الدال على علم النفس فى اللغات الأجنبية بالألمانية Psychologie وبالإنجليزية Psychology (وهو مصلح تربوى ودينى ، إنسانى وعالم كبير ، كما أنه دارس ممتاز للدراسات الكلاسيكية التي تتضمن اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية إلى جانب الفنون)

ومما هو جدير بالذكر أنه حصل على درجة الليسانس من جامعة « هيدبرج » عام ١٥١١م وهو بعد فى الرابعة عشرة من عمره ، وهذا دليل على نبوغه المبكر ، وفى بداية حياته العلمية عمل أستاذا لتدريس اللغة اليونانية بجامعة « ويتنبرج ».

وقد سمى « معلم ألمانيا » لأنه أسهم فى تطوير النظام التربوى وإصلاح المناهج ، سواء على مستوى المدارس أم على مستوى الجامعات ، كما أنه ساعد فى تأسيس بعض الجامعات الألمانية مثل جامعة « مربورج » وجامعة « كونسبرج ».

وكان يعتقد ، فى أهمية الدين من حيث كونه وسيلة لتعليم الإنسان الفضائل وغرسها فيه، وقد ألف كتبا كثيرة تدور حول النواحى الدينية والإصلاحات التربوية.

« فرنسيس بيكون » : Bacon (١٥٦١ / ١٦٢٦م)

إنجليزى ، التحق بجامعة « كمبردج » وهو فى سن الثالثة عشرة ، ولكنه خرج منها دون أن يحصل على إجازة علمية ، درس القانون والمحاماة وعمل بالدبلوماسية والسياسة ، وأهم كتبه على الإطلاق : « الأورجانون الجديد » أصدره عام ١٦٢٠م باللغة اللاتينية .

وليس لـ « بيكون » إسهام فى علم النفس خاصة ، ولكن إسهاماته كانت فى طريقة التفكير العلمى التى أثرت على القرنين السابع عشر والثامن عشر . وقد

عمل « بيكون » على تصنيف العلوم ، وهو يهدف من هذا التصنيف إلى ترتيب العلوم القائمة ، وهو يرتب هذه العلوم بحسب القوى الإدراكية للإنسان ، ويرى أن القوى الإدراكية للإنسان تنحصر فى ثلاث : الذاكرة : وموضوعها التاريخ ، والمخيلة : وموضوعها الشعر ، والعقل : وموضوعه الفلسفة .

لكن بيكون يرى أن هناك مجموعة من الشوائب تحول دون أن يكون التفكير الإنسانى على أسس منطقية سليمة ، ولأجل ذلك يرى « بيكون » أنه لابد من منطق جديد ، هذا المنطق الجديد من شأنه أن يجنب الإنسان أربعة أنواع من الأوهام التى تؤدى إلى أخطاء فى التفكير ، وهذه الأوهام هى :

النوع الأول : أوهام القبيلة ، وهى ناشئة عن طبيعة الإنسان ، وهى مشتركة بين أفراد النوع الإنسانى عامة ؛ ذلك أن الإنسان يميل بفطرته إلى التعميم عندما يلاحظ بعض الحالات الفردية المتنائرة دون الالتفات إلى الحالات المعارضة ، وكذلك يميل الإنسان إلى الافتراض بأن فى الطبيعة نظاماً واطرادًا أكثر مما هو متحقق فيها .

النوع الثانى : أوهام الكهف ، وهى ناشئة من الطبيعة الفردية لكل منا ؛ لأن لكل فرد منا نسيجا خاصا ، فهذه الأوهام صادرة عن الاستعدادات الأصلية والجبلية وعن التربية والعلاقات الاجتماعية والمطالعات ، فمثلا من الناس من هم أكثر ميلا إلى الانتباه إلى ما بين الأشياء من اتفاق ، بينما آخرون يميلون إلى الانتباه إلى ما بين الأشياء من اختلاف وهكذا .

أوهام السوق : وهى ناشئة من ألفاظ اللغة ، لأن ألفاظ اللغة تتكون نتيجة حاجات الناس فى المجتمع - وحياتهم فيه ، والرغبة فى التعبير عن رغباتهم ودوافعهم وما يحبون وما يكرهون - وعلى هذا فاللغة فضفاضة ، وقد تكثر المجادلات اللفظية بين الناس لهذا السبب .

أوهام المسرح : وهى آتية مما نتخذه من آراء وأفكار ونظريات متوارثة عن الأجيال السابقة دون تمحيص ودراسة .

وهذه الأربعة فى نظر « بيكون » عيوب فى تركيب العقل تجعل الإنسان يخطئ فى فهم الحقائق ، ويجب أن يتحرر الإنسان منها ليعود عقله لوحة بيضاء تنطبع عليه الخبرات دون تشويه منا ، سواء أكان هذا التشويه متعمدا أم غير متعمد .

« رينيه دكارت » Descartes (١٥٩٦ / ١٦٥٠م)

فرنسى (درس فى كلية « الجزويت » ، وهى من المعاهد الفرنسية الراقية ، حيث تلقى دروسا فى الرياضيات والإنسانيات ، وأظهر اهتماما بالقانون والفلسفة والعلوم) وقد تنقل أثناء حياته بين فرنسا وهولندا طلبا للعلم والثقافة .

ونجد أن « ديكارت » أثر على الفلسفة الغربية من خلال الأسلوب الذى ناقش به تساؤلاته حول الطبيعة الإنسانية ، كما أنه يمكن القول بأن « ديكارت » أسهم فى علم النفس بما أثاره من أسئلة حول الإنسان ، وأهم كتبه على الإطلاق ، « مقال فى المنهج » أصدره عام ١٦٣٧م .

وفى دراسته للإنسان – ضمن إطار فلسفته – بدأ بتمحيص الأفكار البسيطة معتمدا على التفكير المنطقى ، حيث وجد أن المعلومات التى تأتى من الحواس يمكن الشك فيها ، لأن الحواس تخدعنا فى بعض الأحيان ، ودليل ذلك حدوث الخداعات والهلوسات فى النوم واليقظة ، كما أن انفعالاتنا تؤثر على إدراكاتنا . ثم توصل « ديكارت » من شكه فى دقة الحواس ، إلى تأكده من أنه يفكر ، وتوصل إلي عبارته الشهيرة « أنا أفكر إذن أنا موجود » .

وقد رأى « ديكارت » أن النفس مستقلة عن الجسم ، فهما جوهران مختلفان، ذلك أن أهم خاصية للجسم هى الامتداد ، وأهم خاصية للنفس هى التفكير ، كما يرى أن النفس لا تحل فى الجسم حلول النوتى فى النفسية ، ولكن النفس تتحد مع الجسم بحيث لو جرح الجسم فإن النفس تنتبه إلى الجرح بالألم ، كما أنها تدرك أخطاره بالعقل .

ويرى كذلك أن الحالات النفسية مثل الألم والجوع والعطش ، والحركات المنعكسة والأحلام والتذكر ، هى حالات ناشئة من اتحاد النفس بالبدن . ومكان

النفس فيما يرى « ديكارت » الغدة الصنوبرية حيث تقوم النفس بوظائفها وتنتشر قواها فى الجسم كله ، وهى على هذا تؤثر على الجسم ، أما الجسم فإنه يؤثر على النفس ، بأن يبلغ إليها الحركات الواقعة عليه والحادثة فيه فتترجمها هى (أى النفس) ألوانا وأصواتا وروائح ومعلومات ورغبات ولذات وآلاماً .

وعند دراسة نشاط الجسم وحركاته قارن بين الآلة والجسم ، واعتبر أن حركات الجسم آلية غير إرادية ، بمعنى أن الاستجابات العضلية والعصبية هى نتيجة لاستثارة أعضاء الحس ، فهناك فى نظره قنوات وطرق محددة ، تسير فيها الاستثارات الحسية والاستجابات الحركية ، كما أنه يوجد بالجسم قنوات تسير فيها الروح الحيوانية ، وهذه القنوات توصل بين أعضاء الجسم المختلفة ، الأوعية الدموية .

وثمة نقطة رئيسة فى فلسفة « ديكارت » وهى التى تتصل أكثر بموضوع علم النفس - وهى الأفكار ، إذ يرى أن الأفكار على ثلاثة أنواع :

- أفكار مبنية على الإحساسات ، وهى أفكار آتية من الخارج مثل اللون والصوت والطعم والأشكال .

- أفكار مركبة وهى أفكار تتركب من آثار الطائفة الأولى ، مثل فرسى لونه أسود أو أحمر أو أبيض .

- أفكار فطرية وهى أفكار تستنبطها النفس من ذاتها ، وهى أفكار واضحة بسيطة أولية ولدت معنا ، وعلينا اكتشافها مثل فكرة الزمان وفكرة المكان وفكرة الكمال .

« باروخ سبينوزا » : Spinoza (١٦٣٢ / ١٦٧٧م)

يهودى هولندى ، كان مقرراً أن يتجه إلى سلك الكهنوت اليهودى ولكنه اتجه إلى دراسة الفلسفة . أهم كتبه على الإطلاق « الأخلاق » نشر بعد وفاته .

يميز « سبينوزا » بين مستويات متعددة من المعارف الإنسانية .

الأول : معرفة بالتجربة المجملة أو الاستقراء العلمى ، وهى إدراك الجزئيات عن طريق الحواس على ما يتفق بحيث تنشأ فى الذهن أفكار عامة من تقارب الحالات المتشابهة مثل معرفتى أن الماء يطفئ النار .

الثانى : معرفة استدلالية ، أى عملية تطبق قاعدة كلية على حالة جزئية كتطبيق معرفتى أن الشيء يبدو عن بعد أصغر منه عن قرب على رؤيتى للشمس ، فأعلم أن الشمس أعظم مما تبدو .

الثالث : معرفة عقلية حدسية تدرك الشىء وتعرف ماهيته أى خصائصه الجوهرية مثل معرفتى أن النفس متحدة بالجسم لمعرفتى ماهية النفس ، ومثل معرفتى خصائص شكل معين بمجرد تعلمى تعريفه ، ومثل معرفتى أن الخطين المتوازيين مع خط ثالث متوازيان .

ويرى « سبينوزا » أن النوع الثالث من المعارف هو أكمل مستويات المعرفة لأن معانيها واضحة ، ويرى كذلك أنه من خلال هذا النوع من المعارف يمكن للعلم أن ينمو ويتطور .

وأهم جزء يتصل بعلم النفس فى فلسفة « سبينوزا » هو ما يخص الإنسان ، فالإنسان مركب من حال امتدادى ، هو الجسم ، وكذلك من حال فكرى هو النفس ، ويرى « سبينوزا » أن الجسم آلة مؤلفة من آلات فرعية ، والنفس فكرة موضوعها الجسم ، والنفس فى نظره تبدأ وتنتهى مع الجسم ، والإحساس ظاهرة جسمية تعتمد على الحواس أما الإدراك فهو ظاهرة عقلية فكرية تقوم على معالجة الإحساس وتأويله .

أما القوانين التى يقوم عليها التفكير عند الإنسان فهى قوانين الترابط أو التداعى . ويرفض « سبينوزا » تقسيم النفس إلى قوى وعلى ذلك فالإرادة والعقل فى نظره لا يتمايزان .

ومن آرائه أيضا أن الشعور بالحرية عند الإنسان هو خطأ ناتج من نقص فى الفهم ، حيث يعتقد الناس أنهم أحرار فى أفعالهم وتصرفاتهم لأنهم يجهلون الدوافع

التى تدفعهم إلى أعمالهم ، والمثال الأمثل على سذاجة الاعتقاد بالحرية عند الناس أن الطفل الخائف يظن أنه حر فى أن يهرب من مصدر الخوف أو لا يهرب إلا أنه يهرب مضطراً غير مختار اتقاءً لمصدر الخوف ، وكما يظن السكران أن حديثه ومشيته أثناء سكره تصدر عن حرية تامة ، فإذا ثاب إلى رشده عرف أن ما صدر من حديث أو حركة أو مشية أثناء سكره إنما هو من تأثير الخمر ، وأنها أمور اضطر إليها ولم يخترها ، وكذلك لو كان الحجر يفكر لاعتقد أنه يسقط من أعلي إلى أسفل بإرادته الحرة ، لكن الإنسان فى نظر « سبينوزا » تحركه قوى لا يدرك كنهها وعلى هذا فإنه من الخطأ أن نغضب من الحمقى إذ ليس الأحمق ملزما أن يحيا وفق قوانين العقل .

وتوجد فى الإنسان فى نظر « سبينوزا » الشهوة والعقل إذ ليس الناس معنيين جميعا - من قبل جبلتهم الطبيعية - أن يسيروا وفقا للقوانين العقلية ، كما أن الإنسان فى نظره يولد جاهلا ويقضى شطرا طويلا من حياته قبل أن يدرك الفضيلة ويتعلمها ، ومن ثم يكتسبها ، ومن أهم ما ينفع الإنسان فى حياته أن يعيش طبقا لقوانين العقل ، وليس من إنسان إلا ويريد العيش آمنا من الخوف لكن ذلك مستحيل إذا كان لكل إنسان أن يفعل ما يروق له ، أى أنه إذا ترك الناس وشهواتهم انتفى الأمان وانتشر الخوف ، وإذا لم يتعاون الناس كانت حياتهم يائسة ، وربما استحالت هذه الحياة ، ولهذا تاق الناس إلى الاتحاد والانخراط فى سلك الجماعة ، وهنا نشأت السلطة العليا على تنفيذ الميثاق المعقود بين الناس ، وظهرت القوانين المنظمة للعلاقات بين الناس بعضهم وبعض وبين السلطة العليا ، وعلى الأفراد أن يقيموا بينهم وبين السلطة حلا وديا قوامه تحقيق المصلحة العامة .

« جود فريد لينز » : Liebniz (١٦٤٦ / ١٧١٦م)

ألمانى - ولد بمدينة « ليبزج » الألمانية الشهيرة حيث كان أبوه أستاذا بالجامعة ، اهتم منذ حداثته بالقراءة وكانت مكتبة أبيه مدرسته الأولى ، كان شغوفا بالقراءة إلى حد كبير ، تجول فى دول غرب أوربا طلبا للعلم ، ويقال إنه من أكثر كتاب

عصره وفرة فى الإنتاج . أهم كتبه (مذهب جديد فى الطبيعة واتصال الجواهر) أصدره عام ١٦٩٥م .

ومن أهم مبادئه الفلسفية أنه اعتقد أن العالم منظم ولا يوجد شىء يدل على اختلال النظام فى هذا العالم ، وأن على الإنسان أن يكتشف القواعد التى نظم على أساسها العالم ، والإنسان هو جزء من هذا العالم المنظم ، وإذا حاولنا تفسير شىء فإن تفسيره إنما يكون فى إطار هذا العالم الواسع المنظم .

والتفكير أو المعرفة مركز أساسى فى وجود الإنسان ومحور اهتمامه ، وأن معارفنا لا تعتمد كلها على الحواس ، حيث إن أفكارنا عن وجودنا وعن ذاتيتنا وعن المادة وعن الأفعال وعن الآخرين إنما تأتى من تجربة داخلية ذاتية ، وعلى هذا فإن التفكير والمعرفة هما عملية إعطاء صور للأشياء المدركة .

ويرى « ليبنز » أن العلاقة بين العقل والبدن هى علاقة تواز . ويشبه هذه العلاقة - بين العقل والبدن - بساعتى حائط تدقان فى اللحظة نفسها لإعلان الوقت ، ولكن لا تؤثر ساعة منهما على الساعة الأخرى ، وعلى هذا فإن المظاهر الميكانيكية للجسم والمظاهر التفكيرية للعقل ، رغم ما يبدو من اتصالهما ، إلا أن كلا منهما لا يؤثر على الآخر .

ويتكون الوجود فى نظره من المونادات Monads أى الجواهر المفردة ، وهى أشبه بالذرات التي تتكون منها المادة ، وهى وإن كانت أشبه بالذرات فهى ليست ذرات بالمعني الحرفى لهذه الكلمة ، إنها أقرب إلى مفهوم العمليات والمواد المكونة للبناء . والمونادات ليس لها امتداد ولا يمكن رؤيتها ، كما أنه لا يمكن تحطيمها .

والعملية الإدراكية - وهذا هو المهم - تتم فى نظره عن طريق حركة مستمرة تتجمع فيها المونادات لتكون عمليات شعورية ، بمعنى أن الإدراك هو العملية التى يتم بها تحويل الوحدات اللاشعورية إلى وحدات شعورية ، حيث تتجمع الوحدات اللاشعورية ثم تمر من عتبة الشعور .

كما يعتقد « ليبنز » بأن الإنسان صاحب إرادة حرة ، ذلك أن العالم ترعاه عناية الله مما جعل العالم يعيش طبقا لمبدأ التجانس والعقلانية ، ويكون التعامل مع العالم المحيط بنا إما بالموضوعية التى تظهر فى التفكير الرياضى والتفكير المنطقى، أو يكون التعامل بالذاتية عن طريق تصور العالم المحيط بنا من وجهة نظر معينة لا تراعى الموضوعية ، وتتسم بميول الشخص واعتقاداته .

ويؤكد « ليبنز » على أن العمليات الإدراكية عند الإنسان إنما تتصل بخصائص أساسية ولادية قبلية موجودة فى الإنسان ، ومن شأن هذه الأساسية أن تضفى التجانس على المدركات ، (ستظهر فكرة تنظيم الإدراك عند الجشطلت) وإضفاء التجانس هذا يتصل بعقلانية الإنسان ، وهو يتعامل مع العالم الذى يعيش فيه .

« إيمانويل كنط » Kant (١٧٢٤ / ١٨٠٤م)

ألمانى - أكبر فلاسفة العصر الحديث وأعظمهم شأنا وأقواهم تأثيرا . ولد بمدينة « كونجسبرج » من أبوين فقيرين على جانب عظيم من التقوى والفضيلة . درس اللاتينية واللاهوت والرياضيات والفلسفة . أهم كتبه « نقد العقل النظرى » أصدره عام ١٧٨١م و « نقد العقل العملى » أصدره عام ١٧٨٨م .

يقول « كنط » إن « هيوم » (الفيلسوف الإنجليزى الشهير الذى نعرض له فى موضع آخر من هذا الكتاب) قد أيقظه من سباته اليقينى ، أى أحدث له آثاراً عقلية وفكرية . وقبل أن يقرأ « هيوم » كان « كنط » يميل إلى الفيلسوف الألمانى « ليبنز » وذلك بتأثير من « كريستيان ولف » Wolff (١٦٧٩ / ١٧٥٤م) الفيلسوف والرياضى الألمانى وأحد الذين تأثر بهم « كنط » تأثرا شديدا . وكانت الإثارة العقلية التى أحدثتها قراءة « كنط » لأعمال « هيوم » فيما يتعلق بنظرية المعرفة الإنسانية بوجه خاص قوية . وقد حاول « كنط » فى فلسفته أن يدرس موضوع المعرفة الإنسانية مؤكداً على أهمية « العقل » فى المعرفة .

وقد أشار « كنط » إلى أن المعارف التى نكتسبها من التجربة الحسية يتم تنظيمها عن طريق عمليات سليقية جبلية فى العقل الإنسانى ، فمثلا عندما نرى

واقعة تحدث بسبب واقعة أخرى فإن « كنط » يرى أن الاعتقاد بمبدأ السببية إنما هو موجود فى طبيعة التفكير الإنسانى وفطرته .

وقد حاول « كنط » أن يحدث ثورة فى نظرية المعرفة ، ذلك أن الفلاسفة السابقين على « كنط » وخاصة العمليين البريطانيين (أو ما نسميهم فى هذا الكتاب الترابطية القديمة والفلسفية) افترضوا أن المعرفة الإنسانية بهذا العالم الخارجى ، إنما تتحقق لأن الأشياء فى العالم الخارجى تفرض نفسها على العقل . لكن « كنط » فى تفسيره الثورى قال : بأن الأشياء إنما تدرك حسب أفهامنا . ويعطى مثالا على ذلك فيقول : إذا وضع الشخص على عينيه نظارة لها لون بنى مثلا ، فإن هذا الشخص يرى الأشياء فى العالم الخارجى من خلال هذا اللون البنى ، ويضاف هذا اللون البنى على الألوان الأصلية للأشياء الموجودة فى العالم الخارجى ، ويمكن لهذا الشخص أن يقول : كل شىء بنى اللون . ويقول « كنط » إن ما يحدث بالنسبة لاكتساب المعرفة الإنسانية هو شىء من هذا القبيل ، ذلك أننا مزودون بخصائص أو قوالب معينة ، هذه القوالب من شأنها تنظيم الأشياء الواردة إلينا من العالم الخارجى ، وبهذا يكون العقل عنصرا فعالا فى تنظيم الخبرات الحسية الواردة إليه، وليس عنصرا سلبيا تنطبع عليه هذه الخبرات الحسية .

هذه القوالب هى صور أولية قبلية موجودة سليقيا فى العقل الإنسانى ، وليست مشتقة من التجربة الحسية ، وهذه القوالب مثل الزمان أو المكان أو العلية يمكن تسميتها المقولات ، أى ما يقال على الشىء المدرك من أنه حدث فى مكان معين أو زمان معين أو لسبب معين . وقد اعتقد « كنط » أن علم النفس (الذى يعرفه بأنه الدراسة الاستنباطية للعقل) لا يمكن أن يكون علما لأن علم النفس لا يمكن أن يكون مثل الرياضيات فى دقة أحكامه وفى عموميتها ، وفى طريقة الوصول إليها ، كما أن هناك سببا آخر لاعتقاد « كنط » بأن علم النفس لا يمكن أن يكون علما ، ذلك أن العلم فى رأيه له جانبان : الجانب التجريبى الذى يتضمن الملاحظة والبحث ، والجانب العقلى أو الميتافيزيقى الذى يتضمن الأسس الفلسفية التي تبرر وتبين

أساليب الوصول إلى الحقائق فى هذا العلم ، وهذه الشروط تنطبق على الفيزياء بينما لا تنطبق على علم النفس ، لأن موضوع علم النفس - وهو الروح أو الفكر - ليس له مضمون ، ولا يمكن أن يقوم علم لموضوع ليس له مضمون أو مادة Subject matter كما أنه فى نظر « كنط » لا يمكن معاينة الروح أو الفكر، لأنها كما أسماها « الأنا المتعالية » هذه الأنا المتعالية (أى المتعالية عن الإدراك الحسى) قد تكون موجودة بذاتها ، ولكنها ليست مدركة ، ولكن « كنط » يرى - مع ذلك - أنه من الممكن أن توجد « الأنا الإمبيريقية » وهى مجموعة من الإحساسات والمحتويات العقلية ويمكن دراستها عن طريق الاستنباط ، ولكنها لا يمكن أن تكون موضوع علم من العلوم ، لأنه ينقصها الجانب العقلى أو الميتافيزيقى الذى يتضمن الأسس الفلسفية التى تبرز وتبين أساليب الوصول إلى الحقائق فى هذا العلم .

أما موضوع الشعور أو الوعى awareness فقد عالجه « كنط » أثناء حديثه عن « الأنثروبولوجيا » أو علم الإنسان - حيث قال : إن قمنا بفحص وعينا فإننا سنجد بعض المدركات واضحاً وبعضها الآخر غائماً غامضاً ، وتوصل إلى أن عقل الإنسان يشبه خريطة واسعة لكن الأجزاء المضيئة الواضحة منها أجزاء قليلة ، هذا ويمكن القول بأن فكرة الوعى أو الشعور عند « كنط » أثرت على ظهور الفكرة نفسها تقريبا عند « فونت » صاحب البنائية ، وكذلك فكرة خريطة العقل الإنسانى ووضوح أجزاء قليلة منها أثرت على ظهور فكرة اللاشعور عند «فرويد » صاحب مدرسة التحليل النفسى . وهذا التأثير الذى يمكن أن ننسبه إلى « كنط » على بعض علماء النفس ، هو جزء من التأثير الهائل الذى أحدثه « كنط » على الفكر الألمانى خاصة والفكر الأوروبى عامة ، وليس هذا بمستغرب فهو أكبر الفلاسفة فى الغرب وأعظمهم بعد « أرسطو » فيلسوف اليونان .

ولا تكتمل الصورة عن علم النفس الفلسفى عند « كنط » إلا بالإشارة إلى فلسفته الأخلاقية فهو يقول « اعمل بحيث يكون فعلك قانونا كليا دون تناقض » أى أن أساس الحكم على فعل بأنه مقبول أخلاقيا أو غير مقبول أو نتصور تعميمه على

سلوك البشر ، فإن كان تعميم هذا الفعل على سلوك البشر يؤدى إلى التناقض واضطراب الحياة فهو فعل مرفوض أخلاقيا . مثال ذلك القتل أو السرقة أو الاغتصاب لو تصورنا أن هذه الأفعال عممت على سلوك البشر لأصبح المجتمع فى حالة من الفوضى والاضطراب ، ولهذا فهى أعمال مرفوضة .

وعلى العكس أفعال مثل التعاون والبناء وإغاثة الملهوف لو عممت على سلوك البشر ، ازدهر المجتمع الإنسانى ونما وتقدم فهى على ذلك أفعال مقبولة أخلاقيا .

وعلى هذا الأساس الذى وضعه « كنط » تقاس أفعال الإنسان ويحكم عليها . ويلح « كنط » فى بيان أهمية القانون الأخلاقى حيث يقول « شيئان يملأننى بالإعجاب : السماء المزدانة بالنجوم فوق رأسى والقانون الخلقى فى الأرض » .

ويؤكد « كنط » على الإرادة الصالحة للإنسان فهى أساس الأخلاق ، أما المواهب الطبيعية مثل الذكاء والشجاعة أو مواهب الحظ مثل المال أو السلطة ، فهى ليست خيرا فى حد ذاتها ، لأنها وسائل تستخدمها الإرادة كما تشاء فتكون أحيانا مصدر خير ، وأحيانا مصدر شر ، والدليل على ذلك أن رباطة جأش المجرم تزيد من شروره وتثقل جرمه .

« جرمى بنثام » Eentham (١٧٤٨ / ١٨٣٢م)

إنجليزى - صاحب مذهب المنفعة . أهم كتبه « المدخل إلى مبادئ الأخلاق والتشريع » أصدره عام ١٧٨٩م .

وهو يرى أن الناس يطلبون اللذة ويتجنبون الألم بالطبع شأنهم فى ذلك شأن الحيوان ، ولكنهم يمتازون عن الحيوان بأنهم يتبعون مبدأ النفعية عن طريق تحكيم العقل ، أى أنهم يحكمون بأن الفعل الخير هو الذى يعود بلذة مستمرة ، أو الذى تزيد فيه اللذة عن الألم ، وأن الفعل الشرير هو الذى يعود بألم مستمر أو الذى يزيد فيه الألم عن اللذة .

ويعطى « بنثام » مثالا على ذلك بأن القانون نافع لأكبر عدد ممكن من الناس،

لأنه يردع المجرمين فى سبيل راحة الغالبية العظمى من أفراد المجتمع ، وكذلك يرى « بنثام » : أن الغاية التى يسعى إليها الفرد والمجتمع هى تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد ممكن من الناس . وسيظهر مذهب اللذة بعد ذلك فى اصطناع «فرويد » صاحب مدرسة التحليل النفسى لمبدأ اللذة كأحد المبادئ الأساسية للحياة النفسية للإنسان .

« آرثر شوبنهور » Schopenhauer (١٧٨٨ / ١٨٦٠م)

ألمانى – فيلسوف التشاؤم ، درس الفلسفة وقرأ الكتب الدينية الهندية التى تنظر للحياة من خلال منظار أسود فتأثر بها ، أهم كتبه « العالم إرادة وتصور » أصدره عام ١٨١٩م .

والسؤال الأساسى عند « شوبنهور » هو : كيف ندرك العالم ؟ وما قيمة هذا الإدراك ؟ ويجيب على ذلك بأن الإحساسات حالات ذاتية ، لكن الفهم هو الذى يفرغ على الإحساسات دلالاتها ومعناها ، وعملية إفراغ الدلالة هذه فعل لا إرادى والعالم بالنسبة للإنسان هو تصورات الإنسان عن هذا العالم ، وكما أن للإنسان إحساسات يعرف بها العالم المحيط به إلا أن الإنسان عارف كذلك بأن هناك عالما آخر فى نفسه هو الغرائز والميول ، إلا أن الإرادة هى جوهر الإنسان .

وهو يرى كذلك أن ثمة فرقا بين الإنسان والحيوان ، ذلك أن الإنسان له عقل باطن يخفى غايته ، والإنسان كذلك قادر على استخدام الآلات المصنوعة ، إلا أن الحيوان حركاته ظاهرة وغاياته معروفة ومحدودة ، وقد أدى هذا التفاوت فى الصور الطبيعية للمخلوقات إلى رغبة كل منها فى البقاء وتنازعها فى سبيله ، مما أدى بالتالى إلى التعارض والصراع ، ذلك أن الإنسان يفترس الحيوان ، كما أن الحيوانات تفترس بعضها بعضا ، والجميع يفترسون النبات كما أن النبات يستهلك الماء والهواء ، وعلى ذلك يخرج « شوبنهور » بنتيجة مؤداها : أن « الحياة شر » وأن ما نقابله من خير هو أمر زائف ، وأكبر دليل فى نظره على أن الحياة شر هو موضوع اللذة والألم ، ذلك أنه يرى : أن الإحساسات بالألم والانفعالات المصاحبة له

أكثر بكثير فى - حياة البشر - من الإحساسات باللذة والانفعالات المصاحبة لها. ونظرة التشاؤم عند « شوبنهور » ستظهر واضحة بعد ذلك فى مدرسة التحليل النفسى الألمانية المنشأ .

« هوربرت سبنسر » Spencer (١٨٢٠ / ١٩٠٣م)

إنجليزى - درس العلوم الطبيعية والتاريخ والهندسة إلى جانب شغفه بالمناقشات العلمية والسياسية والدينية . كما اهتم بدراسة موضوع « التطور » ، ومن أهم كتبه « مبادئ علم النفس » أصدره عام ١٨٥٥ .

ويرى « سبنسر » أن قانون التطور يقتضى بأن كل شىء يبدأ ظاهرة بسيطة ثم تتجمع حولها بالضرورة ظواهر أخرى فتركب كلا أعقد فأعقد ، والطبيعة فى نظره مادة وحركة ، وما « الشعور » عند الإنسان - على اختلاف صوره - إلا تعقد المادة والحركة . والإحساسات صدمات عصبية أولية بها نحصل على « مادة شعورية » وهذه المواد الشعورية ترتبط بعضها مع بعض بواسطة قوانين التداعى وبذلك نحصل على الصور الخيالية والمعانى المجردة والاستدلالات والأحكام .

ويرى كذلك أن ترقى الفكر إنما هو راجع إلى ترقى الجهاز العصبى وإلى ملاءمة تدريجية بين الكائن الحى وبين البيئة ، كما يشيد بنظرية التطور عند «دارون » - إذ كان معاصرا له - ويرى أن التطور فى جملته هو علاقة بين ظواهر خارجية وظواهر داخلية ، ذلك أن الظواهر الخارجية تؤثر في الجهاز العصبى ، والجهاز العصبى بدوره يؤثر فى الجانب الوجدانى والانفعالى عند الإنسان . وهو بذلك يبذل محاولة ابتدائية فى سبيل تفسير سلوك الإنسان على أساس من نشاط الجهاز العصبى .

« فردريك نيتشه » Nietzche (١٨٤٤ / ١٩٠٠م)

ألمانى - اهتم بالكتابة عن الإنسان ومصيره ، وعن أهمية الأخلاق وقيمتها وتأثيرها فى حياة البشر . قضى جزءا من حياته مريضا ، وأثر ذلك على فلسفته

ونظرته للحياة . أهم كتبه « ماوراء الخير والشر » أصدره عام ١٨٨٦م و « أصل الأخلاق » أصدره عام ١٨٨٧م . ويتألف مذهبه من قسمين أحدهما سلبى والآخر إيجابى :

فى القسم السلبى من فلسفته : يتوجه « نيتشه » بنقد عنيف للقيم الحضارية التى سادت أوربا فى القرن التاسع عشر ، ويتلخص هذا النقد فى كلمة واحدة «العدمية الأوربية » وهو يقول إن كل ثقافة تفترض « جدول قيم » أى عددا من الخيرات تعتبر أعظم الخيرات ويتجه إليها المجتمع قبل اتجاهه إلى المثل العليا ، و « جدول القيم » هذا إنما يكون صورة لأخلاق الناس الذين يصطفونه بل صورة لمزاجهم البدنى ، ومن هنا نشأت ثقافتان كبيرتان إحداهما ثقافة المنحطين المستضعفين ، والأخرى ثقافة الأقوياء السادة ، وجميع القيم التى اصطنعتها الحضارة الأوربية هى ثقافة منحطين ، وتعود بأصلها إلى الشعب اليهودى الذى هو شعب عبيد . وهذه الثقافة المنحطة يجب التخلى عنها ، ويجب تحطيم « جدول القيم » نتاج هذه الثقافة ، لأن هذا الجدول لا يلائم سوى الضعفاء المساكين .

وفى القسم الإيجابى من فلسفته : يشير إلى ثقافة السادة ، وهى مجموعة من المعتقدات والأخلاق يسمو بها الإنسان القوى ، والمبدأ المهيمن على هذه الأخلاق والمعتقدات هو مبدأ تأكيد القوة . إن القوة فى نظره موجودة ولسنا بمحتاجين أن نسوغ وجودها ، ذلك أنها تفرض نفسها . وهو يرى كذلك أن الحياة تتوق إلى الازدهار والانتشار ولو بالطغيان على الغير . وبسط السلطان عليه ، إن الحياة – من ثم – دافع إلى الحماسة وإلى الفتح . إن إرادة القوة هى التسمية الدقيقة والصحيحة لإرادة الحياة ، وكل إرادة قوة تذهب إلى أقصى مداها ، لأن الحياة لا تزدهر إلا بإخضاع ما حولها .

ومن هذا يهدف « نيتشه » إلى أن تنقلب القيم رأسا على عقب ، وهذا الانقلاب للقيم لازم بالضرورة ، ذلك أن إرادة القوة فردية فهى تحب ذاتها وتقسو على الغير ، بل تقسو على نفسها ، إذ ترى فى المخاطرة والألم ضرورة لها ، فيجب

أن نحب السلم كوسيلة لحرب جديدة ، ونحب السلم القصير أكثر من السلم الطويل، ذلك أن الحرب والشجاعة هما صانعا عظائم الأمور ، كما أن البطل الذى يقهر نفسه ويقهر غيره لا يطلب سعادة شخصية وإنما يخدم غاية تعلو عليه وهى إيجاد «الإنسان الأعلى » ، وهو صنف قوى من الناس .

إن الشفقة فى نظر « نيتشه » تستبقى الإنسان فى حالة من الضعف والمهانة بل تزيده ضعفا ومهانة ، وكما أن التطور والارتقاء وصل بالإنسان إلى الإنسان الراهن ، فكذلك يجب الذهاب إلى أبعد منه وهو « الإنسان الأعلى » إن الإنسان الراهن حبل مشدود بين الحيوان الأعجم والإنسان الأعلى ، وهذا الحبل مشدود فوق الهاوية .

إن نظرية التطور والارتقاء تحتم علينا قبول الحياة وتخلع عليها معنى ، وتعين لها غاية ، وهذه الغاية هى الحالة التى يبلغها الإنسان حيث ينبذ جدول القيم الراهنة في أوربا ، ويعود إلى جدول القيم الذى كان موجودا عند الشعوب العظيمة والشريفة التي خلقت قيمها ولم تتلق قيما من الخارج ، والإنسان الأعلى المنتظر سيفيد من مكتشفات العلم للسيادة على الطبيعة نفسها ، غير أنه يجب أن يتوقع آلاما شديدة فى صراعه المستمر ضد الضعفاء الذين يستخدمهم ، فقد يستطيعون أحيانا بفضل عددهم أو دهائهم أن يقهروه ، وعلى ذلك يجب أن يكون شعاره «الحياة الخطرة » ، ولما كانت غايته الفوز فإنه يأبى كل شفقة على المساكين ، ولما كان يلخص الإنسانية فى شخصه فإنه يسودها وهو مطمئن الضمير ، ويجد أن الفوز غبطته الكبرى ، ويثبت مصيره إلى الأبد بقبوله حياة البطولة إلى غير نهاية .

وسوف تظهر بعض أفكار « نيتشه » لدى بعض علماء النفس ، مثل فكرته فى تمجيد القوة والحرب والحياة الخطرة ستظهر فى أفكار مدرسة التحليل النفسى تحت اسم « دافع العدوان » . أما نقده للحضارة الأوربية فيظهر أيضا عند كثيرين من بينهم « فروم » .



الفصل الخامس

بدايات علم النفس التجريبى

مقدمة :

كان قدرا لعلم النفس أن يكون تأسيسه على يد العالم الألمانى « فونت » الذى أسس أول مختبر لعلم النفس فى مدينة « ليبزج » فى ألمانيا عام ١٨٧٩م . وبهذا استقل علم النفس عن - الأم الرؤوم - الفلسفة . وعن - الأب الرحيم - علم وظائف الأعضاء ، ذلك أن الفلسفة والفسيولوجيا هما الأصلان الأساسيان اللذان انبثق منهما علم النفس الحديث .

ولم يكن مجىء « فونت » إلى ساحة علم النفس بالحدث الفجائى ، فذلك أمر لا يحدث فى تاريخ العلم ، ولكن هذا الحدث كانت له مقدمات وممهدات ، هذه المقدمات والممهدات قام بها مجموعة من أفذاذ العلماء من مؤسسى علم النفس الحديث ، يزاحمون « فونت » مجده ، ويشاركونه مسئوليته .

وقد حمل لواء علم النفس الفلسفى بعض الفلاسفة ، كان معظمهم من الألمان ، أما لواء علم النفس التجريبى فقد حمله مجموعة من العلماء ، جاء غالبيتهم من مجال علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) ، وكانوا جميعا - وهذا أمر نتوقف عنده - من الألمان . وأسهم الفسيولوجيون الألمان فى بناء علم النفس التجريبى وتحريره من الفسيولوحيا ، وكانت هذه الأحداث الجسام فى نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين .

وهكذا شهد القرن التاسع عشر تحرير علم النفس من الفلسفة ، حيث كف الفلاسفة عن الجلوس على كراسى علماء النفس تاركين تلك الكراسى لأصحابها ، كذلك

شـهـدت أواخـر القـرن التـاسع عـشـر وأوائل القـرن العـشـرين تحـرير علم النفس من الفسيولوجيا ليصبح علما مستقلا . وكانت حركة التحرير هذه على أيدى العلماء الألمان .

لكن ظهور ألمانيا مسهمة رئيسية - بل وحيدة - فى نشأة علم النفس الحديث ظاهـرة تسـتـحق أن يقف عندها المؤرخ المدقق ، ويسـأل : لماذا ألمانيـا ؟ وهو سـؤال سوف نتعرض للإجابة عليه بعد أن نتحدث عن كبار العلماء الذين تحملوا قبل « فونت » ومعه مسئولية قيام علم النفس الحديث ، والرأى فى هؤلاء العلماء الذين نحرر عنهم هذا الفصل أنهم دللوا على مقدرة رفيعة تجلت فى أعمالهم العلمية الباهرة ومواهبهم المتعددة واهتماماتهم البالغة الاتساع ، فكان كل واحد منهم « رجلا ومدرسة » فحق لمؤرخ علم النفس أن يفخر بهم .

هذا وقد لفتت الأنظار نحو دراسات علم النفس التجريبى الفسيولوجى مـلاحظتـان أبداهمـا اثنان من علمـاء الفلك ، حـيث لاحظ الفلكى الإنجليـزى «ماسكيلين » Maskelyne عام ١٧٩٥م أن مساعده أخطأ فى حساب الوقت الذى يستغرقه أحد الأفلاك فى المرور من نقطة إلى أخرى ، وقد حذر الفلكى مساعده ونبهه إلى مراعاة الدقة وأخفق المساعد فى تحقيق الدقة رغم هذا التحذير .

وبعد عشـرين عـامـا اهتم « بسل » Bessel أحد الفلكيين الألمان - وتلمـيـذ "ماسكيلين" - بدراسة أخطاء القياس التى تحدث عند ملاحظة الأفلاك وتبين له أن هذه الأخطاء تحدث عند جـميع الفلكيين ، وتوصل من ذلك إلى وجـود فـوارق بين الفلكيين فى دقـة مـلاحظة الأفـلاك ، وهذا الأمـر وإن كـان يبـدو غـيـر ذى أهـمـيـة بالنسبة لعلم النفس التجريبى إلا أنه لفت الأنظار إلى مسألتين :

الأولى : أن على علم الفلك أن يأخذ فى الحسبان أخطاء الملاحظ البشرى .

الثانى : أنه إذا كان للبشر أخطاء فى الملاحظة فإن على العلوم الأخرى غير الفلك - علم النفس خاصة - أن تأخذ ذلك فى الحسبان .

وهكذا التفتت الأنظار إلى دراسة العمليات الإحساسية ، والعمليات الإدراكية،

وذلك من خلال دراسة وظائف الأعضاء الحاسة ، واهتم علماء النفس الألمان بهذه الدراسات الفسيولوجية .

والعلماء الألمان الذين أسهموا فى تأسيس علم النفس التجريبى المعتمد على أسس من الفسيولوجيا نتحدث عنهم فى النقط التالية :

« جوهان هربارت » Herbart (١٧٧٦ / ١٨٤١م)

ألمانى - فيلسوف وعالم نفس وعالم تربية . درس على يد الفيلسوف الألمانى الكبير « فختة » (١٧٦٢ / ١٨١٤م) وعمل بالتدريس بجامعة « جوتنجن » الشهيرة ، ثم خلف عملاق الفلسفة الألمانية « كنط » فى جامعة « كونجسبرج » ، ثم عاد إلى جامعة « جوتنجن » بعد ذلك وبقى هناك إلى آخر حياته .

ورغم تأثير « كنط » الساحق على عصر « هربارت » إلا أن « هربارت » تأثر تأثراً شديدا بالفيلسوف الألمانى الكبير « لينبز » .

وقبل أن نعرض لموجز نظريته النفسية ، نستعرض أهم إسهامات « هربرت » البارزة فى علم النفس والتى تتمثل فيما يلى :

- نشر عام ١٨١٦م ما يقال إنه أول كتاب علمى يحمل اسم علم النفس فى عنوانه ، وهو كتاب « مرجع فى علم النفس : محاولة لتأسيس علم النفس على التجربة والميتافيزيقا والرياضة ».

- إنكاره ، فكرة الملكات العقلية والتى تقول باستقلال القوى العقلية للإنسان كل قوة عن الأخرى .

- محاولته إقامة علم النفس على أسس موضوعية .

- إشارته إلى مصطلحات مثل : عتبة الشعور واللاشعور والوعى .

- تطبيق مبادئ علم النفس على التربية .

وفى إطار نظريته الفلسفية النفسية صور « هربارت » العقل على أساس أنه

مجموعة من الأفكار الابتدائية ، وهذه الأفكار مختلفة فى قوتها وشدتها ، وبعض هذه الأفكار هى من القوة والشدة بحيث تستطيع أن تعبر عتبة الشعور ، وبعض هذه الأفكار تبقى فى اللاشعور ، كما أشار « هربارت » إلى أن الأفكار ليس من الممكن أن تتمحى تماما (هذا ما أشار إليه « فرويد » فيما بعد). كما يرى أن الأفكار يتصارع بعضها مع بعض ، فتبقى الأفكار فى الشعور وتطرد بعض الأفكار إلى اللاشعور ، وهو فى هذا يحاول تطبيق مبادئ الرياضة عند العالم الإنجليزى الشهير « إسحق نيوتن » على مجال علم النفس ، ويعرض عملية التفاعل بين الأفكار فى صورة معادلات رياضية ، ويوضح كيفية دخول الأفكار إلى الشعور وخروجها منه .

وعلى هذا فإن « هربارت » يرى أنه يمكن دراسة الشعور دراسة رياضية دون الحاجة إلى وحدة ثابتة تقاس بها الظواهر قياسا مباشراً ، ويكفى - فى نظره - أن تعد هذه الظواهر بمثابة قوى متعارضة ، فإذا تعارضت ظاهرتان أو فكرتان بالقوة نفسها أوقفت كل منهما الأخرى ، وانتقلتا من مجال الشعور إلى مجال اللاشعور ، وإذا ما قويت فكرة فى اللاشعور خرجت إلى مجال الشعور .

ومن الصعوبات التى نواجهها عند دراسة نظرية « هربارت » هى أنه لا يمكن أن نربط بين أفكاره الرياضية أو النظرية ، وبين التطبيقات العملية فى الحياة ، كما أنه زاد الأمر صعوبة بقوله : إن كل عقل يعد بمثابة كائن فريد يختلف عن العقول الأخرى ، ولا يمكن أن يلقى ضوءا على طبيعة الوظيفة العقلية ، بل إنه أشار إلى أن حساباته فى « الرياضيات النفسية » هى حسابات تصورية تقوم على مسلمات افتراضية ولا تحتاج إلى براهين .

وقد هاجم « فونت » - عميد السيكولوجيين الألمان - نظرية « هربارت » فى علم النفس على أساس أنها نظرية فلسفية وغير عملية ، كما أن الخطأ الأساسى فى نظريته هو عدم إقدامه على دراسة وقياس العمليات النفسية كما سيفعل «فخنر» بعد سنوات ليست بالطويلة .

ولكن علينا أن نضع نصب أعيننا أن « هربارت » لم يكن يهدف إلى الدراسة التجريبية للعقل ، ولكن كانت وجهة نظره هى المزاوجة بين علم النفس والرياضة ، فعندما يحلل الشخص معادلة رياضية ، أو يبرهن نظرية « فيثاغورث » فإنه يتعامل مع وحدات مجردة ، ويمكن القول : إن جبر وهندسة « إقليدس » مثل علم النفس «الهربرتى » نسق فرض استنباطى قائم على قواعد أولية من المسلمات ، ولكن ثمة فرق أساسى وهو أنه يمكن عن طريق الجبر أن نحسب ثمن الفاكهة ، ويمكن عن طريق الهندسة أن نمسح الطرق أو نرسم مسارات الأفلاك بينما من غير الممكن تطبيق القوانين الرياضية فى مجال علم النفس .

« جوهانز مولر » Muller (١٨٠١ / ١٨٥٨م)

(وهو غير جورج موللر أستاذ جوتنجن والذى نعرض له بعد قليل) .

ألمانى، هو أحد رواد ومؤسسى علم النفس التجريبى الفسيولوجى . درس فى جامعة « برلين » وجامعة « بون » حيث عمل بالتدريس – ثم انتقل للعمل بالتدريس بجامعة « برلين » ليرتقى كرسى الأستاذية للتشريح والفسيولوجيا ، حيث أصبح حجة عصره فى الفسيولوجيا ، كما أنه أول من لقب « أستاذ فى الفسيولوجيا » ، وله تأثير بالغ الأهمية ، ويكفى أن نعدد من بين تلاميذه العالم الألمانى « هلمهولتز»

وأعظم كتبه على الإطلاق (أسس الفسيولوجيا) أصدره فى المدة من ١٨٣٣ إلى ١٨٤٠م ، وقد حاول « موللر » فى هذا الكتاب أن يقيم الفسيولوجيا علماً مستقلاً عن الطب . وتوصل إلى نظرية أسماها « الطاقات الخاصة للأعصاب » ويمكن تلخيصها فى النقط الآتية :

* أن العوامل الخارجية تحدث الإحساسات المختلفة فى كل عضو حساس ، وذلك طبقا للطبيعة الخاصة بكل عصب .

* أن العوامل الداخلية تحدث الإحساسات المختلفة فى كل عضو حساس حسب ما يخصه .

* أن العصب الخاص بكل عضو حساس هو مختص لنوع معين من الإحساس فقط ، وهذا العصب الخاص لا يتناسب مع بقية الأعضاء الحساسة ، وعلى ذلك فإن كل عصب لا يستطيع أن يحل محل عصب آخر أو يؤدى وظيفته .

وعلى هذا يرى « موللر » أن النشاط العصبى للإنسان يتشكل من أعصاب يتخصص كل عصب فى نشاط معين ، وعلى ذلك فإن الضرب على جزء من الجسم يؤدى إلى أن عصب الجلد يشعر بالألم ، وكذلك إذا دقت الأجراس فإن عصب الأذن يشعر بالصوت ، فإذا سطعت الأضواء فإن عصب العين يشعر بالضوء ، أى أن كل عصب له وظيفته الخاصة ، بغض النظر عما يحيط به من مثيرات ، ولا يستجيب إلا للمثيرات الخاصة به فقط دون غيرها ، وهذه المثيرات قد تكون خارجية ، وقد تكون داخلية ، ولا يمكن لعصب أن يقوم بوظيفة العصب الآخر .

وقد تساءل « موللر » هل الذى يحدث الإحساس هو العصب ؟ أى : هل للعصب طاقات إحساسية خاصة أم أن المخ هو الذى يحدث الإحساس وأن العصب مجرد أداة نقل ؟ . ويفضل « موللر » الرأى بأن الأعصاب لها طاقات إحساسية خاصة وتلك هى نظريته الأساسية فى علم النفس التجريبى الفسيولوجى .

« أرنست فبر » Weber (١٧٩٥ / ١٨٨٧م)

(أو « وبر » كما يسمى فى بعض الأحيان) .

ألمانى - عالم كبير درس التشريح والفسيولوجيا ، عمل بالتدريس بجامعة «ليبزج» الشهيرة منذ عام ١٨١٧م ، وهى السنة التى وصل فيها « فخنر » إلى «ليبزج» لدراسة الطب . وقد اهتم فى بحوثه بموضوع السيكوفيزيقا . وأهم كتبه «دراسة اللمس فسيولوجيا وتشريحيا » أصدره عام ١٨٣٤م ، « اللمس والحساسية العامة » أصدره عام ١٨٤٦م .

وإسهامات فبر بالاشتراك مع فخنر الذى سنعرض له توا فى مجال علم النفس التجريبى عديدة وعلى رأسها دراسة السيكوفيزيقا Psychophysics

والسيكوفيزيقا هى لفظ للدلالة على العلاقات بين الماديات أى المثيرات الحسية وبين اللاماديات أى الإحساسات الشعورية بهذه المثيرات .

ومن أهم التعبيرات المستخدمة فى مجال السيكوفيزيقا تعبير العتبة الفارقة Differential Limen (DL) وتسمى أحيانا أدنى فرق ملاحظ Just noticable Difference (JND) وتعنى العتبة الفارقة أو أدنى فرق ملاحظ أقل نقطة إحساسية عندها يشعر المفحوص بأن ثمة تغيرا فى إحساسه بشدة هذا المثير سواء كان هذا التغير بالزيادة أو النقصان . (لاحظ أن تعبير العتبة الفارقة أو أدنى فرق ملاحظ تعبيران مترادفان) .

وهناك قانون بخصوص العتبة الفارقة أو أدنى فرق ملاحظ نوضحه فى السياق التالى :

لنعط مثالا عمليا يبين أن أدنى فرق ملاحظ الذى هو تعبير مرادف للعتبة الفارقة فى تجربة افتراضية تقوم على أن يجلس المفحوص فى حجرة مظلمة لعدة دقائق حتى يتكيف مع الظلام ، ثم نضىء لمبة ذات قوة ٦٠ وات ، ثم فى الخطوة الثانية نضىء لمبة أخرى من نفس القوة أى ٦٠ وات كذلك ، بحيث تكون قوة الإضاءة فى الغرفة ١٢٠ وات . ثم فى الخطوة الثالثة نضىء لمبة ثالثة من قوة ٦٠ وات أيضا بحيث تصبح قوة الإضاءة فى الغرفة ١٨٠ وات (٦٠ + ٦٠ + ٦٠) . وفى الخطوة الرابعة نضيف لمبة من قوة ٦٠ وات بحيث تصبح الإضاءة فى الغرفة بقوة ٢٤٠ وات (٦٠ + ٦٠ + ٦٠ + ٦٠) وفى هذه الخطوات الأربع من التوقع أن يشعر المفحوص بكل زيادة فى قوة المثير الضوئى ، أما إذا أضفنا كخطوة خامسة لمبة ذات قوة ٦٠ وات يعنى تصبح الإضاءة ٣٠٠ وات (٦٠ × ٥) فإن المفحوص لا يلاحظ الفرق عند الزيادة الخامسة ، وإذا زدنا لمبة سادسة أو سابعة من نفس القوة فإن المفحوص سيجد صعوبة فى ملاحظة الفرق أو ربما لا يلاحظ إطلاقا . معنى ذلك أن المفحوص يلاحظ الزيادة فى شدة المثير الضوئى فى المرات الأولى بوضوح ولكنه فى

المرات الأخيرة لن يلاحظ ذلك . وعلى هذا فإن نفس الزيادة فى المثير الضوئى لا تؤدى إلى نفس الإحساس بالفرق كلما تدرجنا فى زيادة شدة المثير أى أن المفحوص يلاحظ الفرق فى الزيادات الأولى ، ولكنه لا يلاحظه فى الزيادات الأخيرة .

وقد وضع " فبر " قانونا يصف العلاقة الرياضية بين JND أدنى أو أقل فرق ملاحظ وبين المثير الأصلى . ويصف هذا القانون النسبية فى التمييز relative dis-crimnalility (أى اختلاف التمييز لنفس الزيادة في المثير فى المراحل المختلفة من هذه الزيادة) وتوصل إلى علاقة رياضية بين أقل أو أدنى فرق ملاحظ JND وبين شدة المثير وعبر عن ذلك فى قانون منطوقة كالآتى :

$$\frac{\Delta 1}{1} = K$$

حيث إن

$\Delta 1$ = التغير فى مقدار المثير الأصلى الذى يمكن ملاحظته ؛ أو التغير فى شدة المثير المحدثة لتغير فى إحساس المفحوص أو التغير فى شدة المثير المحدثة لأدنى فرق ملاحظ .

1 = شدة المثير أو قوة المثير أو ما نسميه المثير المعيارى

K = ثابت يرجع إلى المفحوص أو ما يمكن أن نسميه مشروطية الإحساس ويسمى ثابت فبر .

وتشير مراجع علم النفس التجريبى إلى أن ثابت فبر يبلغ ۰۲, فى حالة المثيرات الوزنية ، معنى ذلك أن المفحوص عندما يطلب منه أن يميز بين وزنتين إحداهما ۱۰۰ جرام كمثير معيارى أو قياسى فإن المثير المقارن يجب أن يكون فى هذه الحالة ۱۰۲ جرام أو أكثر ، أو أن يكون ۹۸ جرام جراماً أو أقل . كما يشار إلى أن ثابت وبر يبلغ ۰۱٦, فى حالة المثيرات الضوئية ، وكذلك يبلغ ۲۳, فى حالة المثيرات الصوتية .

وفيما يلى بعض الأمثلة التوضيحية

مثال (١) لمثيرات وزنية (بالجرام)

1 شدة المثير	Δ 1 التغير فى شدة المثير	K ثابت وبر	ملحوظة
٣٠٠	٦	,٠٢	يقصد بالتغير فى شدة
٢٠٠	٤	,٠٢	المثير الزيادة
١٠٠	٢	,٠٢	أو النقصان
٥٠	١	,٠٢	

مثال (٢) لمثيرات صوتية (بالديسبل)

1 شدة المثير	Δ 1 التغير فى شدة المثير	K ثابت وبر	ملحوظة
١٠	٣,٣	,٣٣	التغير فى شدة المثير
٢٠	٦,٦	,٣٣	يكون بالزيادة أو
٣٠	٩,٩	,٣٣	بالنقصان
٤٠	١٣,٢	,٣٣	
٥٠	١٦,٥	,٣٣	
٦٠	١٩,٥	,٣٣	
٧٠	٢٣,١	,٣٣	
٨٠	٢٦,٤	,٣٣	
٩٠	٢٩,٧	,٣٣	
١٠٠	٣٣	,٣٣	

ملحوظة : الديسبل وحدة لقياس الصوت ، فمثلا الحد الأدنى لسماع صوت هو فى حدود ١٠ أو ١٥ ديسبل وصوت حفيف الشجر حوالى ٢٠ ديسبل وصوت الحديث العادى حوالى ٥٠ ديسبل وهكذا .

ولكن ثمة سؤال مركزى فى هذا المقام وهو : هل ثابت " وبر " ثابت ودقيق فعلا ؟ ذلك لأن تقديرات المفحوصين لإحساساتهم تخضع للعديد من الأخطاء مثل الخطأ الثابت والتقديرات الذاتية التي تتأثر بحالة المفحوص الجسمية والنفسية لكن يمكن القول بوجه عام أنه إذا كانت التجربة المختبرية خالية قدر الإمكان من أخطاء التجريب فإن ثابت " فبر " موثوق ويعتمد عليه ولكن بشرط أن تكون شدة المثير فى مجال إحساس المفحوص أى تتجاوز العتبة المطلقة أو الدنيا ، وكذلك تقل عن العتبة القصوى ، أى أن القانون الخاص بثابت " وبر " لا يتحقق إذا كانت شدة المثير منخفضة جدا ، أو كانت شدة المثير مرتفعة جدا .

كذلك اهتم « فبر » بدراسة الإحساس حيث يرى أن اللمس لا يوجد إلا على الجلد ، بينما الحساسية العامة توجد على الجلد وعلى مناطق داخلية أخرى فى الجسم . وقد لاحظ « فبر » كذلك أن الأعصاب الحسية لا تغذى سطح الجسم فحسب ، بل تغذى جانبا كبيراً من داخل الجسم كذلك ، وتتضمن الحساسية العامة الألم والأحاسيس الواردة من العضلات ، بينما اللمس فى حد ذاته يشمل الإحساس بالضغط والحرارة والمكان . وكان يرى أن الإحساس بالمكان أقل أولية كما أنه يختلف عن الإحساس بالضغط ، وأنه يعتمد إلى حد ما علي نشاط العقل .

كما كان « فبر » شديد الاهتمام بدراسة الحرارة وقدم عدة ملاحظات أصيلة فى هذا المقام ، فكان يعد الحرارة والبرودة طرفين متناقضين فى سلسلة حسية واحدة مشابهة للأبيض والأسود فى مجال الإبصار اللونى . كما توفر على دراسة التجربة الشهيرة التى تتعلق بدراسة تناقض الإحساس بالحرارة حيث توضع اليدان فى ماء بارد بعد أن تكون إحداهما وضعت فى ماء ساخن ، وهذا يؤدى بالتالى إلى تناقض أو تداخل الإحساس بالحرارة والبرودة - وما تزال هذه التجربة الكلاسكية تدرس للطلاب فى مختبرات علم النفس .

ومما يجدر ذكره اهتمام « فبر » بدراسة الإحساس اللمسى مختبرياً ، وذلك عن طريق ما أسماه الفرجار الحسى أو المجس الثنائى aethesiometer وهذه التجربة هى الأخرى كلاسيكية فى المختبر النفسى حيث تحاول التجربة تحديد البعد الأدنى الذى يجب أن تكون عليه نقطتان على سطح الجلد ليشعر المفحوص (الذى يلبس نظارة إعتام) بأنهما نقطتان وليستا نقطة نقطة واحدة . وقد تبين له أن التمييز الحسى الذى يتمثل فى إدراك هاتين النقطتين يختلف باختلاف مناطق الجلد المختلفة حيث تبين أن سطح الجلد فى منطقة أطراف الأصابع تبلغ قدرتها على التمييز أكثر بكثير من منطقة سطح الجلد فى الجزء الأعلى من الذراع .

ويتبين من العرض السابق أنه يحق لمؤرخ علم النفس أن يعد « فبر » واحداً من كبار مؤسسى علم النفس التجريبى الحديث ، وذلك بسبب الموضوعات التى طرقها والمناهج البحثية البالغة الدقة التى اتخذها .

« جوستاف فخنر » Fechner (١٨٠١ / ١٨٨٧م)

ألمانى فيلسوف وعالم ، التحق بجامعة « ليبزج » لدراسة الطب عام ١٨١٧م حيث درس على يد « فبر » الفسيولوجيا . وكان « فخنر » طالبا متفوقا متميزا فى تلك الدروس ، وكان قادرا على قراءة مراجع الفسيولوجيا بمفرده ، وبعد حصوله على درجته فى الطب ، أكمل دراسته فى مجال الفيزياء والرياضيات ، كما عمل أثناء دراسته فى ترجمة الكتب الفرنسية فى مجال الفيزياء والكيمياء إلى اللغة الألمانية مما زاد من معارفه الفيزيائية .

عين أستاذا فى « ليبزج » حيث قضى بقية حياته يدرس « الفيزياء » ، وقد ترك العمل مدة أربع سنوات من ١٨٣٩ إلى ١٨٤٣ إذ أصيب بمرض فى عينيه بسبب تحديقه فى قرص الشمس أثناء دراسته لتجربة الأثر الباقى . وفى هذه المدة كانت والدته تقرأ عليه الكتب ثم عاد بعد الشفاء إلى عمله .

أهم كتبه على الإطلاق « مبادئ السيكوفيزيقا » أصدره عام ١٨٦٠م والذى يعده مؤرخ علم النفس المدقق حدثا هاما فى تاريخ علم النفس التجريبى ، يتساوى فى أهميته مع إنشاء مختبر « فونت » عام ١٨٧٩م ، ذلك أن « فخنز » توصل فيه إلى عدد من القوانين الرياضية فى مجال السيكوفيزيقا ، وذلك لاتباعه مجموعة من المناهج المضبوطة فى علم النفس .

هذا وأصدر « فخنر » كتابا عام ١٨٥١ أسماه « زندأفستا Zend Avesta » (وزندافستا عبارة تعنى أمور السماء وما بعد الموت وهى عبارة ذات أصل فارسى) وقد ظهرت فى هذا الكتاب آراء « فخنر » ليس لكونه عالماً ولكن لكونه فيلسوفاً . وقد ذهب فى هذا الكتاب إلى أن الميتافيزيقا علم حق ، يقوم على حاجة فينا للإيمان بمبدأ عدل وخير ، وأن الدليل الأقوى على وجود مبدأ العدل والخير هو أننا نبحث عنه ، ولا يسعنا إلا أن نبحث عنه ثم إن معيار الإيمان فائدته العملية ، ولهذا الإيمان فائدة كبرى ، ومنهج الميتافيزيقا عند « فخنر » هو تصور العالم على مثال وجداننا ، فكما أن موضوع العلم هو الطبيعة المنظورة المعلومة بالملاحظة والاستقراء ، فكذلك موضوع الميتافيزيقا باطن الطبيعة ويدرك بالحدس الباطن ، هذا الحدس الباطن يظهرنا على أن الوجدان هو عبارة عن تقدم أفعال من الماضى إلى الحاضر إلى المستقبل ، وأن الوجدان هو أيضا كثرة أفعال فى وحدة غير متجزئة ، فالعالم - من ثمة - وحدة حاصلة على الخصائص نفسها (أى التوحد وعدم التجزئة) ، إلا أن العالم غير محدود ، فالعالم وجدان واسع جدا ترعاه العناية الإلهية . وكل وجدان إنسانى فردى رغم تميزه عن غيره فى الظاهر فهو مظهر من الوجدان الكلى ، أما الكواكب فهى ملائكة السماء ، وأما الأرض فهى متنفس لهذا الوجدان الكلى ، ذلك أن الأرض كل منظم بفصولها المطردة ، وأجزاؤها نفوس الموجودات الأرضية من نبات وحيوان وإنسان ، ونفوس الموجودات هذه هى بالنسبة للأرض مثل أفكارنا بالنسبة لأنفسنا .

وهذا المذهب الفلسفى مذهب غريب غامض ، وهو ليس أكثر من رؤية شخصية يشرح فيها « فخنر » علاقة الإنسان بالعالم الذى يعيش فيه ، وقد أوردناه

لنبين تنوع اهتمامات عالم كبير مثل « فخنر » درس الطب والتشريح والفسيولوجيا والفيزياء والرياضيات ، ولكنه مع ذلك أقبل على قراءات موسعة فى الفلسفة بحيث أدلى بدلوه فيها .

أما إنجاز « فخنر » الحقيقى فى علم النفس فهو فى مجال القياس الكمى للأمور النفسية واعتلاء الجسر الذى يربط بين علم النفس والعلوم الطبيعية وهو «السيكوفيزيقا » ، وقد أورد فى كتابه « مبادئ السيكوفيزيقا » الذى أشرنا إليه عرضا لبحوثه تلك ، ومن أهم القوانين التي توصل إليها « فخنر » قانون يربط بين المثير والإحساس بمعادلة رياضية ، ولعل القانون هو أول قانون – فيما نعلم – يحدد العلاقة بين متغيرين فى علم النفس ويحكمها رياضيا .

وطبقا لقانون « فخنر » الذى يسمى أحيانا قانون « فبر – فخنر » فإن شدة الإحساس تتناسب تناسبا طرديا مع لوغاريتم شدة المثير .

وقد تصور « فخنر » أن أقل أو أدنى فرق ملاحظ JND ، وهو تسمية مرادفة للعتبة الفارقة ، يمكن أن يمثل تدرجات أو نقاطا أو مستويات intervals متساوية على مقياس نفسانى إحساسى ، نبينها كما يلى :

أ – أن نقطة الصفر أو نقطة البداية ، أى النقطة الأولى على هذا المقياس المدرج هى العتبة المطلقة أو الدنيا والتي تعنى الحد الأدنى للمثير الذى عنده يشعر المفحوص بأقل قدر من الإحساس بهذا المثير ، وهذا المثير قد يكون سمعيا أو صوتياً .

ب – أن النقطة الثانية على هذا المقياس المدرج هى قيمة واحد أدنى فرق ملاحظ JND أو عتبة فارقة واحدة مضافة إلى العتبة المطلقة ، أى = العتبة المطلقة+ واحد فرق ملاحظ (1 JND)

جـ – أن النقطة الثالثة على هذا المقياس المدرج هى قيمتان لأدنى فرق ملاحظ JND أو عتبتان فارقتان مضافتان إلى العتبة المطلقة أى = العتبة المطلقة + اثنان أدنى فرق ملاحظ (2 JND)

جـ - أن النقطة الرابعة على هذا المقياس المدرج هى ثلاث قيم لأدنى فرق ملاحظ JND أو ثلاث عتبات فارقة مضافة إلى العتبة المطلقة أى = العتبة المطلقة+ ٣ أدنى فرق ملاحظ (3 JND)

معنى ذلك أن "فخنر" يرى أن ثمة زيادة فى وحدات الإحساس بالمثير وأن هذه الزيادة تتحرك بمعدل عتبة فارقة أو واحد أدنى فرق ملاحظ (1 JND) فى كل مرة، كما أنه يمكن تمثيل هذه الزيادة على مقياس متدرج . والأمر الأساسى الذى لاحظه "فخنر" أن هذه الزيادة المطردة فى وحدات الإحساس بالمثير والتى تمثل على مقياس متدرج لا تتساوى مع الزيادة الفعلية فى المثير . وبقول آخر أن الزيادة فى شدة المثير لا تتساوى مع الزيادة فى الإحساس به . بل إن الزيادة الفعلية فى المثير تزيد فعلا عن الإحساس به ، وافترض فخنر بناء على ذلك أن الزيادة فى المثير تؤدى إلى زيادة فى الإحساس بما يساوى لوغاريتم المثير وليس بما يساوى الزيادة فى المثير .

ونلخص قانون "فخنر" فنقول أن الإحساس الذى تحدثه الزيادة فى مثير معين لا يساوى الزيادة فى شدة المثير ولكن هذا الإحساس يساوى لوغاريتم المثير"

وفيما يلى مثال افتراضى توضيحى باستخدام مثير صوتى مقدرة قوته بالديسبل

عدد وحدات الفرق الملاحظ فوق العتبة المطلقة الدنيا JNDS	شدة المثير 1	المقدار الثابت K	حد الفرق الملاحظ JND = 1+K	القيمة اللوغاريتمية لشدة المثير Log 1
صفر	١٠	٣,٣٠	١٣,٣٠	١
١	١٣,٣٠	٤,٣٩	١٧,٦٩	١,١٢
٢	١٧,٦٩	٥,٨٤	٢٣,٥٣	١,٢٥
٣	٢٣,٥٣	٧,٧٦	٣١,٢٩	١,٣٧
٤	٣١,٢٩	١٠,٣٣	٤١,٦٢	١,٥٠
٥	٤١,٦٢	١٣,٧٣	٥٥,٣٥	١,٦٢
٦	٥٥,٣٥	١٨,٢٧	٧٣,٦٢	١,٧٤
٧	٧٣,٦٢	٢٤,٢٩	٧٩,٩١	١,٨٧
٨	٩٧,٩١	٣٢,٣١	١٣٠,٢٢	١,٩٩
٩	١٣٠,٢٢	٤٢,٩٧	١٧٣,١٩	٢,١١
١٠	١٧٣,١٩	٥٧,١٥	٢٣٠,٤٣	٢,٢٤

وإسهامات " فخنر " فى مجال "السيكوفيزيقا " كثيرة ، منها اهتمامه بدراسة خلط اللونين الأبيض والأسود وما ينتج عن هذا الخلط من درجات اللون الرمادى المختلفة ، هذا إلى جانب اكتشافه ما يسمى « تناقض فخنر Fechner Paradox » وهو زيادة لمعان شكل من الأشكال عندما تغلق إحدى العينين فجأة ونراه بعين واحدة بعد أن كنا نراه بكلتا العينين .

وعلى هذا يمكن القول : إن « فخنر » كان من أوائل العلماء الذين تصدوا لدراسة النواحى النفسية دراسة تجريبية رغم أنه قد ساد العصر الذى عاش فيه «فخنر» سيطرة رأى الفيلسوف الألمانى الكبير « كنط » ، هذا الرأى الذى مؤداه : أن موضوع علم النفس لا مضمون له ولا يمكن دراسته تجريبيا ، وأن العقل لا يمكن

إخضاعه للدراسة المختبرية ، كما لا يمكن التوصل إلى قوانين بشأنه ، وقد بين «فخنر » - رغم نفوذ « كنط » على الحياة العلمية فى ألمانيا آنذاك - خطأ هذه الافتراضات وهنا تكمن عظمته .

« ردلف لوتزى » Lotze (١٨١٧ / ١٨٨١م)

ألمانى - درس الطب فى « ليبزج » وتدرب على يد « فبر » و « فخنر » على دراسة السيكوفيزيقا ، كما درس الفلسفة ، ثم مارس الطب لفترة يسيرة ، ثم عمل فى « ليبزج » فى إحدى وظائف التدريس ، وفى عام ١٨٤٤م خلف « هربارت » على كرسى الفلسفة بجامعة "جوتنجن" ، وهو لم يبلغ الثلاثين بعد ، وبقى فى هذا الكرسى حتى خلفه « جورج موللر » ، ولا يعد « لوتزى » مؤسسا أو مجددا لحركة من حركات علم النفس التجريبى فى ألمانيا ولكن دراسته وكتاباته أثرت على عدد من العلماء الشبان الألمان ، منهم « جورج موللر » .

أصدر فى عام ١٨٥٢م كتابا بعنوان « علم النفس الطبى أو فسيولوجيا الأرواح» حاول فيه المزج بين العلم والفلسفة رغم أنه يميل إلى الجانب الفلسفى ، وفى محاولته هذه قدم العديد من المعلومات الفسيولوجية للبرهنة على الصلة بين ما هو فسيولوجى وبين ما هو نفسى ، وأشار إلى أن الأحداث المحيطة بنا فى البيئة تثير الحواس الداخلية التى تتصل بالخلايا والتى تتصل بالمركز الرئيسى وهو الروح ، والجهاز العصبى فى نظر « لوتزى » هو موجه آلى لحركات الكائن الحى ، كذلك رأى أن الإحساسات هى خبرات يتم إحداثها بواسطة المركز أو الروح .

وكذلك أشار « لوتزى » إلى أن الخبرة الحسية هى أمور كيفية وليست كمية ، ومثال ذلك أن إدراك المسافة هو عملية تقوم عن طريق « مادة خام » يستقبلها الفرد خلال جهازه العصبى ، ويتم تفسير هذه المادة الخام وتأويلها على أساس الخبرة السابقة . وهكذا تكون العملية كلها بمثابة « حدس تجريبى للمسافة ».

وقد عارض « لوتزى » المادية والتفسيرات الميكانيكية للعمليات النفسية ، إذ

يرى أن المركز الرئيسى أو الروح تهيمن على نشاط العمليات العقلية والحسية ، وهذه الهيمنة هى أساس النشاط النفسى فى نظره .

ومهما يكن من أمر فإن «.لوتزى » انشغل بتفسير النشاط النفسى والجسمى متجاويا بذلك مع طبيعة العصر الذى انشغل فيه علماء النفس الألمان بتفسير العلاقة بين النفس والجسم .

" هرمان هلمهولتز " Helmoholtz (١٨٣١ / ١٨٩٤م)

ألمانى - باحث مبرز فى الفسيولوجيا والفيزياء وعلم النفس وهو واحد من شوامخ العلماء فى القرن التاسع عشر ، وبالرغم من أن علم النفس يأتى فى الترتيب الثالث لاهتماماته ، إلا أنه مع « فخنر » و « وفونت » يشكلون « مثلث الريادة » فى علم النفس التجريبى .

درس الطب فى « برلين » وعمل جراحا فى الجيش لمدة سبع سنوات ، وأثناء تلك السنوات تابع دراساته.وبحوثه فى الفيزياء والفسيولوجيا ، وبعد ترك الجيش عمل فى وظائف الأستاذية فى جامعات « كونسبرج » و « بون » و « هيدلبرج » و «برلين» حيث كان أستاذا للفسيولوجيا .

من أهم أعماله العلمية كتابه عن « فسيولوجيا البصريات » ، وهو فى ثلاثة أجزاء أصدره فى المدة من ١٨٥٦ إلى ١٨٦٦م . ولهذا الكتاب أهمية فى مجال البصريات فقد ترجم إلى الإنجليزية بعد ٦٠ سنة من صدوره ، هذا إلى جانب أنه اخترع أداة تستخدم للفحص المجهرى للعين ، وقد نشر كتابا عام ١٨٦٣م بعنوان «الإحساس بالنغم » ضمنه عديدا من بحوثه ، إلى جانب مجموعة من الدراسات النظرية القيمة ، وله عديد من المقالات فى موضوعات متنوعة مثل : الأثر الباقى ، عمي الألوان ، حركة العين .

وقد اهتم أيضا بدراسة زمن الرجع عند الإنسان حيث توصل إلى أن ثمة فروقا كبيرة بين الأفراد فى زمن الرجع إلى جانب وجود فروق فى زمن الرجع عند الفرد نفسه طبقا للمواقف النفسية المختلفة .

واهتم كذلك بدراسة تحديد سرعة الانتقال فى الأعصاب الحسية ، فقد كان " هلمهولتز" ينبه المفحوص فى أصبع القدم وفى جزء من الفخذ وفى اليد ويلاحظ الفروق فى زمن الاستجابة فى تلك المناطق ، ويتبين له أن سرعة الانتقال عبر العصب تتراوح بين ٥٠ ، ١٠٠ قدم فى الثانية عند الإنسان . وظهر كذلك أن جسم الإنسان لا يطيع عقله فى التو واللحظة ، فالحركة تتبع الفكرة بدلا من حدوثهما فى وقت واحد كما ساد الاعتقاد .

وتعد نظرية « هيلمهولتز » فى الرؤية - أهم إنجازاته فى مجال علم النفس التجريبى الفسيولوجى ، حيث تفترض هذه النظرية أن هناك ثلاثة مستقبلات لونية أساسية فى العين وهى تتعلق بأولويات فيزيائية لألوان ثلاثة هى الأحمر والأخضر والأزرق ، وكل مستقبل من هذه المستقبلات الثلاثة يمكن أن يستثار بأى موجة ضوئية مهما كان طولها ، ولكن هذا المستقبل لا يستجيب إلا لموجة ذات طول معين هى الأكثر تأثيرا فى هذا المستقبل ، واللون الأبيض يعد بمثابة استثارة متزامنة لكل المستقبلات الثلاثة ، كما أن إحساس الشخص باللون يتحدد بسبب عمل المخروطات أو بسبب خلط اللونين ، فمثلا اللون الأصفر خليط من الأحمر والأخضر ، ويكون عمى الألوان بسبب عدم وجود المخروطات نهائيا حيث يكون عمى الألوان كاملا أو قد يكون عمى الألوان جزئيا بسبب عدم وجود عملية الخلط بين لونين معينين .

وقد تبين خلال الستينيات من هذا القرن دقة هذه النظرية ، إذ اكتشفت ثلاثة أنواع من المخروطات يستجيب بعضها لموجات اللون الأحمر وبعضها لموجات اللون الأخضر وبعضها لموجات اللون الأزرق .

كما أسهم « هيلمهولتز » فى تقديم نظرية عن السمع تقوم على فكرة الرنين resonance ترى هذه النظرية أن الموجات المختلفة من الصوت إنما تتحدد بوجود ألياف قصيرة للغشاء القاعدى لطبلة الأذن هذه الألياف القصيرة مهيأة لالتقاط درجات الصوت المرتفعة . وهناك ألياف طويلة مهيأة لالتقاط درجات الصوت المنخفضة ، أما الألياف الموجودة فى وسط غشاء الطبلة فهى مهيأة لالتقاط درجات

الصوت المتوسطة . وعلي هذا فالإحساس بشدة الصوت تحدده الخلايا العصبية فى الأماكن المختلفة من غشاء الطبلة وحساسية كل مجموعة من هذه الخلايا لدرجة من درجات الصوت .

ويمكن القول بأن « هلمهولتز » يعد من مؤسسى علم النفس التجريبى الحديث ، حيث درس مجالات متعددة وأقام « جسراً علميا » بين علم وظائف الأعضاء وعلم النفس ، واكتشف عددا كبيرا من المعارف ، وألف واحدا من أعظم المراجع ، فحق لمؤرخ علم النفس أن يعده من أبرز شخصيات علم النفس الحديث.

« أولد هرنج » Hering (١٨٣٤ / ١٩١٨م)

ألمانى - درس الطب فى « ليبزج » وتأثر بكل من « فيبر » و « فخنر » وعمل أستاذا للفسيولوجيا بجامعات « فينا » و « براجو » و « ليبزج » - ويعد « هرنج » أحد العلماء الذين أسهموا فى تأسيس علم النفس التجريبى على أسس فسيولوجية. أهم كتبه « إسهامات فى الفسيولوجيا » أصدره فى المدة من ١٨٦١ إلى ١٨٦٤م .

وقد أشار فى دراساته إلى نقط خلاف بينه وبين « هلمهولتز » - الذى كان معاصرا له - حيث أشار إلى أن إدراك المسافة هو أمر ولادى وليس مكتسبا خلافا لما ذهب إليه « هلمهولتز » فى دراساته عن فسيولوجيا الإبصار . وقد اهتم فى منهجه البحثى بالملاحظة والوصف الذاتى للخبرات الحسية ، واتجاهه « السليقى nativist » هذا أثر بدوره على « ستمف » وعلى الظاهراتية والجشطلت .

كما اشتهر بنظرية فى الرؤية خالف فيها « هلمهولتز » وتدور الفكرة الأساسية فى نظرية « هرنج » على أن هناك ثلاثة ميكانزمات تتحكم فى رؤية الألوان ، وكل واحد من هذه الميكانزمات الثلاثة يستجيب بطريقة مختلفة لشدة الضوء وللموجات الضوئية ، فمثلا ميكانزم الأسود سالب ، والأبيض موجب ، يستجيب إيجابيا للضوء الأبيض ويستجيب سلبيا عند غياب هذا الضوء . والميكانزم الثانى الأحمر موجب والأخضر سالب يستجيب إيجابيا للأحمر وسلبيا للأخضر ،

والميكانزم الثالث أزرق سالب وأصفر موجب ، يستجيب سلبيا للأزرق وإيجابيا للأصفر . هذه الاستجابات تكون بسبب بناء أو هدم الكيماويات الشبكية ، حيث إن الألوان الأبيض والأصفر والأحمر ، تؤدى إلى استجابة بناء لهذه الكيماويات ، بينما الألوان الأسود والأزرق والأخضر تؤدى إلى استجابة هدم لهذه الكيماويات . ويرى « هرنج » : أن جميع احتمالات الإحساسات اللونية المختلفة هى نتيجة خلط أو تجميع من هذه الميكانزمات اللونية الثلاثة.

كذلك اهتم « هرنج » بدراسة الرؤية فى العمق حيث أعد أسلوبا معمليا لدراسة رؤية العمق باستخدام كلتا العينين أو باستخدام عين واحدة ، ويتطلب إجراء هذه التجربة المعملية أن ينظر المفحوص من خلال أنبوب ويركز نظره على نقطة معينة داخل هذا الأنبوب ، ويقوم الفاحص بإسقاط كرات صغيرة أمام وخلف هذه النقطة المعينة ويطلب من المفحوص تحديد المسافة التى تبعدها كل كرة خلف أو أمام تلك النقطة المعينة .

وكذلك اشتهر « خداع هرنج » وهو أحد الخداعات الإدراكية الهندسية ، وفيه نرسم خطين أفقيين متوازيين ، وعند نقطة فى وسط هذين الخطين نرسم خطوطا هندسية متقاربة وملتقية عند هذه النقطة ، وعند النظر إلى هذا الشكل يحدث خداع يظهر بسببه الخطان المتوازيان وكأن بهما انبعاجا إلى الخارج .

كما اشتهر « هرنج » بإعداده « الألوان الرمادية » وهى مجموعة تتكون من خمسين لوحة مرتبة بحيث تكون سلسلة تبدأ من الأبيض الناصع إلى الأسود القاتم - ويبين فيها تدرج الألوان .

« جورج موللر » Muller (١٨٥٠ / ١٩٣٤م)

ألمانى درس التاريخ والفلسفة فى « ليبزج » و « جوتنجن » حيث حصل على الدكتوراه من « جوتنجن » تحت إشراف « لوتزى » وعمل معظم حياته « بجوتنجن » ومن أشهر تلاميذه « كولبة » (يبدو أن كرسى الأستاذية بجامعة « جوتنجن » كان له

أهمية خاصة حيث تعاقب عليه ثلاثة من الكبار : شغله « هربارت » ثمانى سنوات ، وشغله « لوتزى » سبعاً وثلاثين سنة ، وشغله موللر أربعين سنه) .

ويعد « موللر » أحد مؤسسى علم النفس التجريبى فقد أسهم إسهاما رئيسيا فى دراسات السيكوفيزيقا والذاكرة والإدراك . وكان عالما تجريبيا صرفا ، انصرف إلى العمل التجريبى أكثر من التأليف ، ومن أهم كتبه « مواقف وحقائق عن الطرق السيكوفيزيقية » أصدره عام ١٩٠٣ م ، وأشار فيه إلى ما اعتبره مسلمة أساسية فى « السيكوفيزيقا » عن العلاقة بين الإحساس والمثير العصبى ، وهذه المسلمة تدور حول مبدأ المماثلة isomorphy الذى اتخذته مدرسة الجشطلت واحداً من مبادئها فيما بعد .

وقد بدأت دراسات « موللر » عن الذاكرة من حيث انتهى العالم الألمانى الكبير « إبنجهاوس » - الذى نعرض له فى فصل قادم - كما أن « موللر » حسَّن فى أساليب دراسة الذاكرة باستخدام أدوات تسمح بسرعات متفاوتة لعرض المادة المطلوب حفظها وباستخدام قواعد فى اختيار المقاطع . وتبين من هذه الدراسات أن اتجاه الشخص الذى يقوم بالحفظ أمر عظيم الأهمية ، فالعزم على الحفظ عامل أساسى فى الإسراع ، أما مجرد التكرار دون مثل هذا العزم فلا فائدة منه ، كما وجد أن مقدمة ومؤخرة القائمة أسرع فى الحفظ من وسطها .

كذلك وجد أنه عندما يوجد فى المادة المطلوب تعلمها ترابطان متساويان فى القوة ولكن أحدهما اقدم من الآخر ، فإن التكرار يثبت الأقدم أكثر مما يثبت الأحدث . ، كما أنه من الأوفر أن تحفظ المادة كلا (أى بقراءة المادة كلها من البداية للنهاية دون تجزئة) بدلا من أن تحفظ على أجزاء (أى بتقسيمها إلى أجزاء وحفظ كل جزء على حدة قبل الانتقال إلى الجزء الذى يليه) .

ومن أهم النتائج التى توصل إليها « موللر » أنه حتى فى تجارب تعلم الكلمات « عديمة المعنى » فإن عملية التعلم ليست آلية ميكانيكية بل إن المفحوص يقوم بعملية تنظيم واع ونشط أثناء عملية التعلم .

كذلك اشتهر موللر بالخداع الإدراكى ، المعروف لدى طلاب علم النفس بخداع « موللر – لاير » حيث يعرض على المفحوص خطين أفقيين متساويين فى الطول متوازيين كذلك ورسم على جانبى الخط الأعلى سهمان داخليان وعلى جانبى الخط الأسفل سهمان خارجيان بحيث يبدو للمفحوص الخط الأسفل وكأنه أطول من الخط الأعلى .

وكان « موللر » شيئا أشبه بمعهد ، وكان المختبر النفسى الذى يعمل به فى «جوتنجن » مختبرا نشيطا ، ومن الدلائل على أهمية « موللر » فى ذلك الوقت أن «كهلر » أحد مؤسسى الجشطلت اتصل به وناقشه حول جدة النظرية الجشطلتية .

« هجو منستربرج » Munsterberg (١٨٦٣ / ١٩١٦م)

ألمانى – رائد علم النفس التطبيقى ، حصل على الدكتوراه عام ١٨٨٥م من «ليبزج » تحت إشراف « فونت » ، كما درس الطب ، واتجه إلى بحوث حول موضوع الإرادة ولكن « فونت » تحفظ على مثل هذه الدراسات لكنه استمر فيها ضاربا عرض الحائط بآراء « فونت » ، ونشر كتابا صغيرا عن الإرادة عام ١٨٨٨م .

وعمل أستاذا بجامعة « فيبورج » حيث أسس مختبراً ، وبدأ فى نشر بحوث عن إدراك الزمن والانتباه والتعلم والتذكر ، ولقيت هذه البحوث اهتماما من الوسط السيكولوجى .

قابل عالم النفس الأمريكى الشهير « وليم جيمس » فى المؤتمر الدولى الأول لعلم النفس الذى عقد فى « باريس » عام ١٨٨٩ م وبعدها استدعاه « وليم جيمس » إلى أمريكا عام ١٨٩٢ م ليتولى الإشراف على مختبر علم النفس فى جامعة «هارفارد » حيث قام بهذه المهمة خير قيام . ثم عاد إلى جامعته « فريبورج » بألمانيا عام ١٨٩٥ م ، وفى عام ١٨٩٧ م عاد إلى جامعة « هارفارد » حيث قضى بقية حياته عدا زيارات متقطعة لأوربا .

والخاصية التي تميز « منستربرج » هى أنه كان صاحب رؤية بالغة العمق

والاتساع فى علم النفس ، حيث كانت رؤيته أن علم النفس يجب أن يكون له جوانب تطبيقية فى المجالات الاجتماعية والتجارية والتربوية ، ورغم أنه كان من الناحية الاسمية من رجالات « فونت » ومدرسته البنائية إلا أنه اندمج فى علم النفس الأمريكى بما ساد فيه من ا تجاهات « وظيفية ».

وأثناء وجوده فى أمريكا ، اهتم بدراسة اللغة الإنجليزية والكتابة بها ، وفى السنوات الأولى من القرن العشرين عد المتحدث باسم العلاقات الألمانية الأمريكية - الطيبة فى ذلك الوقت - ولقى الكثير من مظاهر التكريم الرسمى من ألمانيا ومن أمريكا ، ولكن ما لبث أن تغيرت الرياح على غير ما يهوى عندما ظهرت ألمانيا فى صورة الدولة المعتدية وهى تدخل الحرب العالمية الأولى ، وكان « منستربرج » هدفا لحملات دعائية على أساس أنه رمز للغطرسة الألمانية ، ولعل هذا كان من أسباب مرضه المفاجئ وموته عام ١٩١٦ م قبل أن تدخل أمريكا الحرب ضد ألمانيا بعام واحد .

وهو مثل بعض علماء عصره اعتبر نفسه فيلسوفا واعتبر أن علم النفس هو فى مجال الفلسفة كما اهتم بمفهوم الغرض ، واعتبر أن الغرض أمر أساسى لفهم الكائن الحى ومحاولة هذا الكائن تحقيق أهدافه تحركه إلى ذلك الإرادة .

وقد أنشأ فى « مختبره النفسى » فى « هارفارد » أقساماً لدراسة الإنسان وأقساماً لدراسة الحيوان ، وكان هذا المختبر من أكثر المراكز العلمية إنتاجا ، وكانت مناهجه البحثية تجميعية تربط بين البنائية عند « فونت » وبين علم نفس الفعل عند « برنتانو » ، وكذلك تفسيره لعلم النفس على أنه علم يهتم بدراسة الغرض .

وقد تنوعت كتاباته حيث إنه أصدر كتبا فى معظم مجالات علم النفس التطبيقى ، إذ أصدر عام ١٩١٣ م كتابا بعنوان « علم النفس والصناعة » وأصدر عام ١٩١٦ م كتابا بعنوان « علم النفس العام والتطبيقى » كذلك اهتم بالعلاج النفسى وذلك من واقع خبرته من حيث كونه عالماً نفسياً وطبيباً حيث نشر عام ١٩٠٩ م

دراسات عن العلاج النفسى عارض فيها نظرية « فرويد » فى الدوافع اللاشعورية . كما اهتم بدراسات علم النفس القضائى حيث أعد جهازا بسيطا لكشف الكذب .

ومن هذا يتضح أن « منستربرج » رجل متعدد المواهب والاهتمامات وكان مسهماً أيماً إسهام فى نهضة علم النفس الأمريكى ، إلا أن مؤرخى علم النفس الأمريكيين لا يعطونه ما يستحقه من قدر ، وذلك قد يرجع إلى أن أعماله العلمية كانت من التنوع والاتساع بحيث شابها شىء من السطحية .

وبعد هذا العرض الذى تناولنا فيه باختصار بعض إنجازات العلماء الألمان مؤسسى علم النفس التجريبى الحديث ، ينبغى أن نذكر أنه على رأس هذه الحركة يقف « فونت » مؤسس علم النفس وعميد المدرسة البنائية ، وقد آثرنا تأخيره والحديث عنه عند التعرض للمدرسة البنائية ، وكذلك بجانب هؤلاء الألمان يوجد «أبنجهاوس » صاحب دراسات التذكر وصاحب المقاطع عديمة المعنى التى أحدثت انقلابا ، وهو الآخر نؤخر الحديث عنه لنتناوله عضواً رئيسياً فى المدرسة الترابطية.

لماذا ألمانيا ؟

ويبرز سؤال هام فى ذهن قارئ مدقق لتاريخ علم النفس ، وهو: لماذا ألمانيا؟ وتفسير هذا السؤال أنه برز رجال عظام أسهموا فى دفع علم النفس التجريبى خطوات إلى الأمام ، وكان معظم هؤلاء الرجال من الذين تمرسوا بعلم النفس الفسيولوجى وكانوا جميعا من الألمان ، فلماذا الألمان ؟ لماذا تصدت ألمانيا لقيادة حركة علم النفس التجريبى التى بدأت فى القرن التاسع عشر ؟ - ونقول فى الإجابة على هذا السؤال : إن الاهتمام بالبحث العلمى كان موجودا فى دول غرب أوربا فى القرن التاسع عشر ، وكانت هذه الدول - ألمانيا وإنجلترار وفرنسا - تشتعل بالحماسة والتفاؤل لكن كان قدر علم النفس التجريبى أن يظهر فى ألمانيا وليس فى فرنسا أو إنجلترا ، لأن ألمانيا كانت مهيأة أكثر من غيرها لهذا الدور للأسباب الآتية :

* أن الاتجاه الذى كان يسود التفكير الألمانى فى ذلك الوقت هو الاتجاه التجريبى بينما كان يسود الاتجاه التحليلى فى إنجلترا وفرنسا .

* نتيجة سيادة التفكير التجريبى فى ألمانيا زاد الاهتمام بدراسة علم الحياة وعلم الحيوان وعلم وظائف الأعضاء وهى كلها تخدم علم النفس وتتصل به .

* كان الاهتمام بعلم وظائف الأعضاء محدودا فى إنجلترا وفرنسا لأنه لا يتفق مع الاتجاه السائد فيهما .

* كانت الاهتمامات العملية فى فرنسا وإنجلترا محصورة فى المجالات التكميمية (الكيمياء والفيزياء) ، ولكن الاهتمامات العملية فى ألمانيا كانت متنوعة متوسعة ، وشملت مجالات متنوعة مثل التاريخ والمنطق والأدب وعلم الأصوات وفقه اللغة والآثار إلخ .

* كان التفكير الإنجليزى والتفكير الفرنسى يتشكك فى إمكانية دراسة موضوع بالغ التعقيد ، مثل العقل الإنسانى عكس الحال بالنسبة للتفكير الألمانى الذى تقدم متحمسا لهذه المهمة مستخدما الأدوات العلمية لهذه الدراسة .

* أضف إلى هذا كله أن ألمانيا كانت زاخرة بالعديد من الجامعات - بأكثر من إنجلترا وفرنسا - وكان أستاذ الجامعة فى ألمانيا يحظى بالتقدير الأدبى والمادى ، وكان من تقاليد الجامعات الألمانية أن يواصل الأساتذة إجراء بحوثهم أثناء توليهم مناصبهم ، وكانت هذه التقاليد تدفع بالأساتذة إلى تقديم كل ما هو جديد ومثير .

وكان معنى هذا كله تقدما فى معظم مجالات العلوم ومن بينها - لحسن الحظ - مجال علم النفس ، وليس بغريب أن يكون معظم رجال علم النفس التجريبى من أساتذة الجامعات .

وليس معنى هذا أن علم النفس الحديث حرم من جهود علماء آخرين من إنجلترا وفرنسا وروسيا وأمريكا ، فكل من هذه البلاد أسهمت بقدر أو بآخر فى «نهضة علم النفس» ، ولكن حدث التأسيس هو حدث ينسب الفضل فيه لألمانيا .

وفى ختام هذا الفصل يثار سؤال وهو : ما البداية الرسمية لعلم النفس التجريبى ؟ . نقول فى الإجابة على هذا السؤال إنه عند حلول منتصف القرن التاسع عشر طبقت مناهج البحث فى العلوم الطبيعية على البحث فى مجال الظواهر العقلية ، وصاحب ذلك تطوير فى تلك المناهج البحثية ، وإحداث العديد من الأجهزة العلمية المختبرية ، وحررت أمهات الكتب ، وانتشر الاهتمام بعلم النفس. كان هذا بمثابة التمهيد ولكن البداية كانت على يد « فونت » .

ويجمع مؤرخو علم النفس على أن « فونت » هو مؤسس علم النفس من حيث كونه علما أكاديميا وهو كذلك مؤسس المدرسة البنائية ، وكذلك يعد « فونت » عالم النفس التجريبى الأول لأنه أول من أسس مختبرا فى « ليبزج » عام ١٨٧٩ م . وقد شملت دراساته موضوعات متعددة ، مثل الإحساس والإدراك والانتباه وزمن الرجع ، وهذه الموضوعات أصبحت موضوعات رئيسية فى كتب علم النفس التى حررت بعد « فونت » ، ولا تزال حتى الآن تشغل هذه الموضوعات الحيز الأكبر من جسم علم النفس المعاصر .

ولماذا ينسب فضل تأسيس علم النفس إلى « فونت » وليس إلى « فخنر » ؟ مع أن « فخنر » أصدر كتابه العظيم عن « السيكوفيزيقا » عام ١٨٦٠ م قبل سنوات من اشتغال « فونت » بعلم النفس وقبل سنوات طويلة من قيام « فونت » بتأسيس مختبره كما أن جميع المؤرخين يجمعون على عملقة « فخنر » لكن العلماء - رغم ذلك - يرون أن « فونت » هو المؤسس الحقيقى ليس لأنه أول من أنشأ مختبرا فحسب ، ولكن لأنه كان قادرا على تنظيم معلوماته وعرضها ونشرها ، ذلك أنه عندما تولد الأفكار العظيمة فإنها تكون بحاجة إلى رجل عظيم يأخذها بين يديه وينظمها ويضيف إليها ما يعتقد أنه ضرورى ، ويعلنها ويؤكد عليها ويؤسس علما قائما بذاته ، وكان هذا الرجل هو « فونت » .

★ ★ ★

الفصل السادس

تاريخ حركة القياس النفسى

أعدت الاختبارات النفسية بقصد أن تستخدم لتحديد الفروق بين الأفراد فى المجالات المختلفة ، مثل الذكاء والاستعدادات الخاصة والتحصيل والصلاحية للمهن المختلفة ، إلى جانب قياس سمات الشخصية ، كذلك استخدمت الاختبارات النفسية فى دراسات تتعلق بنمو القدرات العقلية عبر المراحل العمرية المختلفة ، وفى دراسات تتعلق بدراسة الفروق بين الجنسين أو بين الأجناس ، تلك الفروق التى تعزى إلى أسباب وراثية أو بيئية ، هذا بالإضافة إلى تحديد الموهوبين وضعاف العقول والتمييز بين الأسوياء والمرضى وبين العصابيين والذهانيين .

وقد أسهم فى نشأة حركة القياس النفسى مجموعة من العلماء من أوربا وأمريكا ، وهم لم يكوّنوا مدرسة بالمعنى الحرفى والتقليدى لهذه الكلمة ، ولكنهم ساروا فى طريق واحد وغلبت عليهم الاتجاهات العملية الإنشائية وكانوا (أمبيريقيين) أكثر منهم منظرين .

القرن التاسع عشر :

وفى القرن التاسع عشر ظهر مجموعة من العلماء اهتموا بدراسة الفروق الفردية ، ورغم أن حقيقة هذه الفروق كانت واضحة للعيان لعدة قرون ، إلا أن هذه الحقيقة لم تدرس بصورة علمية إلا منذ قرن تقريبا .

ويعد « فرانسيس جالتون » (١٨٢٢ / ١٩١١م) أول عالم يقوم بدراسة الفروق الفردية ، ورغم أن الفلاسفة والعلماء فى العصور القديمة وبداية العصر الحديث

لاحظوا تلك الفروق . والمهم أن هؤلاء العلماء الذين لاحظوا هذه الفروق انقسموا إلى فريقين : الفريق الأول لم يهتم بتصميم اختبارات لقياس الفروق الفردية ، حيث أنهم كانوا ينتمون إلى جمهرة المفكرين غير التجريبيين الذين اهتموا بالتأملات الأرائكية ، ودراسة أمور فلسفية مثل العلاقات بين النفس والجسم ، الازدواجية بين العقل والمادة ، ودراسة موضوع طبيعة الأفكار أو الملكات العقلية أو الترابط الفلسفى الكلاسيكى ، أما الفريق الثانى فإنه برغم انتمائه إلى الأسلوب التجريبى إلا أن اتجاههم كان جهة النظريات العامة وليس باتجاه دراسة الفروق فى القدرات النفسية .

ومن الفريق الثانى - وهم من الألمان - « فبر » الذي اهتم بدراسة أمور مثل تمييز الأوزان أو الرؤية أو السمع والعتبات الحسية ، أى أن إسهاماته تتمثل أساسا فى السيكوفيزيقا وقوانينها ، ومن هذا الفريق الثانى أيضا « فخنر » الذى واصل طريق « فبر » واهتم بتطبيق الأساليب المضبوطة فى العلوم الطبيعية على « العالم الداخلى » للإنسان . وثالث هذا الفريق « جوهانز مولر » الذى اهتم بدراسة فسيولوجيا العمليات الحسية والإدراكية .

ورغم أن « فونت » (١٨٣٢ / ١٩٢٠م) - مؤسس علم النفس ، وصاحب المختبر النفسى الأول - درس عن طريق الاستبطان عمليات مثل الرؤية والسمع وزمن الرجع فإنه مثل سابقيه أهمل دراسة الفروق النفسية ، وهذا ما تداركه تلميذه « جيمس كاتل » (١٨٦٠ / ١٩٤٤م) الذى مضى فى تلك الدراسة رغم عدم موافقة أستاذه على ذلك .

وفى فرنسا ظهر فى القرن التاسع عشر اهتمام بدراسة الفروق النفسية فى القدرات العقلية ، وكان من بين المهتمين بذلك عالمان تجدر الإشارة إليهما عند تاريخ حركة القياس النفسى ، الأول : هو الطبيب النفسى الفرنسى جين أسكيرول Esquirol (١٧٧٢ / ١٨٤٠م) ، والثانى هو الطبيب الفرنسى « إدوارد سيجون » Seguin (١٨١٢ / ١٨٨٠م) حيث اهتما بدراسة الضعف العقلى والمرض العقلى .

وقد أشار « أسكيرول » فى بادئ الأمر إلى الفرق بين المرض العقلى والضعف العقلى ، حيث كانت هذه الحالات اللاسوية يخلط بينها ، كذلك ميز بين مستويات الضعف العقلى من العته والبله والهوك ، ومع ذلك فإن « أسكيرول » رغم تحديده لهذه المستويات لم يستطع أن يميز بينها ، وأن يحدد خصائص كل مستوى ، وكان إخفاقه يرجع إلى أنه اتخذ مقاييس جسمية مثل شكل الجمجمة وكبر حجمها، وهذا ما نجح فيه بعد ذلك « بينيه » .

ومع ذلك فقد تنبه « أسكيرول » إلى حقيقة أساسية ، وهى أن تطور اللغة والقدرة على استخدامها هو محك سيكولوجى دقيق لتحديد مستويات الضعف العقلى ، وهذه الملاحظة التى انتبه إليها « أسكيرول » ذات أهمية تاريخية . لأنه بعد مرور عشرات السنين فإن استخدام اللغة وفهمها عده علماء القياس المحدثون وعلى رأسهم «تيرمان » Terman (١٨٧٧ / ١٩٥٦م) القياس الأمريكى الشهير، أحد المظاهر الهامة – إن لم يكن أهم مظهر – فى قياس الذكاء .

ويعد « سيجون » من الرواد فى أساليب تدريب المتخلفين عقليا حيث عين فى ١٨٤٧م مسئولا عن مدرسة لضعاف العقول ، بالإضافة إلى أنه كان يدير مدرسة خاصة لهذا الغرض . وقد اعتقد « سيجون » أن مساعدة ضعاف العقول وتدريبهم يمكن أن يؤدى إلى تحسن سلوكهم ، وإلى تحسن فى استغلال قدراتهم العقلية المحدودة ، وإلى تحسين فى قدراتهم على التعامل بالمال ، هذا إلى جانب تحسين فى شخصياتهم بوجه عام . وقد أصدر عام ١٨٤٦م كتابا عن « البله وعلاجه » وهو مثل « أسكيرول » حاول معرفة الأسس التى يمكن – بناءً عليها – التمييز بين مستويات الضعف العقلى المختلفة .

وفى عام ١٨٤٨م هاجر « أسكيرول » إلى الولايات المتحدة ، حيث تابع الاهتمام بدراسة موضوع ضعاف العقول ، وقد أثبتت طرقه العلاجية التدريبية لضعاف العقول فائدتها فى تحقيق بعض أهدافها من تحسن سلوكهم وقدراتهم وشخصياتهم .

كما أن اهتمامنا بكل من « أسكيرول » و « سيجون » راجع إلى جهودهما التى كانت ترمى إلى إيجاد محك سيكولوجى يمكن بواسطته التمييز بين المستويات المختلفة للضعف العقلى ، وإلى جانب ذلك فما هو جدير بالذكر أن « سيجون » مازال مشهورا حتى الآن بلوحة الأشكال التى تنسب إليه والتى تكونُ جزءا مهما من اختبارات الذكاء العملية .

وعلى هذا يتضح أنه حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر لم يكن ثمة اهتمام بدراسة الفروق دراسة علمية يعتد بها ، وعدم الاهتمام هذا أدى بلاشك إلى تأخير ظهور مدرسة القياس النفسى ، ذلك أن القياس النفسى هو وسيلة دراسة هذه الفروق . وبالنسبة لـ « جالتون » الذى تأثر بالعلوم البيولوجية فإن دراسته للفروق الفردية كانت موجهة نحو النواحى البيولوجية وليست النواحى السيكولوجية.

وقد أشار « جالتون » إلى ذلك ، فى مقدمة كتابه الذى أصدره عام ١٨٨٣م بعنوان « دراسة الملكات الإنسانية » يشير إلى أن هدفه العام هو معرفة الخصائص الوراثية عند البشر ، ومعرفة الفروق الأساسية بين الأجناس المختلفة ، وذلك حتى يعرف إمكانية استئصال أو تغيير الاستعدادات المتدنية لبعض الأفراد ، وكذلك تحديد ما إذا كانت إجراءات الاستئصال هذه ممكنة ومعقولة بحيث يمكن تجنيب الأجيال المستقبلة مثل هذه الحالات من الاستعدادات المتدنية لبعض أفرادها . وهذا الاتجاه من « جالتون » يدل على اهتمامه الشديد بالبيولوجيا والوراثة ، كما أن مشكلة الأثر النسبى للوراثة والبيئة – التى مازال علماء النفس على اهتمام بها – من المشكلات التى دعت إلى إعداد اختبارات الذكاء .

ومما يجدر ذكره أن « جالتون » حاول قياس الذكاء عن طريق بعض المهارات الحسية الحركية ؛ لأنه افترض أن هذه المهارات ترتبط بالذكاء ، ورغم أنه تبين عدم وجود علاقة بين المهارات الحسية الحركية والذكاء إلا أن دراسات « جالتون » لفتت الأنظار إلى أهمية موضوع القياس النفسى .

القرن العشرون :

هذا وقد أسهم « كارل بيرسون » Pearson (١٨٥٧ / ١٩٣٦م) الإحصائى الإنجليزى الشهير ، فى دفع حركة القياس النفسى - وهو تلميذ « جالتون » المتأثر به تأثرا شديدا - حيث قدم إسهامات إحصائية عديدة فى مجالى علم النفس والبيولوجيا ، منها على سبيل المثال مفهوم الانحراف المعيارى كمقياس للتشتت ، كما طور اختبار « كا ٢ » لقياس حسن المطابقة ، هذا إلى جانب توصله لمعادلة حساب (معامل الارتباط) . هذا ولم يكن هدف « بيرسون » هو مجرد الوصول إلى معادلات إحصائية فقط ، ولكن كان هدفه الرئيسى تقديم أساليب إحصائية علمية يمكن أن تكون ذات فائدة فى معالجة البيانات ومعرفة العلاقات الارتباطية فى مجال علم النفس ، وهو إن لم يكن أسهم فى القياس النفسى بصورة مباشرة إلا أنه قدم الكثير من المعادلات الإحصائية التى استفاد منها رجال القياس النفسى فيما بعد .

ثم تابع « سبيرمان » Spearman (١٨٦٣ / ١٩٤٥م) الإحصائى الإنجليزى الخط نفسه الذى اتخذه « بيرسون » ، وقد اتجه « سبيرمان » إلى دراسة علم النفس على يد « فونت » فى ألمانيا ، وطوف بالجامعات الألمانية العريقة مثل «فرزبورج» و « برلين » و « جوتنجن » ونشر عام ١٩٤٥م أثناء وجوده فى ألمانيا مقالة هامة عن « قياس وتحديد الذكاء بطريقة موضوعية » ، وقد أشار فى مقالته هذه إلى التحليل العاملى كأسلوب إحصائى .

وتتمثل إسهاماته فى مجال القياس النفسى خاصة وعلم النفس عامة ، فى دراسته الموسعة عن التحليل العاملى وتقديمه نظرية العاملين الشهيرة فى الذكاء والتى تفترض وجود عامل عام مبثوث في كل نشاط عقلى ذكائى ، ثم عوامل نوعية يقتصر أثر كل منها على جانب عقلى واحد دون غيره .

أعمال « بينيه » :

وفى البدايات الأولى للقرن العشرين ظهرت أعمال الرائد الأول لمدرسة القياس النفسى وهو العالم الفرنسى « ألفرد بينيه » BINET (١٨٥٧ / ١٩١١م) ومن الصعب – فى عجالة كهذه – أن نوفى «بينيه» حقه فى التحدث عن إسهاماته وخدماته الجليلة لعلم النفس ، ولكن من المهم أن نذكر أن إسهام « بينيه » كان إسهاما واضحا ومتميزا ، حيث جمع فى مقياسه الشهير نتائج دراسات واسعة وتطبيقات وإجراءات تشير إلى دأب ومثابرة علمية قل أن تتكرر .

وكان « بينيه » واسع الاهتمامات ، فقد حصل على درجات علمية فى القانون وفى العلوم . ومن أهم الوظائف التي تقلدها أنه عين مديرا لمختبر علمى للفسيولوجيا فى جامعة السربون ، وأصدر عام ١٨٩٤ أول مجلة لعلم النفس فى فرنسا .

وإلى جانب ذلك نشر عددا كبيرا من الموضوعات فى مجالات علم النفس المختلفة . مثل التنويم المغناطيسى والقابلية للإيحاء ، وعلم النفس التجريبى وعلم النفس الفارق والاستدلال ، ومن أهم أعماله العلمية « سيكولوجية الاستدلال » الذى أصدره عام ١٨٨٦م و « الدراسة التجريبية للذكاء » الذى أصدره عام ١٩٠٣م .

هذا وقد عمل مع « بينيه » مجموعة من المساعدين على رأسهم عالم النفس « ثيودور سيمون Simon » (١٨٧٣ / ١٩٦١م) حيث عارضوا ما أعده جالتون » من اختبارات حسية مركبة لقياس الذكاء على أساس أن مثل هذه الاختبارات بالغة السهولة ولا يمكنها أن تميز بين الأفراد ، كما أنها لا تبرز الفروق الفردية بينهم ولا تتصل بالعمليات العقلية المعقدة والراقية ، وعن طريق هذه العمليات العقلية المعقدة والراقية – كما رأى « بينيه » – يمكن التمييز بين الأفراد ، وتبين الفروق فيما بينهم ، حيث إن هذه العمليات المعقدة والراقية هى التى تميز بين الأفراد بصورة دقيقة ومباشرة أثناء مناشط الحياة اليومية ، بينما تكون الفروق الحسية الحركية أقل من حيث مداها ، وكذلك اعتقد « بينيه » أن قياس العمليات الحسية الحركية يعطى

نتائج دقيقة ، ولكنه مع ذلك كان يريد أن يقيس العمليات العقلية العليا ، ولذا كان على استعداد للتضحية بالدقة التى يمكن الوصول إليها عن طريق قياس العمليات الحسية ، وذلك فى سبيل قياس - ولو بدقة أقل - العمليات العقلية المتكاملة عند الإنسان .

وعند قياس الوظائف العقلية العليا ، فإن الدقة المتناهية - ولو أنها مطلوبة - ليست ضرورية كما هى ضرورية فى قياس الوظائف الحسية الحركية البسيطة، وذلك بسبب أن الفروق الفردية يمكن ملاحظتها عند قياس الوظائف العقلية العليا ، وقد أعلن « بينيه » صراحة أن مقياسه ليس مقياساً بالمعنى الفيزيقى للمقياس الذى يقيس الأطوال والأوزان ، ولكن هدف هذا المقياس هو تصنيف الأفراد إلى مستويات متدرجة من الذكاء .

وقد اهتم « بينيه » ومساعدوه بدراسة طبيعية ومدى تعدد الوظائف العقلية من شخص إلى آخر ، وكذلك تحديد العلاقات المتداخلة بين الوظائف أو العمليات العقلية بعضها ببعض ، وعلى ذلك اتجه اهتمامهم إلى دراسة عمليات عقلية ، من بينها التذكر والانتباه والتخيل والفهم ، إلى جانب قوة الإرادة والقوة العضلية والحكم البصرى والقابلية للإيحاء ، وكانت هذه العمليات بمثابة الملكات التى يختلف كل فرد فيها عن الآخر ، كما أن معرفتها وتقديرها عند فرد معين تمكننا من التمييز بينه وبين الأفراد الآخرين .

وثمة كلمة عن اختبار « بينيه - سيمون » هذا الاختبار الرائد ، ففى عام ١٩٠٤م واتت الفرصة لهذين العالمين فى دراسة الفروق فى القدرة العقلية ، إذ كونت وزارة المعارف الفرنسية لجنة لدراسة وسائل التعليم للأطفال من ضعاف العقول فى مدارس باريس ، لأن هؤلاء الأطفال كانوا غير قادرين على استيعاب أساليب التدريس فى المدارس العادية ، وكانت الخطة هى « عزل » هؤلاء الطلاب من المدارس العامة وتلقينهم الدراسة فى مدارس خاصة بهم ، وكان القبول فى تلك المدارس الخاصة يتم عن طريق الفحص الطبى والنفسى ، وكانت الحاجة إلي

مقياس موضوعى لتحديد وانتقاء ضعاف العقول ملحة ، كما هو متوقع ، حيث كان اختيار ضعاف العقول بطريقة شخصية بواسطة خبراء أمراً تحفه الكثير من المخاطر والأخطار ، وهنا ظهرت طبعة ١٩٠٥م من اختبار « بينيه - سيمون » وهو أول أختبار ذكاء فى تاريخ حركة القياس النفسى ، وهدفه تحديد المستويات العقلية المختلفة .

وفى أثناء إعداد هذا الاختبار الأول التزم كل من « بينيه » ، و « سيمون » بدراسة وتحديد المشكلات العملية التى تنشأ من إعداد اختبار لقياس القدرات العقلية لطلاب المدارس ، وعن طريق هذا المقياس يمكن التمييز بين الشخص العادى وضعيف العقل .

وبالنسبة لهذا الاختبار الأول فقد طبق فى باريس تحت إشراف « بينيه » نفسه وطبق فى أماكن أخرى من أوربا . ونتيجة لهذه التطبيقات صدرت طبعة ١٩٠٨م حيث قام عدد من رجالات علم النفس بتطبيق هذا الاختبار فى بلادهم ، وخضعت هذه الطبعة كسابقتها للتنقيح والزيادة والتعديل . وصدرت الطبعة الأخيرة عام ١٩١١م - وكانت آخر أعمال ذلك الرجل العظيم فى مجال القياس النفسى لأنه توفى بعد الانتهاء منها .

ومما تجدر الإشارة إليه أن العلماء الذين أسهموا مع « بينيه » فى تطبيق الاختبار فى مراحله المختلفة هم : من بلجيكا « دجاند » ، ومن أمريكا « جودارد » ، ومن ألمانيا « بوبرتاج » ومن إيطاليا « فرارى » . ولعل هذا يبين عالمية الاهتمام بهذا الاختبار منذ ظهوره .

وعلى هذا يمكن القول : إن « بينيه » هو بالنسبة لعلم النفس رجل ومدرسة ، لم يشغل نفسه بالنظرية ولكنه شغل نفسه بإعداد اختباره وتنقيحه أكثر من مرة ، وكان مقياسه هدية إلى علم النفس لا تدانيها هدايا المنظرين الذين ملأوا صفحات كثيرة فى تنظير موضوع الذكاء دون أن يستطيعوا إعداد مقياس يصل إلى كفاءة مقياس « بينيه » الذى تمت صياغته فى وقت مبكر جدا من تاريخ علم النفس الحديث .

لمزيد من المعلومات اقرأ الحاشية (١) .

قياس الذكاء فى أمريكا :

وفى أمريكا يعد « كاتل » Cattel (١٨٦٠ / ١٩٤٤م) صاحب إسهامات فى حركة دراسة الفروق النفسية وقد عاصر « جالتون » - وإن كان أصغر منه سنا بكثير - وكان « كاتل » ثوريا في مواجهة مدرسة « فونت » البنائية التى كانت تعارض دراسة الفروق الفردية عن طريق الاختبارات النفسية ، وفى عام ١٨٩٠م صاغ «كاتل» تعبير الاختبار النفسى Mental test لأول مرة عندما وصف الاختبارات التى كان يستخدمها فى مختبر علم النفس بجامعة « بنسلفانيا » وكانت اختبارات «كاتل » تدور حول التذكر والتخيل وقوة البصر وقوة السمع والصور اللاحقة ورؤية الألوان وإدراك الأوزان وإدراك الوقت والحساسية للألم وإيقاع الحركة وزمن الرجع . وكانت دراسة زمن الرجع أهم تلك الدراسات بالنسبة لعلم النفس الفارق ، إلا أن دراسة زمن الرجع - رغم أنها تؤدى إلى نتائج دقيقة - لا تفيد فى دراسة العمليات العقلية العليا والراقية ، وقد تنبه « كاتل » إلى هذا الأمر ولكنه كان على يقين من أن قياس مثل هذه العمليات العقلية العليا يحتاج إلى مزيد من البحوث والدراسات .

وقد أشارت جمعية علم النفس الأمريكية (A P A) فى عام ١٨٩٥ م إلى أهمية دراسات الفروق الفردية ، وشكلت لجنة لهذا الغرض كان « كاتل » أحد أفرادها ، وكان هدف اللجنة تنمية دراسه الفروق الفردية بالتعاون مع مختبرات علم النفس الموجودة فى ذلك الوقت ، وفى عام ١٨٩٦ م قامت الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم بتكوين لجنة هدفها إعداد دراسة عن مسح اثنجرافى (يتعلق بالوصف الاجتماعى) عن الأجناس البيضاء فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وكان « كاتل » أحد أعضاء هذه اللجنة أيضا ، وهو الذى أكد على أهمية استخدام الاختبارات النفسية فى هذا المسح ، وذلك بالتعاون مع لجنة جمعية علم النفس الأمريكية السابق الإشارة إليها .

هذا ويجمع مؤرخو حركة القياس النفسى على أن التطور الكبير فى الاختبارات النفسية ودراسة الفروق فى الولايات المتحدة الأمريكية إنما حدث بعد أن عرفت الولايات المتحدة اختبار « بينيه - سيمون » بطبعاته المختلفة . وكما سبق أن ذكرنا أن « جودارد » Coddard (١٨٦٦ / ١٩٥٧م) أول من أعد هذا الاختبار للاستخدام فى الولايات المتحدة ، إذ نشر عام ١٩١١ م تقنينا لطبعة ١٩٠٨ م من الاختبار ، حيث كان « جودارد » فى ذلك الوقت مشرفا على أحد مختبرات علم النفس التابع لمدرسة لضعاف العقول فى ولاية « نيو جيرسى » الأمريكية ، وهكذا كان استخدام هذا الاختبار فى أمريكا فى انتقاء وتحديد ضعاف العقول هو الاستخدام نفسه فى فرنسا .

ومن الجدير بالذكر فى هذا المقام عالم النفس الأمريكى « لويس ترمان » Terman (١٨٧٧ / ١٩٥٦م) الأستاذ بجامعة «ستانفورد » الأمريكية الشهيرة ، والذى قام فى عام ١٩١٦ م بنشر طبعة أمريكية تحت رعاية جامعة « ستانفورد» من اختبار « بينيه » مع كتاب عن « قياس الذكاء » ، وعرض فى تلك الأعمال العلمية الهامة لمقياس « بينيه » ومعاييره وتعليماته وطريقة التصحيح ، وفى عام ١٩٣٧ صدرت طبعة جديدة ، وتوالت الطبعات باللغة الإنجليزية والترجمات باللغات الأخرى ، هذا وقد أسهمت مع « ترمان » زميلته « ميريل » Merril . ومازال هذا الاختبار يستخدم فى العيادات النفسية ومؤسسات الضعف العقلى ، ويتدرب عليه طلاب علم النفس فى معظم أنحاء العالم .

وفى عام ١٩١٦ م ظهرت حركة جديدة فى أمريكا تهدف إلى إعداد اختبارات جمعية لقياس الذكاء ، إذ من المعروف أن اختبار « بينيه » بمراجعاته المختلفة هو اختبار فردى يتطلب وقتا طويلا من المفحوص ومن الأخصائى النفسى ، وهذا من شأنه أن يجعل الاختبار غير مناسب ، إذا كان الأمر يتطلب قياس ذكاء أعداد كبيرة من الأفراد، وخاصة إذا كانت هذه الأعداد تتجاوز الآلاف ، كما هو الحال فى المدارس أو فى القوات المسلحة ، وهنا ظهرت الحاجة إلى إعداد اختبارات جمعية.

وعلى الفور شرع علماء النفس فى أمريكا فى دراسة العمليات العقلية التي يتطلبها النجاح فى العمل المدرسى عن طريق الاختبارات الجمعية ، ومهما يكن من أمر فإن إعداد الاختبارات الجمعية كان بمثابة نقلة فى مجال القياس النفسى . وهذا الاتجاه نحو إعداد اختبارات جمعية لقى تدعيما هائلا عندما دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٧م ، وكانت الحاجة ملحة إلى تجنيد وتدريب عدد كبير جدا من الجنود ، وقد وافقت الحكومة الأمريكية فى ذلك الوقت على اتخاذ الاختبارات النفسية وسيلة لقياس الذكاء والاستعدادات المهنية ، وقد دفع هذا الموقف حركة القياس الجمعى دفعة قوية بحيث توصل فريق من العلماء فى عام ١٩١٧م إلى إعداد اختبارى « ألفا وبيتا » Army Alpha and Beta tests وكان على رأس هذا الفريق « روبرت يركس » Yerks (١٨٧٦ / ١٩٥٦م) أستاذ علم النفس المقارن بجامعة « ييل » الأمريكية ، والضابط فى الجيش الأمريكى ، ومما يجدر ذكره أن عددا من علماء النفس عمل فى الجيش الأمريكى فى ذلك الوقت ، ومنهم على سبيل المثال شيخ مؤرخى علم النفس «أدوين بورنج » Boring (١٨٨٦ / ١٩٦٨م) الذى كان ضابطا صغيرا تحت إمرة « يركس » وهكذا أدى تعاون علماء النفس مع الجيش الأمريكى إلى نمو حركة القياس الجمعى نموا هائلا .

ولأن إجراء هذه الاختبارات كان على أعداد كبيرة فإن البيانات التى حصل عليها العلماء من هذه العينات ساعدت فى إجراء المزيد من الدراسات ، وخاصة فى موضوع الأثر النسبى للوراثة والبيئة والفروق القومية والعرقية ، وكذلك دراسة موضوع شائق هو : ما العمر الذى تصل فيه القدرة العقلية إقصى درجاتها ؟.

وفى السنوات التالية أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها نشرت كميات هائلة من الدراسات والبحوث والموضوعات ، ونشر العديد من الاختبارات ، يتمتع بعضها بدرجة عالية من الصدق والثبات .

ومما تجدر الإشارة إليه – عند التحدث عن حركة قياس الذكاء فى أمريكا – عالم القياس الأمركى الشهير « دافيد وكسلر » Wechsler (١٨٩٦ / ١٩٨١م) وهو الاسم الثانى بعد « بينيه » . ومن أهم إسهاماته فى حركة القياسى النفسى ما يلى :

اختبار « وكسلر » لذكاء الراشدين .

وهو يقيس الذكاء من سن (١٦) حتى سن (٧٥) . ويتكون من قسمين أساسيين: القسم اللفظى ويتضمن مقاييس فرعية لقياس المعلومات ، إعادة الأرقام، المفردات ، الفهم ، المتشابهات ، الحساب . والقسم العملى يتضمن مقاييس فرعية لقياس تكملة الصور ، وترتيب الصور ، ورسوم المكعبات ، تجميع الأشياء ، ورموز الأرقام .

اختبار « وكسلر » لذكاء الأطفال :

وهو لقياس ذكاء الأطفال من سن (٥) حتى سن (١٦) . وهو على غرار مقياس الراشدين .

يضاف إلى ما سبق إعداده اختباراً لقياس ذكاء الأطفال فى مرحلة ما قبل المدرسة ، وكذلك إعداده اختباراً لقياس الذاكرة . وفى اختبارات « وكسلر » للذكاء يتم استخراج نسبة ذكاء لفظية ونسبة ذكاء عملية ونسبة ذكاء كلية بناء على تحويل درجات المفحوص إلى درجات معيارية موزونة بحسابات إحصائية بالغة الدقة . لمزيد من المعلومات اقرأ الحاشية (٢) .

الاختبارات الأدائية :

عقب نشر اختبار « ستانفورد - بينيه » توجه نقد من السيكولوجيين مضمونه : أن هذا الاختبار رغم قيمته العلمية التي لاشك فيها يعتمد اعتمادا كبيرا على اللغة ، وعلى هذا الأساس فإن الأمر يحتاج أن يتبع هذا الاختبار المشبع باللغة باختبارات لا تتطلب القدرة على استعمال مفردات اللغة أو الأرقام أو المعانى المجردة . وعلى ذلك بدت الحاجة ملحة إلى إعداد اختبارات أدائية تتلافى ما عد نقصا فى اختبار « ستانفورد - بينيه » . وهذه الاختبارات الأدائية مكنت علماء النفس من قياس ذكاء من يعانون من صعوبات فى النطق أو السمع أو المكفوفين ، وبوجه عام

مكنت من قياس ذكاء من لا يستطيعون التعامل مع اللغة أو الأرقام أو المجردات لسبب أو لآخر .

والاختبار الأدائى Performance يقدم موقفا إدراكيا يتعامل فيه المفحوص مع أسئلة مثل : تكوين الأشكال أو المكعبات أو الصور أو تجميع الأشياء وفكها ، كما يطلق بعض علماء النفس لفظ اختبار الورقة والقلم على بعض الاختبارات التى تتناول مادة غير لفظية مثل : معالجة الأشكال الهندسية أو الأشكال الناقصة أو رموز الأرقام . ويفضل « فريمان » - أستاذ القياس الشهير - تسمية مثل هذه الاختبارات بالاختبارات غير اللفظية nonverbal لأنها لا تعتمد على التعامل مع الأشياء كما هو الحال فى الاختبارات الأدائية .

ومن أشهر الاختبارات الأدائية اختبار « بنتر - باترسون » والذى أعد عام ١٩١٧ م ، وهو اختبار يدور حول قياس الذكاء عن طريق إجراءات أدائية مثل : لوحات الأشكال ومعالجة الأشكال الهندسية وتكوين وتكميل الصور .. إلخ ، وكذلك اختبار « مقياس القدرة الأدائية » الذى أعده « كورنل » و « كوكس » عام ١٩٣٤ م ، وهو يدور أيضا حول قياس الذكاء عن طريق إجراءات أدائية مثل : بناء المكعبات وترتيب الصور ، وتذكر التصميمات وتكميل الصور .

اختبارات الاستعدادات :

وثمة نموذج جديد من الاختبارات أدى إليه التطور الذى حدث بسبب الحرب العالمية الأولى وهو اختبارات الاستعدادات Aptitudes ، واختبارات الاستعدادات هذه تختلف عن اختبارات الذكاء فى أنها تهدف إلى قياس قدرة الفرد على أداء عمل من نوعية معينة ، مثل الاستعداد الميكانيكى والكتابى والموسيقى . وقد تطورت حركة إعداد اختبارات الاستعداد بصورة واسعة لعدة أسباب ، أولها حاجة القوات المسلحة الأمريكية فى الحرب العالمية الأولى لانتقاء أفراد للقيام بأعمال تتطلب مهارات خاصة ، وثانى هذه الأسباب هو تعاظم أهمية التوجيه المهنى والاختيار المهنى بقصد وضع الشخص المناسب فى المكان المناسب ، وثالث هذه الأسباب هو

معارضة بعض السيكولوجيين للاقتصار على اختبارات القدرة العامة ، واعتقادهم بوجود عدد من الاستعدادات الخاصة . ومهما يكن من أمر فإن اختبارات الذكاء العام واختبارات الاستعدادات الخاصة يكمل كل منهما الآخر .

وقد أعدت اختبارات الاستعدادات للتنبؤ بالنجاح فى الدراسة والتدريب على نواح متعددة مثل : الرسم والموسيقى والأعمال الكتابية والهندسية والقانون والطب ، ومجالات أخرى مثل : دراسة العلوم ودراسة الرياضيات .

ومن أهم الاختبارات التى ظهرت فى هذا المجال :

« اختبار الاستعداد لدراسة القانون » من إعداد : « فرسون » ، « ستوارد » عام ١٩٢٧ م .

« اختبار مكدورى للاستعداد الفنى » من إعداد « مكدورى » عام ١٩٢٩ م .

« اختبار ستانفورد للاستعداد العلمى » من إعداد « زيف » عام ١٩٣٠ م .

« اختبار ماير للاستعداد لدراسة الهندسة والعلوم » من إعداد « مور » عام ١٩٤٣ م .

« اختبار مينسوتا للاستعداد للتدريس » من إعداد « كوك » عام ١٩٥١ م .

وقد جرت على هذه الاختبارات تعديلات متعددة وأضيفت إليها العديد من بطاريات الاستعدادات ، وما تزال تستخدم حتى الآن فى الخزانة السيكولوجية .

اختبارات الميول المهنية :

أعدت اختبارات الميول المهنية Occupatinal interest inventories وذلك لإكمال مهمة اختبارات الذكاء واختبارات الاستعدادات الخاصة ، حيث تعطى اختبارات الميول المهنية معلومات عن ميول الفرد فى مختلف النواحى المهنية أو الدراسية . وهذا الميل إلى ناحية دراسية معينة ، أو ناحية مهنية معينة له علاقة باحتمال النجاح فيها .

ومن أهم الاختبارات التي ظهرت فى هذا المجال :

« اختبارات كودر للتفضيل المهنى » وهى مجموعة من الاختبارات أصدرها «كودر » منذ عام ١٩٤٨ .

« اختبار التفضيل الشخصى - من إعداد « إدواردز » عام ١٩٥٤ .

« اختبار سترونج للتفضيل المهنى » - من إعداد سترونج عام ١٩٥٩ م.

وقد أجريت على هذه الاختبارات تعديلات متعددة ، وما تزال تستخدم حتى الآن فى مجال القياس النفسى .

اختبارات التحصيل المدرسى :

يتصل قياس الاستعدادات الخاصة بقياس التحصيل المدرسى وإعداد اختبارات موضوعية لقياسه . واختبارات التحصيل المدرسى Educational Achievement لا تقصد التنبؤ بالنجاح المدرسى بالطبع ، ولكنها تهدف إلى قياس مدى ما حققه الفرد من تقدم معين فى تعلم مادة دراسية بعينها بعد أن درست له هذه المادة ، وقد تبين أن اختبارات التحصيل ذات قيمة عالية فى تحديد مدى الفروق بين الأفراد ، وفى تحديد مدى قوة الميول الدراسية عند الطلاب . وكذا تساعد اختبارات التحصيل على اكتشاف التفوق أو التخلف فى القدرات الخاصة ، كما تساعد هذه الاختبارات على تخطيط الحياة الدراسية للطلاب .

هذا كله بالإضافة إلى أن الاختبارات التحصيلية تساعد فى تقديم تقديرات موضوعية للتقدم الدراسى مقابل تقديرات المدرسين التي قد يشوبها عنصر الذاتية ، كما تمكن النتائج التى نحصل عليها من الاختبارات التحصيلية من التقويم التجريبى لطرق التدريس المختلفة .

ومن أهم الاختبارات التى ظهرت فى هذا المجال :

اختبار تشخيص مستوى القراءة من إعداد « مونرو » عام ١٩٣٠ م .

« اختبار تحديد مستوى اللغات الأجنبية » من إعداد « سيموندز » عام ١٩٣٠ م.

« اختبار نيويورك للحساب » من إعداد « ريتستون » عام ١٩٥٦ م .

« اختبارات كاليفورنيا التحصيلية » من إعداد « تجز » و « كلارك » عام ١٩٥٧ م .

وقد طورت هذه الاختبارات التحصيلية وأضيف إليها الكثير ، وتزخر المراجع والكتالوجات المتخصصة بالتحدث عنها وعن الإضافات التى لحقت بها وطرق تصميمها (وبعضها يتم تصميمه على الحاسبات الإلكترونية) ومعاييرها .

بطاريات الاختبارات :

فى خلال الحرب العالمية الثانية تم إعداد العديد من بطاريات الاختبارات Test Batteries وكان هدف هذه البطاريات (البطارية هى مجموعة اختبارات) قياس العديد من الاستعدادات الخاصة ، وذلك ليمكن استخدامها فى المجال العسكرى ومجال التوجيه المهنى ، وخاصة فى توزيع الأفراد حسب استعداداتهم على مختلف وحدات القوات المسلحة الأمريكية . وقد انتقل الاهتمام بهذه البطاريات من مجال القوات المسلحة إلى المجال المدنى ، وتمثل هذه البطاريات الآن مكاناً مهما فى حركة القياس النفسى الأمريكى .

ومن أهم البطاريات التي ظهرت فى هذا المجال هى : « بطارية الاستعدادات الفارقية D A T » من إعداد « بنت » وآخرين ، وهى تتناول قياس مجموعة من الاستعدادات مثل الفهم اللغوى ، القدرة العددية ، التفكير المجرد ، السرعة والدقة فى الأعمال الكتابية ، الفهم الميكانيكى ، العلاقات المكانية ، الهجاء واستخدام اللغة. وقد نشرت هذه البطارية لأول مرة عام ١٩٤٧ م وما تزال تجرى عليها التعديلات كل عدة سنوات حتى الآن ، والطبعات الأخيرة منها يتم تصحيحها على الحاسب الآلى .

« بطارية الاستعداد العام G A T B » من إعداد « دفوراك » وآخرين ، وكذلك نشرت لأول مرة عام ١٩٤٧ م بإشراف مكتب التوظيف بالولايات المتحدة

الأمريكية ، وتتناول قياس تسع وظائف هى : الذكاء والاستعداد اللفظى ، الاستعداد العددى (الحسابى) ، الإدراك المكانى ، إدراك الأشكال ، الاستعداد الكتابى ، التآزر الحركى ، مهارة الأصابع ، المهارة اليدوية . وقد جرت على هذه البطارية هى الأخرى الكثير من التعديلات .

أختبارات الشخصية :

بدأت الجهود لقياس الخصائص والسمات غير العقلية للشخصية ابتداء من القرن التاسع عشر . وقد بدأها « جالتون » فى عام ١٨٧٩م وتبعه « بيرسون » الذى أعد بعض الاختبارات وموازين التقدير . وفى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين استخدمت اختبارات تداعى المعانى التى أعدها « كارل يونج » صاحب مدرسة علم النفس التحليلى . وكان الغرض من اختبارات التداعى هذه التوصل إلى معرفة السمات العميقة للشخصية ، وكذلك لتمييز الاضطرابات العقلية المختلفة ، وبالرغم من أن اختبارات تداعى المعانى مازالت تستخدم فى العيادات النفسية وغيرها ، إلا أنها أقل انتشاراً من استخبارات الشخصية والطرق الإسقاطية .

ومع اتساع استخدام اختبارات الذكاء الفردية فى المدارس والعيادات والمستشفيات ، اتضح أنه فى بعض الحالات يكون أداء الفرد على الاختبار ونجاحه أو إخفاقه فيه ، ونوعية ،مضمون استجابته ، هذا كله لا يكون فقط مؤشرا لمستوى قدرته العقلية ، بل يتأثر هذا الأداء بقدر كبير أو قليل بسمات الشخصية « غير العقلية » . وإلى جانب ذلك ظهر اهتمام بدراسة النواحى الإكلينيكية فى شخصية الفرد ، كما أنه أثناء الحرب العالمية الأولى ظهرت حالات لبعض الأفراد يعانون من اضطراب فى الشخصية .

والآن تستخدم اختبارات الشخصية بشكل واسع حيث يتم بناء عليها تحديد سمات الشخصية ، وذلك فى المجالات العسكرية أو المدنية ، وكذلك تستخدم

اختبارات الشخصية فى دراسة الفروق بين الجماعات ، كما تستخدم اختبارات الشخصية للمساعدة فى تشخيص بعض حالات الاضطراب النفسى والعقلى . وتزخر الخزانة السيكولوجية بعديد من الاختبارات النفسية لها قدر كبير من الكفاءة .

هذا وتعد موازين التقدير Rating Scales من أوائل الطرق المستخدمة فى بناء الشخصية ، وموازين التقدير هى وسائل يتم بناء عليها الحكم على إجابات الشخص على عدة أسئلة ، وتكون هذه الإجابات على ميزان من عدة نقط . وقد استخدمت هذه الموازين خلال الحرب العالمية الأولى ، ودرست نتائج تطبيقاتها من النواحى النفسية والنواحى الإحصائية .

ويعد « ودورث » Woodworth (١٨٦٩ / ١٩٦٢م) - عالم النفس الأمريكى الشهير وأحد كبار مؤرخى علم النفس - أول من أعد اختباراً لقياس الشخصية عام ١٩١٩ م . وقد استخدم اختبار « ودورث » لقياس الشخصية بشىء من النجاح فى تحديد الأشخاص الذين يتسمون بصفات شخصية غير سوية بحيث تمنعهم من الخدمة العسكرية . وقد تطورت موازين التقدير بعد ذلك تطوراً هائلا .

أما الاختبارات الإسقاطية Projective Tests ففى الربع الأول من القرن العشرين ظهر هذا النوع من الاختبارات . وهذه الاختبارات تقوم على تقديم مادة مبهمة غامضة غير محددة إلى المفحوص مثل : صور غير محددة المعالم أو بقع حبر أو عبارات ناقصة ، وعلى هذا يكون للمفحوص فرصة أن يضفى على مادة الاختبار غير المحددة خصائص شخصيته ورغباته ودوافعه .

وأشهر الاختبارات النفسية الإسقاطية هو ما أعده الطبيب النفسى السويسرى « هرمان رورشاخ » Rorschach (١٨٨٤ / ١٩٢٢م) - الذى كان يجرى دراسات على بقع الحبر ودورها فى إثارة التخيل عند الإنسان وإمكانية استخدام هذه البقع لمعرفة قدرة الشخص على التخيل .

ولكن من خلال دراسته اكتشف أن لهذه البقع وظيفة أخرى وهى أنه يمكن استخدامها كاختبارات تميز بين سمات الشخصية المختلفة . وبالرغم من أن

«روزشاخ » قد عكف طويلا على دراساته حول بقع الحبر ، إلا أنه لم يكن أول من استخدمها ، حيث سبق أنها كانت تستخدم قبل ذلك لقياس سعة الخيال ، وقد أصبح اختبار بقع الحبر اختبارا بالغ الشهرة ، ويستخدم الآن فى العيادات والمستشفيات وفى البحوث النفسية فى أغراض قياس الشخصية .

كما اشتهر إلى جانب اختبار « روزشاخ » أداة إسقاطية أخرى هى « اختبار تفهم الموضوع » Thematic Apperception Test الذى أعده «هنرى موارى» Mur-ray (١٨٩٣ / ١٩٨٨) عام ١٩٣٥ وهو يتكون من ثلاثين صورة غامضة مرسومة على لوحات ، بالإضافة إلى لوحة خالية تماما ، ويطلب من المفحوص أن يؤلف قصة من عنده تتناول ما يحدث فى كل صورة من الصور. والمبدأ السيكولوجى الذى يقوم عليه الاختبار أن المفحوص سيعطى فى القصة التى يرويها تعبيرات وإشارات إلى حاجاته وقيمه واتجاهاته ومشاعره عن الأشخاص والمواقف والعالم من حوله . كما أنه سوف يشير - غالبا بلا قصد - إلى الصراعات والضغوط التى يعانى منها .

ورغم أهمية تفهم الموضوع ، إلا أن اختبار بقع الحبر يتقدم عليه من حيث الأهمية والانتشار وكثرة الدراسات المتعلقة به .

ومهما يكن من أمر ، فإن أكبر مشكلة تواجه اختبارات الشخصية هى مشكلة تتعلق بموضوعيتها وصدقها وثباتها ، وخاصة إذا نقلت من ثقافة إلى أخرى وواجهت الفروق غير الحضارية .

الموقف الحالى لحركة القياس النفسى :

تأخذ اختبارات الذكاء واختبارات القدرات مكان الصدارة فى الخزانة السيكولوجية . وقد خضعت اختبارات الذكاء والقدرات لمراحل عديدة من التطوير والإعداد ، وأجريت عليها الكثير من البحوث ، ومن أسباب أهمية هذه الاختبارات حقيقة أساسية وهى أن الوظائف التي تقيسها هذه الاختبارات لم تكن مستعصية على القياس وذلك على خلاف اختبارات الشخصية .

ولأن الشخصية مفهوم شامل ، لأن مظاهر الشخصية متنوعة ومتداخلة ، فإن اختبارات الشخصية ليست على أساس قوى مثل اختبارات الذكاء والقدرات واختبارات التحصيل .

ومما يجدر ذكره أن الخزانة السيكولوجية الآن حافلة بالعديد من الاختبارات، وقد توفر على إعداد هذه الاختبارات مجموعة كبيرة من المؤسسات المتخصصة ، وأغلب هذه المؤسسات فى الولايات المتحدة الأمريكية . وتصدر هذه المؤسسات نشرات علمية سنوية تذكر فيها الاختبارات التى تقوم على نشرها والمعلومات الأساسية عن كل واحد من هذه الاعتبارات ، ويمكن للمتخصصين أن يطلبوا هذه النشرات العلمية كما يمكنهم أيضا الحصول على هذه الاختبارات عن طريق إجراءات معينة .

ومنذ أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها زاد الإقبال على استخدام الاختبارات النفسية فى أمريكا ، وذلك للحاجة إليها من ناحية ، ولكفاءة هذه الاختبارات من ناحية أخرى . فمثلا انتشر التعليم فى الولايات المتحدة - بعد الحرب العالمية الأولى - انتشارا كبيرا ، وظهرت الحاجة إلى تحديد ضعاف العقول تمهيدا لإلحاقهم بمدارس خاصة تتناسب مع مستواهم العقلى ، وبالنسبة للطلاب العاديين فإن الزيادة الهائلة فى عدد الطلاب والتوسع فى التخصصات التعليمية ، سواء على مستوى المدرسة أو مستوى الجامعة ، أدى إلى اللجوء إلى اختبارات القدرات والاستعدادات ، وإلى اختبارات الميول المهنية . وهذا اللجوء كان بغرض ممارسة الإرشاد والتوجيه التربوى ، ورغم ما يشوب هذه الاختبارات من شوائب فإنها أدق من ترك أمر التوجيه والإرشاد التربوى لمجرد فكرة الشخص عن نفسه ، أو النصائح أو الرغبات الشخصية .

كذلك ظهرت الحاجة ماسة أثناء ممارسة عملية التوجيه والإرشاد الطلابى إلى دراسة مشكلة التخلف الدراسى ، وهل التخلف الدراسى راجع إلى تدنى نسبة الذكاء أم أنه راجع إلى تدنى قدرات معينة ؟ أم راجع إلى نقص فى ميل الطالب إلى

دراسـة بعـينهـا ؟ وعند الإجـابة على هذه الأسـئلة لابد من الرجـوع إلى الخـزانة السيكولوجية .

أما مجال الصحة النفسية وعلم النفس الإكلينيكى فقد تطور تطوراً كبيراً فى النصف الثانى من القـرن العشـرين بحيث أصـبحت الحـاجة ماسـة إلى استخدام الاختـبارات النفسـيـة فى مـجـال التشـخيص النفسى والإكلينيكى ، بل وظهـرت اختبارات جديدة تخدم علم النفس الإكلينيكى بوجه خاص ، مثل الاختبارات التى تقيس التدهور العقلى وتلف الوظائف العقلية .

أما البحوث النفسية فقلما يوجد بحيث لا يعتمد على اختبار أو أكثر يقيس به المتغير المراد قياسـه . وهكذا أصبحت حركة القيـاس النفسى أقـوى من أن تكون «مدرسة » بين مدارس علم النفس ، تلك المدارس التي تزخر بالمبالغات والتعسفات ، إنها « حركة » حافلة بالعمل حافلة بالإنجاز .



حاشية (١)

التطور التاريخي لاختبار بينيه :

- عام ١٩٠٥ قام « بينيه » ومساعده « سيمون » بنشر الطبعة الأولى من الاختبار ويتضمن ٣٠ عبارة .

- عام ١٩٠٨ قام « بينيه » ومساعده « سيمون » بنشر الطبعة الثانية من الاختبار ويتضمن ٦٠ عبارة، وهذه الطبعة تضمنت الإشارة إلى مفهوم العمر العقلى.

- عام ١٩١١ قام بينيه ومساعده « سيمون » بتوسيع الاختبار ليتضمن قياس ذكاء الراشدين .

- عام ١٩١٦ قام « تيرمان » و « ميريل » بتقنين طبعة أمريكية من الاختبار بإشراف جامعة ستانفورد تحت اسم « اختبار ستانفورد بينيه » وكانت عينة التقنين موسعة (ن = ١٠٠٠ من الأطفال و ٤٠٠ من الراشدين) وظهر فى هذه الطبعة مفهوم نسبة الذكاء I Q لأول مرة . وهذه الطبعة تركز على الجانب اللفظى .

- عام ١٩٣٧ صدرت الطبعة الثانية من تقنين جامعة ستانفورد على يد «تيرمان » و « ميريل »، وهذه الطبعة الثانية صدرت على هيئة صورتين الصورة ل والصورة م .

-عام ١٩٦٠ صدرت الطبعة الثالثة من تقنين جامعة ستانفورد حيث أدمجت الصورتان ل ، م فى صورة واحدة ، وكانت عينة التقنين موسعة (ن = ٤٥٠٠ طفل) وهذه الطبعة مثل سابقاتها تركز على الجانب اللفظى .

- عام ١٩٧٢ صدرت طبعة جديدة من إعداد ثورنديك بإشراف جامعة ستانفورد ، وفى هذه الطبعة إعادة تقنين ومراجعات كبيرة .

- عام ١٩٨٥ صدرت طبعة جديدة من إعداد ثورنديك ومساعديه « هاجن » و"ساتلر ". ويقال أن هذه الطبعة تأتى على قدر كبير من الكفاءة والدقة ، ويذكر أن هذه الطبعة قننت على عينة كبيرة (ن = ٥٠١٣) من الأفراد تتراوح أعمارهم بين سنتين إلى سن عشرين وأحد عشر شهرا) .

ملحوظة : ثورنديك المذكور هنا هو روبرت ثورنديك أستاذ القياس النفسى الشهير فى كلية التربية جامعة كولومبيا وله كتاب حجة فى القياس النفسى بالاشتراك مع مساعدته إليزابيث هاجن الأستاذة بنفس الكلية . (وهو غير « إدوارد ثورنديك » عالم الترابطية الكبير الذى سوف نتحدث عنه فى موضع قادم).

حاشية (٢)

التطور التاريخى لمجموعة اختبارات ديفيد وكسلر لقياس الذكاء.

عام ١٩٣٩ نشر اختبار للذكاء تحت اسم اختبار وكسلر بلفيو من إعداد ديفيد وكسلر برعاية مستشفى بلفيو فى مدينة نيويورك الأمريكية ، وذلك بهدف مساعدة هذا الاختبار فى التشخيص الأكلينيكى . ويتكون الاختبار من ستة مقاييس لفظية وخمسة مقاييس أدائية . ونشر تحت اسم Wechsler - Bellevue

عام ١٩٤٦ نشرت طبعة جديدة معدلة من الاختبار السابق تحت اسم Wechsler - Bellevue

عام ١٩٤٩ نشرت طبعة جديدة موسعة من طبعة ١٩٤٦ لقياس ذكاء الأطفال من سن ٥ إلى ١٥ سنة و ١١ شهرا ولكن هذه الطبعة مقننة على البيض فقط ! ونشر تحت اسم Wechsler Intelligence Scale for children (WISC) .

عام ١٩٥٥ نشرت طبعة جديدة من اختبار وكسلر بليفو يناسب الراشدين من أعمار ١٦ فيما فوق ونشر تحت اسم

Wechsler Adult Intelligence Scale (WAIS)

عام ١٩٦٧ نشرت طبعة جديدة لقياس ذكاء أطفال ما قبل المدرسة من سن أربع سنوات حتى ست سنوات ونصف ونشر تحت اسم

Wechsler Preschool and Primary Scale of the Intelligence (WPPSI)

عام ١٩٧٤ نشرت مراجعة لطبعة ١٩٤٩ أجريت فيها العديد من التعديلات . وتضمنت عينة التقنين مجموعات من الأمريكيين الملونين ويناسب الأعمار من سن ست سنوات إلى ست عشرة سنة وأحد عشر شهرا . ونشر تحت اسم

Wechsler Intelligence Scale for children Revised (WISC - R)

عام ١٩٨١ نشرت مراجعة لطبعة ١٩٥٥ مع تعديلات طفيفة فى فقرات الاختبار ومعايير جديدة . نشر تحت اسم

Wechsler Adult Intelligence Scale Revised (WAIS - R)

عام ١٩٨٩ نشرت مراجعة لطبعة ١٩٦٧ فيها العديد من التعديلات لفقرات الاختبار ، ويناسب أعمار من سن ثلاث سنوات وسبع سنوات وثلاثة شهور – نشر تحت اسم :

Wechsler Preschool and Primary scale of Intelligence .

(WPPSI - R)

عام ١٩٩١ نشرت مراجعة لطبعة ١٩٧٤ فيها الكثير من التعديلات وتناسب نفس المستويات العمرية لطبعة ١٩٧٤ ونشرت تحت اسم:

Wechsler Intelligence Scale for Children 111 (WISC- 111)

★ ★ ★

الفصل السابع

تاريخ علم النفس المرضى

يمتد تاريخ علم النفس المرضى منذ العصور القديمة حتى العصر الحديث، حيث كانت الأفكار والأساليب العلاجية جاهلة، ومعاملة المرضى غير إنسانية، حتى تطورت الأمور وظهرت النماذج الحديثة من طبية ونفسية، وهذه النماذج تقوم على أساس أن المرض العقلى له أسباب يمكن التوصل إليها ، وأنه قابل للعلاج بواسطة أساليب علاجية معينة . ومنذ العصور القديمة حتى العصر الحديث ، مرورا بالعصور الوسطى، حدثت تطورات كثيرة بحيث يمكن القول : إن قصة تاريخ علم النفس المرضى والعلاجى هى من أكثر القصص «درامية » فى تاريخ علم النفس .

العصور القديمة :

ساد الاعتقاد فى العصور القديمة بأن الأرواح، الشريرة منها خاصة، تتسبب فى إحداث الأمراض العقلية. وكان المعالج فى العصور القديمة يقوم أحيانا بإجراء عملية «ترينة» لاستئصال جزء من عظم الجمجمة بحيث تخرج الروح الشريرة التى تسكن فى الرأس أو فى الدماغ. ومما يجدر ذكره أن فحص جماجم هؤلاء المرضى الذين أجريت لهم هذه « الترينة » بين أنهم عاشوا عدة سنوات بعد إجراء هذه العملية .

وتشير كتابات الشعوب القديمة فى مصر وبابل والصين واليونان إلى أن الاضطرابات العقلية إنما تحدث نتيجة تمكن الأرواح الشريرة من المريض، وليس هذا بغريب على تلك العصور السحيقة، لأن الأرواح سواء الخيرة أو الشريرة كانت من العوامل التى تفسر بها شئون الحياة، شأنها فى ذلك شأن البرق والرعد والزلازل والأعاصير والحوادث الأخرى .

وكان القرار ما إذا كان الشخص يتملكه روح شريرة أو روح خيرة، يعتمد على «الأعراض» التى يبديها الشخص، فمثلا إذا كانت الأعراض تتضمن أحاديث أو سلوكيات ذات طابع دينى أو صوفى فإنه كان يظن أن الشخص تتملكه أرواح خيرة، وهذا الشخص كان يعامل بمنتهى الاحترام والتبجيل، لأنه كان يعتقد- أن مثل هذا الشخص يتميز بقوى خارقة ، لكن معظم المرضى الذين تتلبسهم الأرواح كان يظن أن هذا التلبس من قبل الأرواح الشريرة، ومن هنا كانت تختلف معاملتهم اختلافا شديدا عمَّن تتلبسهم الأرواح الخيرة، وكان يتصور أن المرض العقلى هو غضب من الآلهة. وكان الأسلوب العلاجى هو طرد الروح exorcism من الجسم الذى تلبسه. وكان هذا الطرد يتم إما عن طريق الدعاء إلى الآلهة، أو إحداث الضوضاء حتى تضيق الروح بالجسد الذى تتلبسه وتضطر إلى الخروج منه أو إعطاء جرعات «مسهلة» للمريض حتى تخرج الروح الشريرة خلال عملية الإسهال - هذا إلى جانب أساليب علاجية أكثر قسوة مثل تجويع المريض أو ضربه بحيث يكون بدنه بمثابة مكان غير ملائم لحلول الأرواح الشريرة مما يضطرها إلى الخروج - وكان العلاج مزيجا من الكهانة والسحر، وكان يقوم به الكهان فى أغلب الأحوال .

ومع ذلك ففى هذه العصور القديمة سادت بعض الأساليب العلاجية السديدة، ومثال ذلك أن « أمحوتب » أبو الطب فى مصر القديمة (عاش حوالى ٢٨٨٠ ق. م) كان معبده فى مدينة « منف » مدرسة للطب ومستشفى للعلاج، حيث كان يعالج المرضى المضطربين « عقليا » بأسلوب شبه إيحائى، وكان رجال الدين الذى يقومون بالعلاج يتفوهون بعبارات إيحائية للمريض أثناء نومه فى المعبد، إما نوما عاديا أو نوما ناتجا عن إعطاء المريض الأفيون، حيث تتسلل هذه العبارات الإيحائية أو بعضها إلى أحلامهم وتساعد على تحسين حالتهم ، وقد هيأ المصريون القدماء فى معابدهم وسائل علاجية تعد تقدمية جدا بالنسبة لذلك العصر السحيق، إذ كانوا - على سبيل المثال - يشجعون المرضى على شغل أوقات فراغهم بأنشطة مختلفة للتسلية والترفيه كالرسم والنحت ، والقيام بنزهات فى النيل، والاشتراك فى حفلات الرقص والغناء وممارسة بعض

الألعاب الرياضية. ومما لا شك فيه أن هذه الوسائل والأنشطة الإيجابية كان لها التأثير البالغ على تحسين حالة المريض .

وفى عصر اليونان الذهبى - وهو عصر الفلسفة والطب والرياضة - كان كبير أطباء اليونان القديمة وأعظم أطباء العصور القديمة «أبوقراط» Hippocrates (٤٦٠/ ٣٧٧ ق.م) والذى سمى أحيانا « أبو الطب » - كان هذا الرجل ينكر أن يكون للأرواح دور فى إحداث المرض العقلى، وقد أشار إلى أن المرض العقلى له أسباب طبيعية، وأنه يتطلب علاجا مثل بقية الأمراض. و قد أكد « أبو قراط » على أن الدماغ هو مركز النشاط العقلى، وأن الاضطرابات العقلية إنما ترجع إلى مرض فى الدماغ، وكذلك أكد «أبوقراط» على أهمية الوراثة وأهمية الاستعداد للمرض، وأشار إلى أن « إصابات الرأس » من الممكن أن تؤدى إلى عطب فى الأجهزة الحسية والحركية للمصاب .

وقد صنف «أبوقراط» الأمراض العقلية إلى ثلاثة أصناف رئيسية ، هى الهوس mania ، والسوداوية أو الميلانكوليا melancholia والبطاح أو الهذيان phrenitis. وأعطى وصفا دقيقا لأعراض كل منها، وذلك من الملاحظات التى كان يبديها «أبوقراط» على مرضاه، وهذه الملاحظات - وهذا أمر يدعو للدهشة - كانت بالغة الدقة، كما أشار إلى أهمية دراسة الأحلام فى تفهم حالة المريض.

ومن الأساليب العلاجية التى أشار إليها « أبوقراط»: أن مريض «الميلانكوليا» يعالج، عن طريق ممارسة أسلوب حياتى هادئ ومنظم، وأن يبتعد عن الإفراطات فى المناشط أو الغذاء، وأن يركز فى غذائه على الخضروات، هذا إلى جانب «فصد الدم». وكذلك أوصى فى حالات الهستريا - الذى اعتقد بأنه مرض نسائى - - بأن الزواج هو العلاج الأمثل، وكذلك اعتقد «أبوقراط» بأهمية البيئة التى يعالج فيها المرض، وكان قليلا ما يعزل المريض عن أسرته . وقد أشار إلى عناصر أربعة، إذا كانت هذه العناصر متوازنة كانت الصحة ، وإذا اختلت هذه العناصر كان المرض ، هذه العناصر هى : الدموية والصفراوية والسوداوية والبلغمية .

وأشهر أطباء العصر القديم بعد «أبوقراط» هو «جالينوس » Galen (١٣٠/ ٢٠٠م) وهو يونانى الأصل، عاش فى روما القديمة، وكان طبيبا لبعض أباطرتها، ويمكن القول : إنه رغم شهرته الكبيرة لم يجدد فى الأساليب العلاجية التى أشار إليها «أبوقراط» أو فى الأوصاف الإكلينيكية للمرض العقلى، ولكن إسهامه الرئيسى كان فى دراسة الجهاز العصبى واستمرارية النظرة إلى الأمراض العقلية نظرة علمية . وقد قسم أسباب الأمراض العقلية إلى مجموعتين من الأسباب ، الأولى أسباب جسمية ، والثانية أسباب نفسية، و من أهم أسباب حدوث الأمراض العقلية فى نظره إصابات الرأس والإفراط فى شرب الخمر والصدمات والخوف والإخفاق فى الحب .

العصور الوسطى :

يذكر «كولمان » Coleman - وهو يؤرخ لعلم النفس المرضى، أن التقاليد العلمية للطب اليونانى لم تثمر إلا فى بلاد العرب، حيث أقيم أول مستشفى للطب العقلى فى بغداد عام ٧٩٢م ، وتبع ذلك إنشاء مستشفيات أخرى فى العواصم العربية الأخرى مثل دمشق والقاهرة. ويؤكد «كولمان» على أن المصابين بالأمراض العقلية كانوا يتلقون رعاية إنسانية أكثر بكثير من التى يتلقاها أمثالهم فى البلاد الأوربية المسيحية فى العصور الوسطى .

وكان أعظم وجوه الطب العربى « ابن سينا» Avicenna(٩٨٠/ ١٠٣٧م) وكان يعرف بأنه « أمير الأطباء » أو « الشيخ الرئيس » وقد أشار « ابن سينا » فى كتاباته إلى أمراض مثل : الهستريا، والصرع، واستجابات الهوس ، والميلانكوليا. ويعرض لنا « كولمان » حالة عالجها « ابن سينا » لأحد المرضى الذى عانى من الميلانكوليا، وسيطر عليه وهم مضمونة أنه بقرة ، وكان يخور كالبقرة ويمشى مثلها ويثير المتاعب لمن حوله، ويرفض الطعام، وكان يردد وهو يبكى « اذبحونى وكلوا لحمى » . وامتنع نهائيا عن الطعام ، وهنا استدعى « ابن سينا » لعلاجه، وكانت أول خطوة فى العلاج أن أرسل رسالة إلى المريض «يبشره » بقرب وصول الجزار ليقوم بذبحه، وكان هذا مدعاة لارتياح المريض، وبعد ذلك بقليل وصل «ابن سينا » وفى يده سكين حادة، ودخل غرفة

المريض صائحا: أين تلك البقرة التى سأقوم بذبحها؟ وهنا أصدر المريض صوتا يشبه خوار البقرة ليعلن عن نفسه، وأمر «ابن سينا» بأن يقيد المريض بالأغلال من يديه وساقيه ليهم بذبحه ثم تحسسه بيديه وقال : « إنها بقرة عجفاء غير سمينة ويجب أن تتغذى لتزداد شحما ولحما». وهنا قدم الطعام إلى المريض الذى أقبل عليه مرة بعد مرة حتى استعاد قوته وتخلص من أفكاره المرضية .

وبالنسبة لأوربا فإنه حدث فى أواخر القرن الخامس الميلادى كسوف حضارى شديد، وظهرت الخرافات القديمة وفسر المرض العقلى على أن حدوثه بسبب تلبس الشياطين والأرواح الشريرة بجسد المريض .

وفى هذه العصور كانت مسألة علاج الأمراض العقلية بأيدى رجال الكنيسة. وفى أوائل العصور الوسطى كان علاج مرضى العقول يتسم بشىء من العطف، حيث كانت تتلى الصلوات والأدعية للمريض ويرش عليه قطرات من ماء يسمى « الماء المقدس» ، وهو ماء تتلى عليه صلوات وتعاويذ ، كما يزور الأماكن المقدسة. وهذه الأساليب كانت تتخذ بغرض طرد الأرواح الشريرة، وعدت هذه الطريقة ناجحة جدا فى علاج المرضى الذين تتلبسهم الأرواح ، ويقال إن أحد القساوسة «طرد» من مريض واحد خمس أرواح شريرة ، ثم ساد الاعتقاد بأن القسوة الجسدية على مرضى العقول هى بمثابة عقاب للأرواح الشريرة التى تسكنها ، وذلك لأن الأساليب الرقيقة - مثل الصلوات والدعوات ورش الماء المقدس - كانت غير مجدية فى أحيان كثيرة ، مما شجع الاعتقاد بأن الأسلوب الأكثر جدوى لعلاج المريض العقلى، هو جعل جسم المريض مكانا غير صالح لإقامة الروح الشريرة، وذلك عن طريق الجلد بالسياط والتجويع وتغطيس جسم المريض فى ماء شديد الحرارة .

وبالنسبة للسحر witchcraft - ففى خلال القرن الخامس عشر الميلادى ساد الاعتقاد أن التلبس الشيطانى يحدث على نحوين :

- تلبس شيطانى كعقاب إلهى للمريض .

- تلبس شيطانى لأشخاص ليسوا مرضى ولكنهم راغبون فى هذا التلبس ليكونوا عونا للشيطان وأداة له . وهؤلاء هم السحرة، وهم قادرون على إتيان الخوارق، مثل إحداث العواصف والفيضانات والعجز الجنسى وإيذاء من يخالفهم وإتلاف المزراعات ، هذا إلى جانب قدرتهم على تحويل أنفسهم إلى صور الحيوانات ، وهذا الاعتقاد بوجود السحر والتلبس الشيطانى لم يكن مقصورا على عامة الناس بل كان موجودا عند رجال الدين المسيحى .

أما المرضى الذين تلبسهم الشيطان رغما عنهم فقد عد هذا التلبس بمثابة عقاب إلهى ، وكان علاجهم هو التعذيب لطرد الروح الشريرة، ولكن بمرور الوقت - حدث خلط بين هؤلاء المرضى وبين السحرة بحيث اعتبر أن المرضى هم من السحرة والمشعوذين، وعمت الشكوى من هؤلاء « المرضى السحرة » فى مدن أوربا ، بحيث أصدر البابا أمرا عاما عام ١٤٨٤م باتخاذ جميع الوسائل الكفيلة «بضبط» السحرة الذين أكرهوا على الاعتراف بأنهم عملاء الشياطين، وكذلك الاعتراف على عملاء الشياطين الآخرين ، وهؤلاء يعترفون بدورهم على غيرهم وهكذا . وكان الحرق حيا هو جزاء الساحر. وبالطبع كان معظم الذين يتم حرقهم أحياء هم من مرضى العقول الذين تنتابهم الهلاوس والهذيانات .

ظهور الاتجاهات الإنسانية :

أثارت القسوة البالغة التى عومل بها مرضى العقول رد فعل شديدا أدى إلى ظهور الاتجاهات الإنسانية، التى تمثلت عند بعض الأطباء والمصلحين فى دول غرب أوربا ، ومن أهم أصحاب الاتجاهات الإنسانية :

أولا : «ويير» Weyer (١٥١٥/ ١٥٨٨م)

طبيب ألمانى - اهتم كثيرا بما يحدث للمتهمين بالسحر من عقاب شديد، فدرس المسألة كلها، وأصدر عنها عام ١٥٦٣ م كتابا بعنوان « السحر والشياطين» ، وفى هذا الكتاب استعرض حالات عدد كبير من المتهمين الذين يجرى تعذيبهم وإحراقهم أحياء، وبين فيه أنهم ليسوا أكثر من مجرد أشخاص يعانون من أمراض جسمية أو أمراض

عقلية ، وعلى هذا فإن آثاما كبيرة ترتكب بحق أناس أبرياء، وأن هؤلاء المرضى لا يستحقون القتل، بل يجب أن يحظوا بالعلاج . ولقي كتاب « ويير» قبولا لدى عدد قليل من الأطباء ورجال الدين فى ذلك الوقت، ولكنه لقى معارضة شديدة من غالبية رجال الدين، بل أصدر أحدهم كتابا للرد على كتاب « ويير » متهما إياه بأنه « عميل للشيطان»، ومما لا شك فيه أن اكتشاف «ويير» كان بالغ الأهمية ولكنه كان سابقا لأوانه . وقد حالت الكنيسة دون انتشار هذا الكتاب .

ثانيا : سكوت Scott (١٥٣٨ / ١٥٩٩)

إنجليزى - درس فى «إكسفورد» وقضى شطرا كبيرا من حياته فى دراسة التلبس الشيطانى والسحر، وأصدر عام ١٥٨٤ م كتابا بعنوان « اكتشاف السحر » وفى هذا الكتاب أنكر أن يكون التلبس الشيطانى أو الأرواح الشريرة هى سبب الأمراض العقلية، كما أشار إلى أن النساء المتهمات بالسحر والشعوذة بريئات من ذلك . وأن حالتهن فى الحقيقة هى مرض عقلى وخلل فى الدماغ ، مما أدى إلى تعطل قدرتهن على الحكم وعلى التفكير الصحيح ، وأشار إلى أن أعراض المرض العقلى للإنسان - رجلا كان أو امرأة - هى آثار أعراض شديدة تتضمن خيالات وهلاوس ، وقد يكون مضمونها أن المريض يعتقد فى نفسه بأنه ذو قوة خارقة. وعلى ذلك فإن هؤلاء المرضى ليسوا مذنبين يستحقون التعذيب أو الحرق أحياء، بل مرضى يلزم علاجهم ، ولكن « سكوت » لم يكن أسعد حظا من « ويير » فقد أمر الملك « جيمس الأول » ملك إنجلترا بجمع نسخ هذا الكتاب وحرقها .

وفى القرن السادس عشر بدأ الاهتمام بإقامة مستشفيات الأمراض العقلية حيث أنشئت أول مستشفى لهذا الغرض عام ١٥٤٧ م فى لندن، ومن العجيب أنه كان يسمح للجمهور بمشاهدة حالات المرض العقلى مقابل بنس واحد، أما حالات المرض العقلى الخفيف فكان يسمح لهم بالتسول فى شوارع «لندن». وكان يطلق على المرضى اسم المجاذيب bedlam. ثم أسس مستشفى آخر فى المسكيك عام ١٧٦٤م، ثم فى فينا عام ١٧٨٤. وكان المرضى يعاملون فى هذه المستشفيات مثل الحيوانات والمجرمين .

أما فى الولايات المتحدة فقد تم إنشاء أول مستشفى بمدينة «فلادلفيا» بولاية «بنسلفانيا» عام ١٧٥٦م وكانت رعاية مرضى العقول فى الولايات المتحدة لا تختلف كثيرا عن معاملتهم فى أوروبا، وقد وصف أحد طلاب الطب عام ١٧٩٦م التحسن الطفيف لبعض الأساليب العلاجية المستخدمة فى مستشفى للأمراض العقلية بمدينة «نيويورك»، وذكر من بينها تقليل الأغلال التى يقيد بها المريض، إلا أن الأساليب العلاجية كانت تشمل تغطيس المريض فى الماء البارد على حين فجأة، كذلك إحداث القيء والإسهال وتصويب صنبور من الماء البارد على الرأس، هذا إلى جانب حبس المرضى فيما يشبه الزنزانات.

وحتى القرن التاسع عشر كان يتم حلق رؤوس المرضى ويقدم لهم الطعام غير الكافى، كما أنهم يضطرون إلى بلع الأدوية المحدثة للإسهال، هذا إلى جانب الإقامة فى زنزانات مظلمة، أما إذا لم تجد هذه الأساليب فمزيد من القسوة مثل التجويع والحبس الانفرادى أو الحمامات شديدة البرودة .

ورغم هذا التأخر الشديد فى الأساليب العلاجية فإن هذا لم يمنع ظهور بعض الحركات الإنسانية الإصلاحية التى كان لها صدى واسع، ومن أهم هذه الحركات الإنسانية الإصلاحية الحركة التى قام بها « فيليب بنل » Pienel (١٧٤٥/ ١٨٢٦م) الذى عين عام ١٧٩٢ م مديرا لمستشفى الأمراض العقلية فى «باريس» ، حيث حصل على إذن من إحدى لجان الثورة الفرنسية بفك أغلال المرضى، ومعاملتهم بالاحترام والعطف (يقال إنه وضع رأسه فى مقابل نجاح هذه التجربة)، ولحسن الحظ نجحت تجربته إلى حد كبير . ووضع المرضى فى غرف مشمسة، وسمح لهم بالتريض داخل المستشفى، وعوملت هذه المخلوقات بمزيد من الشفقة (حيث بقى بعض هؤلاء المرضى فى أغلال لمدة تزيد عن ثلاثين عامًا)، وكانت تجربة « بنل » أشبه بالمعجزة، حيث حل النظام محل الفوضى، وحل الهدوء محل الضجيج، وشفيت حالات كثيرة. وهكذا كانت فرنسا أول دولة فى الغرب تطبق هذا الاتجاه الإنسانى .

وفى إنجلترا قام « تيوك » Tuke عام ١٧٩٦م (وهو معاصر للفرنسى «بنل»)

بتنفيذ تجربة تشبه تجربة «بنل» الإنسانية حيث أنشأ «ملجأ يورك »، وهو نزل ريفى يقيم فيه مرضى العقول، ويعملون، ويلقون معاملة تتسم بالعطف، كما كان يسود هذا الملجأ « جو دينى » ولكن تجربة «ملجأ يورك » كانت أقل نجاحا من تجربة «بنل».

وفى أمريكا شجع «بنل» و «تيوك» على الأخذ بالاتجاه الإنسانى فى معاملة مرضى العقول، ويتمثل هذا الأمر فى إسهامات مؤسس الطب النفسى الأمريكى «روش» Rush (١٧٤٥/ ١٨١٣م) الذى اهتم بالبرامج العلاجية فى مستشفى بنسلفانيا اعتبارا من عام ١٧٨٣م ، وهو أول من كتب عن الطب العقلى فى أمريكا عام ١٨١٢ م وأول عالم أمريكى يعد مقررا دراسيا عن الطب العقلى، كما أسهمت تلميذته « دوروثيا دكس» Dix (١٨٠٢/ ١٨٨٧م) فى استكمال الاتجاه الإنسانى فى علاج مرضى العقول، حيث قادت حملات فى المدة بين ١٨٤١ إلى ١٨٨١ م - وذلك لإظهار المعاملة غير الإنسانية التى يلقاها مرضى العقول، ونتيجة لحملاتها خصصت عدة ملايين من الدولارات لإقامة مستشفيات جديدة للأمراض العقلية. ولم تقتصر هذه الحملات على الولايات المتحدة بل تجاوزتها إلى كندا .

وفى عام ١٩٠٨م أصدر « كيلفورد بيرس » Bears (١٨٧٦ / ١٩٤٣م) كتابا بعنوان «عقل وجد نفسه » يحكى فيه تجربة ذاتية حيث كان مريضا وأقام ببعض مستشفيات الأمراض العقلية، وحكى فيها عن المعاملة غير الإنسانية التى يلقاها المرضى، وبين أثر هذه المعاملة على تدمير صحة المرضى العقلية . وقد كسبت الحملة التى أثارها هذا الكتاب تعاطفلا شديدا من الرأى العام الأمريكى.

ظهور النموذج الطبى :

تميز القرن الثامن عشر بتقدم فى الكيمياء والفسيولوجيا والتشريح مما أدى إلى تقدم العلوم الطبية، وصاحب ذلك الاهتمام دراسة أسباب الإصابة بالأمراض العقلية ، وفى هذا القرن ظهر النموذج الطبى medical model. ونعنى بالنموذج عملية تحليلية تساعد العلماء على ترتيب مادتهم العلمية، كما تساعدهم على رؤية العلاقات التى

تربط بين جزئيات هذه المادة. أما النموذج الطبى، فنعنى به الاتجاه العضوى الذى يفسر المرض العقلى على أنه بسبب تلف فى أنسجة المخ أو اختلال كيميائى فى أنسجة المخ .

وقد مهد لهذا الاتجاه العضوى، أو النموذج الطبى العالم الألمانى « هالر » -Hall-er (١٧٠٨ / ١٧٧٧م) فى كتابه « أسس الفسيولوچيا » حيث أكد على أهمية المخ فى الوظائف النفسية، وأكد كذلك على أهمية (باثولوچيا المخ) بالنسبة للمرض العقلى، كما أسهم فى هذا التمهيد الطبيب النفسى الألمانى «جريسنجر» Griesinger (١٨١٧ / ١٨٦٨م) فى كتابه الهام « باثولوچيا الأمراض العقلية وعلاجها » ، الذى أصدره عام ١٨٤٥م، حيث أشار إلى أن الطب النفسى عليه أن يقوم على أسس فسيولوچية .

ومهما يكن من أمر فإن النموذج الطبى بدأ بصورة واضحة عند العالم الألمانى «إميل كريلين » Kraepelin (١٨٥٦ / ١٩٢٦م) . فقد أصدر كتابا عام ١٨٨٣م عن «الطب النفسى » أكد فيه على أهمية باثولوچيا المخ فى إحداث المرض العقلى، وساعد كذلك على تقديم دلائل عديدة على صحة وجهة نظره. كما أشار إلى أن هناك مجموعة أعراض تحدث بانتظام ، بحيث يمكن اعتبارها أمثلة Types من الأمراض العقلية، بحيث يمكن التنبؤ بها ، وذلك بالأسلوب نفسه الذى نفكر فيه عندما ندرس الحصبة أو الجدرى والاضطرابات الجسمية الأخرى .

وقد قسم « كريلين » الاضطرابات العقلية إلى مجموعتين رئيسيتين، الأولى الجنون المبكر dementia، والثانية : ذهان الهوس والاكتئاب -menia - depressive psy chosis. وهذا التقسيم ما يزال يسترشد به فى التصنيفات الحديثة للأمراض العقلية. ومن الجدير بالذكر أن المادة العلمية والدراسات الإكلينيكية التى أوردها «كريلين» تعد عملا علميا عملاقا وتمثل إسهاما رئيسيا فى مجال دراسة المرض العقلى.

ومن الأمور التى أسهمت فى تأكيد النموذج الطبى: الدراسات التى أجراها الطبيب النفسى « كرافت أبنج » Ebing (الذى عاش فى فينا) واهتم عام ١٨٩٧م بدراسة

حول موضوع جنون الشلل العام General Paralysis، الذى هو اضطراب يتميز بطائفة من الأعراض الشبيهة بالذهان والشلل، حيث تمكن « أبنج » من تتبعه خلال تشريح جثث بعض المرضى، وقد تبين إصابة هؤلاء المرضى بانحلال فى أنسجة المخ، ولكن لم يتبين ذلك بصورة مقنعة إلا بعد أن تبين أن جنون الشلل العام سببه مرض الزهرى .

ورغم أننا نؤرخ لعلم النفس فإنه لا يمكن تجاهل النموذج الطبى الذى نلخص إنجازاته - التى أثرت على علم النفس - فيما يلى :

- هدم الأساليب القديمة فى التفكير ، والتى ترجع المرض العقلى إلى التلبس الشيطانى، وتأكيد أهمية الاضطراب العضوى للمخ فى إحداث المرض العقلى .

- التوصل إلى علاجات فعالة لبعض الأمراض العقلية الناتجة عن اختلال عضوى فى المخ، ومثال ذلك جنون الشلل العام .

- أن الأمراض العقلية لها «دورة» مثل الأمراض الجسمية، وعلى هذا لقى مرضى العقول ما هم فى بحاجة إليه من معاملة إنسانية مبنية على أساس المكتشفات العلمية .

- إجراء العديد من البحوث فى العلوم المساعدة للطب مثل التشريح والفسيولوجيا والكيمياء الحيوية، وذلك لتأكيد أهمية دور (باثولوجيا المخ) فى إحداث المرض العقلى .

ولا يسع المؤرخ المدقق لعلم النفس، وهو يؤرخ لعلم النفس المرضى، إلا أن ينظر إلى النموذج الطبى ببالغ الاحترام - رغم ما قد يكون عليه من مآخذ، - إلا أنه مهد الطريق للوصول إلى ما أصبح عليه الطب النفسى من تقدم فى النصف الثانى من القرن العشرين فى العلاجات الطبية، مثل العلاج بالعقاقير والعلاج بالصدمات، ورغم أن هذه العلاجات لا تشفى جميع المرضى شفاءً تاما إلا أن هذه العلاجات المستمدة من النموذج الطبى من شأنها أن تجعل نسبة لا يستهان بها من مرضى العقول يتخففون من أعراضهم القاسية، بل يمكن لبعضهم - بفضل هذه العلاجات - أن يعيش خارج أسوار المستشفيات ، وحتى نقدر النموذج الطبى حق قدره فلننظر إلى « صورة مستشفى

الأمراض العقلية» حتى القرن الثامن عشر، وصورته فى أواخر القرن العشرين ، وسنجد أن الفرق كبير .

النموذج النفسى :

النموذج النفسى يتضمن الأخذ بتفسير مؤداه أن الاضطراب العقلى والنفسى إنما تتحكم فيه أسباب نفسية مثل القوى اللاشعورية ، أو العقد النفسية ، أو أساليب التعلم المعيبة ، أو خبرات الطفولة المبكرة . وحقيقة الأمر أنه ليس هناك نموذج نفسى واحد بل هناك عدة نماذج تحت مظلة علم النفس. وهذه النماذج مشتقة من نظريات معينة فى تفسير الشخصية، وهذه النظريات سنعرض لها بشىء من التفصيل فيما يلى من فصول الكتاب، ولكن نوجز رأيها هنا بخصوص المرض النفسى والعقلى.

ومن الناحية التاريخية فقد أسهم فى تطوير هذا النموذج النفسى أو هذه النماذج النفسية ، مجموعة من العلماء أو المدارس نتحدث عنهم فى النقط الآتية :

- المسمرية والمغنطة : صاحب هذه الفكرة هو «مسمر» Mesmer (١٧٣٤/ ١٨١٥م) وهو فرنسى عاش معظم حياته فى «فينا» وحصل على درجات ثلاث للدكتوراه من جامعة فينا واحدة فى الفلسفة والثانية فى القانون والثالثة فى الطب. وفى عام ١٧٨٠ م طلع « مسمر » على المجتمع العلمى بادعاء مغنطة الناس magnetizing، ومما لا شك فيه أنه كان دجالا كبيرا حيث استطاع أن يقنع عددا كبيرا من الناس بوجود سائل خفى غامض فى الكون اسمه المغناطيسية الحيوانية، ولو أن هذا السائل الخفى - المزعوم - لم يكن موزعا بالتساوى داخل الجسم فإنه يترتب على «اختلال التوزيع» اضطراب خطير فى سلوك الشخص.

وقد قام « مسمر » بعلاج بعض المرضى (ولعل معظمهم كانوا من المصابين بالهستريا) وكان العلاج - كما يدعى « مسمر» - عن طريق إعادة توزيع السائل الخفى الغامض داخل أجسامهم، ويتم العلاج بالتحدث إليهم بنغمات ملطفة هادئة ، وأن يربت على أجسامهم بقضبان حديدية ، ومما يدعو إلى الدهشة أن بعض المرضى أظهروا

بالفعل تحسنا واضحا، كما صاحب هذا النجاح فى العلاج شعور شديد بالسعادة عند المرضى، وقد تبين بعد ذلك أن هذا العلاج المسمرى العجيب ما هو إلا التنويم المغناطيسى .

ومن الطريف أن نذكر أن كلية الطب بأكاديمية العلوم فى فرنسا كونت لجنة خماسية برئاسة السفير الأمريكى فى فرنسا - بنيامين فرنكلين - عام ١٧٨٤م للبحث فى نظرية « مسمر » وأساليبه العلاجية. وقد أثبتت اللجنة أن نظرية المغنطة المسمرية والأسلوب العلاجى المسمرى هو أمر غير حقيقى، ويتصف بالدجل والبعد عن التفكير العلمى .

- «شاركو» ومدرسة «سالبترير» : « وشاركوا » Charcot (١٨٢٥/ ١٨٩٣م) أحد كبار أطباء الأعصاب فى عصره، وكان يدير عيادة «سالبترير» Salpetriere فى باريس. وكان لهذه المدرسة اهتمامات بالتنويم المغناطيسى hypnosis، وقد عارض رأى مدرسة «نانسى» وقال إن الهستريا لها أسباب عضوية تتصل بالمخ، وقد ثبت أن الرأى خطأ ، وكان « شاركو » على قدر كبير من القدرة البحثية والأمانة العلمية، واعترف بخطأ رأيه واتجه كذلك إلى مزيد من الدراسات التى تتعلق بمعرفة العوامل النفسية المؤدية إلى حدوث الاضطرابات العقلية .

ومما هو جدير بالذكر أن «فرويد» درس على يد «شاركو» وتأثر به فى فترة من فترات حياته العلمية .

- «برنهيم» ومدرسة « نانسى » : ومدرسة نانسى Nancy school نسبة إلى مدينة «نانسى » بفرنسا. وتهتم بتفسير موضوع المرض النفسى والعقلى، كما تهتم بدراسة التنويم المغناطيسى الذى ترى أنه حالة من القابلية الشديدة للإيحاء يتم إحداثها صناعيا. ومن أعضاء هذه المدرسة الطبيب الفرنسى «ليبولث» Liebault (١٨٢٣/ ١٩٠٤م). أما مؤسسها فهو الطبيب الفرنسى « برنهيم » Bernheim (١٨٣٧/ ١٩١٩م) وقد ركز «برنهيم» على دراسة وعلاج الهستريا، وأشار إلى أن كلا من الهستريا والتنويم المغناطيسى يرتبطان ارتباطا وثيقا، كما توصل إلى علاج للهستريا عن طريق التنويم

المغناطيسى ، حيث يمكن للمريض المصاب بشلل الذراع الهستيرى أن يحرك ذراعه أثناء التنويم المغناطيسى، وعلى ذلك اعتبرت هذه المدرسة الهستريا كأنها شكل من أشكال التنويم المغناطيسى .

وقد تعددت النماذج النفسية فى تفسير الاضطرابات النفسية والعقلية، ومن أشهر هذه النماذج نموذج التحليل النفسى الذى يفترض أن الاضطراب هو نتيجة القوى اللاشعورية وخبرات الطفولة المبكرة والصراع بين الهو والأنا والأنا الأعلى. ومن ذلك يتوصل «فرويد» إلى طريق للعلاج يسميه التحليل النفسى، يتم عن طريق التداعى الحر وتفسير الأحلام، وهذا النموذج التحليلى النفسى يزدحم بأسماء كبيرة مثل «أدلر» الذى يؤكد على أهمية الشعور بالنقص وأسلوب الحياة، و «يونج » الذى يؤكد على اللاشعور الجمعى والأنماط القديمة وغيرهم . وسنعرض لهم بالتفصيل فى فصل لاحق.

ومن النماذج الشهيرة أيضا النموذج السلوكى الذى يصدر أساسا من دراسات سلوكية، إشراطية لكبار علماء النفس من أمثال « بافلوف » و « واطسون » و «سكنر» وهذه المدرسة ترى أن السلوك عبارة عن استجابات متعلمة . أما السلوك اللاسوى فهو استجابات خطأ متعلمة، وإذا كان السلوك اللاسوى أمرًا متعلما فهو قابل للتعديل عن طريق العلاج السلوكى الذى يتمثل فى أساليب تعليمية جديدة تتم عن طريق تكوين استجابات إشراطية سليمة تحل محل الاستجابات الخطأ. ومن أشهر الأساليب السلوكية الإشراط بالتنفير أو بالكراهية، أو الإشراط الكلاسيكى البسيط، وسنعرض فى فصل قادم للمدرسة السلوكية بشىء من التفصيل .

ومن النماذج النفسية ، نموذج العلاج المعقود على العميل، وصاحبه «كارل روجرز» وهو يقوم على أساس أن العميل هو الأقدر على حل مشكلاته، فالعلاج والنجاح فيه معقود عليه ، وعلى المعالج أن يخلق جوا علاجيا يتسم بالدفء والتسامح ، حيث يشعر المريض بالحرية فى مناقشة مشكلاته، والاستبصار بها، ومن ثم مواجهتها. وسنعرض لمدرسة «روجرز» فى فصل لاحق .

كما أنه بالإضافة إلى ما سبق يوجد العديد من النماذج النفسية، وهذا التعدد وإن

كان فيه إثراء لعلم النفس إلا أنه - مع الأسف - شاهد على أن علماء النفس ليسوا جبهة واحدة، وأن الاختلافات بينهم اختلافات واسعة ، ليس بين كل كل مدرسة وأخرى ، ولكن الخلافات داخل كل مدرسة على حدة. إن كل مدرسة تحاول أن تفسر ظاهرة المرض النفسى والعقلى - وهى ظاهرة محيرة - بعدد من الفروض ثم تضع « برنامجا علاجيا» بناء على تلك الفروض ، وبرغم أن المؤرخ المدقق لعلم النفس يرى أن هذا من شأنه إضعاف « النموذج النفسى » فى تفسير المرض النفسى والعقلى إلا أنه أمر كائن، عليه أن يثبته .

النموذج الاجتماعى الحضارى :

تقدم علما الاجتماع والأنثروبولوجيا فى مطلع القرن العشرين تقدما كبيرا، حيث توجه الاهتمام إلى دراسة تأثر الشخصية فى سوائها واضطرابها بالعوامل الاجتماعية الحضارية مثل: القيم والعادات والتقاليد والأعراف والعلاقات بين أفراد الأسرة وعلاقة الفرد بالمجتمع وعلاقة الأسرة بالمجتمع . وساد حديث عن وجود تأثير للظروف الاجتماعية على إحداث المرض النفسى والعقلى أو الإسهام فى إحداثه، ومثال ذلك الضغوط الاجتماعية والحضارية وعلاقتها بانتشار الاضطرابات النفسية والعقلية، وعلاقة العوامل الاجتماعية والحضارية بمشكلات نفسية اجتماعية مثل : الجريمة وإدمان الخمور وإدمان المخدرات، وقد أعطت الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية الكثر من النتائج فى هذا الموضوع .

ومن أهم الدراسات الاجتماعية الحضارية التى تمت فيها دراسة بعض المجتمعات البدائية أو شبه البدائية والتى أفرزت النموذج الاجتماعى الحضارى ما يلى:

دراسات « مالينوسكى» : يعد « مالينوسكى» Malinowski (١٨٨٤/ ١٩٤٢م وهو إنجليزى من أصل بولندى) من أقدم علماء الأنثروبولوجيا . ومن أهم كتبه « الجنس والكبت فى المجتمع البدائى » أصدره عام ١٩٢٧م ، وبين فى هذا الكتاب أن فكرة « الصراع الأوديبى » التى أشار إليها «فرويد » لا وجود لها عند سكان جزر

« التروبرياند» Trobriand التى درسها، وأشار إلى أن الصراع «الأوديبى » ليس ظاهرة عامة ، وقد يكون مصاحبا لنظام الأسرة الأبوية ، فى المجتمع الغربى .

و«مالينوسكى » إلى جانب ذلك مؤسس النظرية الوظيفية فى الأنثروبولوجيا . وتدعو نظريته تلك إلى دراسة « الحضارة » من خلال منظور دينامى . وقد اهتم بدراسة المجتمعات البدائية دراسة حقلية متعمقا فى ظواهر مثل العادات والتقاليد والجريمة والسحر والدين .

دراسات « بندكت » : أسهمت « روث بندكت» Benedict (١٨٨٧ / ١٩٤٨م) وهى عالمة أمريكية وأستاذة للأنثربولوجيا بجامعة كولومبيا الأمريكية فى إثراء النموذج الاجتماعى الحضارى ، حيث قامت بدراسات أنثروبولوجية حقلية فى مجتمعات الهنود الحمر فى أمريكا ، كما اهتمت بدراسة الثقافات المعاصرة فى أوربا وآسيا، وركزت على دور الثقافة فى تكوين الشخصية. ومما يجدر ذكره أنها توجهت بكثير من النقد إلى الاتجاهات العنصرية والعرقية التى سادت الفكر الغربى .

ومن أهم دراساتها فى هذا المجال تلك التى صدرت عام ١٩٣٤م بعنوان «الأنثروبولوجيا واللاسواء » حيث بينت أن ما يعد سويا فى مجتمع ، قد لا يعد سويا فى مجتمع آخر ، حيث لاحظت أن الأعراض التخشبية (وهى من أعراض الفصام) تلقى الاحترام والتقدير عند بسطاء الناس فى المجتمعات البدائية . وعلى ذلك فإن مفهوم اللاسواء يختلف من حضارة إلى حضارة أخرى .

دراسات « ميد » : كذلك أسهمت « مرجريت ميد » Mead (١٩٠١ / ١٩٧٨م) - تلميذة « روث بندكت » وأستاذة علم الأنثروبولوجيا بجامعة كولومبيا - فى تأكيد النموذج الاجتماعى الحضارى، حيث قامت بدراسات عن أساليب تنشئة الأطفال ودراسة أثر الثقافة على الشخصية فى المجتمعات البدائية فى «ساموا » و « غينيا الجديدة » .

ومن أهم دراساتها فى هذا المجال تلك التى صدرت عام ١٩٤٩ بعنوان « الذكر والأنثى » حيث بينت فيه أن مفهوم الذكورة ومفهوم الأنوثة إنما يرتبطان بالعوامل

الحضارية أكثر من ارتباطهما بالنواحى الولادية أو البيولوجية، ذلك أن المجتمع هو الذى يحدد الدور الذى يلعبه كل جنس وليس الفسيولوجيا .

وعلى هذا توصل علماء الأنثروبولوجيا بناء على دراساتهم الحقلية إلى أن كل حضارة هى جزيرة بذاتها ، وأن ما ينطبق على حضارة بعينها، قد لا ينطبق على حضارة أخرى ، كما أن هذه الدراسات الأنثروبولوجية أدت إلى ظهور ما يسمى النسبية الحضارية cultural relativism فيما يخص السلوك اللاسوى ، وبناء على ذلك فإن كل حضارة تعد وحدة فى ذاتها، وأنه ليس هنا موازين أو معايير عامة يمكن أن تطبق على كل المجتمعات - ومثال ذلك أنه أثناء محاكمات « نورمبرج» الشهيرة والتى عقدت بعد الحرب العالمية الثانية لمحاكمة القادة الألمان - على أساس أنهم مجرمو حرب - تبين أن مفهوم الإجرام ضد الإنسانية هو مفهوم يصف سلوك هؤلاء القادة من وجهة نظر الحلفاء، أما من وجهة نظرهم الخاصة، ومن وجهة نظر الشعب الألمانى فهم فى صورة « البطل القومى » .

ومع تقدير المؤرخ المدقق لعلم النفس لأهمية هذا النموذج الاجتماعى الحضارى، إلا أن النسبية الحضارية لا تصلح أساسا وحيدا لتفسير المرض النفسى والعقلى؛ ذلك لأن هناك أمراضًا عقلية معينة - كالفصام مثلا - لها أسباب متعددة وأعراض متعددة تتشابه فى المجتمعات ، سواء أكانت مجتمعات متقدمة أم بدائية . إن النموذج الاجتماعى الحضارى يصلح « كنموذج مساعد » فى تفسير المرض النفسى والعقلى، ولكن لا يصلح بحال « كنموذج وحيد » لهذا التفسير .

نحو نموذج شامل :

كلما تعددت البحوث والدراسات التى تتناول دراسة السلوك الشاذ، وكلما تنوعت هذه البحوث وشملت التطورات والمجالات المختلفة من عضوية ونفسية فإن هذا التنوع يقربنا أكثر من فهم السلوك الشاذ أو السلوك المرضى، ومثال ذلك أن مرضى جنون الشلل العام - وأساسه عضوى - يلاحظ أن بعض المرضى يغلب عليهم الاكتئاب والبعض الآخر يغلب عليهم المرح ، رغم تشابه العطب الذى يصيب الدماغ. وكذلك فى

حالات الاضطراب العقلى الذى يحدث بسبب تلف فى المخ ناتج عن تصلب شرايين الدماغ فى الشيخوخة، فإننا نلاحظ أن بعض المرضى يصيبهم قدر كبير من اضطراب السلوك رغم بساطة إصابة الدماغ، بينما بعض المرضى الآخرين يصيبهم أعراض معتدلة رغم التلف الزائد نسبيا فى الدماغ .

وقد اتجهت الأنظار إلى القول بأن الاستجابات السيكولوجية لتلف الدماغ إنما يمكن تفسيرها بصورة دقيقة فى إطار رؤية إكلينيكية شاملة للمريض، وتشمل هذه الرؤية - إلى جانب النواحى العضوية - ظروفه الأسرية والحياتية. وبالإضافة إلى ذلك فقد تلاحظ أنه بالنسبة لبعض حالات الذهان الوظيفى - غير عضوى المنشأ - كان للوسائل الطبية مثل الصدمات الكهربائية أو العقاقير آثار سيئة، هذا إلى جانب أنه لوحظ أن أساليب العلاج للأمراض النفسية ، سواء أكانت أساليب طبية أم نفسية أم اجتماعية ، تلقى نجاحا متفاوتا من بيئة إلى أخرى .

ومثل هذه الاعتبارات أدت إلى ظهور نموذج جديد يسمى النموذج الشامل أو الاتجاه الشامل Interdiscipilinary approach وهذا الاتجاه الشامل يهدف إلى الأخذ بتعدد الأسباب والعوامل التى يفسر بها الاضطراب العقلى ، فيجمع بين العوامل العضوية والنفسية والاجتماعية والحضارية فى « رؤية إكلينيكية شاملة » وبالطبع عندما ندرس حالة كل مريض على حدة فإن واحدا من هذه قد يغلب على العوامل الأخرى. فمثلا يفسر سبب مرض الاكتئاب تفسيرا يختلف من مريض إلى آخر، أى يغلب عامل معين على عوامل أخرى فى كل حالة على حدة .

ومن المأمول أن يؤدى هذا الاتجاه الشامل إلى تعاون وإسهام مجالات مختلفة مثل علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا من جهة والعلوم الطبية مثل الطب النفسى وطب الأعصاب والكيمياء الحيوية من جهة أخرى فى الوصول إلى مزيد من النتائج عن أسباب الاضطرابات العقلية، وإلى التوصل أيضا إلى أساليب علاجية أكثر نجاحا . وعلى جميع المستويات البحثية والتنفيذية والممارسية، فإن التعاون واجب بين الأطراف المختلفة القائمة على دراسة هذه المشكلة البالغة الصعوبة، وهى مشكلة الاضطراب

العقلى، هذه الأطراف هى الطبيب النفسى والأخصائى النفسى وكافة المشتغلين فى مجال الصحة العقلية، وذلك بقصد الوصول إلى أنجع الوسائل العلاجية وأنجع الوسائل الوقائية .

حاشية عن تاريخ علم النفس الإكلينيكى :

علم النفس الإكلينيكى clinical psychology هو فرع من فروع علم النفس يتناول الاستفادة من المعارف والنظريات النفسية فى مجال علاج المرضى بالأمراض النفسية والعقلية، ويقوم الأخصائى النفسى الإكلينيكى بممارسات إكلينيكية تدور حول دراسة حالة المريض وإجراء الاختبارات النفسية له مثل اختبارات الذكاء والشخصية وكذلك الاشتراك فى فريق العلاج .

ويمكن أن نعد تعريف الجمعية الأمريكية لعلم النفس الإكلينيكى والذى تمت صياغته عام ١٩٣٥م إعلانًا عن ميلاد هذا الفرع التطبيقى من علم النفس بصورة رسمية. ومن الطريف أن هذا التعريف رغم أنه «قديم» إلا أنه لا يختلف كثيرا عن التعريفات الشائعة الآن. ومنطوق هذا التعريف يقول « علم النفس الإكلينيكى فرع تطبيقى من علم النفس يهدف إلى تحديد خصائص سلوك الفرد - وذلك باستخدام وسائل القياس والتحليل والملاحظة ومن خلال تكامل المعلومات التى تجمع عن طريق الفحص الطبى والدراسات الاجتماعية لتاريخ الحياة. وهذا كله يؤدى إلى اقتراحات وتوجيهات تمكن من تحقيق توافق الفرد » .

ويورد « كندال » و «نورتن فورد » أحداثا هامة أو علامات على الطريق فى تاريخ علم النفس الإكلينيكى على النحو التالى :

* فى مجال القياس النفسى الإكلينيكى :

- عام ١٨٨٩ يصدر « جالتون » كتابه الوراثة والعبقرية بحيث يفتح الباب لدراسة الفروق الفردية .

- عام ١٨٩٠ يقدم « جيمس ماكين كاتل » لفظة الاختبار العقلى .

- عام ١٨٩٦ يقوم « ويتمر » بتأسيس أول عيادة نفسية فى «بنسلفانيا».

- عام ١٩٠٥ إصدار الطبعة الأولى من مقياس « بينيه - سيمون » للذكاء فى فرنسا .

- عام ١٩١٥ توصية الجمعية النفسية الأمريكية APA بأن الأخصائيين النفسيين هم وحدهم المؤهلون لتطبيق الاختبارات النفسية .

فى الأعوام بين ١٩١٥ - ١٩١٨ قيام عدد من علماء النفس بإعداد اختبار «ألفا» واختبار « بيتا » - والأول اختبار لفظى والثانى اختبار غير لفظى لقياس الذكاء (قمنا بتقنين طبعة معدلة من هذا الاختبار فى المملكة العربية السعودية الشقيقة) .

- عام ١٩١٦ قيام « تيرمان » بإعداد طبعة أمريكية من مقياس «بينيه - سيمون» .

- عام ١٩٢١ نشر اختبار « رورشاخ» الإسقاطى لبقع الحبر.

- عام ١٩٢٥ إصدار « جيزل » جداول النمو والتى تبين مظاهر النمو الطبيعى للأطفال من سن ثلاثة شهور حتى ثلاثين شهرا .

- عام ١٩٣٥ نشر «دول» اختبار «فاينالد» للنضج الاجتماعى .

- عام ١٩٣٧ قيام «تيرمان» وزميلته «ميريل» بإصدار طبعة جديدة من اختبار «بينيه » .

- عام ١٩٣٨ ظهور اختبار « بندر جشطلت »

- عام ١٩٣٩ ظهور اختبار « وكسلر بلفيو »

- عام ١٩٤٣ ظهور اختبار الشخصية المتعدد الأوجه .

- فى عام ١٩٤٧ ظهور بطارية « هالستيد » لقياس الوظائف العصبية النفسية .

- فى عام ١٩٤٩ ظهور اختبار «وكسلر» لقياس ذكاء الأطفال .

* فى مجال العلاج النفسى :

- فى عام ١٧٩٣ الإصلاحات التى أدخلها «بينل» على أساليب الإيداع فى مستشفيات الأمراض النفسية والعقلية .

- فى عام ١٧٩٦ إنشاء «تيوك» مؤسسة «يورك» الإيوائية لمرضى العقول .

- فى عام ١٨٩١ اهتمام «برنهيم» بالعلاج النفسى عن طريق التنويم المغناطيسى.

- فى عام ١٩٠٠ إسهامات «فرويد» فى موضوع تحليل الأحلام والتداعى الحر فى مجال العلاج النفسى .

- فى عام ١٩٠٩ قيام « هيلى » بتأسيس معهد علمى لدراسة السيكوباتية وانحراف الأحداث .

- فى عام ١٩١٩ استخدام « مكدوجل » أسلوب التعاطف الوجدانى Sympathatic rap-port لعلاج الجنود المصابين بالخبرة الصدمية فى المعارك أثناء الحرب الكونية الأولى .

- فى عام ١٩٢٠ - ١٩٢٢ دراسات « واطسون » عن « الخوف الشرطى » .

- فى عام ١٩٢٨ اهتمام «أنا فرويد» بأسلوب العلاج النفسى باللعب عن الأطفال .

- فى عام ١٩٣٢ ظهور تعبير العلاج الجمعى على يد « مورينو »

- فى عام ١٩٤٠ ظهور أسلوب العلاج الجمعى على يد « سلافسن »

- فى عام ١٩٤٢ ظهور أسلوب العلاج المعقود على المستفيد على يد « روجرز »

- فى عام ١٩٥١ ظهور أسلوب العلاج الجشطلتى على يد « برلز » .

- فى عام ١٩٥٣ ظهور أسلوب العلاج العقلانى على يد «فرانكل»

- فى عام ١٩٥٣ يقدم « سكنر » برنامج عمل لأسلوبه فى العلاج السلوكى بالأساليب الإشراطية .

- فى عام ١٩٥٨ ظهور أسلوب « العلاج الأسرى » على يد « إكرمان »

- فى عام ١٩٥٨ « ولبه » يقدم أسلوب التطمين التدريجى .

- فى عام ١٩٥٨ ظهور أسلوب العلاج العقلانى الانفعالى على يد «أليس».

- فى عام ١٩٦٤ ظهور أسلوب العلاج المعرفى لمرضى الاكتئاب على يد «بك» .

الفصل الثامن

تاريخ علم النفس الاجتماعى

علم النفس الاجتماعى Social Pschology هو فرع من فروع علم النفس يهتم بدراسة العلاقة بين الفرد والمجتمع، ويدرس موضوعات مثل التنشئة الاجتماعية والاتجاهات والقيم والرأى العام والقيادة وديناميات الجماعة .

ويرجع تاريخ علم النفس إلى الدراسات الفلسفية القديمة عند «أفلاطون» وعند «أرسطو» وفى العصور الوسطى عند علماء المسلمين من أمثال « الفارابى » و« ابن خلدون » . أما علم النفس الاجتماعى بمعناه الحديث فيرجع إلى أوائل القرن العشرين على يد العديد من العلماء بعضهم من داخل المدارس مثل « مكدوجل » صاحب المدرسة الغرضية و «ليفين» صاحب مدرسة المجال نتحدث عنهم فى مواضع قادمة والبعض الآخر من «خارج المدارس » نتحدث عن أهم وجوههم فى النقاط التالية :

چاك چان روسو Rousseau (١٧١٢ / ١٧٧٨م) :

فرنسى - فيلسوف ومنظر اجتماعى عاش حياته متنقلا بين سويسرا وفرنسا وإيطاليا وإنجلترا . أهم كتبه « العقد الاجتماعى » وكتاب «إميل» أو « فى التربية» نشرهما عام ١٧٦٢م .

وقد أثر على التفكير فى العلوم الإنسانية بوجه عام، وفى الاجتماع بوجه خاص ، وذلك بنظريته فى تفسير نشأة الحياة الإنسانية، حيث يرى أن الإنسان كان يعيش حياة الغاب، وكان يرضى حاجاته الطبيعية بصورة عفوية ، وكان طيبا بالطبع،

ولكن بسبب الظروف الطبيعة القاسية مثل الجدب أو البرد أو القيظ اضطر الأفراد إلى تعاون بعضهم بعضا، لتوفير القوت ، وعن طريق هذا التعاون ظهرت اللغة والزراعة والصناعة، وظهر التناقض والشر والعدوان. وهكذا أصبح الإنسان الطيب بالطبع فاسدا بالاجتماع ، ولا صلاح لمفاسد الاجتماع إلا عن طريق تهيئة الفرد بالتربية الصالحة ، وهذه التربية الصالحة تتطلب أن يترك الطفل لينشأ فى تلقائية، وأن تكون مهمة المربى معاونته فى تربية نفسه بنفسه .

وهو كذلك يرى أن أفراد المجتمع يقبلون العيش فيه والانصياع لأوامره والنزول عن رغباتهم الفردية فى سبيل أن ثمة «عقدا اجتماعيا » تتحقق فيه المصلحة العامة للمجتمع، وتتوافر فيه الحماية لأعضائه، وبالتالى فإن الفرد يتنازل عن شيء ما مقابل تحقيق شيء آخر أكثر فائدة ، وهذا هو أساس قيام الحياة الاجتماعية فى نظره .

كما يؤكد « روسو » أن عاطفة الإنسان « الطيب » هى المرشد الأمين والكافى لتحقيق السعادة، ويضع « روسو » المبدأ الذى يقول « كل ما أحسه شرا فهو شر ، الضمير خير الفقهاء » حيث إن العاطفة هى السبيل الأمثل للحكم على الأمور، أما العقل فهو آلة .

ورغم تهافت هذه الآراء لأنها من قبيل التفكير الأرائكى « اليوتوبى »، الذى تعوزه الدلائل التجريبية، إلا أن كتابات « روسو» أثرت على التفكير الأوربى تأثيرًا كبيرًا . والذى يهمنا فى هذا المقام أنه لفت الأنظار إلى موضوعات يعالجها علم النفس الاجتماعى الحديث، وأهمية الأساليب التربوية التى تبتعد عن تقييد سلوك الطفل .

هربرت سبنسر Spencer (١٨٢٠ / ١٩٠٣م) :

إنجليزى - (أشرنا إليه سابقا) كان أصلا مهندسا للسكك الحديدية ولكنه اتجه إلى الصحافة والتأليف فى مجال الدراسات الاجتماعية. ويعتبر من كبار علماء الاجتماع فى العصر « الفكتورى » ويرجع إسهامه فى علم النفس الاجتماعى

إلى اهتمامه الشديد بالأفكار التطورية سواء على المستوى الحيوى أو الاجتماعى. ومن أهم الآراء التى توصل إليها خلال دراساته فكرة البقاء للأصلح التى تبناها «دارون» فيما بعد. وقد اعتقد «سبنسر» أن البقاء للأصلح هو قانون يسير حياة أفراد المجتمع، وقد لقيت هذه الفكرة قبولا وحماسة فى الأوساط الفكرية فى أمريكا لما تدعو إليه فكرة البقاء للأصلح من ليبرالية .

« والتر باجوت » Bagehot (١٨٢٦ / ١٨٧٧م) :

إنجليزى . عالم أقتصادى وصحافى ، تأثر تأثرا كبيرا بكتاب « أصل الأنواع » الذى أصدره « دارون » عام ١٨٥٩م ، الذى عرض فيه «دارون» لنظرية النشوء والارتقاء. وقد ابتكر نظرية تطورية فى علم النفس الاجتماعى أشار إليها فى كتابه الذى أصدره عام ١٨٦٩م بعنوان « الفيزياء والسياسة » ، وهذه النظرية تتناول عملية « التقليد »، حيث يرى «باجوت» أن البشر يميلون إلى تقليد الأقوى ، بمعنى أننا نميل – لا شعوريا – إلى تقليد الآخرين فنقول ما يقولون ونفعل ما يفعلون . هذا على مستوى الأفراد ، أما على مستوى الأمم فإن الأمم القوية تغلب الأمم الضعيفة ، كما أن الأمم الضعيفة المغلوبة تميل إلى تقليد الأمم الغالبة . أما من الناحية التطورية فإن «باجوت » يرى أن التقدم هو زيادة تكيف الإنسان مع البيئة .

جوستاف لى بون Le Bon (١٨٤١ / ١٩٣١م) :

فرنسى – كرس حياته لدراسة علم النفس الاجتماعى وترجمت العديد من أعماله إلى اللغة العربية اشتهر بكتابه « الحشد : دراسة فى العقل الجمعى » الذى أصدره عام ١٨٩٥م .

ومن أهم آراء « لى بون » أن عقلية الجماهير التى تسيطر عليها الانفعالات والعواطف إنما تفرز أفكارها من خلال عدوى الانتقال السريع للشعور من شخص إلى آخر. وهى ظاهرة يصعب تفسيرها وإن كان السبب الرئيسى فى حدوثها هو القابلية للإيحاء، كذلك يتميز موقف الحشد بانسياق من الفرد إلى هذا الموقف الحشدى التى يتسم بعلامات ثلاث هى الإجماع والانفعالية ، واللاعقلانية .

وخـرج «لى بون» من ذلك بفكرة « العقل الجـمـعى Group mind ويقـــال أن « فرويد » تأثر بهذه الفكرة تأثرا مذكورا .

« جبريل تارد » Tarde (١٨٤٣ / ١٩٠٤م) :

فرنسى – اهتم بدراسة علم الاجتماع وعلم الجريمة، عمل أستاذا للفلسفة فى « كلية فرنسـا »، وهى واحدة من أرقى المعاهد الفرنسية، وفى عام ١٨٩٠م أصدر كتابا بعنوان « قوانين المحاكاة »، حيث اهتم بدراسة المحاكاة والخيال والمعارضة من وجهة نظر علم النفس الاجتماعى ، على أساس أن هذه العمليات الثلاث هى العمليات الأساسية فى التفاعل الاجتماعى الذى عده الظاهرة الاجتماعية الأولية ، كما اعتبر أن المحاكاة هى الواقعة الاجتماعية الأساسية. كذلك ربط بين السلوك الجمعى والتنويم المغناطيسى حيث قال : إن المحاكاة هى شكل من أشكال التجوال النومى .

ومما يجدر ذكره أن « تارد » ألف كتابا عام ١٨٩٨ م بعنوان « دراسات فى علم النفس الاجتماعى »، ولكنه بالطبع لا يقاس بما يعده جمهرة مؤرخى علم النفس « الكتاب الأول » فى علم النفس الاجتماعى والذى أصدره « مكدوجل » عام ١٩٠٨م.

ماكس ڤيبر Weber (١٨٦٤ / ١٩٢٠م) :

ألمـانى – من علمـاء الاجتـمـاع ، ولكنه اشـتـهـر بدراسـات فى علم النفس الاجتماعى تتعلق بموضوع الشخصية الجذابة أو الكارزمية Charisma وهو تعبير ذائع الصيت على مستوى علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى، والكارزمية هى شعور من الأتباع تجاه القائد بأنه شخص له جاذبية خاصة وقدرة طاغية على التأثير. وكأن القائد هو « السوبرمان» حيث يستطيع القائد أن يسيطر على الأتباع من خلال هذا التأثير الانفعالى. إن « الكارزمية » سحر غلاب وجاذبية طاغية وهالة تحيط بالقائد تجعل منه شخصا محبوبا ومطاعا وتجعل الأتباع ينخرطون تحت لوائه عن إيمان وعقيدة وحب وولاء وشعور بالاندماج تحت وهج تأثيره الساحر

الغلاب. ومن الآثار الجانبية السيئة « للكارزمية » عجز الجماهير من السوقة والعامة والدهماء عن « رؤية» عيوب هذا القائد الكارزمى .

« جراهام ولاس » Wallas (١٨٥٩ / ١٩٣٢م) :

إنجليزى . اهتم بدراسات علم النفس الاجتماعى حيث صاغ نظرية فى الغرائز ، كما أصدر عام ١٩١٤ م كتابا بعنوان « المجتمع العظيم » ، و أصدر عام ١٩٢١م كتابا بعنوان « الميراث الاجتماعى » ، وهو متأثر - شأنه فى ذلك شأن معظم مفكرى عصره - بالأفكار التطورية .

والفكرة الأساسية فى نظريته عن الغرائز تقول : إن الإنسان مهيأ من الناحية البيولوجية لكى يعيش فى المجتمع بمساعدة الميراث الاجتماعى، كما أن الإنسان غير مهيأ من الناحية البيولوجية للعيش فى المجتمع دون هذا الميراث ، وعلى ذلك فالإنسان من حيث كونه كائنا بيولوجيا أصبح طفيليا Parasitic يعيش على الميراث الاجتماعى . وأضاف أن السلوك الاجتماعى يجب أن يوصف فى إطار الميراث الاجتماعى لا أن يوصف فى إطار الغريزة . وهو يقصد بالميراث الاجتماعى Social hertaige كل ما يرثه الفرد من المجتمع الذى يعيش فيه من تقاليد وأعراف وقيم وأساليب سلوكية .

« فردريك بارتليت Bartlett (١٨٨٦ / ١٩٧٩) :

إنجليزى - عمل أستاذا بجامعة « كمبردج » منذ ١٩٢٢ حتى اعتزاله فى عام ١٩٥٢ . وقد أصر هذا العالم على ألا ينتمى إلى مدرسة معينة أو اتجاه معين، وكان يقول عن نفسه: إنه « دارس لعلم النفس فى كمبردج » ويعده بعض المؤرخين من أهم شخصيات علم النفس الإنجليزى فى النصف الأول من القرن العشرين .

ومن الأمور التى ركز عليها « بارتلت » دراسة العمليات العقلية، وأثر العوامل الاجتماعية فى هذه العمليات ، ومن أهم كتبه « التذكر : دراسة فى علم النفس

التجريبى والاجتماعى » أصدره عام ١٩٣٢ م ، وكتاب « التفكير : دراسة اجتماعية تجريبية » أصدره عام ١٩٥٨ م .

وبالنسبة للعوامل الاجتماعية النفسية المؤثرة فى التذكر أشار « بارتلت » إلى أن التذكر هو عملية تتضمن إعادة البناء، والدليل على ذلك أن ما يحدث أثناء عملية التذكر يتضمن اتجاهات الشخص نحو المادة موضوع التذكر، أى أن الخبرة التذكرية تتأثر بعوامل نفسية اجتماعية مثل الخبرة الثقافية للفرد واهتماماته الاجتماعية وانفعاليته العامة .

وبالنسبة لعملية التفكير فإنه يرى أن التفكير هوأساسا عملية لها خلفية اجتماعية ، ولا يمكن له أن يستمر دون وجود مثيرات فى المحيط الخارجى .

وقد لقى « بارتلت » العديد من مظاهر التكريم ومنها على سبيل شهادات فخرية من عديد من جامعات العالم مثل جامعة « أثينا » وجامعة « أدنبرة » وجامعة « لندن » وجامعة « إكسفورد » . ويقال أنه قدم لبلاده أجل خدمات إذ حول اهتماماته العلمية إلى خدمة المجهود الحربى أثناء الحرب الكونية الثانية .

«فلويد ألبورت » Allport, Floyed (١٨٩٠ / -١٩٧٨م) :

أمريكى – ولد فلويد ألبورت فى إحدى مدن ولاية « وسكونسن » و حصل على الماجستير من جامعة هارفارد عام ١٩١٤ وقطع دراسته فترة قصيرة حيث خدم فى صفوف القوات المسلحة الأمريكية إبان الحرب الكونية الأولى ثم عاد إلى جامعة « هارفارد » ليحصل على الدكتوراه عام ١٩١٩ .

ومن أهم إسهاماته إصداره عام ١٩٤٩ كتابه الكلاسيكى الذائع الصيت « علم النفس الاجتماعى » . ويغلب على هذا الكتاب المسحة السلوكية التى سادت علم النفس الأمريكى فى النصف الأول من القرن العشرين .

وقد تأثر « فلويد ألبورت » بعالم النفس الألمانى الأصل الأمريكى الإقامة « هجو منستربرج » تأثرا كبيرا . وقد عمل بجامعة « هارفارد » ثم جامعة «كارولينا

الشمالية » ولكن الشطر الأكبر من حياته العلمية قضاه فى جامعة « سيراكوز » فى المدة من ١٩٢٤ حتى اعتزاله ١٩٥٧ .

(هو الشقيق الأكبر لعالم النفس «جوردن ألبورت» الذى نتحدث عنه فى موضع قادم) .

«جاردنر مورفى » Murphy (١٨٩٥ / ١٩٧٩م) :

أمريكى - من مؤسسى علم النفس الاجتماعى، حصل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا الأمريكية عام ١٩٢٣ وبقى فى جامعة كولومبيا معظم حياته العلمية حتى ١٩٤٠ ثم انتقل إلى كلية « نيويورك » وبقى فيها حتى عام ١٩٥٠ وأثناء عمله بجامعة « كولومبيا » حصل على مهمة عملية فى جامعة « هارفارد» فى المدة من ١٩٢٢ إلى ١٩٢٥ .

ويعزى إلى « مورفى » أنه خلال العشرينات من هذا القرن قام بتدريس مقرر تخصصى تحت عنوان « تاريخ علم النفس الحديث » ، وكانت مادة هذا المقرر كتابه الكلاسيكى الذى أصدر طبعته الأولى عام ١٩٢٩م بعنوان « مقدمة تاريخية لعلم النفس الحديث » وهو الكتاب الثالث فى هذا الموضوع (مما يذكر أن الكتاب الأول هو كتاب « تاريخ علم النفس » أصدره «برت» Brett أستاذ الفلسفة بجامعة « تورنتو» عام ١٩٢١م - وبعده بشهور صدر كتاب « بورنج » Boring «تاريخ علم النفس التجريبى » فى طبعته الأولى) .

وقد اهتم « مورفى » - إلى جانب اهتماماته العديدة - بدراسة موضوعات تتناول العلاقة بين الدوافع والحاجات النفسية للفرد والعمليات الإدراكية ، حيث كان الاهتمام منصرفا إلى دراسة العمليات الإدراكية من وجهة نظر علم النفس التجريبى فقط دون الالتفات إلى الاعتبارات الدوافعية، ومن دراساته الشهيرة أيضا دراسته عن أثر الاتجاهات على التذكر، وذلك بأن قاس عملية التذكر عند مجموعتين المجموعة الأولى من أفراد يكرهون الروس والمجموعة الثانية من أفراد يحبون الروس، وعرض على المجموعتين « مادة » تتضمن عبارات بعضها يقدح

الروس والبعض الآخر من العبارات يمدح الروس ، وتبين أن المجموعة الأولى الكارهة للروس كانت تتذكر العبارات « القادحة » أكثر . أما المجموعة الثانية المحبة للروس فكانت تتذكر العبارات المادحة أكثر. أى أن كل مجموعة تتذكر ما يتفق مع اتجاهاتها، وقد عرض دراسته فى كتابه الشهير الذى صدر عام ١٩٣٧م بعنوان « علم النفس الاجتماعى التجريبى » .

ويقال أنه كان محاضرا متميزا يخلب ألباب المستمعين شأنه فى ذلك شأن رجالات علم النفس العظام، وتخرج على يديه علماء كبار مثل «ليكرت» و«نيوكمب» و«مظفر شريف » .

مظفر شريف Sherif (١٩٠٦ / ١٩٨٨م) :

تركى – هو مظفر شريف بازغلو – تركى الأصل أمريكى بالتجنس . سافر إلى أمريكا عام ١٩٢٩ بعد حصوله على درجة الماچستير من جامعة « استانبول » ثم حصل على الماجستير مرة ثانية من «هارفارد » عام ١٩٣٢ حيث سافر إلى ألمانيا للدراسة على يد عالم النفس الألمانى الشهير « كهلر » ولكن حاق اضطهاد النازى برجالات العلم (سنعرض لذلك تفصيلا عند الحديث عن مدرسة الجشطلت) مما دفعه للعودة إلى أمريكا حيث استقر فى جامعة «كولومبيا » ليدرس على يد « جاردنر مورفى » .

وحصل على الدكتوراه عام ١٩٣٥ وكان موضوع الرسالة « سيكولوجية المعايير » وأصبحت هذه الرسالة فور نشرها عام ١٩٣٦ « تحفة نادرة » من تحف علم النفس الاجتماعى .

وعندما عاد إلى وطنه الأم « تركيا » لقى هناك – من أسف – عنتا شديدا بسبب انتقاده للنازى (لاحظ أيها القارئ الكريم أن «تركيا» كانت حليفة لألمانيا النازية إبان الحرب الكونية الثانية) وقد قضى هذا العالم الفذ عدة شهور من عام ١٩٤٤ فى السجن (وابؤساه) . ولكن عارفى فضله من أركان علم النفس الأمريكى

وعلى رأسـهم « جاردنر مورفى » جعلوا السلطات فى الولايات المتحدة الأمريكية تمارس ضغطا شديدا على الحكومة التركية ليخرج مظفر شريف من السجن ويعود إلى أمريكا .

وخلال حياته العلمية العريضة عمل فى العديد من المراكز العلمية والجامعات العريقة، ولقى الكثير من مظاهر التكريم مما هو أهل له، أما أعماله العلمية فهى غزيرة وتزيد على ثمانين عملا فى مجالات علم النفس الاجتماعى .

ومن تجاربه المأثورة والتى تدأب على ذكرها مراجع علم النفس الاجتماعى - تلك التجربة التى أجريت بغرض معرفة أثر الضغوط الاجتماعية على الإدراك وبيان هذه التجربة أن نقطة ضوئية صغيرة ثابتة فى حجرة مظلمة تماما فإنه بعد التحديق فيها لعدة دقائق يبدو للناظر أنها تتحرك - وهذا بالطبع من قبيل الخداعات الإدراكية المعروفة فى علم النفس التجريبى باسم الحركة الظاهرية Autokinetic Phenomenon . وطبقت التجربة على مرحليتن مرحلة التطبيق الفردى كانت تقديرات الأفراد لمدى حركة النقطة الضوئية متفاوتة فيما بينهم إلى حد كبير (نكرر أنه لا توجد حركة ولكن خداع بصرى) أما فى حالة التطبيق الجمعى فإنه حدث تقارب فى تقديرات نفس الأفراد لمدى حركة النقطة الضوئية لأن هؤلاء الأفراد عدلوا تقديراتهم بسبب تأثرهم بأحكام الآخرين. وهذه التجربة « الكلاسيكية » تبين أثر العوامل أو الضغوط الاجتماعية على عملية الإدراك .

«سليمان آش» Asch (١٩٠٧/ -) :

أمريكى - حصل «آش» على الدكتوراه من جامعة «كولومبيا» عام ١٩٣٢. وهو يمثل أصدق تمثيل تأثير مدرسة « الجشطلت » الألمانية على دراسات علم النفس الاجتماعى. ودراساته عن دور العوامل الاجتماعية فى التأثير على العملية الإدراكية تؤكد على خصوبة الأفكار الجشطلتية وقدرتها على التأثير فى دراسات علم النفس الاجتماعى التجريبى .

وفى منتصف القرن العشرين صمم «آش» تجارب عن أثر إجماع الأغلبية على استقلال رأى الفرد (أصبحت هذه التجارب فيما بعد حتى الآن من كلاسيكيات علم النفس الاجتماعى) ومن تلك التجارب تجربة بسيطة تقوم على التمييز البصرى للأطوال، وقامت التجربة على مجموعات من الأفراد تتراوح أعدادهم من ٧ – ٩ أفراد يؤدون تجربة بسيطة فى تمييز الأطوال، حيث طلب من هؤلاء الأفراد مقارنة طول أحد الخطوط بأطوال ثلاثة خطوط أخرى معطاة وأحد هذه الخطوط الثلاثة مساو بالضبط للخط الأصلى والخطان الآخران يختلفان اختلافا واضحا عن الخط الأصلى .

وكانت التجربة من قبيل التجارب الخداعية حيث إن هؤلاء الأفراد تقابلوا جميعا مع المشرف على التجربة وطلب منهم الإدلاء باستدلالات خطأ وإجماعية فى عملية مقارنة الأطوال ما عدا شخص و احد هو محل التجربة الذى لا يدرى عن هذه الترتيبات و لا يعرف أنه مستهدف بعملية الخداع. وتجرى تجربة تمييز الأطوال ويبدى هؤلاء الأفراد أحكاما خطأ فى عملية تمييز الأطوال بحيث يشعر الشخص محل التجربة أن ثمة تضاربا بين تقديرات هؤلاء الأفراد وبين ما يراه بعينى رأسه، والطريف فى الأمر أن الشخص محل التجربة تأثر فى بعض أحكامه بتقديرات هؤلاء بحيث «كذب» مشاهداته الحسية، وذلك بسبب العوامل الاجتماعية المحيطة به والتى تمثل رأى أغلبية تبدى أحكاما خطأ . مما يدل على أن رأى الأغلبية يؤثر على رأى الفرد حتى فى أمور حسية ملموسة .

فيليب زمباردو Zimbardo (١٩٣٣ / -) :

أمريكى – حصل على الدكتوراه من جامعة «ييل» الأمريكية عام ١٩٥٩ . عمل فى جامعة نيويورك ثم استقر منذ عام ١٩٦٨ استاذا ضليعا فى جامعة « ستانفورد» العريقة وله تجربة تعتبر من التجارب الكلاسيكية فى علم النفس الاجتماعى .

أجريت التجربة لدراسة أثر السجن على الحالة النفسية للنزلاء . وكان السجن الذى أجريت فيه هذه التجربة عبارة عن قبو بقسم علم النفس بجامعة

ستانفورد الأمريكية حيث تمت تهيئة القبو ليكون أشبه بالسجن إذ قسم القبو إلى زنزانات مزودة بالقضبان الحديدية وزودت الزنزانات بكاميرات المراقبة وأعلن عن طلب « متطوعين » فى تجربة لدراسة الأثر النفسى للإقامة بالسجن ». بحيث يتقاضى المتطوع مكافأة قيمتها ١٥ دولارا فى اليوم (أجريت التجربة عام ١٩٧١ وكان المبلغ فى ذلك الوقت له قيمة كبيرة) .

وقد تقدم للتطوع ٧٥ طالبا من طلاب الجامعة طبقت عليهم مجموعة من الاختبارات النفسية المتعمقة بهدف استبعاد المشتبه فى كونهم مضطربين انفعاليا، وبعد عملية الغربلة هذه أصبح عدد المتطوعين المقبولين فى التجربة ٢٠ طالبا . وقد قسم هؤلاء عشوائيا إلى مجموعتين . المجموعة الأولى مكونة من عشرة طلاب اعتبروا بمثابة « حراس السجن » . أما العشرة الآخرون فقد اعتبروا «نزلاء السجن» ولم تعط أى مجموعة تعليمات معينة للتصرف سواء بالحزم أو باللين. وكان يدفع للجميع، الحراس والنزلاء، نفس المكافأة وهى ١٥ دولارًا يوميًا .

وكان تصميم التجربة أن تستمر أسبوعين. وفى اليوم الأول تم القبض على المتطوعين « نزلاء السجن » وذلك بمساعدة ضباط الشرطة المحليين (أى ضباط شرطة حقيقيون من أقسام الشرطة المختصة) ومن ثم تم تسليمهم إلى «سجن التجربة » فى قبو قسم علم النفس بجامعة « ستانفورد» حيث تم تسجيل أسمائهم والبيانات الضرورية عنهم، وحيث تسلم كل منهم الزى الموحد الخاص بالسجن والمتطلبات الشخصية مثل فوطة ، صابون ، معجون أسنان ... إلخ. وأودعوا الزنزانات الثلاث التى قسم السجن إليها . وقام « حراس السجن » بمراقبتهم، وارتدى هؤلاء الحراس الزى الخاص مزودين بالصفارات .

وقد توقع زمباردو ومعاونوه من المشرفين على التجربة فشلها وكان تخوفهم أن المتطوعين قد لا يتقمصون الأدوار التى حددت لهم - أو بمعنى آخر أن تعوزهم الانغماسية، ولكن الذى حدث أن الجميع شاركوا فى التجربة بحماس غير متوقع - وقد استمتع « حراس السجن » بدورهم وابتهجوا به ، ومارسوا رقابة صارمة على

نزلاء السجن وعملوا على زجرهم وتانيبهم وغالوا فى ذلك بحيث أصيب « نزلاء السجن » بالتوتر والإحباط من جراء الممارسات « السادية » للحراس . وأبدى « نزلاء السجن » التذمر بسبب هذه الممارسات ولكن سرعان ما كفوا عن التذمر أو الشكوى .

وأصبح حديث «نزلاء السجن» يدور فى غالبيته العظمى عن الأحوال « داخل السجن » ونادرا ما تناولت أحاديثهم موضوعات أخرى بحيث أصبحوا كأنهم سجناء حقيقيون وليسوا طلابا فى الجامعة تجرى عليهم تجربة علمية تطوعوا باختيارهم للمشاركة فيها .

ومن الطريف أن نذكر أنه فى ثالث يوم من التجربة اضطر القائمون عليها إلى إخراج أحد المتطوعين من « نزلاء السجن » بسبب معاناته الشديدة من الاكتئاب واختلال التفكير والانقلاب الانفعالى ، وفى اليومين الرابع والخامس أخرج أربعة من نزلاء السجن بسبب ما بدا عليهم من أعراض الانهيار النفسى، وفى اليوم السادس حيث بقى من نزلاء السجن خمسة فقط كانوا جميعا على شفير الانهيار حيث اقتنع القائمون على التجربة بأنه قد حان الحين لإنهائها لأن التجربة فى نظرهم حققت الهدف المقصود منها .

وهذه التجربة كانت فتحا للاهتمام بموضوع الآثار النفسية للإقامة بالسجون (لمزيد من المعلومات عن الموضوع يمكن للقارئ الكريم الرجوع إلى كتابنا علم النفس الجنائى) .



الفصل التاسع
تاريخ علم النفس الجنائى

علم النفس الجنائى Criminal Psychology هو فرع من فروع علم النفس التطبيقى يهتم بتطبيق المعارف النفسية فى المجال الجنائى أو الإجرامى. وتدور موضوعات هذا العلم على دراسة السلوك الإجرامى وأسباب هذا السلوك، وكيف يمكن تصنيف المجرمين من حيث خصائصهم الجسمية أو النفسية، وهل يمكن مكافحة الجريمة؟، وما دور العقاب فى تحقيق الردع ؟ وهل يمكن أن تكون المؤسسات العقابية - السجون مثلا - مؤسسات إصلاحية ؟ إلى غير ذلك من موضوعات .

ومن ناحية التطور التاريخى فإنه لا يمكن بحال أن نفصل علم النفس الجنائى عن بقية فروع علم النفس، وخاصة التطبيقية، وذلك يتضح من سياق عرضنا لتاريخ علم النفس الجنائى فى النقاط الآتية :

البدايات التاريخية :

فى عام ١٨٩٣م وبالتحديد فى شهر مارس قام « جيمس ماكين كاتل **Cattel** بتوجيه بعض الأسئلة إلى مجموعة من طلاب جامعة « كولومبيا » مكونة من ٥٦ طالبا . وهذه الأسئلة من قبيل :

- عندما تقف الخيل فى مواجهة الريح هل توجه رأسها إلى الريح أم توجه مؤخرتها ؟

- كيف كان الطقس فى الأسبوع الماضى؟

- هل تسقط أوراق شجرة البلوط فى مطلع الخريف أم فى أواخره ؟

وعندما قدم « كاتل » هذه الأسئلة اعتبرت أول محاولة علمية لدراسة كيفية تقييم الشهادة من الناحية السيكولوجية ، ذلك لأن هذه الأسئلة هى من قبيل الأسئلة التى يمكن أن توجه من القاضى إلى الشهود .

وفى عصر « كاتل » - وهو فجر علم النفس التجريبى - كان علماء النفس فى أوربا - وخاصة المانيا - على قناعة بالأثر الذى لا يمكن إنكاره للإيحاء على عمليات الإحساس والإدراك فى المجالات اليومية المختلفة، ومنها مجال الشهادة الجنائية. وقد رأى « كاتل » فى حينه أن المحامى « خرب الذمة » يمكن أن يوجه إلى شاهد عدل صادق حسن النية العديد من الأسئلة الخبيثة بحيث تشكك فى شهادته وتجعلها تبدو قاصرة أو متناقضة . ولعل القضاة يعرفون - أكثر من غيرهم - أمثال هذه الأمور، هذا إلى جانب عوامل أخرى تؤثر على كفاءة الشهادة رغم حسن نية الشاهد ورغبته الأكيدة فى أن يعطى شهادة دقيقة موثوقا بها بسبب تعرضه للنسيان .

نعود إلى تجربة «كاتل » مع تلاميذه فقد أخطأ العديد منهم فى الإجابة عن أشياء يرونها بصفة دائمة حديثة الوقوع مما يدل على أن الإدراك والتذكر فى واقع الحياة اليومية يحيط بهما الخلط من كل جانب. بل الغريب أن بعض هؤلاء الطلاب كانوا واثقين من دقة إجابتهم على الأسئلة رغم وجود العديد من الأغلاط فيها .

وهذه التجربة تعتبر من بدايات علم النفس الجنائى؛ لأنها أثارت الاهتمام بدراسة العوامل النفسية التى تؤثر على كفاءة الشهادة القضائية . ومن الطريف أن نذكر أن هذه التجربة أجريت على عينات أخرى من الطلاب فى الجامعات الأمريكية الأخرى وكانت النتائج مشابهة إلى حد كبير لنتائج تجربة « كاتل » .

وفى «أوربا » قام العالم الفرنسى « ألفرد بينيه **Binet**» عام ١٩٠٠م بإجراء دراسات عن كفاءة الشهادة القضائية، ونشر عام ١٩٠٥م كتيبا عن دراسات علم

النفس القضائى . أضف إلى ذلك أن العالم الألمانى « وليم شترن Stern » (١٨٧١/ ١٩٣٨) أجرى عام ١٩٠١ تجربة رائدة فى مجال علم النفس الجنائى حضرها طلاب جامعة برلين الذين يدرسون القانون . وكانت التجربة عبارة عن معركة بين اثنين من الطلاب بسبب خلاف حول إحدى القضايا بحيث إن أحدهما سحب مسدسه فى مواجهة الآخر . وهنا تدخل العالم القائم بالتجربة وهو «شترن» وأنهى المشاجرة . (المشاجرة كانت تمثيلية مرتبة سلفا بين الطالبين المشاركين فيها بإيعاز من شترن) وبعد إنهاء المشاجرة طلب شترن من الطلاب المشاهدين – الذين يدرسون القانون – الإدلاء بشهادتهم حول الواقعة التى شاهدوها كتابة . ورغم أنهم طلاب يدرسون القانون ويعرفون العوامل المؤدية إلى تحريف الشهادة فإن أحدًا من الطلاب لم تكن شهادته دقيقة تمامًا، بل لقد حفلت جميع الشهادات بالأخطاء. وقد تراوحت هذه الأخطاء بين أربعة أخطاء إلى اثنى عشر خطأ لكل طالب .

ومن الطريف أن نذكر أن الواقعة الرئيسية فى هذه التجربة وهى سحب أحد المتشاجرين لمسدسه كانت مجالا للعديد من أخطاء الشهادة حيث بلغت الإثارة ذروتها عن سحبه، وقد توصل « شترن » إلى أن الانفعالات الشديدة تؤدى إلى تدنى كفاءة عملية الاسترجاع أو التذكر. بمعنى أن تحدث أخطاء فى التذكر والاسترجاع إذا كانت عملية المشاهدة – لواقعة ما – مشحونة بشحنة انفعالية قوية .

وقد استمر اهتمام « شترن » بموضوع الجوانب النفسية فى الشهادة القضائية. حيث أصدر عام ١٩٠٦ م دورية علمية تحت اسم « علم النفس والشهادة القضائية » . وهذه الدورية العلمية توسعت فيما بعد . وقد ناقشت هذه الدورية موضوعات مهمة فى المجال، مثل دور الأسئلة الإيحائية من المحقق فى تحريف الشهادة . والعوامل المؤدية إلى الانحياز فى الشهادة القضائية مثل الاتجاهات والأفكار المسبقة . وموضوعات أخرى مثل الشهادة الجنائية للأطفال والشهادة الجنائية للمسنين وأثر تقادم العهد بالواقعة على دقة الشهادة الجنائية بحيث يمكن

القول بأن علم النفس الجنائى بدأ بدراسة الشهادة الجنائية . وفى عام ١٩٠٨ م توسعت هذه الدورية العلمية لتشمل موضوعات عديدة فى علم النفس التطبيقى .

ومن مظاهر الاهتمام بعلم النفس الجنائى فى هذا الوقت - أى بداية القرن العشرين - أنه كان يستفاد من علماء النفس على أنهم خبراء فى تقييم الشهادة القضائية. ومن القضايا الشهيرة التى عرفت فى هذا المجال جريمة وقعت عام ١٨٩٦م فى ألمانيا واتهم فيها رجل بقتل ثلاث نساء. وقد قام بدراسة هذه القضية أحد المختصين فى علم النفس وهو « نوتزنج Notzing» حيث صاحب التحقيق فى هذه الجريمة ضجة إعلامية كبيرة .

وقد ارتأى « نوتزنج » أن هذه الضجة الإعلامية أثرت على شهادة الشهود بحيث أصبح الشهود بسبب الضجيج الإعلامى لا يميزون بين الوقائع التى كانوا شهودا عيانا عليها ، وبين الوقائع التى تداولتها الصحف وما حفلت به من مبالغات وإثارة . أى أن الشهود أصبحوا يخلطون بين ما شاهدوه بأنفسهم وبين ما تروجه الصحف من معلومات عن الحادث. بحيث يتأكد تأثير الإيحاء على تذكر الواقعة الجنائية وعلى الشهادة الجنائية بوجه عام .

منستربرج مؤسس علم النفس الجنائى :

فى بداية القرن العشرين لم يكن علماء النفس الأمريكيين على اهتمام كبير بتطبيق علم النفس فى المجال الجنائى . ولعل ذلك راجع إلى التأثير الأمثل لعملاق علم النفس التجريبى «فونت Wundt » الذى كان يهتم باستقصاء الجانب التنظيرى والتجريبى لعلم النفس دون الاهتمام بالجانب التطبيقى. وكان يشدد على إعلاء التنظير والتجريب دون التطبيق أيما تشدد. وقد سايره فى ذلك تلاميذه ولم يشذ عنهم إلا القليل، ومنهم « كاتل » الذى ذكرناه سابقا. ومنهم كذلك « هجو منستربرج Munsterberg» وهو عالم أمريكى الجنسية ألمانى الأصل. وقد اهتم بتطبيقات علم النفس فى مجالات الحياة اليومية، وعلى رأسها المجال الجنائى والمجال الصناعى،

وهو يعتبر الأب الروحى لعلم النفس التطبيقى (سبق الحديث عنه عند الحديث عن بدايات علم النفس التجريبى) .

ومن أبلغ مظاهر اهتمامه بعلم النفس الجنائى أنه فى عام ١٩٠٨م أصدر كتابا بعنوان «على منصة الشهادة» وكان لهذا الكتاب شعبية واسعة فى حينه. وفى هذا الكتاب أشار « منستربرج» إلى مشاهداته وملاحظاته لما يقع أثناء المحاكمة من مدخلات . وقال فيه إن علماء النفس بمعلوماتهم عن موضوعات هامة مثل الإدراك والتذكر يستطيعون جيدا فهم الجوانب النفسية فى الشهادة القضائية. ومع ذلك فقد أشار فى نفس الكتاب إلى أن الانحيازات والانفعالات والدوافع فيها قدر من النقص والتناقض (هذا بالنسبة لعلم النفس فى بداية القرن العشرين) وهذا الكتاب « على منصة الشهادة » - لم يلق قبولا من الجهات القضائية - رغم شعبيته فى ذلك الوقت - وربما يرجع ذلك إلى أن علم النفس فى ذلك الوقت لم تكن له قاعدة معلوماتية قوية بحيث يلقى قبولا لدى رجالات القضاء .

وفى عام ١٩١٤ م نشر « منستربرج » مقالة تحت عنوان « الجوانب النفسية عند المحلفين » وكانت هذه الدراسة نتيجة بحوث أجريت على الطلاب والطالبات فى جامعتى « هارفارد » و « راد كليف » . ومن الطريف أن نذكر أنه فى هذه الدراسة أكد على ضرورة استبعاد النساء من هيئات المحلفين. وذلك على أساس أن الطالبات أقل كفاءة فى دقة الأحكام واتخاذ القرارات من الطلاب .

ورغم بعض التحفظات التى أثيرت حول « منستربرج » وأنه أثار قطيعة بين القانون وعلم النفس - ربما لرفض أعضاء الهيئة القضائية ما اعتبروه منه تدخلا فى عملهم - إلا أن إنجازاته تعد جزءا لا يتجزأ من تاريخ علم النفس الجنائى .

بعض الرواد الأوائل :

فى الوقت نفسه الذى ظهرت فيه أعمال « منستربرج » فإن أحد علماء النفس الأمريكيين وهو « فرنالد Fernald » وذلك بالتعاون مع أحد الأطباء النفسيين الأمريكيين هو « هيلى Healy » - قاما بتأسيس أول عيادة نفسية متخصصة فى

علاج الأحداث الجانحين عام ١٩٠٩م تحت اسم « مؤسسة الأحداث السيكوباتيين» وكانت مهمة هذه المؤسسة تقديم الاستشارات والتشخيصات الإكلينيكية لمشكلات الأحداث. ويعتبر « فرنالد » - الذى حصل على الدكتوراه عام ١٩٠٧م من جامعة شيكاغو - من أوائل علماء النفس الذين عملوا بالتعاون مع الأطباء النفسيين. كما أنه من الأوائل الذين اختصوا بدراسة المشكلات النفسية للأحداث تشخيصا وعلاجا. وقد تطورت هذه المؤسسة وتغير اسمها عام ١٩١٤م إلى « معهد خدمات الأحداث الجانحين » وقد استخدم «هيلى» و «فرنالد» اختبار « بينيه» فى تحديد نسبة ذكاء الأحداث. ولكنهما شعرا شعورا قويا بالحاجة إلى اختبارات ذكاء أدائية وأصدرا عام ١٩١١م اختبارا لقياس الذكاء العملى.

وشارك العديد من علماء النفس فى المجال الجنائى، وذلك بتطبيق الاختبارات النفسية المختلفة على الأحداث والمجرمين، وذلك بناء على طلب السلطات القضائية. وشهدت فترة ما بين الحربين الأولى والثانية نهضة كبيرة فى هذا المجال، وكان الاختصاصيون فى علم النفس يعملون مع الأطباء النفسيين فى المؤسسات التى تساهم فى تشخيص حالات انحراف الأحداث وعلاجها. بحيث يمكن القول بأن دورهم كان فى الصف الثانى بعد الأطباء النفسيين. وقد انخرطت فى هذا المجال نسبة كبيرة من النساء. ومما يذكر أنه خلال الثلاثينيات من القرن العشرين كان الرجال يمثلون أكثر من ثلثى عدد علماء النفس الأمريكيين وكانت النساء تمثل أكثر من ٦٠٪ من العاملين فى مجال علم النفس التطبيقى .

ومن جهة أخرى بدأ توفير الخدمات النفسية فى سجون مدينة نيويورك عام ١٩١٣م . وفى عام ١٩١٦م تم إنشاء « المختبر السيكوباتى » ملحقا بقسم الشرطة فى مدينة نيويورك، وكانت مهمة هذا المختبر إجراء الفحوص الطبية والنفسية للسجناء. وكانت هيئة العمل مكونة من الأطباء النفسيين والأخصائيين النفسيين والأخصائيين الاجتماعيين .

وكان «لويس ترمان Terman » أول عالم نفس يطبق الاختبارات النفسية على

المتقدمين للعمل بالشرطة عام ١٩١٦م فى ولاية كاليفورنيا. وفى إحدى المرات كان عدد المتقدمين للشرطة ٣٠ شخصا وطبق عليهم اختبار ستانفورد - بينيه. وكانت أعمار المتقدمين تتراوح بين ٢١ - ٣٨ سنة. وكانت غالبية المتقدمين من مستويات تعليمية متدنية. ومما هو جدير بالذكر أن ثلاثة فقط من بين المتقدمين الثلاثين كانت نسبة الذكاء عندهم أعلى من ١٠٠ (أى أعلى من المتوسط فى الذكاء، حيث المتوسط = ١٠٠) وكانت نسب ذكاء الغالبية متدنية بين ٦٨ - ٨٤. وقد استبعد من المتقدمين ذوى نسب الذكاء المتدنية . (سبق الحديث عن «ترمان» فى موضوع حركة القياس النفسى).

وكذلك اهتم لويس ثرستون Thurstone (١٨٨٧/ ١٩٥٥م) - وهو قياس نفسى أمريكى شهير فى مجال الذكاء والقدرات بتطبيق الاختبارات النفسية على المتقدمين للالتحاق بوظائف الشرطة حيث قام عام ١٩٢٢م بتطبيق اختبار « ألفا » لقياس الذكاء اللفظى على ٢٥٨ من المتقدمين لوظائف الشرطة فى مدينة « دترويت » حيث تراوحت نسب الذكاء عند غالبية المتقدمين بين ٦٠ ، ٧٠ . وقد فسر « ثرستون » ذلك أن العمل فى الشرطة لا يجتذب ذوى الذكاء الرفيع .

وفى دراسة أخرى أجرتها « مود ميريل Merrill » عام ١٩٢٧م قامت بتطبيق اختبار «ألفا» على مجموعة من رجال الشرطة والمتقدمين للعمل بالشرطة، وكانت نسب ذكاء هذه المجموعة مختلفة عن سابقتها حيث بلغ متوسط نسب الذكاء١٠٤ ومن الواضح التعارض الشديد بين نتائج هذه الدراسة ونتيجة الدراسة السابقة مما يدل على أنه ليس فى جميع الأحوال يتجه أشخاص من ذوى الذكاء الخفيض للعمل فى الشرطة. وأن العمل بالشرطة قد يجتذب ذوى الذكاء المتوسط أو الأعلى من المتوسط.

وفى بدايات القرن العشرين اهتم علماء النفس كذلك بدراسة كيفية تفسير السلوك الإجرامى والتعرف على أسباب الجريمة. وقد دارت هذه الدراسات فى دائرة القياس النفسى . ومن ذلك أنه فى عام ١٩١٤م أسفرت دراسات أجراها عالم

النفس الأمريكى هنرى جودارد Goddard (١٨٦٦/ ١٩٥٧م) - وهو من العلماء الذين اهتموا بدراسة الضعف العقلى وعلاقته بالجناح - إن معظم الجانحين سواء كانوا من الأحداث أو الكبار تتدنى نسب الذكاء لديهم عن المتوسط بحيث ظهر اتجاه تفسيرى يقرن بين الجريمة وتدنى نسبة الذكاء .

هذا وقد ساهم بعض علماء النفس فى تفسير السلوك الإجرامى، وذلك فى إطار نظرياتهم التى قدموها تحت مسمى نظريات الشخصية، ومن هؤلاء «فرويد» وغيره من منظرى الشخصية . (سنعرض لهم فى مواضع قادمة) .

الإسهامات المبكرة فى مجال عملية المحاكمة :

فى بداية القرن العشرين وقبيل الحرب الكونية الأولى كان الاهتمام بتطبيق علم النفس الجنائى فى مجالات مختلفة منها مجال عملية المحاكمة، ومثال على ذلك قام أحد علماء النفس فى بلجيكا وهو «فارندونك Varendonck » عام ١٩١١م بعمل فحص لشهادة جنائية فى قضية مثيرة حيث اتهم أحد الأشخاص بارتكاب جريمة اغتصاب وقتل طفلة فى التاسعة من عمرها، وكان شهود القضية طفلين كل منهما فى حدود العاشرة من أصدقاء المجنى عليها، وقد برهن « فارندونك » على عدم دقة استرجاع الأطفال فى هذه السن للأحداث مما شكك المحلفين فى شهادة الطفلين، واعتبر المتهم غير مذنب وبرئت ساحته .

وكان نشر «شترن» عام ١٩٣٩م دراسة عن أخطاء عملية التذكر عند الأطفال وعند الكبار، وأنها قد تعود إلى أساليب الاستجواب ذات الطابع الإيحائى سواء من هيئات الدفاع أو هيئة الاتهام .

وفى عام ١٩١١م قام «كارل مارب Marbe » بتقديم استشارات علمية للجهات القضائية عن الوقت المنصرم بين ظهور المثير وحدوث الاستجابة - أى زمن الرجع - بحيث برئت ساحة سائق أحد القطارات ارتكب حادثة واتهم بالإهمال واتضح عدم إهماله وأن الحادثة راجعة بسبب وجود فرق زمنى بين ظهور المثير وحدوث الاستجابة، وفى نفس السنة قدم «مارب» استشارة فى قضية أخرى حيث وضح

لهيئة المحكمة أن شهادة الأطفال الجنائية تعوزها الدقة وتؤثر عليها القابلية للإيحاء، وكانت هذه القضية « حساسة » حيث توجه الاتهام إلى بعض مدرسى إحدى المدارس الألمانية بالتحرش الجنسى بالتلميذات، وقد أقنع « مارب » المحكمة بأن الادعاءات الصادرة من التلميذات حيال مدرسيهم غير دقيقة بحيث برئت ساحة المدرسين .

زبدة القول أنه فى هذه الفترة، أى بداية القرن العشرين وخلال الحرب الكونية الأولى اهتم علماء النفس بتطبيق الاختبارات النفسية فى المجال الجنائى، وذلك تمشيا مع نهوض حركة القياس النفسى فى تلك الفترة، كما ساهموا فى تقدير كفاءة الشهادة الجنائية .

علم النفس فى كليات القانون :

دخل علم النفس الجنائى مرحلة جديدة عندما أفسحت بعض كليات القانون المجال لدراسته. ففى عام ١٩٢٢م عين « وليم مارستون Marston » على وظيفة أستاذ علم النفس القانونى فى الجامعة الأمريكية، ويعتبر «مارستون» أكبر علماء النفس الأمريكيين تأثيرا فى تلك الفترة فى المجال الجنائى، ومن أكثرهم تقديرا فى الأوساط العلمية والقضائية، وقد حصل على درجة البكالوريوس والدكتوراه فى القانون من جامعة «هارفارد» .وقد درس علم النفس على يد « منستربرج » ورغم أن دراسته فى مجال القانون أصلا إلا أن الاهتمام بعلم النفس غلب عليه .

ومما يجدر ذكره كذلك أن «مارستون» قد عمل باحثا فى مختبر علم النفس فى «كلية راد كليف » وأجرى عام ١٩١٧م دراسة كشفت عن العلاقة بين محاولة كشف الكذب واستخدامه فى المجال الجنائى، وقد تابع البحوث فى مجال كشف الكذب، وكان عادة ما يناقش المهتمين بالشئون الجنائية مثل رجال القضاء والمحامين والشرطة، كما اشترك فى تقديم الاستشارات العلمية إلى بعض المؤسسات العلمية المهتمة بدراسات الجريمة .

وقد قام « مارستون » كذلك بالعديد من الدراسات الجادة حول نظام المحلفين (مما يتصل بالنظام القضائى الأمريكى ولا يوجد فى النظام القضائى فى الدول العربية عامة) بقصد مساعدتهم فى الوصول إلى فهم الجوانب النفسية المتعلقة بالشهادة والمحاكمة وما شابه، ومما هو جدير بالذكر أن بحوث «مارستون» لاقت نجاحا وترحيبا أكثر بكثير من بحوث « منستربرج » وذلك بسبب خلفية «مارستون» القانونية وقدرته الفائقة على تطويع المعلومات ذات الطابع السيكولوجى لخدمة الموضوعات الجنائية، ورغم ذلك فإن « الجهات القضائية » لم تأخذ بنتائج دراساته إلا فى حيز محدود.

ونذكر فى هذا المقام كذلك العالم الأمريكى «دونالد سلزنجر Slesinger » الذى كان له نشاط فى المجال الجنائى فى فترة ما بعد الحرب الكونية الأولى، حيث قام بالتدريس فى كلية القانون فى جامعة «ييل » عام ١٩٢٧م ولمدة سنوات كان يدرس مقررا فى موضوع علم النفس الجنائى يتضمن موضوعات مثل سيكولوجية الشهادة والعلاقة بين الذكاء والجريمة وكيفية كشف أساليب الخداع فى أقوال الشهود أو المتهمين وتفسير السلوك الإجرامى، وفى عام ١٩٣٠م انتقل « سلزنجر » إلى جامعة «شيكاغو» حيث أصبح عميدا لكلية القانون بتلك الجامعة .

فترة هدوء :

مثل بقية فروع علم النفس التطبيقى الأخرى اعتبرت الفترة بين الحربين الكونيتين فترة هدوء ، ولم يستأنف النشاط العلمى فى مجال علم النفس الجنائى إلا فى الأربعينيات والخمسينيات .

ومن أهم أحداث هذه الفترة الهادئة ظهور كتاب يحمل عنوان «علم النفس الجنائى أو القانونى Legal psychology » من تأليف « هوارد بيرت Burret » عام ١٩٣١م وهو أحد المشتغلين بعلم النفس، ومن الذين درسوا على « منستربرج » ، ورغم أن هذا الكتاب أسهم إسهاما طيبا إلا أن تأثيره كان محدودا على أفراد الهيئة القضائية .

وفى أوائل الأربعينيات كانت المؤسسات العقابية فى الولايات المتحدة تضم حوالى مائتى ألف نزيل، وكان عدد الاختصاصيين فى علم النفس الذين يقدمون لهم الخدمات النفسية قليلا لا يتجاوز الثمانين، وكانت هذه الخدمات محصورة فى تطبيق الاختبارات النفسية والقيام بالإرشاد والتوجيه المهنى التعليمى . وكان هذا الإرشاد والتوجيه عادة ما يتم بناء على طلب السجين .

عصر الثقة :

عصر الثقة هو فترة الخمسينات بعد انتهاء الحرب الكونية الثانية حيث شعر علماء النفس « بالثقة » من حيث إسهامهم فى المجال الجنائى ، وذلك أن العديد من علماء النفس قدموا الاستشارات العلمية بخصوص تقييم الشهادة القضائية ، وكذلك أسهموا فى الفحص النفسى والفحص الطب النفسى للمجرمين ، كما قدم علماء النفس خبرتهم عن أثر ما تكتبه وسائل الإعلام عن وقائع جريمة معينة على الشهود وعلى المحلفين، هذا إلى جانب أن علماء النفس قدموا خبرتهم عن أثر الأفلام الخلاعية Pornography على المراهقين، وليس معنى ذلك أن الأخصائى النفسى أصبح جزءا من الهيئة القضائية، ولكن أصبح له العديد من المساهمات فى هذا المجال .

وفى هذه الفترة كان تقرير مدى المسئولية الجنائية للمجرم أمرًا يقرره الطبيب النفسى ، وهذه المسئولية كانت تسقط جزئيا أو كليا إذا كان المجرم مريضا بمرض نفسى أو عقلى، وقد حاول علماء النفس مزاحمة الأطباء النفسيين فى هذه المهنة ولكن الأطباء النفسيين استماتوا فى الدفاع عن «حقهم»، ومع ذلك فإن بعض المحاكم فى الولايات المتحدة تأخذ بتقرير علماء النفس فى تحديد الحالة النفسية والعقلية للمتهم، ومثال ذلك ولاية « كولومبيا » . وهذه التقارير التى تقرر أن المجرم مريض نفسيا أو عقليا وتسقط عنه المسئولية الجنائية جزئيا أو كليا هى أمر شرحه يطول، وتخضع للطعون والملابسات، وذلك طبقا للنظام

القضائى الأمريكى وما فيه من مداولات بحيث تخضع الأوراق الثبوتية التى تقدم للجهات القضائية لمراجعات وتمحيصات دقيقة .

علم النفس الجنائى فى الصورة المستقرة :

فى الستينيات أى منذ ربع قرن فقط تقريبا استوى علم النفس الجنائى على سوقه كأحد الفروع الرئيسية فى علم النفس ، ففى عام ١٩٦١م أصدر « توشToch» كتابا بعنوان « علم النفس الجنائى والقانونى Legal and Criminal Psychology ».

وربما يذكر فى هذا المقام أن هذا الكتاب يعتبر « الكتاب الأول » بحق فى الموضوع، لأن هذا الكتاب - وقد اطلعنا عليه - كتبه اختصاصيون فى علم النفس والمادة العلمية التى احتواها هى مادة علمنفسية من الألف إلى الياء، على خلاف الكتب التى كان يصدرها بعض المهتمين بعلم النفس من أعضاء الهيئة القضائية، مثلا، أصدر العالم الألمانى « هانزجروس Gros » كتابا عام ١٨٩٨م عن « علم النفس الجنائى » ولكن « جروس » فى هذا الكتاب هو رجل قانون عرض خبرته القانونية فى تقييم الشهادة وكيفية تأثير الإيحاء على الشهود والمحلفين. وحجم المادة العلمنفسية فى كتاب « جروس » ضئيل جدا، وذلك لأمرين : الأول أن علم النفس لم يكن قد تطور وقت صدور كتابه ولم تكن له قاعدة معلوماتية مكتملة، ناهيك عن نقص صلاحيته فى الجوانب التطبيقية، والثانى أن المؤلف رجل قانون وبالتالى يغلب على مؤلفه تخصصه الأصلى .

وفى عام ١٩٦٤ قدم عالم النفس الإنجليزى الشهير «هانز أيزنك Eysenck » كتابه « الجريمة والشخصية » ويعتبر هذا الكتاب أول تنظير متكامل لموضوع الجريمة يقوم به أحد علماء النفس .

ومنذ ذلك الوقت ، وحتى الآن تتوالى المؤلفات فى موضوع علم النفس الجنائى، ويقوم على إصدارها الثقات من علماء النفس ، وتتناول هذه المؤلفات الموضوعات المتعلقة بالمجال الجنائى ، مثل الشهادة القضائية وتقييمها، واستخدام كشاف الكذب فى التحقيق الجنائى واستخدام التنويم المغناطيسى فى التوصل إلى بعض المعلومات من الشهود، هذا إلى جانب دراسة لموضوعات تتصل بالمسئولية الجنائية للمجرم، والتنظيرات التى تفسر السلوك الإجرامى ...



الفصل العاشر
تاريخ علم النفس الصناعى

علم النفس الصناعى Industrial Psychology هو فرع تطبيقى من علم نفس يهدف إلى تطبيق المعارف النفسية فى مجال الصناعة، حيث يتناول موضوعات عدة مثل المواءمة المهنية التى تهدف إلى وضع الشخص المناسب فى المكان المناسب والهندسة البشرية التى تهدف إلى الملاءمة بين الإنسان والآلة بحيث يستطيع الإنسان استخدام الآلة بأكبر قدره ممكن من اليسر والأمن وأعلى قدر ممكن كذلك من الإنتاج، كما يهتم علم النفس الصناعى بدراسة حوادث العمل فى ميدان الصناعة وكيفية تقليل هذه الحوادث، هذا إلى جانب موضوعات أخرى مثل الصحة النفسية للعامل ومشكلات سوء التوافق المهنى والبطالة .

ومن الصعب أن نفصل تاريخ علم النفس الصناعى عن تاريخ علم النفس بوجه عام - وذلك أن نمو علم النفس الصناعى كان نتيجة تضافر جهود عدد من العلماء فى مجالات علم النفس المختلفة، وخاصة مجال القياس النفسى والاختبارات النفسية .

ويمكن أن نقسم تاريخ علم النفس الصناعى إلى المراحل الآتية :

١- المرحلة الأولى من عام ١٩٠٠ إلى ١٩١٦م؛ وفى هذه المرحلة لم يكن اسم علم النفس الصناعى قد ظهر بصورة محددة، وقبل عام ١٩٠٠م كان الاتجاه الغالب على علم النفس هو العلم للعلم. وكان معظم العلماء يتجنبون الاهتمام بالنواحى التطبيقية التى تخرج عن نطاق البحث العلمى، مع ذلك فإن أحد علماء النفس وهو «براين» نشر دراسة عام ١٨٦٧ تتناول النواحى النفسية والفسيولوجية

فى الإشارات البرقية. وهذه الدراسة تهتم بكيفية تطوير قدرات عامل البرق الذى يرسل ويستقبل إشارات « مورس » بسرعة وكفاءة . وفى عام ١٩٠٤ وجه «براين» مقالة إلى جمعية علم النفس الأمريكية تتناول إسهامات علماء النفس فى دراسة الوظائف والأعمال التى تمارس فعلا فى الحياة اليومية. وكان «براين» لا يهدف إلى دراسة المهارات كدراسة علمية فى علم النفس. وعلى ذلك لا يعتبر «براين» هو الأب الحقيقى لعلم النفس الصناعى ولكنه مجرد ممهد له.

ومما يجدر ذكره أن لفظ علم النفس الصناعى Industrial Psychology استخدمه « براين » لأول مرة على سبيل الخطأ حيث كان يكتب مقالة فى عام ١٩٠٤ عن الحاجة إلى مزيد من البحوث فى مجال علم النفس الفردى Individual Psychology ولكنه كتب بدلا من ذلك Industrial Psychology ولم يلتفت إلى هذا الخطأ وذاع تعبير علم النفس الصناعى .

وإلى جانب مساهمة « براين » كانت مساهمات بعض المهندسين المشتغلين بالأعمال الصناعية الذين كانوا يهدفون بصورة رئيسية إلى رفع الإنتاج كما وكيفا. وكانوا كذلك مهتمين بصورة أساسية بالجانب الاقتصادى فى الناحية الإنتاجية، وكانوا كذلك يحاولون رفع الكفاءة الإنتاجية للعامل ولكن دون الاهتمام بمراعاة النواحى النفسية. ونذكر فى هذا المقام « جلبرت » و « تايلور » حيث كان لهما اهتمام بدراسة الوظائف والأعمال وتحديد حركاتها واختصار هذه الحركات بحيث يمكن تأديتها بأقل جهد ممكن وفى أقصر زمن ممكن بحيث يؤدى ذلك إلى رفع الكفاءة الإنتاجية للعامل .

ويرى البعض أن العام ١٩١٠ هو العام الذى ولد فيه علم النفس الصناعى وأصبح فرعا من علم النفس، كما أن ثلاثة من العلماء يعتبرون الآباء المؤسسين لعلم النفس الصناعى رغم أن كل واحد منهم عمل مستقلا عن الآخرين وهم :

أ- سكوت: هو أحد علماء النفس الأمريكيين الأوائل، وترجع شهرته إلى اهتمامه بعقد عديد من اللقاءات مع رجال الأعمال فى مدينة « شيكاغو» الأمريكية

وذلك من أجل تعريفهم بتطبيقات علم النفس فى مجال الإعلان، وكانت لقاءاته تلك مثمرة وقوبلت بالاستحسان. وأصدر عام ١٩٠٣م كتابا بعنوان « نظرية الإعلان». وفى عام ١٩١١م توسعت مجالات اهتمامه وأصدر كتابين الأول بعنوان « التأثير على العمال فى العمل » والثانى بعنوان « زيادة كفاءة العامل فى العمل » واهتم الكتاب الأول بدراسة أثر الإيحاء والمنافسات فى التأثير على الأشخاص، واهتم الكتاب الثانى بتحسين كفاءة الشخص الإنتاجية، وذلك عن طريق وسائل مثل التقليد والمنافسة والتركيز. ومما يجدر ذكره أن «سكوت» عمل فى أواخر أيام حياته فى مجال الاختيار والتوجيه المهنى خلال الحرب العالمية الأولى.

ب- تايلور: كان « تايلور » مهندسا، وكان محدود التعليم ولكنه علم نفسه بنفسه فى مجال الهندسة - وفى بداية حياته كان عاملا ثم ملاحظا ثم مديرا. وقد اهتم « تايلور» بإعادة تصميم موقف العمل حتى يصل إلى أعلى إنتاجية للمؤسسة الصناعية، وفى نفس الوقت أعلى أجر للعامل وله كتاب صدر عام ١٩١١م بعنوان « مبادئ الإدارة العلمية » التى تقوم فى نظره على ما يأتى :

- التصميم العلمى لطرق العمل بحيث يؤدى ذلك إلى كفاءة الإنتاج .
- اختيار أحسن العمال وتدريبهم بطرق صحيحة .
- تنمية روح التعاون بين الإدارة والعمال.
- المشاركة فى مسئولية العمل من حيث تصميمه وتنفيذه بين العمال والإدارة.

وسنعرض فى نقطة لاحقة لمزيد من جهوده التى هدفت إلى رفع الكفاية الإنتاجية للعامل. ولكنه نتيجة لذلك تعرض إلى هجوم شديد لأن زيادة معدلات الإنتاج بالنسبة إلى العامل أدت إلى تسريح عدد كبير من العمال ذوى الطاقة الإنتاجية المحدودة، ومما يؤدى إليه ذلك من بطالة ولأن مشكلة البطالة كانت متفاقمة فى ذلك الوقت فإن طريقته لم تلق القبول لأنها تؤدى إلى مزيد من البطالة

وكانت محل جدال شديد ولكن الجدال توقف بحلول الحرب العالمية الأولى واستنفار أعداد هائلة من الأفراد فى القوات المسلحة الأمريكية .

جـ- منستربرج : هو عالم نفس المانى وقد دعاه « وليم جيمس » عالم النفس الأمريكى إلى جامعة « هارفارد» الأمريكية حيث عمل بها مهتما بموضوعات علم النفس التجريبى التقليدية مثل الانتباه والإدراك. وكان وجها هاما من «وجوه» المجتمع الأمريكى وصديقا شخصيا للرئيس الأمريكى «روزفلت» وكان « منستربرج» مهتما بتطبيق المعارف السيكولوجية فى ميدان الصناعة. وفى عام ١٩١٣م ألف كتابا بعنوان « علم النفس والكفاءة الصناعية » . وقد تضمن هذا الكتاب أجزاء ثلاثة تدور حول تصميم بيئة العمل وكيفية استخدام الوسائل النفسية فى زيادة المبيعات، كما اهتم بدراسة الأمن الصناعى فى مجال صناعة السيارات .

ويعتبر البعض أن « منستربرج» هو « الأب الروحى » أو المؤسس الفعلى لعلم النفس الصناعى ومع ذلك لا يمكن إغفال جهود « تايلور » و«سكوت» . وفى بداية الحرب العالمية الأولى كان « منستربرج » متعاطفا بشدة مع الألمان – لأنه المانى – وذلك خلافا لبقية الشعب الأمريكى مما جعل موقفه بالغ الحرج والدقة. ومهما يكن من أمر فإنه بوفاته عام ١٩١٦ توقف نمو علم النفس الصناعى مدة طويلة وذلك لأنه لم يترك شخصية علمية تستطيع أن تواصل عمله العلمى .

٢- المرحلة الثانية الفترة بين ١٩١٧ إلى ١٩١٨ : أى خلال الحرب العالمية الأولى. إذ كان لهذه الحرب أثر هام على تطور علم النفس بوجه عام حيث اعتقد علماء النفس فى ذلك الوقت أنهم قادرون على تقديم خدمات لأوطانهم عن طريق توظيف معارفهم فى خدمة المجهود الحربى الذى شغل العالم فى ذلك الوقت.

وكان «روبرت يركس » أكثر علماء النفس نشاطا فى تحويل علم النفس إلى خدمة المجهود الحربى وكان فى ذلك الوقت رئيسا لجمعية علم النفس الأمريكية. وقد ساهم مع زملائه أعضاء الجمعية فى فرز المجندين الجدد وتحديد حالات

التخلف العقلى، كما اتجه الاهتمام نحو دراسة دافعية الجنود وروحهم المعنوية والمشكلات النفسية التى يعانون منها . وقد ركز « يركس » على المبدأ الذى يقول أن علم النفس يمكن أن يسخر فى خدمة القوات المسلحة .

ولكن القيادات العسكرية لم تكن على يقين من إمكانية الاستفادة من علم النفس فى المجال العسكرى، ومن أهم إسهامات «يركس» وزملائه اختبار «الفا» لقياس ذكاء المتقدمين للقوات المسلحة الأمريكية. وهو اختبار لفظى لقياس الذكاء ويتطلب الإجابة عليه معرفة الإنجليزية قراءة وكتابة، ولكن اتضح أن حوالى ٣٠٪ من هؤلاء المتقدمين من الأميين أو الذين لا يعرفون اللغة الإنجليزية (لأن أصولهم فرنسية أو إيطالية) ومن أجل هذا أعد «يركس» وزملاؤه اختبار «بيتا» ليناسبهم وهو اختبار غير لفظى يقوم على قياس الذكاء عن طريق الأشكال والصور .

وفى الوقت نفسه قام « سكوت » بدراسات عن أحسن الوسائل لتوزيع المجندين على التخصصات العسكرية المختلفة بما يتناسب مع استعداداتهم. وقد قام بدراسة حوالى خمسمائة وظيفة فى الجيش الأمريكى من حيث مهامها وواجباتها وما تتطلبه من قدرات واستعدادات فى الأشخاص الذين يلتحقون بها، وهذا الأمر وثيق الصلة بموضوع المواءمة المهنية، وكذلك تم تنفيذ العديد من برامج اختبار المجندين وإرشادهم . وقد صدرت التعليمات بإنشاء العديد من «قاعات الاختبار » فى الوحدات العسكرية لاختبار المجندين الجدد. وكذلك المتقدمون للمدارس أو الكليات العسكرية، وشاع استخدام اختبارى « الفا » و «بيتا» إلى جانب بعض الاختبارات النفسية الأخرى. ولم يستغرق تنفيذ برنامج تطبيق هذه الاختبارات إلا عامى ١٩١٧ ، ١٩١٨م حيث وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها وانتهى برنامج الاختبارات دون أن يحقق جميع الأهداف التى كان يطمح « يركس » إلى تحقيقها، ومع ذلك فقد تم فى هذا البرنامج اختبار ما يزيد على مليون وسبعمائة الف شخص وهو عدد هائل بلا شك .

وعلى أية حال فإن تأثير الحرب العالمية الأولى كان طيبا على علم النفس

لأنه أعطى المجتمع الأمريكى صورة عن مهنة علم النفس وما يمكن أن تساهم به هذه المهنة من تطبيقات في خدمة المجتمع .

وفى عام ١٩١٧م ظهرت أقدم مجلة علمية وهى مجلة علم النفس التطبيقى ومن الموضوعات التى ظهرت فى تلك المجلة « العلاقة بين علم النفس والحرب » و« الاختبارات العقلية لطلاب الجامعات » .

٣- **المرحلة الثالثة بين الحربين من ١٩١٩ إلى ١٩٤٠م** : حيث كان من ثمرات الحرب العالمية الأولى التعريف بأهمية علم النفس ودوره التطبيقى فى المجتمع. وظهر للمجتمع الأمريكى أن علم النفس يستطيع أن يحل المشكلات الصناعية، بل ظهرت مكاتب لتقديم الخدمات الاستشارية في هذا المجال. وأشهر هذه المكاتب هو الذى أسسه عالم القياس النفسى الأمريكى « والترينجام » ومما يجدر ذكره أن سبعا وعشرين شركة استفادت من خدمات هذا المكتب بتقديم الاستشارات فى مجال اختيار الأفراد وخاصة الموظفين الكتابيين والبائعين .

كما تم تأسيس « المؤسسة النفسية » عام ١٩٢١م على يد « جيمس كاتل » الذى طالبه المشتغلون بعلم النفس بالمشاركة فى نشاطها، وكان الهدف من إنشاء المؤسسة دفع علم النفس إلى الأمام خاصة فى المجالات التطبيقية . وقد استمرت « المؤسسة النفسية » حتى الآن وهى كبرى مراكز نشر وتوزيع الاختبارات النفسية فى أنحاء العالم المختلفة .

وفى خلال العشرينيات من القرن العشرين اهتم علماء النفس الصناعى بالقياس النفسى وتحول الاهتمام من القياس داخل المختبر النفسى إلى القياس فى مجال الاختيار والتوجيه المهنى. ومن الأحداث الهامة خلال هذه العشرينيات كذلك صدور كتاب بعنوان « علم النفس الصناعى » من تأليف « فتلز » ومما يجدر ذكره كذلك ما أجرى فى نفس الفترة تحت اسم «تجارب هاوثورن» التى أشرف عليها « التون مايو » والتى كانت تهدف إلى دراسة العوامل المؤثرة على الإنتاج .

٤- المرحلة الرابعة من الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٠ إلى ١٩٤٥م:

حيث إنه عندما دخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب العالمية الثانية كان علماء النفس على استعداد للقيام بدورهم بصورة أقوى مما كانوا عليها فى الحرب الأولى- كما أنه فى فترة ما بين الحربين تطور علم النفس تطورًا كبيرًا وخاصة فى مجال الاختبارات النفسية التى تستخدم فى الاختيار المهنى والتوجيه المهنى .

وقد اشترك « والتر بنجام Bengham » فى اللجنة الاستشارية لتوزيع المجندين على الوحدات العسكرية المختلفة، كما تم إعداد اختبار التصنيف العام للجيش وهذا الاختبار له أهمية خاصة لأنه يمثل بداية حركة الاختبارات الجمعية فى قياس الذكاء، وقد اشتغلت هذه اللجنة الاستشارية كذلك باختيار المتقدمين للمعاهد العسكرية .

كذلك انشغل علماء النفس بإعداد الاختبارات الموقفية وخاصة تلك التى تقيس قدرة الفرد على تحمل المواقف الضاغطة والتصرف الهادئ الهادف أثناء هذه المواقف. وذلك بقصد المساعدة فى اختبار الأفراد الذين يعملون فى أجهزة المخابرات العسكرية، ومن الاختبارات الموقفية الشهيرة التى استخدمت فى ذلك أن يطلب من المتقدم للعمل فى المخابرات العسكرية أن يقوم ببناء مكعب كبير ضلعه خمسة أقدام من قطع خشبية صغيرة فى وقت قصير جدا ومن المستحيل على الفرد بالطبع أن يقوم بعمل المكعب فى الفترة الزمنية المقررة . وكان يتقدم لمساعدته شخصان من المتطوعين (وهما فى واقع الأمر من الأخصائين النفسيين القائمين على تنفيذ الاختبار) ويبادر أحدهما بتقديم مساعدة قليلة غير فعالة ويتعمد « إغاظة » المتقدم وتأخيره . ويقدم الآخر اقتراحات سخيفة وغير عملية بحيث لا يستطيع المتقدم بحال من الأحوال إنهاء ما هو مطلوب منه . والغرض الأساسى ليس بناء المكعب سالف الذكر ولكن الغرض الأساسى هو دراسة الاستجابات الانفعالية والقدرة على ضبط النفس حيال المواقف الضاغطة وحيال الإحباط والتوتر. وقد نجح هذا الاختبار فيما أعد لأجله أيما نجاح .

ومن مجالات الاهتمام الأخرى فى أثناء الحرب العالمية الثانية اختيار الطيارين وتدريبهم على الطائرات العسكرية، وكانت اللجنة المشكله لهذه المهمة تتكون من المختصين فى علم النفس وبعض القيادات العسكرية وبعض قدامى الطيارين المدنيين. وكان هدف اللجنة اختيار أصلح الأفراد من بين المتقدمين من حيث القدرات العقلية والجوانب الانفعالية . كما أن مهمة هذه اللجنة توسعت بحيث شملت إجراء تعديلات على طائرات التدريب بحيث يكون استخدامها أكثر يسرًا .

وفى عام ١٩٤٣م كانت الحاجة ماسة إلى تنظيم البحوث التطبيقية فى مجال علم النفس فى القوات المسلحة، وتم إنشاء « هيئة تطبيقات علم النفس » وقد عملت هذه الهيئة فى مجالات ثلاثة، الأول تصنيف الأفراد حسب قدراتهم واستعداداتهم تمهيدا لتوزيعهم على التخصصات العسكرية المختلفة. والمجال الثانى مجال التدريب وتطبيق الأسس النفسية للتعلم فى هذا المجال الحيوى . أما المجال الثالث فكان الاشتراك فى تصميم الأدوات والمهمات التى يستخدمها أفراد القوات المسلحة. وخلال هذه المجالات الثلاثة تم تنفيذ العديد من المشروعات العلمية التى كانت تهدف إلى توظيف علم النفس فى المجال العسكرى .

وفى خلال الحرب الثانية لم يقتصر استخدام علم النفس الصناعى فى المجال العسكرى بل تعداه إلى المجال المدنى حيث شاع استخدام الاختبارات النفسية فى الانتقاء للوظائف فى المجال الصناعى. ولأن الولايات المتحدة الأمريكية فى فترة الحرب العالمية الثانية كانت محتاجة إلى الطاقة الإنتاجية لكل فرد فيها فقد طلب من المختصين فى علم النفس الصناعى دراسة مشكلات صناعية مثل ترك العمل أو الغياب عن العمل. كما ساعد علماء النفس الصناعى فى مجال تصميم الآلات بحيث تكون مناسبة للعامل وآمنة ومحققة لأعلى طاقة إنتاجية فى نفس الوقت. وزبدة القول أن خدمات علم النفس الصناعى والتى كانت تقدم للمجهود الحربى إبان الحرب الثانية كانت تقدم كذلك فى المجيال المدنى وهذا كله دفع علم النفس الصناعى دفعات قوية إلى الأمام .

٥- **المرحلة الخامسة :** الاتجاه إلى التخصص من ١٩٤٦ حتى الآن. وفى هذه الفترة أصبح علم النفس الصناعى فرعا مستقلا متكاملا من علم النفس وله مجاله التطبيقى الخاص به وقدمت العديد من الجامعات برامج فى علم النفس الصناعى على مستوى الماجستير والدكتوراه .

ومما يجدر ذكره أنه من الأحداث الهامة فى هذه المرحلة الأخيرة صدور «قاموس التعريفات المهنية » وقد أعدت هذا القاموس هيئة العمل الأمريكية لأول مرة عام ١٩٣٩ ثم توالت صدور طبعات منه منقحة ومعدلة. وفى هذا القاموس وصف وتحليل آلاف الأعمال فى الصناعات والمهن المختلفة، وذلك ابتداء من الأعمال البسيطة غير الماهرة إلى الأعمال التى تتطلب أكبر قدر من المهارة .

وفى هذا القاموس يوجد توضيح للمؤهلات والخبرات المطلوبة لكل عمل من الأعمال. وكذلك علاقة كل عمل بالأعمال الأخرى. ويعتبر إصدار هذا القاموس حدثا بالغ الأهمية فى مجال علم النفس الصناعى، وقد استفادت منه المؤسسات المتخصصة مثل مكاتب التوظيف ومراكز التوجيه المهنى والتربوى ومؤسسات التأهيل والتوكيلات الحكومية والأهلية .

وكأى فرع جديد ظهرت العديد من الموضوعات فى مجال علم النفس الصناعى، كما صدرت العديد من المجلات العلمية التى تنشر البحوث المتخصصة فى الميدان كما ظهرت العديد من الجمعيات العلمية .

ومن خلال هذه العجالة التاريخية نستطيع القول أن نمو علم النفس الصناعى كان من خلال إسهاماته فى المجال العسكرى فى الحرب الأولى والحرب الثانية. ثم تطور هذا الفرع تطورا هائلا بحيث أصبح وكأنه تخصص قائم بذاته تؤلف فيه المراجع المتخصصة .



الفصل الحادى عشر
تاريخ علم نفس النمو

علم نفس النمو Developmental Psychology هو فرع من علم النفس يهتم بدراسة مراحل النمو المختلفة من الطفولة إلى المراهقة إلى الرشد، مع الاهتمام بمظاهر النمو فى كل مرحلة . ومظاهر النمو هذه تتمثل فى النمو الجسمى والعقلى والمعرفى والانفعالى، وكذلك الاهتمام بالمشكلات والصراعات التى تثيرها كل مرحلة .

ومن الناحية التاريخية يمكن أن تعتبر بداية علم نفس النمو مع بداية علم النفس التجريبى، أى منذ أكثر من قرن من الزمان، حيث بدأ الاهتمام بدراسة مرحلة الطفولة بوجه خاص .

وقد أسهم فى دفع حركة علم نفس النمو علماء من داخل مدارس علم النفس وعلماء من خارج هذه المدارس ، كما اشترك عدد من علماء النفس فى دفع حركات علم النفس فى المجالات المختلفة – ولعل القارئ الكريم قد لاحظ وسوف يلاحظ أن ثمة أسماء « متكررة » فى المدارس والفروع المختلفة .

أما العلماء الذين أسهموا – بوجه خاص – فى نشأة علم نفس النمو فهم :

وليم برير Pryer (١٨٤١/ ١٨٩٧م) :

ولد فى إنجلترا ولكنه قضى حياته التعليمية والعلمية فى ألمانيا حيث كان مهتما بدراسة علم النفس وعلم وظائف الأعضاء، ومن أهم كتبه « عقل الطفل » أصدره بالألمانية عام ١٨٨٢م وفى هذا الكتاب أشار إلى الطريقة التتبعية فى علم نفس الطفل

والتى ما تزال تستخدم حتى الآن. وقد طبق أسلوبه البحثى التتبعى على طفله الوحيد «أكسل» Axel حيث أخضعه لدراسة تتبعية لمدة السنوات الثلاث الأولى من حياته، حيث تعرض بالوصف لمظاهر النشاط الحركى للطفل ولمظاهر النشاط الانفعالى (الذى يتمثل فى الضحك والابتسام والعبوس) وكذلك شعور الطفل بذاته كما تعرض بالدراسة لمظاهر النمو المعرفى .

وكانت طريقته فى الدراسة التتبعية مباشرة وبسيطة بحيث كان يدون مناشط الطفل اليومية فى سجل خاص بحيث تظهر ما يتم على سلوك الطفل من تغيرات وتعقيدات على مدى الأيام .

«ستانلى هول » Hall (١٨٤٤ / ١٩٢٤م) :

أمريكى ، عالم نفسى شهير، نتحدث عنه فى فصل قادم علما من أعلام المدرسة الوظيفية، ومن أهم إسهاماته فى دراساته علم نفس النمو الكتاب الشهير الذى أصدره عام ١٩٠٤م بعنوان « المراهقة » ، حيث تعرض لعلاقة فترة المراهقة بالنواحى النفسية والفسيولوجية و الاجتماعية والأنثروبولوجية، وكذلك علاقتها بالجريمة والجنس والتربية.

كذلك أشرف على العديد من البحوث التى أجريت على الأطفال فى جامعة «كلارك» فقد كان يعمل ، ومعه مجموعة من العلماء ، أمثال « كاتل » و «ديوى» و « جيزل» و « ترمان »، وكانت هذه البحوث تهدف إلى دراسة العمليات العقلية عند الأطفال .

وقد أسس مجلة علمية باسم « علم النفس الوراثى » عام ١٨٩١م ، اهتم فيها بدراسات علم النفس بوجه عام ، وموضوع النمو بوجه خاص .

« جيمس بلدوين » Baldwin (١٨٦١ / ١٩٣٤م) :

أمريكى ، هو المؤسس الحقيقى لعلم نفس النمو، وهو من علماء النفس المبرزين، وكان رئيسا لجمعية علم النفس الأمريكية وهو فى السادسة والثلاثين من عمره. ولد

فى « كارولينا » الجنوبية ودرس الفلسفة فى جامعة « برنستون » حيث حصل على الدكتوراه . عمل بالتدريس بجامعات « تورنتو » و « جون هويكنز »، ثم انتقل إلى المكسيك وشغل بها أحد المناصب العلمية الهامة، وهو إعادة تأسيس وتنظيم جامعة المكسيك، ثم ذهب للإقامة فى باريس وتوفى فيها .

ومما يجدر ذكره أن « بلدوين » له فضل كبير على علم النفس فقد حرر فى عامى ١٩٠١ ، ١٩٠٢ كتابا من ثلاثة أجزاء بعنوان « قاموس الفلسفة وعلم النفس » ، هذا إلى كتابه الهام الذى أصدره عام ١٨٩٤ بعنوان « التطور العقلى عند الطفل ». وكذلك كتاب « التفكير » أصدره فى المدة من ١٩٠٦ إلى ١٩١١ من ثلاثة أجزاء . ومن كتبه الهامة أيضا « تاريخ علم النفس » الذى أصدره عام ١٩٣٠ م .

ومن المؤسف أن « بلدوين » كان موضع تجاهل معظم مؤرخى علم النفس، ومهما يكن من أمر فإنه يمكن تلخيص أهم إنجازاته فيما يلى :

- أنه يرى أن النمو بالنسبة للأطفال يحدث على عدة مستويات، المستوى الحركى والمستوى المعرفى والمستوى الاجتماعى، وعلى مستوى الشخصية وعلى المستوى النشوئى الارتقائى .

- اهتم بتوضيح أن تطور التفكير يخضع لمراحل معينة ، وهذه المراحل هى : المرحلة قبل المنطقية، ثم المرحلة المنطقية، ثم المرحلة المنطقية العليا. وفى هذه المرحلة الأخيرة والهامة تتكون الصور الرمزية المجردة .

- أشار « بلدوين » إلى تطور نمو الشخصية وعلاقة ذلك بالنظام الاجتماعى، وذهب إلى القول بأن الفرد هو « نتاج اجتماعى وليس وحدة اجتماعية » وأن جميع مظاهر نمو الشخصية تخضع لعمليات اجتماعية، مثل التقليد والتمثل والتكيف، وهذا الاتجاه الدينامى فى تفسير نمو الشخصية ما يزال مؤثرا على علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا .

- درس «بلدوين » موضوع الانتقاء العضوى حيث أشار إلى أن التطور فى النمو إنما يتم عن طريق توافقات وتعديلات، وعلى ذلك فإن التطور لا يكون اعتباطيا بل يكون

انتقائيا، بحيث يجرى تعديل الأنماط السلوكية اللازمة والأساسية فى حياة الفرد، وكأن هذا التطور يخضع « للانتقاء » أى انتقاء الأنماط السلوكية الهامة لتكون موضوعا للتطور والنمو، وإهمال الأنماط السلوكية غير الهامة وغير الأساسية فى التكيف الاجتماعى .

ومما يجدر ذكره أن عالم النفس السويسرى الشهير « بياجيه » أشار إلى «بلدوين» بقوله : « للأسف لم أعرفه معرفة شخصية ولكننى تأثرت تأثرا بالغا من دراساته » . (يعتبر بياجيه من كبار مؤسسى علم نفس النمو ، وسنعرض له فى فصل لاحق)، ومع ذلك فإن أفكار « بلدوين » شابتها نزعة فلسفية جعلت بعض المؤرخين ينظرون إليه على أنه فيلسوف اجتماعى أكثر من نظرتهم إليه عالما فى مجال علم نفس النمو؛ لأن أفكاره هذه على نضجها - بالنسبة لأوائل القرن العشرين - كان يعوزها الدراسات التجريبية التى كان يجب أن تستند إليها .

« الفرد بينيه » Binet (١٨٥٧/ ١٩١١م) :

فرنسى - أشهر من أن نعرف به - تحدثنا عنه بشىء من التفصيل أثناء التعرض لحركة القياس النفسى، وإلى جانب ذلك يعد أحد مؤسسى علم نفس النمو حيث اهتم بدراسة موضوعات تتناول نمو الأطفال ، من أهمها :

● اهتم بإجراء دراسات تجريبية تتعلق بالنمو المعرفى والتذكرى عند الأطفال، وقاس ذلك باستخدام جمل يطلب من المفحوصين الأطفال تذكرها، فقد تبين له أن هناك علاقة بين النمو العقلى عند من تمت عليهم هذه الدراسات فكانوا يتذكرون الفكرة العامة للجمل المراد تذكرها أكثر من تذكرهم لمفردات هذه الجمل، وهذا دليل على قدرة الطفل على التجريد .

● قيامه بإعداد مقياس الذكاء الشهير باسمه، وهذا فى ذاته إسهام لا يبارى فى مجال علم نفس الطفل، بالرغم من أن « فونت » - الوجه المسيطر على علم النفس فى ذلك الوقت - لم يكن متحمسا لدراسات القياس النفسى ، ولم يمنع ذلك « بينيه » من

التقدم نحو دراسة الذكاء ، آخذا فى حسبانه قياس الذكا ء عن طريق الوظائف النفسية البسيطة وأن هذه الوظائف أيسر فى القياس وأدق فى التدليل على الذكاء وأقدر على الكشف عن الفوارق بين الأفراد . وهذه الوظائف البسيطة هى التى يدور عليها مقياسه الشهير .

« وليم شترن » Stern (١٨٧١ / ١٩٣٨م) :

ألمانى - شغل أستاذية علم النفس بجامعة « همبورج » الألمانية، ثم هاجر إلى أمريكا عام ١٩٣٣ م وحاضر فى جامعتى « هارفارد » و « ديوك » .

له عديد من الاهتمامات فى مجالات علم النفس المختلفة سواء النظرية أم التطبيقية، وبالنسبة لعلم نفس النمو ، فقد اهتم بدراسة النمو اللغوى عند الطفل، ومن المهم جدا أن نشير إلى أنه أول من أشار إلى عبارة يعرفها كل طلاب علم النفس (ولعلهم لا يعرفون من صاحبها) وهى العبارة الشائعة نسبة الذكاء Intelligence quotient .

« أدوارد كلاباريد » Claparede (١٨٧٣ / ١٩٤٠م) :

سويسرى - درس الطب فى جامعة « فينا »، وحصل على شهادة فى الطب عام ١٨٩٧م، كما درس فى «ليبزج» وفى «باريس» حيث تعرف إلى «بينيه» ، وكان «كلاباريد» يقدر « بينيه » تقديرا فائقا . وقد شغل مناصب التدريس فى الجامعات السويسرية .

وفى عام ١٩٠٥م أصدر كتابا بعنوان « التربية التجريبية وعلم نفس الطفل » ، وقد نشر هذا الكتاب أربع مرات مع تعديلات مهمة، كما ترجم إلى العديد من اللغات، وقد عرف التربية التجريبية على أنها دراسة ومعرفة أحسن الظروف التى تلائم نمو الطفل ، وكذلك دراسة أحسن الوسائل التعليمية. وقد ركز فى هذا الكتاب على دراسة مظاهر ومراحل تطور الطفل .

وضمن اهتماماته بعلم نفس النمو أسس « كلاباريد » عام ١٩١٢م « معهد روسو » لدراسة نمو الطفل، وقد عنى هذا المعهد عناية فائقة بالتطبيقات التربوية فى مجال مرحلة الطفولة .

«هنرى فالون» Vallon (١٨٧٩/ ١٩٦٢م):

فرنسى - درس الفلسفة والطب، بدأ حياته ممارسا للطب النفسى، ولكنه تحول إلى علم نفس النمو مهتما بدراسة النمو النفسى إلى جانب علم النفس التطبيقى. وهو أحد رواد علم النفس فى فرنسا. شغل مناصب التدريس فى أرقى المعاهد الفرنسية مثل «السوربون» و «كلية فرنسا». وفى عام ١٩٢٧م أسس مختبرا لعلم النفس البيولوجى للطفل فى باريس، كما حرر مجلة علمية باسم الطفل.

ومما يجدر ذكره أن «فالون» كان على اتصال بالعالم السويسرى «بياجيه». وبينما اهتم «بياجيه» بدراسة الجوانب المعرفية فى عملية النمو اهتم «فالون» بدراسة الجوانب الانفعالية.

واهتم كذلك بدراسة النضج وعلاقته بالتأثيرات الاجتماعية. هذا ومن بين الكتب التى أصدرها كتاب «علم نفس النمو للطفل» عام ١٩٤١م وكتاب «أصول التفكير عند الطفل» عام ١٩٤٧م.

«كارل بوهلر» Buhler (١٨٧٩ / ١٩٦٣م)

ألمانى - هو أحد كبار الباحثين فى مدرسة «فرزبورج». تقلد وظائف جامعية عديدة فى «بون» و «ميونخ» و «فينا»، وتعرض لاضطهاد النازى فهاجر إلى أمريكا عام ١٩٤٠م وهو عالم متعدد الاهتمامات، اهتم بدراسة موضوع التفكير أثناء وجوده فى ألمانيا، ومن أهم أعماله العلمية الكتاب الذى أصدره بعنوان «أزمة علم النفس» عام ١٩٢٧م حيث تعرض فيه للمدارس المختلفة محاولا إيجاد «صيغة واحدة» بعيدا عن خلافات هذه المدارس ومبالغاتها.

أما أعظم أعماله العلمية على الإطلاق، فهو دراسته عن «النمو العقلى عند الطفل» صدر عام ١٩١٨ م و ترجم إلى الإنجليزية عام ١٩٣٠م. ويقال إن هذا الكتاب يمثل دفعة كبيرة لعلم نفس النمو، ويتميز هذا الكتاب بدقة العرض وكفاءة المنهج البحثى مما يضع «بوهلر» فى مصاف مؤسسى علم نفس الطفل.

«أرنولد جيزل» Gesell (١٨٨٠/ ١٩٦١م) :

أمريكى - درس علم النفس بجامعة « كلارك » حيث حصل منها على الدكتوراه عام ١٩٠٦ . وعمل فى جامعة « ييل» وأسس فيها عيادة لمشكلات النمو النفسى للأطفال عام ١٩١١م ، وبقى فى هذه الجامعة حتى اعتزاله فى ١٩٤٨م ، وأثناء ذلك درس الطب وحصل فيه على درجة جامعية عام ١٩١٥م .

ويعد بعضهم « جيزل » « الأب الروحى » لعلم نفس الطفل إذ حرر ما يقرب من خمسة عشر كتابا ، وجعل لهذا الفرع أهمية وجاذبية عند القارئ العادى، وقد تضمنت طرائقه البحثية ملاحظة سلوك الأطفال بصورة مباشرة أو عن طريق تصويرهم بالأفلام. كما أجرى ملاحظاته تحت شروط موضوعية منضبطة .

وكانت دراساته وصفا دقيقا لسلوك الأطفال خلال مظاهر النمو المختلفة فى المراحل العمرية المختلفة ، حيث بينَّ لكل مظهر من مظاهر النمو المستويات والمعايير التى يسير طبقا لها وفق التدرج العمرى ، وكان النقد الذى توجه إليه أن العينات التى استقى منها بحوثه كانت صغيرة العدد، كما أن أعماله البحثية كانت وصفية تماما، ولم يتوصل إلى نظرية عن النمو العقلى أو العوامل المؤثرة فيه . ومع ذلك فهو مشهور بالجداول التى أعدها عام ١٩٢٥م باسم « جداول جيزل للنمو » ومن أهم كتبه « النمو العقلى عند طفل ما قبل المدرسة » أصدره عام ١٩٢٥م وكتاب « الطفولة والنمو » أصدره عام ١٩٢٨ م .

جان بياجيه Peaget (١٨٩٦/ ١٩٨٠م) :

هو عالم النفس السويسرى الشهير شغل مناصب علمية وجامعية كثيرة فى سويسرا ، وهو من أبرز الوجوه المعاصرة فى علم النفس المعاصر، وذلك بنظريته ذائعة الصيت فى « النمو المعرفى ». ومما هو جدير بالذكر أن «بياجيه» حصل على درجة الدكتوراه فى علم الحيوان ثم اتجه إلى دراسة علم النفس مركزا على موضوع يدور حول كيفية تعلم الإنسان . وعد نفسه فيلسوفا مهتما بموضوع المعرفة ، وكانت طرائقه

البحثية متحررة من الأساليب الأمبيريقية التى سادت العصر، حيث إن نظريته فى النمو المعرفى اعتمدت أساسا على ملاحظاته للأطفال . وعلى أية حال فيمكن القول بأن تأثير « بياجيه » على علم النفس هو تأثير شديد بحيث يمكن القول بلا أدنى مبالغة : إن «بياجيه » هو رجل ومدرسة. وقد استمر « بياجيه » فى العمل العلمى ما يقارب الستين عاما نشر فيها العديد من المؤلفات والبحوث، منها « اللغة والتفكير عند الطفل » الذى أصدره عام ١٩٢٦، « الحكم الخلقى عند الطفل » الذى أصدره عام ١٩٣٢م « المنطق وعلم النفس » الذى أصدره عام ١٩٥٢م و«تكون الحقيقة عند الطفل » الذى أصدره عام ١٩٥٤م . وغيرها كثير .

ويفترض « بياجيه » أن النمو المعرفى عند الطفل يمر خلال مراحل أربع، وهذه المراحل الأربع تنظم تفاعل الطفل مع بيئته، وبالرغم من أن معدل النمو يختلف من طفل إلى آخر، إلا أن تتابع النمو طبقا لهذه المراحل ينطبق على جميع الأطفال .

وهذه المراحل الأربع هى :

(أ) المرحلة الحسية الحركية Sensorimotor Period :

وتستمر منذ الميلاد حتى سن الثانية من العمر تقريبا، وتظهر فيها أولا ردود الأفعال الانعكاسية الولادية، ثم يستمر التطور حتى يصل الطفل إلى تكوين الروابط العقلية. وتتميز هذه المرحلة بأنها غير لغوية. كما تتميز باتصال الخبرات الذاتية مع البيئة وما تحفل به من علاقات، ويستدخل الطفل هذه الخبرات بصورة مبدئية، وتنظم هذه الخبرات من خلال مفاهيم مثل السببية والقصد والقيمة الرمزية .

(ب) المرحلة قبل الإجرائية Preoperotional Period :

وتستمر منذ الثانية من العمر حتى السابعة، وخلال هذه المرحلة يكتسب الطفل اللغة ويعرف العلاقات الزمنية مثل الماضى والحاضر والمستقبل، ويتمكن الطفل من التخيل وما يصاحبه من عمليات التمثيل والتكيف، وكذلك يتعامل الطفل مع المعطيات المتغيرة للبيئة. كما يتسم التعامل العقلى للطفل مع البيئة فى هذه المرحلة بالتركيز

حول الذات، إلا أن استخدام اللغة من شأنه أن يساعد على التطبع الاجتماعى وعلى بداية مرحلة من التعامل مع الحقائق الموضوعية .

(جـ) مرحلة الإجراءات المحسوسة Concrete operations Period :

وهى من سن السابعة إلى الحادية عشرة. وفى هذه المرحلة يتمكن الطفل من التقاط الأفكار المجردة التى تتمثل فى الكم والكيف. وهنا يكون لدى الطفل نسق منطقى مستدخل يستطيع به أن يرتب تتابع الأحداث، كذلك فإن الطفل يستطيع تجميع الجزئيات فى وحدة كلية بترتيب وتتابع منطقى. ويبدى الطفل فى تلك المرحلة مرونة وتحركية فى حل المشكلات .

(د) مرحلة الإجراءات الشكلية Formal operations Period :

وهى تمتد من سن الحادية عشرة إلى الخامسة عشرة، وفى هذه المرحلة الأخيرة للنمو العقلى يستطيع الطفل أن يتفهم الأسس المنطقية لتفكيره وكذلك الأسس المنطقية لتفكير الآخرين. ويستطيع الطفل كذلك أن ينتقل من مرحلة الإجراءات المحسوسة السابقة إلى معالجة العلاقات، والوصول إلى مكونات وبناءات العمليات العقلية. وهكذا تستقل النواحى المعرفية عن المحسوسات، ويتوصل « الطفل » فى هذه المرحلة إلى إدراك المعانى ، وما بين المعانى المختلفة من فروق دقيقة فى المعنى أو الدلالة، أو ما قد يشير إليه لفظ واحد من معنى مقبول أحيانا، ومعنى يحمل السخرية فى أحيان أخرى .

وبالرغم من أن نظريته فى النمو المعرفى هى أهم وأشهر نظرياته على الإطلاق، إلا أنه اهتم بدراسة موضوعات أخرى مثل المنطق واللغة، وينصح « بياجيه » - من خلال نتائج دراساته التربوية الواسعة - بأن تعليم الطفل والتدريس له يجب ألا يتم بطريقة تلقينية، بل يجب أن يتم بحيث يعطى الطفل فرصة الابتكار والاكتشاف .

ونتيجة لإسهامات « بياجيه » فى دراسة النمو المعرفى لقى موضوع التعلم والتذكر اهتماما كبيرا في علم نفس النمو ، حيث أثيرت موضوعات عدة مثل تكوين

المفهوم والتغذية الراجعة، هذا إلى التأثير الشديد الذى أحدثه « بياجيه » فى علم النفس اللغوى .

« لورنس كولبرج » Kohlberg (١٩٢٧/ ١٩٨٧م) :

أمريكى - عرف لورنس كولبرج بنظريته الشهيرة عن النمو الخلقى عند الأطفال . درس فى جامعة «شيكاغو» الأمريكية حيث حصل على الدكتوراه عام ١٩٥٨ ثم عمل بجامعة « ييل » وبقى هناك حتى عام ١٩٦١ - وتقلد عدة مناصب علمية ولكنه حط عصا الترحال فى جامعة «هارفارد » أرقى جامعات أمريكا والعالم عام ١٩٦٧، وكتابه الرئيسى هو « مقالات عن النمو الأخلاقى » وقد سار فى منهجه البحثى على خطى «بياجيه »

وقد اشتهر عن « كولبرج » ما يعرف فى علم النفس بحالة « هينز Heinz » والتى تثير مشكلة أخلاقية مضمونها أن أحد الصيادلة توصل إلى اختراع دواء لشفاء السرطان وحدد سعر هذا الدواء بمبلغ ألفى دولار (عشرة أضعاف التكلفة الفعلية للدواء) وصاحبنا « هينز » زوجته مريضة وتحتاج بشدة لهذا الدواء ولكنه فقير واضطر إلى الاستدانة من كل معارفه ولكن لم يجمع إلا مبلغ ألف دولار فقط، وذهب إلى الصيدلى راجيا ومتوسلا أن يبيعه الدواء بألف دولار وهى كل ما يملكه ويمهله فى سداد الباقى ولكن الصيدلى يرفض لأنه يريد أن يحقق ربحا كبيرا نظير المجهود الذى بذله حتى توصل إلى اختراع الدواء. وفى لحظة يأس يقوم « هينز » بكسر باب الصيدلة وسرقة الدواء المطلوب . هنا السؤال: هل من حق « هينز » أن يفعل ذلك ؟ ولماذا ؟

ويذكر أن مشكلة « هينز » هى أشهر القضايا التى عالجها « كولبرج » حيث أجرى دراسة تتبعية على ٧٥ طفلا لمدة أستمرت عشرين عاما تقريبا وكانت الدراسة عبارة عن أسئلة تعالج قضايا أخلاقية من قبل قضية « هينز » وكيف يتصرفون حيال هذه القضايا وكانت الدراسة تتضمن كذلك معرفة الكيفية التى يتوصل بها هؤلاء الأطفال إلى «قراراتهم » وبتحليل استجابات إجابات الأطفال توصل «كولبرج » إلى تحديد مراحل النمو الخلقى على النحو التالى :

المستوى أ - المرحلة قبل التقليدية:

وهى بين سن ٤ - ١٠ سنوات وفى هذه المرحلة فإن الأطفال يحترمون التقاليد الأخلاقية حرصا على الثواب وتجنبا للعقاب .

المستوى ب - المرحلة التقليدية:

وهى بين سن ١٠ - ١٣ سنة وفى هذه المرحلة فإن الأطفال يحترمون القواعد الأخلاقية حرصا على إرضاء الآخرين أو مسايرتهم .

المستوى ـ ج - المرحلة بعد التقليدية:

من سن ١٣ فما فوق حيث تكون المثل الأخلاقية نابعة من داخل الفرد إذ يمكن للأفراد الاختيار بين مواقف مختلفة، كما أن الأفراد فى هذه المرحلة تظهر لديهم صراعات بين رغباتهم وبين المثل الأخلاقية السائدة فى المجتمع .



القسم الثانى

مدارس علم النفس



الفصل الثانى عشر

المدرسة الترابطية Associationism

الترابطية هى مبدأ أكثر منها مدرسة فى علم النفس، ومبدأ الترابطية مشتق من تساؤلات تتعلق بنظرية المعرفة فى الفلسفة. - إن السؤال المعرفى الذى يقول : كيف تعرف ؟ تجيب عليه الترابطية بقولها : من خلال الحواس. ثم يبرز سؤال آخر: من أين تأتى الأفكار المركبة حيث إنها لا تحس مباشرة؟ والإجابة على هذا السؤال هى : « أن الأفكار المركبة تأتى من ترابط الأفكار البسيطة » .

ولما كانت الترابطية لها جذورها الفلسفية فإن تاريخها يمتد فى العصور القديمة ، كما أن تأثير الترابطية يمتد إلى علم النفس الحديث، وقد تبنت مدارس علم النفس المختلفة الأفكار والمبادئ الترابطية بصورة أو بأخرى، ولهذا السبب عالج مؤرخو علم النفس الترابطية أولا، وبالرغم من أنه ينظر للترابطية على أنها المدرسة الأولى فى علم النفس ، إلا أنه قد مهد لظهورها تراث تاريخى طويل من الفكر الترابطى، وقد تأثر مؤسسو الترابطية الأوائل بهذا التراث .

إن جرثومة الترابطية يمكن أن نتتبعها فى الماضى السحيق فيما كتب «أرسطو» عن « الذاكرة » ، وقد أدرك « أرسطو » الملاحظة الأساسية أن ثمة شيئا يذكرك بشىء آخر ، وتوجه بسؤال بهذا الخصوص وهو : إذا كان «س» يذكرنا بـ «ص» فما العلاقة بين « س» ، «ص» ؟ وقد أجاب على هذا السؤال بالقول : إن العلاقة قد تكون التشابه Similarity، وأحيانا أخرى تكون علاقة التغاير Contrast، وأحيانا ثالثة تكون العلاقة هى التجاور ، أو الاقتران Contiguity، وعلى سبيل المثال فإن شخصا يذكرك بآخر لأنهما متشابهان جدا ، أو مختلفان جدا ، أو لأنك

رأيتهما معا ، وهذه القوانين الثلاثة أسمتها الترابطية البريطانية: قوانين الترابط، وقد حاولت هذه المدرسة أن تختصر هذه القوانين الثلاثة فى القانون الأخير وهو قانون الاقتران .

وعلى هذا يمكن لنا أن نقول : إن الترابطيين البريطانيين هم ورثة « أرسطو » فى تفسيره للذاكرة بوجه خاص وللمعرفة بوجه عام، كما أن محاولاتهم العديدة لتفسير النشاط العقلى أدت - فيما أدت إليه من نتائج - إلى إقرار عديد من العوامل ذات الأهمية فى تكوين الفكرة الارتباطية، وذلك بالرغم من اهتمام الفلاسفة بالمشكلات السيكولوجية، إلا أنهم - بالتحديد - أتوا بإنتاج سيكولوجى فى محاولتهم حل مشكلاتهم المعرفية الفلسفية . (وسعنا القول عن علم النفس الأرسطى فى كتابنا التراث النفسى عند علماء المسلمين) .

وقد يؤدى هذا كله إلى سؤال مضمونه : إن مفهوم الترابط يبدو وكأنه أمر بديهى بحيث لا يشكل أمره موضوع جدال ، ولا يشكل أساسا ، « مدرسة فى علم النفس ». وقد اتخذ الترابطيون البريطانيون من الترابط قاعدة أساسية لمدرستهم بحيث جعلوه العملية العقلية الوحيدة إلا فيما يختص بعملية الإحساس، وعلى هذا واجهوا فى عنف سيكولوجية الملكات التى ذهبت إلى القول بأن العقل مكون من عدد من القوى أو الملكات مستقلة بعضها عن بعض، مثل الذاكرة والإرادة والانتباه، والتى تقوم بالنشاط العقلى .

ومن الناحية التاريخية فإن المفاهيم الترابطية قد قدمت لتكون بدائل من نظريات التعلم، وهناك ثلاثة من الرجال العظام - بعد رجال الترابطية البريطانية - الذين عدوا مؤسسين ومسهمين فى هذا الجانب من الحركة الترابطية . الأول هو « هرمان أبنجهاوس » الذى أحدث نقلة عميقة فى أسلوب عمل الترابطية ، بأن أهدى إلى علم النفس دراسة المقاطع عديمة المعنى ، وجعل من الممكن دراسة التعلم والتذكر دراسة تجريبية ، أما الثانى فهو العالم الروسى « إيفان بافلوف » صاحب نظرية التعلم الشرطى ، وصاحب اليد الطولى فى الإشارة إلى أن الترابطات

لا تكون بين أفكار ، وإنما بين مثيرات واستجابات ، والثالث هو « إدوارد ثو رندايك » صاحب نظرية التعلم بالمحاولة والخطأ، والذى استطاع أن يعطى علم النفس تقريرًا أوفى عن الظاهرة النفسية من خلال الخط الترابطى .

ومن الصعب علينا - عندما نؤرخ لعلم النفس - أن نتحدث عن « ترابطية معاصرة » ذلك أنه لا توجد مجموعة من العلماء والمعاصرين يمكن لنا أن نطلق عليهم هذا الاسم . ومهما يكن من أمر فإن العالم يكون ترابطيا بقدر ما يستخدم المبادئ الترابطية ، تلك المبادئ التى سادت علم النفس المعاصر وذابت فيه .

ونتحدث عن الترابطية فى نقطتين :

النقطة الأولى : تتضمن الحديث عن الفلاسفة الإنجليز الذين تشير إليهم مراجع تاريخ علم النفس باسم « الترابطية البريطانية » .

النقطة الثانية : وتتضمن الحديث عن علماء النفس فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، والذين يمكن تسميتهم « الترابطيون المحدثون » وهم على التوالى : «أبنجهاوس» ثم « بافلوف » ثم « ثورنديك » .

أولا : الترابطية البريطانية

استخدمت المدرسة الترابطية الفلسفية البريطانية المبادئ الترابطية نفسها التى صاغها « أرسطو » فى الماضى السحيق، ذلك أنه أشار إلى أن الأفكار التى تتشابه أو تختلف أو تقترن تميل إلى أن ترتبط بعضها ببعض. ومن الملاحظ أن المبدأ الأخير وهو مبدأ الاقتران يلقى قبولا عاما فى علم النفس، وذلك أنه إذا حدث أمران فى تزامن أو تجاور ، أى فى اقتران زمانى أو مكانى ، فإنه من المحتمل أن يرتبط بعضهما ببعض ، كما أن مبدأى التشابه والاختلاف يلقيان قبولا عند بعض علماء النفس، ورفضا من بعضهم الآخر .

أما المبدأ الوحيد الذى أشارت إليه المدرسة الترابطية الفلسفية البريطانية، فهو مبدأ العلية Causality الذى فصل القول فيه الفيلسوف البريطانى « دافيد هيوم » .

ونتحدث عن هؤلاء الفلاسفة باختصار :

(أ) « توماس هوبز » Hobbes (١٥٨٨ / ١٦٧٩م) :

كان فيلسوفا سياسيا - دخل جامعة أكسفورد فى الخامسة عشرة، ومكث بها خمس سنين يتلقى المنطق والطبيعيات دون اهتمام كبير، ثم جعل يطالع الآداب القديمة وبخاصة المؤرخين والشعراء، وعمل فى خدمة « فرانسيس بيكون » كاتبا لسره ومعاونا له فى نقل مؤلفاته إلى اللغة اللاتينية .

وحدث أن سافر إلى فرنسا وأقام بها سنتين (١٦٢٩ - ١٦٣١) فعرف فيها مبادئ « إقليدس » ولم يكن درس الرياضيات من قبل : وأعجب بالمنهج القياسى وعول على اصطناعه، وعاد إلى باريس عام ١٦٣٤م فقوبل فى الأوساط العلمية الباريسية باعتباره فيلسوفا مذكورا .

ومن جملة آرائه : أن العقل هو العامل السائد فى تصرفات الإنسان ، كما أن المحتوى العقلى للإنسان تحدده المعطيات الحسية فقط، وأن الأفكار تتابع طبقا لمبدأ الأقتران .

وأشهر كتبه « التنين » أصدره عام ١٦٥١م وأشار فيه إلى وجود عمليتين عقليتين هما الإحساس والاسترجاع . أما الترابط فهو العملية التى تحكم كل العمليات العقلية، ولم يذكر «هوبز» كلمة ترابط بالتحديد ولكنه ذكر بدلا منها كلمة Fancies أى الأفكار والصور الذهنية، وهى تأتى ، فى تتابع يحدده التتابع الأصلى للإحساسات. وهو يقصد هنا التداعى بالاقتران. وقد أشار إلى أنه من الممكن أن تجمع العمليات العقلية فيما أسماه الحركة، وبيان ذلك أن ثمة شيئا خارجيا يؤثر على الحواس، وهو ما نسميه بلغة العصر : المثير ، وقد يكون هذا الشيء صوتا أو ضوءًا أو ضغطًا، وهذه الأشياء هى نوع من الحركة الفيزيقية. ويتبع ذلك أن حركة ما يسمى بالمثير تصل إلى الكائن الحى من

خلال أعضاء الإحساس، وعندما يتوقف المثير فإن الحركة الداخلية فى الكائن الحى لا تتوقف، ولكن تستمر بالقصور الذاتى ثم تتلاشى بصورة تدريجية . إن الحركة الأصلية هى الإحساس و الحركة الداخلية هى الصورة الذهنية التى يمكن استرجاعها، وهكذا افلح «هوبز» فى تفسير العمليات العقلية بإحساسات، ثم بصور ذهنية .

كما أشار « هوبز » إلى أن الكائن الحى يستجيب للمثير بحركة عضلية، وأن اتجاه هذه الحركة لا يتحدد من الخارج بل من داخل الكائن الحى. إن الاستجابة تكون إما بالإقدام أو الإحجام، إما باتجاه إلى الشىء الخارجى، أو باتجاه عن الشىء الخارجى، والرغبة هى عبارة عن حركة تدل على ابتداء الاقتراب، والصدود عبارة عن حركة تدل على ابتداء التجنب. وبعض الرغبات مثل اشتهاء الطعام ولادية ، وبعضها الآخر متحصل مكتسب من التجارب الحياتية .

(ب) « جون لوك » Lock (١٦٣٢ / ١٧٠٤م) :

هو أحد كبار ممثلى النزعة التجريبية الإنجليزية. ولد « جون لوك » بالقرب من مدينة «بريستون » ، و كان أبوه محاميا، دخل المدرسة حيث تعلم فى حداثته اللغات القديمة، وفى سن العشرين دخل جامعة « أكسفورد » يتلقى فيها دروس الكهنوت ، ولكنه هجر الكهنوت إلى دراسة الطب الذى لم يتمه .

وكان عصره مليئا بالاضطراب السياسى ، حيث النزاع بين حزب البرلمان و«تشارلس الأول » وهذا أدى به إلى الاشتراك فى الحياة السياسية والكتابة عن السياسة .

واتجه إلى الفلسفة وهو فى سن الأربعين تقريبا، وبعد ذلك أصدر أشهر كتبه على الإطلاق « مقالة فى الفهم الإنسانى » عام ١٦٩٠م تعرض فيه لموضوع المعرفة فى الفلسفة وعلم النفس الأرائكى، وهو ما يقابل الإحساس والإدراك فى علم النفس الحديث .

وفى هذا الكتاب كان جل اهتمامه موجها إلى مشكلة المعرفة الإنسانية ومدى صدقها. وقال « لوك » إن كل المعارف إنما تأتى من خلال التجربة، أى من خلال

الحواس أو من خلال انعكاس المعطيات الحسية، وهذا الموقف العملى المسرف الذى ينكر المعرفة السليقية أتاح العودة إلى الفكرة التى تقول بأن عقل الطفل صفحة بيضاء تسطر عليها التجارب الحسية ما تشاء الحسية .

وإن أفكار « لوك » عن الترابطية تشابه الأفكار الأرسطية ، وفى الطبعة الرابعة من كتابه « مقالة فى الفهم الإنسانى » السالف الذكر ، أضاف فصلا عن « ترابط الأفكار » حيث قال إن الأفكار ترتبط فى الخبرة العملية طبقا لمبادئ قريبة جدا من مبادئ التشابه والاقتران. كما أشار أيضا إلى أن الأفكار ترتبط عادة بروابط طبيعية، أى منطقية ومفهومة، ولكن يمكن للأفكار أيضا أن ترتبط بروابط غير طبيعية نتيجة اقتران غير مألوف أو غير متوقع، وعلى ذلك فالترابط فى نظره يفسر العلاقات الطبيعية بين الأشياء أو الأحداث، ويفسر كذلك العلاقات غير الطبيعية بين هذه الأشياء والأحداث .

كما أشار «لوك» إلى نظريته الخاصة فى الصفات الأولية والصفات الثانوية، وهذه النظرية هى أساس ما أسماه بالأفكار الحسية. وطبقا لهذا التقسيم الثنائى فإن الصفات أو الخصائص الأولية هى التى تكون ملازمة ولصيقة بالكائنات ، وهذه الخصائص تمثل الطريق الرئيسى بين العقل الإنسانى والعالم الخارجى، وهذه الخصائص الأولية مثل الصلابة والشكل والحركة، أما الخصائص الثانوية فهى «مكملات» مثل فكرة اللون والطعم والصوت وهذه كلها مكتسبة من التجربة والممارسة اليومية ، فلا شىء فى عقل الإنسان قبل التجربة .

ويرى «لوك» أن أهم العمليات العقلية عند الإنسان هى عملية التجريد، والتجريد ناتج عن الانتباه إلى الصفات المشتركة لشىء واحد بين الأمور الجزئية التى نصادفها فى التجربة فنجمع هذه الصفات بعضها إلى بعض لنكون معنى للشىء، مثل معنى الإنسان ، نجمع عن طريق المشاهدات والملاحظات مجموعة من الصفات نلمسها فى عديد من البشر، ثم نصل إلى معنى للإنسان: معنى مجرد وشامل وعام، ولكن هذا التجريد إنما هو نتيجة الخبرات الحسية المختلفة .

(جـ) « جورج باركلى » Berkeley (١٦٨٥/ ١٧٥٣م) :

ولد «باركلى» فى « أيرلندة » من أسرة إنجليزية الأصل ولما بلغ السادسة عشرة التحق بجامعة « دبلن » حيث كان لمؤلفات «ديكارت» و «لوك» و «نيوتن» الحظ الأكبر فى برامج الدراسة، فى عام ١٧٠٩ صار قسيسا واتجه أيضا إلى دراسة الفلسفة .

ومن أهم مؤلفات «باركلى» «نظرية جديدة فى الرؤية» ، أصدره عام ١٧٠٩م و«مبادئ المعرفة الإنسانية» أصدره عام ١٧١٠م .

ومن أهم إسهامات « باركلى » فى الفلسفة بوجه عام وفى نظرية المعرفة بوجه خاص، ما ذهب إليه من أن الكلمات تتصل بالموضوعات الدالة عليها ، مشيرا بذلك إلى فكرة الترابط، وأن هذا الاتصال معناه عدد كبير من الإشارات والعلاقات التى يتصل بعضها ببعض، مثلا صوت معين معناه بالنسبة إلى المستمع أن فرسا يركض عبر الطريق، وهذا يرجع بداهة أننا سبق فى خبرتنا أن لاحظنا أن الخيل تثير هذه الجلبة .

وتظهر «الترابطية» عند «باركلى» واضحة فى قوله : إن الصورة السمعية تثير صورة بصرية ، أو أن الصورة ذات البعدين تثير صورة ذات ثلاثة أبعاد، لأننا نربط بين الإشارات التى ترد إلينا من العالم الخارجى وما تحمله هذه الإشارات من دلالات ومن معان .

وثمة ناحية مثالية فى موقف « باركلى » هى أنه يرى العقل هو الحقيقة المطلقة، وأن الإحساسات لا أهمية لها إلا من حيث أن العقل هو الذى يدركها ويعطيها معناها ودلالتها. وعلى هذا صاغ « باركلى » قوله المشهور « أن تكون هو أن تدرك » .

كما ذهب « باركلى » إلى القول بمذهب « الأنانة » Solipsism وهذا المذهب يقول بأنه لا يوجد إلا عقل واحد هو عقل الشخص المدرك أو الشخص المفكر، وكل ما عدا هذا العقل إنما يكون معتمدا عليه وقائما به .

وإلى جانب العقل توجد الإحساسات اللمسية والإحساسات الحركية التى يعطيها العقل معناها ودلالتها، وهذه الإحساسات من الحركية واللمسية ترتبط – مثلا – بحركة

العين فى النظر إلى الأشياء الموجودة عن بعد، فإننا نضيف إليها مفهوم العمق أو البعد الثالث . وهكذا يعد « باركلى » مفكرًا سيكولوجيا عبقريا ، وهو فى نظر معظم مؤرخى علم النفس أول من اكتشف مفهوم إدراك العمق الذى يمثل فى الوقت الحاضر موقعا ممتازا فى علم النفس التجريبى .

وموقف « باركلى » العقلى المثالى هو على النقيض تماما من موقف «لوك» الذى لا يرى شيئا خارج التجربة الحسية .

(د) « ديفيد هيوم » Hume (١٧١١ / ١٧٧٦م) :

ولد فى « أدنبرة » وهو من أشهر الفلاسفة الإنجليز ، شغف بالفلسفة منذ صباه، حيث ضحى من أجلها بدراسة القانون التى أجبرته أسرته عليها . سافر إلى فرنسا فى الثالثة والعشرين ليقرأ ويتعلم، مكث بها عدة سنين ثم عاد إلى بلاده يكتب ويفكر .

ومن أشهر المناصب التى شغلها ، سكرتير السفارة البريطانية فى باريس فى المدة من عام ١٧٦٣ إلى ١٧٦٥ وعين أيضا وزيرا لأسكتلندا عام ١٨٦٨م ثم أقام بمدينة أدنبرة مسقط رأسه حيث قضى بقية حياته .

وكان « هيوم » مبكرا فى إنتاجه العلمى ونضجه، وقد ظهرت أهم أعماله العلمية - والتى كان لها الفضل فى شهرته - بعنوان « رسالة فى الطبيعة الإنسانية » ظهرت فى ثلاثة مجلدات ، عندما كان «هيوم» بين الثامنة والعشرين والتاسعة و العشرين .

ومن أهم إسهاماته تمييزه بين الانطباعات الحية التى أسماها الإحساسات أو المدركات، وبين الانطباعات الأقل وضوحا، والتى أسماها الصور الذهنية أو الذكريات.

وقد حاول « هيوم » أن يتجاوز علم نفس الملكات الذى شاع فى العصور الوسطى وبداية العصر الحديث، والذى يقول بأنه لدى الإنسان مجموعة من الملكات مثل الذاكرة والخيال والتفكير والحكم والإرادة وهذه الملكات مستقلة بعضها عن بعض ، حاول «هيوم» أن يتجاوز سيكولوجية الملكات هذه بأن يكتشف المبادئ التى يعمل على أساسها العقل، وأجاب أن هذه المبادئ هى مبادئ الترابط، والتى تشكل قوة تجاذب بين الأفكار .

كذلك قال «هيوم» بمبدأى التشابه والاقتران، ولكن إسهامه الرئيسى، فى قوله بمبدأ ترابطى هو مبدأ العلية حيث قال : إن ثمة تتابعا فوريا بين إحساس وإحساس آخر وهذا التتابع قد يتوالى ويتكرر بحيث يربط بين الإحساسين بقوة ، بحيث لا نستطيع أن نرى الأول دون أن نتوقع ظهور الثانى، وهذا ما يمكن تسميته « الأثر والسبب » ويفترض أن الأثر يحدث نتيجة وجود السبب ، ذلك لأننا نتوقع ارتباطا حتميا ضروريا بين إلقاء الماء على النار وانطفائها، ذلك لأننا اعتدنا على الربط بين سبب و أثر أو بين حدث ونتيجة .

ومن أشهر أقوال « هيوم » : « عندما تدخل مكتبة لتقرأ وتتساءل عندما تمسك بكتاب فى موضوع ما : هل هذا الكتاب يحتوى على أفكار مجردة أدواتها الكم والأرقام؟ إذا كانت الإجابة لا ، فهذا الكتاب لا يحتوى إلا على السفسطة و الخداع وأولى به أن يحرق لا أن يقرأ . وهذا يدل على موقف « هيوم » الذى يميل إلى النواحى التجريبية التكميمية فى العلم .

(هـ) «ديفيد هارتلى » Hartley (١٧٠٥ / ١٧٥٧م) :

طبيب وعالم طبيعى إنجليزى، متأثر «بنيوتن» و «لوك». وقد اشتق « هارتلى» الترابطية من الفلسفة العملية، وأخذ عنوانا لأحد فصول كتب «لوك» وهو « ترابط الأفكار » وجعله موضوعا لدراسته ، وأقام دراسته النفسية من خلال الترابطية ، وهو بذلك جعل من الترابطية مبدأً رسميا له هذا الاسم المحدد .

ومؤلفه الوحيد أصدره عام ١٧٤٩م تحت عنوان « ملاحظات حول الإنسان» ، وهو يرى فيه أن الإحساس حركة المادة العصبية، أو اهتزاز أثيرى من العضو إلى المركز المخى، بواسطة الأعصاب الحاسة، وعلى هذا فإن الاهتزازات والترددات فى الجهاز العصبى لها صلة بالأفكار والصور الذهنية، كما أن الترددات القوية هى الإحساسات، والترذدات الضعيفة هى الأفكار .

ويلاحظ أن «هارتلى» فى كتابه هذا اهتم بالنواحى النفسية أكثر من اهتمامه بالنواحى الفلسفية ، وقد أرجع كل شىء فى المعرفة إلى الترابط بالاقتران فى التجربة،

سواء أكان هذا الاقتران متعاقبا أم متزامنا، ومثال ذلك : أن مجموعة الإحساسات التى تحدث فى تزامن تتجه إلى التجمع فى إحساس مركب ، مثال ذلك طعم عصير الليمون الحلو يرتبط فيه الحلو باللاذع، كذلك فإن الأفكار الحادثة معا أو فى اقتران تميل إلى التجمع ، فى وحدة أو حزمة، كما أن الحركات العضلية التى تحدث على التوالى نفسه تترابط فى صورة عادات آلية .

كما أشار « هارتلى » إلى أن الانفعالات هى بمثابة تركيبات من الإحساسات، تتضمن أساسا اللذة والألم، وتترابط هذه الإحساسات أيضا فيما بينها بقانونى التعاقب والاقتران .

ويجمع معظم مؤرخى علم النفس على اعتبار « هارتلى » بمثابة المؤسس الرسمى للمدرسة الترابطية البريطانية ، لأنه طورها إلى نظرية شاملة ومتكاملة .

«توماس براون » Brown (١٧٧٨ / ١٨٢٠م) :

يعد « براون » من مؤسسى الترابطية فى « أسكتلندا » وهو كذلك استمرار للمدرسة البريطانية الفلسفية العملية .

وترجع أهمية « براون » إلى تأكيده على المبادئ الثانوية للترابطية ، وقد اهتم بمشكلة تتعلق باختيارنا لمبدأ ترابطى معين من خلال مبادئ متعددة. ويذكر « براون » أن سبب اختيارنا يعود إلى تواتر هذا المبدأ فى المحتوى العقلى للفرد ، وكذلك إلى مدى حداثة وقوع هذا المبدأ الارتباطى، ومدى إستمراريته وبقائه ماثلا فى الذهن ، وهذه المبادئ جميعا تناولتها نظريات التعلم فيما بعد .

« چيمس مل » James Mill (١٧٧٣ / ١٨٣٦م)

ولد « بأسكتلندا » ودرس بجامعة « أدنبرة » ، وذهب فى الثلاثين من عمره إلى «لندن»، اهتم – إلى جانب اهتماماته الفلسفية – ببعض النواحى التاريخية والسياسية التى تتعلق بشبه القارة الهندية، جوهرة التاج البريطانى فى ذلك الوقت .

وله كتاب أصدره عام ١٨٢٩ م بعنوان « تحليل لظواهر العقل الإنسانى » عالج فيه فكرة « تداعى المعانى » ويقول فيه : إن الفكر مؤلف من عناصر بسيطة هى الإحساسات والانفعالات الأولية، تأتلف تبعا لقانون الترابط بالاقتران، وهذا الترابط بالاقتران هو القانون الذى يمكن عن طريقه تفسير جميع الخبرات العقلية حتى أكثرها تعقيدا. كما يرى « جيمس مل » أن الأفكار البسيطة تتجمع وتندمج فيما بينها لتكون أفكارا مركبة والتى من خلال تقادم العهد بها يتزايد ذلك الاندماج بحيث تبدو هذه الأفكار المركبة وكأنها فكرة واحدة .

«چون مل» John Mill (١٨٠٦/ ١٨٧٣م)

وهو ابن « جيمس مل » علمه أبوه فى حداثته اللغتين اليونانية واللاتينية والتاريخ، ودرس كذلك الفلسفة والمنطق، كان عضوا فى مجلس النواب البريطانى منذ عام ١٨٦٥م ولمدة ثلاث سنوات، فكان إلى جانب عمله العلمى مشاركا فى الحياة العامة .

أهم كتبه « أوجست كونت والفلسفة الواقعية » أصدره عام ١٨٦٥م ، ويرى «جون مل » أن الأفكار تفقد خصائصها الأساسية بالاندماج مع أفكار أخرى عن طريق الترابط ، حيث إن الأفكار تندمج بعضها مع بعض، وهذا الاندماج يؤدى إلى فقد بعض خصائصها . وهو يقول : إن قانون الظواهر العقلية يتبع القوانين الميكانيكية بل يتبع القوانين الكيميائية أيضا ، إذ عندما تتجمع بعض الأفكار فى العقل فإنه يحدث نوع من الاتحاد الكيميائى ذلك أن كل فكرة تستدعى فورا الأفكار الأخرى المترابطة معها ، وقد يحدث أن هذه الأفكار المترابطة تذوب ويندمج بعضها مع بعض، وذلك مثل تجمع ألوان الطيف السبعة لتعطى الإحساس باللون الأبيض إذا رسمت على لوح دائرى يسير بسرعة فائقة، ذلك أن توالى هذه الألوان السبعة يولد اللون الأبيض. وهنا تأتى فكرة مركبة تكونت عن طريق مزج عدد من الأفكار البسيطة .

«ألكسندر بين » Bain (١٨١٨/ ١٩٠٣م)

هو ابرز تلاميذ «جون ميل » وأحبهم لديه، كان أستاذا بجامعة « ابردين » البريطانية وهى مسقط رأسه . من أهم كتبه « الحواس والعقل» أصدره عام ١٨٥٥م و«الانفعالات والإرادة » أصدره عام ١٨٥٩م و « الروح والجسم » أصدره عام ١٨٧٣م و«المنطق» الذى أصدره عام ١٨٧٥ م .

ويعد « ألكسندر بين » أقرب الجميع ليكون عالما نفسيا ، رغم أنه فى الأساس من علماء المنطق. وقد لقى كتاباه « الحواس والعقل » و « الانفعالات والإرادة » تقديرا كبيرا، ونشرا مع التنقيح مرات عديدة، وبقيا من مراجع علم النفس المشهود لها لمدة خمسين سنة فى بريطانيا. ويمكن اعتبارهما من الدراسات المبكرة فى علم النفس الفسيولوجى، لأنهما يتناولان الإحساس والانفعال - هذا إلى جانب أن « بين » أصدر عام ١٨٧٦ م أول مجلة علمية سيكولوجية أسماها « العقل » .

وفى مؤلفاته نجد مادة غزيرة وتحليلا دقيقا، وقد هدف «بين» إلى إقامة علم النفس على مثال العلوم الطبيعية، وذلك بتطبيق منهجها الوصفى الاستقرائى، كما يبدو هذا الأمر بوجه خاص فى التاريخ الطبيعى وعلم وظائف الأعضاء، وقد أشار « بين » إلى مجموعة من المبادئ الترابطية التى توصل إليها من دراساته. وهناك فى رأيه مبدآن رئيسيان يحكمان تكوين الترابط هما: الاقتران والتشابه، إلى جانب مبدأ ثالث هو : الابتكارية ، ذلك أنه باستخدام الترابط فإن العقل لديه القدرة على تشكيل تجمعات أو تكوينات جديدة تختلف تماما عن تلك التى تكونت من خلال تجارب العقل وخبراته .

ثانيا: الترابطية الحديثة

نتجه الآن إلى المرحلة الثانية من الترابطية والتى ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، حيث ظهرت فكرة الترابط بين مثير واستجابة، بدلا من الترابط بين الأفكار، وكانت هذه النقلة العظيمة بسبب انتقال علم النفس - الذى ظل

ردحا طويلا من الزمان جزءا من الفلسفة - إلى علم تجريبى أمبريقى له طريقته الخاصة فى البحث .

وقد أسهم فى تشييد صرح الترابطية الحديثة « أبنجهاوس » من المانيا، و«بافلوف» من روسيا و «ثورندايك» من أمريكا . وأسدى هذا الثلاثى إلى علم النفس جلائل الخدمات. ويعرف طلاب علم النفس فى جميع أنحاء العالم إنجازات هؤلاء العلماء العمالقة وأعمالهم الباهرة التى تشكل جزءا أساسيا فى جسم علم النفس الحديث .

ونتحدث عن هؤلاء العلماء باختصار:

«هرمان أبنجهاوس » Ebbinghaus (١٨٥٠/ ١٩٠٩م) :

يعد «أبنجهاوس» أول عالم يدرس موضوع الذاكرة والتعلم دراسة تجريبية. وكان هذا فتحا جديدا فى علم النفس حمل معه تقدما فى أساليب دراسة التعلم والترابط.

وقبل « أبنجهاوس» كان الترابط موضوع اهتمام الفلاسفة الإنجليز، كما سبق أن أشرنا، وكانت الطريقة المألوفة لدراسة مفهوم الترابط هى دراسة الترابطات التى حدثت فعلا . وعلى الباحث أن يفسر لماذا حدثت الترابطات، ولكن «أبنجهاوس» بدأ بداية مختلفة وهى دراسة كيفية تكون الترابطات، وبهذه الطريقة كان من الممكن ضبط الظروف التى تتكون فى ظلها الترابطات، وعلى هذا تكون دراسة التعلم أكثر موضوعية.

ويعد «أبنجهاوس» من كبار رجال علم النفس التجريبى، لأن دراسته لموضوع التعلم والتذكر كانت دراسة سيكولوجية محضة مستقلة عن الفسيولوجيا من جهة، والتأملات الفلسفية الأرائكية من جهة أخرى، ونتيجة لإسهامات «أبنجهاوس » فإن مجال علم النفس التجريبى اتسع اتساعا كبيرا .

ولد « أبنجهاوس » بالقرب من مدينة « بون » فى ألمانيا عام ١٨٥٠م والتحق فى شبابه بجامعة «بون» لدراسة التاريخ وفقه اللغة، ثم درس فى جامعتى «هال» و «برلين» ، وخلال دراسته تحول اهتمامه إلى الفلسفة وحصل فيها على درجته العلمية عام ١٨٧٣م،

ثم خدم فى الجيش الألمانى إبان الحرب البروسية الفرنسية، وبعد ذلك درس لمدة سبع سنوات فى «برلين» و«إنجلترا» و «فرنسا» حيث اهتم بدراسة العلوم، ولكن الحادث الحاسم فى حياته العلمية كان عام ١٨٧٦ م حيث اطلع على كتاب « فخنر » عن « مبادئ السيكوفيزيقا » فقد جذبه هذا الكتاب إلى دراسة علم النفس، وكان هذا الكتاب من الصعوبة بمكان بالنسبة لعالم شاب مثل «أبنجهاوس » ، وذلك لما يحفل به من تعقيدات، كما أنه اتجه إلى دراسة موضوع التذكر متأثرا بالفلاسفة الترابطيين الإنجليز الذين اطلع على أعمالهم أثناء دراسته للفلسفة.

ولم يكن « لأبنجهاوس » - حين اتجه إلى دراسة التذكر - وظيفة علمية فى إحدى الجامعات، ولم يكن لديه مختبر ولاأستاذ موجه، ومع ذلك فقد استمر لمدة خمس سنوات يجرى دراسات متعمقة متخذا من نفسه المفحوص الوحيد .

ولقياس التعلم استخدم الأساليب الترابطية التى تؤكد على أهمية مبدأ التكرار، وتوصل إلى أن صعوبة المادة المتعلمة يمكن قياسها بواسطة إحصاء عدد مرات قراءة هذه المادة حتى يمكن حفظها، وابتكر عددا من قوائم المقاطع بحيث تكون مادة يمكن تعلمها عن طريق التكرار، واستخدم نفسه مفحوصا لهذا كله.

ومن خلال دراسته للمادة المتعلمة توصل « أبنجهاوس » إلى إسهامه الفريد الذى يعرفه كل طلاب علم النفس، وهو المقاطع عديمة المعنى، والذى يعد ثورة كبرى فى دراسة التعلم والتذكر. وقد أشاد « تتشنر » - عالم البنائية - بهذه الخطوة وقال : إن استخدام المقاطع عديمة المعنى ليعد أكبر إنجاز فى مجال دراسة التراط منذ عهد «أرسطو» ، وقد انتبه «أبنجهاوس » إلى الخطأ فى استخدام الشعر والنثر فى قياس التعلم والتذكر، ذلك لأن الترابطات والمعانى تتدخل فى عملية التذكر، وهذه الترابطات والمعانى من شأنها أن تسهل حفظ المادة المطلوبة، ولا يمكن للباحث أن يستبعد الترابطات والمعانى من حيث كونها متغيرات متدخلة فى عملية حفظ أو تعلم مادة ما . وعلى هذا اتجه « أبنجهاوس» إلى استخدام مادة لا يوجد فيها مثل هذه الترابطات، وتكون فى الوقت نفسه غير مألوفة، وليس لها ترابطات سابقة، وكانت هذه المادة هى المقاطع عديمة المعنى، هدية « أبنجهاوس » إلى علم النفس .

وقد صمم « أبنجهاوس » العديد من التجارب لدراسة أثر الظروف المختلفة على عملية التعلم والاسترجاع. وإحدى هذه الدراسات كانت تدور حول دراسة الفرق بين استرجاع مادة ذات معنى، ومادة غير ذات معنى، حيث استخدم « أبنجهاوس » مقاطع ذات معنى من الشعر، وتبين أنه يحتاج إلى قراءة المادة حوالى تسع مرات لحفظها، أما المقاطع غير ذات المعنى ، فاستغرقت حوالى ثمانين مرة لحفظها .

وتوصل من ذلك إلى نتيجة مؤداها : أن المقاطع عديمة المعنى تتطلب تسعة أمثال المجهود اللازم للحفظ بالنسبة للمقاطع ذات المعنى .

وكذلك اهتم « أبنجهاوس » بدراسة أثر طول المادة المتعلمة على عدد المرات اللازمة للحفظ، وتأدى من دراسته إلى أنه كلما كانت المادة أطول، كانت المرات اللازمة للحفظ أكثر، وكلما كانت المادة أقصر، كانت المرات اللازمة للحفظ أقل. ويبدو - فى نظر كثير من مؤرخى علم النفس - أن أهمية أعمال «أبنجهاوس » هى فى الدقة المتناهية التى تم بها الضبط التجريبى والتحليل الكمى للنتائج، واكتشاف علاقات بين متغيرات متعددة مثل المقاطع عديمة المعنى وذات المعنى والمرات اللازمة للحفظ وطول المقطع أو قصره .

وكذلك اهتم « أبنجهاوس » بدراسة أثر الزمن الذى ينقضى بين التعلم وبين الاسترجاع. وقد أدى بحثه هذا إلى اكتشاف منحنى النسيان، وهذا المنحنى - كما هو معلوم - يبرهن على أن المادة المتعلمة تنسى فى الساعات الأولى بعد الحفظ، ولكن تنسى ببطء بعد ذلك، أى أن معدل النسيان يكون أعلى فور الانتهاء من عملية الحفظ، ولكن هذا المعدل يقل بعد ذلك .

وفى عام ١٨٨٠م عين فى وظيفة علمية فى جامعة «برلين» حيث استمر فى دراسته حول الذاكرة، ونشر أعماله تلك فى مؤلفه الشهير « عن الذاكرة » ، الذى أصدره عام ١٨٨٥م ، ويقول «بورنج » - شيخ مؤرخى علم النفس - عن هذا الكتاب : إنه حدث جلل فى تاريخ علم النفس ، ليس بسبب الموضوعات التى عرضها ، ولا بسبب أسلوب العرض - بالرغم من أن المعلومات وأسلوب العرض ممتازان - ولكن بسبب أن هذا

الكتاب كان برهانا على أن علم النفس التجريبى قد استطاع تخطى الحاجز الذى كان يحول دون دراسة العمليات العقلية العليا ، فكأن « أبنجهاوس » بهذا الكتاب فتح بابا جديدا فى تاريخ علم النفس .

وجدير بالذكر أن الدراسات التى نشرت فى هذا الكتاب كان « ابنجهاوس» هو نفسه المفحوص والفاحص، وهذا أمر فريد فى تاريخ علم النفس التجريبى. فلأول مرة - وربما لآخر مرة - يجرى باحث على نفسه دراسات بقدر كبير من الضبط التجريبى.

وفى عام ١٩٠٢ نشر « أبنجهاوس » كتابا عن « مبادئ علم النفس » وأعقبه عام ١٩٠٨م بكتاب « مختصر علم النفس » وقد طبعت كتبه مرارا ، وتوفى « أبنجهاوس » عام ١٩٠٩م نتيجة إصابته بذات الرئة .

ومما هو جدير بالذكر أنه لم يكن « لأبنجهاوس » أساس نظرى معين، كماأنه لم يكون مدرسة ولم يعلن انتماءه إلى مذهب بعينه، وربما لم يكن بحاجة إلى شيء من هذا كله ، ولكن ثمة مقياس أساسى يمكن أن نتبين به أهمية « أبنجهاوس » فى علم النفس، وهو أن طلاب علم النفس فى جميع أنحاء العالم ما تزال تتداول نتائج دراساته بالبحث والتدقيق .

« إيفان بافلوف» Pavlov (١٨٤٩ / ١٩٣٦م) :

تعد العلاقة بين المخ والسلوك من أعقد مشكلات علم النفس ويعد « إيفان بافلوف» أول من استطاع دراسة هذه المشكلة بعيدا عن غياهب الفلسفة، مقيما بذلك قنطرة بين السيكولوجيا والفسيولوجيا، فهو على هذا الأساس أحد مؤسسى علم النفس التجريبى الحديث .

وما يزال تأثير « بافلوف » سائدا على دراسات علم النفس المعاصر فى الشرق والغرب. وإن أعمال بافلوف عن الارتباط والتعلم جعلت الترابطية تنتقل من التقليدية الأرائكية إلى الدراسة الكمية المختبرية لعملية إفراز اللعاب، وكانت أعمال « بافلوف » إلهاما لعلم النفس الأمريكى، وبالذات عند مؤسس السلوكية « واطسون » .

وقد ولد بافلوف عام ١٨٤٩ م في مدينة صغيرة تسمى « ريزان » بالقرب من مدينة « موسكو » وتلقى تعليمه أولا في البيت ثم ألحق بالمدرسة وهو في الحادية عشرة عام ١٨٦٠م ، وكانت النية تتجه إلى جعله قسيسا ولكنه غير اتجاهه والتحق بجامعة «بطرسبرج» ، حيث درس فسيولوجيا الحيوان وحصل على درجته العلمية عام ١٨٧٥، وبدأ بعد ذلك بتدريب علمي في ميدان الطب، لا ليصبح طبيبا، بل ليتمكن من متابعة دراساته. ثم درس في « ألمانيا » لمدة سنتين ، وعاد إلى جامعة «بطرسبرج » ليعمل مساعد باحث في أحد مختبرات الجامعة .

وكان «لبافلوف» ميل شديد إلى البحث العلمي، وهذا الميل الشديد لم تكن لتعوقه ظروفه القاسية، ومن حسن حظه أن زوجته – التي تزوجها عام ١٨٨١م – تحملت معه وتحملت عنه كثيرا من الأعباء، ولم يكن يشغله شيء سوى عمله العلمي .

وعاش «بافلوف» في فقر حتى عام ١٨٩٠م حيث عين في الكلية الأكاديمية العسكرية الطبية في «بطرسبرج» . ومما يذكر أنه قبل التحاقه بهذه الوظيفة، كان يعيش في ملحق متواضع بالمختبر الذي يعمل به، وتعيش زوجته عند بعض الأقارب، لأنه لم يكن يستطيع أن يتخذ مسكنا مناسبا .

ومما يذكر عن « بافلوف » أنه كان يتسم بالصرامة والدقة مع تلاميذه وسامعيه، هذا إلى جانب قدرته الفائقة على المناقشة وحدته الشديدة في ذلك، هذا إلى جانب أن علاقته بالنظام الحاكم في روسيا الشيوعية كانت تحفل بالصعوبات والتعقيدات، وكان دائم الانتقاد للثورة الروسية، ولكنه في عام ١٩٣٣م اقتنع بما أسدته الثورة لروسيا، وفي السنوات الأخيرة من حياته عاش في سلام مع الحكومة التي داوم على انتقادها. ورغم موقفه هذا حيال الحكومة الروسية فإنه تلقى دعما طيبا لعمله العلمي الذي كان متحررا من هيمنة أي ضغط حكومي .

وخلال حياته العلمية المثمرة اهتم « بافلوف » بمشكلات ثلاثة :

أولا : دراسة وظيفة أعصاب الكلب .

ثانيا : عملية إفراز اللعاب، والتى لقى بسببها تقديرا دوليا ، حيث حاز جائزة نوبل عام ١٩٠٤م .

ثالثا : دراسة المراكز العصبية العليا فى الدماغ، والتى اكتسب بسببها مزيدا من الشهرة فى علم النفس .

وقد ثابر « بافلوف » على عمله العلمى ابتداء من عام ١٩٠٢ م حتى وفاته عام ١٩٣٦م ، ومن أهم المؤلفات التى نشرها على الإطلاق دراساته الشهيرة عن « المنعكس الشرطى » الذى نشره عام ١٩٢٧م ، بالإضافة - طبعا - إلى عديد من الكتب والبحوث والمقالات، وكان جل اهتمامه موجها نحو دراسة الإشراط، ومن الجدير بالذكر أن «بافلوف» عند دراسته لعملية الهضم استخدم الكلب مفحوصا ، وأجرى جراحات بسيطة ودقيقة لكلابه، استطاع عن طريقها أن يحول إفرازات اللعاب إلى خارج جسم الكلب، حتى يستطيع دراستها وملاحظتها وقياسها وتسجيلها ، وكان فى تنفيذه لهذه الجراحات يتسم بالدقة والكفاءة، وكانت الجراحة تتم عن طريق عمل ثقف في رقبة الكلب بالقرب من الفم دون إيذاء أعصاب الكلب أو قطع أى من الأوردة والشرايين ثم تركيب خرطوم يحول إفرازات اللعاب إلى حيث يمكن دراستها .

وكان العمل ينصب على دراسة الإفرازات التى يحدثها الكلب عند تناول الطعام حيث لاحظ « بافلوف » أن اللعاب قد يفرز قبل أن يعطى الطعام للكلب حيث تفرز الكلاب اللعاب عندما ترى الطعام أو الشخص الذى يحضر لها الطعام عادة، أو حتى عند سماع وقع أقدامه. وقد أسمى هذه الإفرازات بالإفرازات النفسية، وهى إفرازات يثيرها مثير غير المثير الأصلى، وقد تحقق « بافلوف » من أن هذه الإفرازات تحدث بسبب المثيرات الأخرى . مثل مشاهدة الرجل الذى يقدم الطعام أو سماع وقع أقدامه، وهذه ترتبط عادة بتقديم الطعام. ويسمى الترابطيون هذه الظاهرة الترابط، بسبب تكرار الحدوث.

وكان «بافلوف » مسايرا لطبيعة العصر فى ذلك الوقت، من الاهتمام بدراسات علم نفس الحيوان، وكان مركزا على الجانب النفسى فى حيوانات مختبره ، وفى كتاباته

الأولى أشار إلى رغبة الحيوان وإلى إرادته وإلى حكمه، أى أنه فى كتاباته الأولى قد فسر الدافعية النفسية للحيوان بتفسيرات شبيهة بالتفسيرات الإنسانية ، ولكن «بافلوف» قرر بعد ذلك التخلى عن « الأوصاف العقلية » وذلك فى سبيل الدراسة الموضوعية .

وأصبح منهج البحث عند « بافلوف » على هذا الأساس مثالا للموضوعية والدقة. وكانت تجاربه الأولى غاية فى البساطة، حيث عرض على الكلب قطعة من الخبز قبل أن يعطيها إليه ليأكلها، وبدأ الكلب فى إفراز اللعاب عندما يكون الخبز فى فمه استجابة «فعلمنعكسية » أو استجابة ارتكاسية، فطبيعة الجهاز الهضمى لا تحتاج إلى تعلم وقد سمى «بافلوف » هذه الأستجابة غير إشراطية. أما إفراز اللعاب عند مجرد رؤية الطعام فهى استجابة ليست ارتكاسية أو « فعلمنعكسية » ولكن يتم تعلمها ، وهذه الاستجابة السابقة لها « نفسية » لأنها مشروطة بفكرة الترابط بين منظر الطعام وتناوله بعده ذلك.

وعقب ذلك اكتشف «بافلوف » : أن أى مثير يمكن أن يؤدى إلى استجابة لعاب «إشراطية» ما دام هذا المثير يجذب انتباه الحيوان دون إثارة للخوف أو الغضب ، واستخدم « بافلوف » الجرس والصوت الرنان وومضات الضوء ودقات « المترونوم » فى تجاربه كمثيرات إشراطية .

وكان «بافلوف » بالغ الدقة فى عملية جمع اللعاب وقياسه، حيث كانت تربط أنبوبة من المطاط إلى فتحة في صدغ الكلب أو رقبته ، وينساب اللعاب عبر الأنبوبة وينزل على لوحة خشبية، وعند كل نقطة لعاب تتحرك اللوحة، وهذه الحركة يتم إحصاؤها بواسطة مرقم وتسجيل زمنها، وهذا الأسلوب جعل من الممكن إحصاء عدد نقط لعاب الكلب، والزمن الذى تسقط فيه كل نقطة. وهذا كله دليل على الجهود المضنية التى بذلها « بافلوف » فى سبيل الضبط التجريبى .

كما كان « بافلوف » كذلك مهتما بمنع مؤثرات البيئة الخارجية من التأثير على التجربة، حيث كان يضع الكلب على مهجع أو منضدة مربوطا بمجموعة من السيور، ويجلس الفاحص إلى منضدة أخرى، بحيث يستطيع إيجاد العديد من المثيرات الإشراطية التى تصاحب تقديم الطعام دون أن يراه الكلب، ومع ذلك فإن هذا المستوى

من الضبط التجريبى لم يكن ليرضى «بافلوف» الطموح، حيث عزل حجرة التجارب عن الأصوات والروائح والضوضاء والاهتزازات، بحيث يتم التأكد من أنه لا يؤثر على الحيوان إلا المثيرات الإشراطية فقط .

وكانت التجربة الإشراطية النموذجية تسير كما يلى : مثلا يقدم المثير الإشراطى (وليكن الضوء)، وفورا يعطى المثير غير الإشراطى وهو الطعام، وبعد عدد من مرات التصاحب بين الضوء والطعام فإن الحيوان يفرز اللعاب لمجرد رؤية الضوء، ذلك أن الحيوان قد أشرط أو أعد للاستجابة للمثير الإشراطى ، أى أن هناك ارتباطا أو ر ابطة أو علاقة تكونت بين الضوء والطعام، والتعلم والإشراط لا يتم حدوثه إلا إذا اتبع ظهور الضوء تقديم الطعام عدة مرات، وهكذا فإن التعزيز – أى تقديم الطعام للحيوان – أمر ضرورى لحدوث التعلم .

ولدراسة عملية الإشراط درس « بافلوف » ومعاونوه موضوعات مثل التعزيز والانطفاء، والتعميم والتمييز ، وهى كلمات لا تزال تتردد فى مراجع علم النفس المعاصر ويتعلمها طلاب علم النفس فى جميع أنحاء العالم. وكان يساعد « بافلوف » حوالى ٢٠٠ مساعد، وكأن « بافلوف » يعيد إلى الأذهان كفاءة العمل العلمى فى مختبر «فونت » فى «ليبزج» وكما هو واضح ، فإن عملية الإشراط فى ذاتها غاية فى البساطة ولكنها أثارت العديد من التساؤلات التى استغرقت سنوات طويلة من العمل المتواصل .

وقد قدم « بافلوف » تقريرا عن نتائجه عام ١٩٢٣م بعد عشرين عاما من العمل المتواصل، وفى عام ١٩٢٧م نشر كتابه عن « المنعكس الشرطى » السابق الإشارة إليه. وهذا الوقت الطويل الذى أنفقه « بافلوف » فى عمله العلمى، مثل يحتذى فى الانصراف إلى العلم ومراعاة الانضباط التجريبى مما يفخر به مؤرخو علم النفس عبر العصور .

ومن أهم المبادئ التى توصل إليها « بافلوف » وتعرضها كتب علم النفس وتنسبها إليه حتى الآن ، المبادئ الآتية :

* مبدأ التدعيم : حيث لاحظ « بافلوف » أن الاستجابة الإشراطية لا تحدث إلا إذا اقترن المثير الطبيعى أوغير الإشراطى (أى الطعام) بالمثير الإشراطى (أى الجرس أو الضوء أو المترونوم) وكان هذا التصاحب لعدد كبير من المرات .

* مبدأ الانطفاء : وهو عكس مبدأ التدعيم. فالانطفاء إثارة دون تدعيم فإذا ظهر المثير الإشراطى (الجرس أو الضوء) دون أن يصاحبه أو يعقبه المثير غير الإشراطى (الطعام) لعدة مرات، فإن الاستجابة بإفراز اللعاب لا تعود تحدث ، أى تنطفئ.

* مبدأ التعميم : حيث تلاحظ أن الكلاب تستجيب بإفراز اللعاب فى أول الأمر لجميع المثيرات المتشابهة إذ تفرز اللعاب عند سماع صوت له تردد معين، ثم يسيل لعابها عند سماع صوت آخر له تردد مختلف .

* مبدأ التمييز : وهو مقابل مبدأ التعميم إذ نلاحظ أن المثيرات المتشابهة التى يستجيب لها الكلب بالإفراز فى أول التجربة، لو تدعم أحدها بتقديم الطعام ولم يتدعم الآخر استجاب الكلب للمثير الذى لحقه التدعيم ولم يستجب للآخر، حيث يستطيع الكلب التمييز بين مثير صوتى مدعم له ذبذبة معينة وبين مثير صوتى آخر غير مدعم وله ذبذبة مختلفة .

«إدوارد ثورندايك» Thorndike (١٨٧٤ / ١٩٤٩م) :

يعد « ثورندايك » واحدا من أهم الباحثين فى علم نفس الحيوان، وقد اهتم فى دراسته بتناول نظرية ميكانيكية لتفسير التعلم، تعتمد على دراسة السلوك الظاهر للحيوان. وقد اعتقد « ثورندايك » بأن علم النفس يدرس السلوك ولا يدرس العناصر العقلية للخبرة الشعورية بأية صورة من الصور. وهكذا أكد « ثورندايك » على الأسلوب الذى يتجه إلى مزيد من الموضوعية، ومع ذلك فإنه لم يستطع - كلية - التخلص من الإشارة إلى الشعور والعمليات العقلية .

ومما يذكر أن «ثورندايك » توصل إلى قانون الأثر عام ١٨٩٨م ، وتوصل « بافلوف » إلى قانون التدعيم عام ١٩٠٢م، ولكن مؤرخى علم النفس لم ينتبهوا إلى التماثل بين القانونين إلا بعد عدة سنوات. ومما يجدر ذكره أن «ثورندايك » من أوائل علماء النفس الأمريكيين الذين تلقوا تعليمهم فى أمريكا .

وعندما نؤرخ لحياة «ثورندايك» نجد أنه اهتم بدراسة علم النفس، وذلك بتأثير من كتاب «وليم جيمس» عن « مبادئ علم النفس» عندما كان طالبا بجامعة «ويزليان»،

وبعد ذلك اتجه إلى جامعة «هارفارد» حيث درس على يد «وليم جيمس» وبدأ فى دراسة التعلم عند الحيوان، وحضر محاضرات عالم الحيوان الأمريكى الشهير « مورجان » (١٨٥٢ - ١٩٣٦م) ، وكانت بحوث « ثورندايك » الأولى على الأفراخ التى دربها على المرور فى المتاهات. ومن القصص الطريفة فى هذا المجال أن « ثورندايك » وجد صعوبة فى إيواء أفراخه حيث رفضت صاحبة المنزل الذى يقيم فيه « ثورندايك » وجود الأفراخ معه فى شقته، وقد وافق «وليم جيمس » على وضع الأفراخ فى قبو منزله، وفرح أبناء «جيمس» بهذه الأفراخ فرحا شديدا .

ولسبب شخصى لم يكمل « ثورندايك » تعليمه فى «هارفارد» حيث وقع فى حب إحدى الفتيات وتصور أنها لا تبادله الحب، والتحق بعد ذلك بجامعة « كولومبيا » بمدينة نيويورك تحت إشراف « كاتل » ومن الطريف أن نذكر أنه بعد ذلك تزوج من فتاته تلك .

ونذكر أيضا أنه صحب معه إلى جامعة « كولومبيا » فرخين دربا تدريبا حسنا . وعمل بعد ذلك على دراسة القطط والكلاب مستخدما متاهات وأقفاصا من تصميمه، وحصل على الدكتوراه عام ١٨٩٨م وكانت رسالته بعنوان «ذكاء الحيوان - دراسه تجريبية للعمليات الترابطية عند الحيوان ».

وعين «ثورندايك » بكلية المعلمين بجامعة « كولومبيا » عام ١٨٩٩م . وبقى فى منصبه إلى آخر حياته العلمية. وطبقا لتوجيهات «كاتل» أجرى بعضا من دراساته على مفحوصين من الأطفال والراشدين. وكان «ثورندايك» غزير الإنتاج ومن أهم كتبه «ذكاء الحيوان » الذى أصدره عام ١٩١١م وسيكولوجية التعلم الذى أصدره عام ١٩١٤م و«قياس الذكاء» الذى أصدره عام ١٩٢٦م و « الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتماعى» الذى أصدره عام ١٩٤٠م ، وكان اعتزاله العمل عام ١٩٣٩م ولكنه بقى حتى وفاته يعمل فى دأب وجد .

وقد أشار « ثورندايك » فى ربطيته connectionism إلى التوصل إلى تفسير العلاقة بالربط بين : أولا : المواقف وعناصر المواقف ومكوناتها، وثانيا : بين الاستجابات والاستعداد للاستجابة وتسهيلات الاستجابة وعناصر كف الاستجابة

واتجاهات الاستجابة، وهذا الاتجاه الترابطى عند « ثورندايك » وراثة من الترابطية الفلسفية مع فارق أساسى، هو أن الترابطية الفلسفية تحدثت عن ترابطات بين أفكار، بينما تحدث «ثورندايك» عن ترابطات بين مواقف واستجابات، واتجه إلى إطار مرجعى أكثر موضوعية فى نظريته، فى علم النفس .

وكذلك اختلفت دراسته للتعلم عن الترابطية الفلسفية فى أن بحوثه انصرفت إلى دراسة الحيوان أكثر من انصرافها لدراسة الإنسان، ودراسة الحيوان أصبحت طريقة علمية مقبولة بعد ظهور نظرية « دارون » عن النشوء والارتقاء .

وبالرغم من أن « ثورندايك » ركز على الروابط بين المواقف والاستجابات، ورأى أن التعلم لا يتضمن « التفكير الشعورى إلا أنه مع ذلك أشار إلى عمليات عقلية ذاتية ، حيث تحدث عن الرضا وعن الضيق، وعدم الراحة عند الحيوان، وهذه التعبيرات تعبيرات « نفسية » أو « شعورية » أكثر منها « سلوكية » . وبالرغم من المسحة العقلية فى ربطية « ثورندايك » إلا أنه يجب أن نعى الطبيعة الميكانيكية التى يتسم بها منهجه. وقد رأى أنه لكى ندرس السلوك فإن هذا السلوك يجب أن يجزأ إلى عناصر بسيطة، وهذه العناصر البسيطة هى وحدات من المثير والاستجابة، وتعد وحدات المثير والاستجابة هذه بمثابة عناصر السلوك، اى بمثابة لبنات تتكون منها عناصر سلوكية أكثر تعقدًا .

وقد توصل « ثورندايك » إلى معظم نتائجه باستخدام جهاز جديد عبارة عن «القفص المحير » ويوضع الحيوان فى هذا القفص المحير ويطلب منه الخروج. وكان «ثورندايك» يضع قطا جائعا فى القفص ويضع الطعام خارج القفص على سبيل المكافأة عند استطاعة القط الخروج من الصندوق. ويكون باب القفص مغلقا بالمزلاج ، وتكون مهمة القط التوصل إلى فتح هذا المزلاج والخروج من الباب. وفى بداية التجربة كان القط يبدى سلوكا عشوائيا متعثرًا متخبطا، حيث يجرى إلى كل اتجاه بغية الخروج لالتهام الطعام، واتفاقا تصطدم يد القط بالمزلاج فينفتح الباب ويخرج القط مسرعا لالتهام طعامه، وفى المحاولة التالية فإن العشوائية والتخبط تقلان تدريجيا إلى أن

تزولا ويتجه القط فور وضعه فى القفص إلى المزلاج ويفتحه ويخرج من الباب متجها إلى الطعام لكى يلتهمه .

وقد استخدم ثورندايك طريقة كمية لقياس التعلم، وهى إحصاء عدد المحاولات الخطأ، أى عدد المحاولات التى لا تؤدى إلى الخروج من القفص. وطريقة كمية أخرى وهى تسجيل الزمن المستغرق منذ وضع القط فى القفص إلى خروجه منه، وعندما تتقدم عملية التعلم فإن الوقت اللازم للخروج من القفص يتناقص، وقد أسمى «ثورندايك» هذا النوع من التعلم « التعلم بالمحاولة والخطأ » .

ومن الجدير بالذكر أن « ثورندايك » صاغ قانون الأثر عام ١٩٠٥م (رغم توصله إليه عام ١٨٩٨م). ويشرح «ثورندايك » هذا القانون فيقول « إن أى فعل يتم فى موقف معين ويؤدى إلى الرضا، يصبح مرتبطا بذلك الموقف ، وعلى ذلك فإنه عندما يتكرر الموقف ، فإن من المحتمل أكثر أن يحدث الفعل نفسه، أيضا وبالمقابل فإن أى فعل فى موقف معين يؤدى إلى عدم الراحة يصبح غير مرتبط بذلك الموقف، وعلى ذلك فعندما يتكرر الموقف فإن الفعل نفسه أقل احتمالا من أن يحدث » .

والقانون الآخر الذى صاغه « ثورندايك » هو قانون التكرار أو قانون الاستعمال وعدم الاستعمال. ومضمون هذا القانون أن أى استجابة تحدث فى موقف معين، ترتبط بهذا الموقف، وكلما تكررت الاستجابة فى الموقف نفسه، قويت الرابطة بهذا الموقف. وعلى العكس فإن عدم التكرار لمدة طويلة بين استجابة معينة وموقف معين، من شأنه أن يضعف من الرابطة، بينما من شأن التكرار أن يقويها .

ولكن « ثورندايك » أعاد دراسة قانون الأثر، وفى دراسات تالية تأكد لدى « ثورندايك » أن الثواب يقوى الرابطة بين الاستجابة والموقف ولكن العقاب لا يؤدى إلى أثر معاكس بالقدر نفسه. وهكذا اتجه « ثورندايك » إلى الاهتمام بتاكيد دور الثواب فى التعلم، بالنسبة للإنسان خاصة .

ومهما يكن من أمر فإن بحوث « ثورندايك » الرائدة فى مجال التعلم الحيوانى والإنسانى والتى تقوم على أساس نظرية فى تفسير التعلم « بالربط » لها مركز متميز فى علم النفس بعامة وعلم النفس الأمريكى بخاصة، وبرغم ظهور نظريات كثيرة أخرى فى مجال التعلم فإن نظرية « ثورانديك » ما تزال تتبوأ مكانها ولم تمس .

الفصل الثالث عشر

المدرسة البنائية Structuralism

يعد « تتشنر» أبا البنائية فى صورتها الكاملة، وتعد سيكولوجية « تتشنر» استمرارًا لسيكولوجية « فونت » ، مؤسس مختبر ليبزج. وفى سنوات علم النفس الأولى فى ألمانيا، كان علم النفس البنائى هو علم النفس دون منازع، وكان هدف البنائية هو التحليل الاستبطانى للعقل الإنسانى حيث كان علم النفس نوعا من «كيمياء العقل » وكان العمل الأساسى للمختص بعلم النفس هو اكتشاف طبيعة التجارب الشعورية الأولية، وبعد ذلك عليه أن يكتشف علاقة تجربة بالتجربة الأخرى. وكان يظن أن الاستبطان الذى يقوم به شخص أحسن تدريبه هو الأداة الأساسية فى هذا المجال .

وإن أهمية البنائية تتمثل فى أمور ثلاثة :

١- أنها أعطت علم النفس دفعة علمية قوية بحيث أصبح نسقا علميا معترفا به مستقلا عن الفلسفة والفسيولوجيا، حيث كان ينظر لعلم النفس على أنه ابن لأيهما .

٢- أن هذه المدر سة قدمت المنهج الاستبطانى على أنه المنهج الوحيد فى علم النفس، وقدمت لهذا المنهج تحليلا دقيقا .

٣- أن هذه المدرسة أبدت كثيرا من الجمود والتحفظ حيال المدارس الأخرى مثل السلوكية والوظيفية .

ورجـالات البنائيـة عـددهم قليل، حـيث ينتظم فى هذه المـدرسـة «فـونت» و«تتشنر» وينتسب إليها عدد آخر من السيكولوجيين ونتحدث عنهم فى هذا الفصل.

«فلهلم فونت» Wuandt(١٨٣٢/ ١٩٢٠م) :

اعتاد مؤرخو علم النفس الأمريكيون أن ينسبوا البنائية إلى «تتشنر»، وبالطبع فإن « تتشنر » هو الذى أعطاها هذا الاسم وطورها ودافع عنها ضد الاتجاهات الوظيفية والسلوكية، ومع ذلك فإن النسق العلمى « لتتشنر » هو بعينه النسق العلمى « لفونت» حيث درس « تتشنر » على « فونت » ،والذى يعد بحق رائد علم النفس التجريبى، إذ أسس أول مختبر لعلم النفس فى ليبزج عام ١٩٧٩م .

وقد آمن « فونت » بأن علم النفس يجب أن يكون علما تجريبيا، رغم التاريخ الفلسفى السابق عليه والذى تمثل فى عدد من المفكرين وعلى رأسهم عملاق الفلسفة الألمانية « إيمانويل كنط» (١٧٢٤/ ١٨٠٤م) ، وعلى هذا فإن تطبيق المنهج التجريبى على دراسة مشكلات العقل يعد حدثا جليلا فى تاريخ العلم . وندين «لفونت » بالكثير من تأسيسه علم النفس على أساس تجريبى، إذ كان رأيه أن العلوم الطبيعية تقدمت بفضل المنهج التجريبى، لذا لزم أن نطبقه فى مجال العقل . وفى علم النفس نجد أن الظواهر العقلية التى يمكن دراستها تجريبيا هى تلك الظواهر التى تتصل أو ترتبط بالعمليات الحسية .

وإن موضوع علم النفس فى نظر «فونت» هو التجربة المباشرة الفورية، لا التجربة غير المباشرة، والتى رأى «فونت» أنها معارف عن شىء آخر خلاف التجربة، ونستدل على هذه المعارف من التجربة نفسها، وقد رفض «فونت» التجربة غير المباشرة، أما التجربة المباشرة فى نظره فهى التجربة ذاتها، هى المعاينة ذاتها ، وهنا يكون أسلوب دراسة التجربة هو الاستبطان . والاستبطان فى نظره هو الملاحظة المحكمة لمحتويات الشعور تحت ظروف تجريبية، أما الاستبطان غير التجريبى فلا فائدة منه للعلم .

وكذلك اعتقد «فونت » بأن العمليات العقلية و العمليات الجسمية متوازيتان،

ولكنهما ليستا متداخلتين بصورة مباشرة، وعلى هذا فإنه يمكن دراسة العمليات العقلية بصورة مباشرة مستقلة عن الفسيولوجيا .

ورغم اهتمام «فونت» بالاستبطان منهجا أساسيا فى علم النفس، فإنه لم ينكر فائدة المنهج التجريبى ، والملاحظة الموضوعية، وخاصة فى فروع علم النفس الأخرى، مثل علم نفس الطفل و علم نفس الحيوان. وفى كتابه الذى أصدره عام ١٨٩٤م عن «علم النفس الإنسانى والحيوانى » . لم يخصص « فونت » لعلم نفس الحيوان إلا ٢٦ صفحة فقط من هذا الكتاب الذى بلغت صفحاته ٤٥٤ صفحة .

وبالرغم من أن « فونت » لم يكن محقا فى عدم الاهتمام بفروع علم النفس الأخرى خلاف علم النفس التجريبى ، فإن جمهرة مؤرخى علم النفس كانوا كذلك غير منصفين « لفونت » فى حملتهم عليه بسبب الاستبطان، أو تجاهل قدره مؤسسا لعلم النفس التجريبى دون منازع .

ومن أسف، أن طلاب علم النفس ليسوا على علم بإنجازات «فونت» وكتاباته، وقد بينت ذلك دراسة أجراها « أندرسون » عام ١٩٧١م ، وتتضمن هذه الدراسة مجموعة من العبارات المقتبسة عن رجالات علم النفس المبرزين ومن بينهم « فونت »، وعرضت هذه العبارات المقتبسة على مجموعة من الطلاب وطلب منهم نسبة كل عبارة إلى قائلها، إلا أن هؤلاء الطلاب لم ينسبوا عبارة واحدة إلى «فونت» رغم وجود عبارات مقتبسة من مؤلفاته. ويبدو أن هذه العبارات كانت عصرية جدا بالنسبة لفكرة هؤلاء الطلاب عن «فونت» والمسئول عن ذلك بالطبع هو الجو العام الذى يسود تاريخ علم النفس .

وقد أدرك «فونت» أن علم النفس التجريبى يلزمه أمور ثلاثة :

أولا : أن يحلل الخبرات الشعورية إلى عناصرها .

ثانيا : أن يكتشف كيف تتركب هذه العناصر بعضها مع بعض.

ثالثا : أن يحدد القوانين التى تحكم هذا التركيب والاتصال .

وبعد هذه المقدمة يجد المؤرخ نفسه فى حيرة عندما يتعرض لدراسة «فونت»

وأعماله الكثيرة المتنوعة، حيث إن عناوين أعماله التى جمعتها ابنته حوالى خمسمائة عنوان، وذلك بدءا من المؤلفات المعروفة، إلى مقالات قصيرة تبلغ الصفحة الواحدة.

ويعد «فونت» - كما هو معلوم - مؤسس علم النفس لأنه أنشأ المختبر الشهير فى « ليبزج » عام ١٨٧٩. وكان «فونت » طبيبا ثم تحول إلى الفسيولوجيا، وبدأ عمله فى جامعة « هيدلبرج » حيث حصل منها على الدكتوراه عام ١٨٥٥م ، وخلال وجوده بتلك الجامعة التحق بجامعة «برلين» ليدرس على يد «جوهانز موللر » وفى عام ١٨٧١م تقلد منصب الأستاذية فى «هيدلبرج» وأثناء حياته العلمية فى تلك الجامعة تحول من الفسيولجيا إلى علم النفس، وكانت علامة هذا التحول نشره لكتاب « بحوث فى نظرية المعرفة الحسية » فيما بين عامى ١٨٥٨، ١٨٦٢م - وعرض فى هذا الكتاب تجاربه الأصلية وآراءه فيما يتعلق بمناهج علم النفس .

وفى عام ١٨٦٧م بدأ محاضراته فى علم النفس الفسيولوجى، ثم أصدر كتاب «أسس علم النفس الفسيولوجى » على جزأين فى عام ١٨٧٣، ١٨٧٤م وقد ظهرت ست طبعات من هذا الكتاب خلال ٣٧ سنة ، وآخر طبعة منه كانت عام ١٩١١م. ويعد «فلوجل» هذا الكتاب أهم كتاب فى تاريخ علم النفس على الإطلاق ، ومما لا شك فيه أن هذا الكتاب تحفة « فونت » ورائعته وله دلالة تاريخية عظيمة ، إذا لم نشارك « فلوجل » رأيه بأنه أهم كتاب فى تاريخ علم النفس .

وفى عام ١٨٧٥م بدأ « فونت » أهم مرحلة فى حياته العلمية حيث عين أستاذا « للفلسفة » بجامعة « ليبزج » حيث شرع بُعيد هذا التاريخ فى تأسيس مختبره الواسع الشهرة، كما أصدر مجلة علمية عام ١٨٨١م تحت عنوان « الدراسات الفلسفية » لنشر البحوث العلمية .

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن « فونت » كان محاضرا ممتازا ، وقد لاقى الإقبال المتزايد من الطلاب ، ومما يدل على ذلك أنه فى أحد الفصول الدراسية كان عدد الطلاب الذين يدرسهم أكثر من ستمائة طالب. كما أن حياته الشخصية كانت بالغة الهدوء، وكان إيقاع حياته يسير بصورة دقيقة، ولا تخرج مشاغله عن التدريس والقراءة والإشراف على بحوث الطلاب وزيارة المختبر .

ومن الطريف أن نذكر أن اهتمامات « فونت » شملت علم النفس الاجتماعي، حيث نشر كتابا بعنوان « علم نفس الشعوب » من عشرة أجزاء ، صدرت فى الأعوام بين ١٩٠٠، ١٩٢٠، وقد تناول فى هذا الكتاب موضوعات مثل اللغة والفن والعادات والتقاليد والأخلاق والقوانين .

وفى عام تأسيس المختبر توافد إلى «ليبزج» عدد كبير من الطلاب ليدرسوا علم النفس بعضهم من أمريكا ، وبعضهم من أوربا . ومن أبرز هؤلاء الطلاب « ستانلى هول» و «كاتل» و«أنجل» و «كريلين» و «كولبه» و « تتشنر ». وبعد «بورنج» أن انضمام مثل هذا العدد من شباب العلماء حدث باهر مما يدل على أهمية إنشاء مختبر «فونت» .

وكان العمل فى مختبر « فونت » يسير على أساس مجموعات من الباحثين يشرف عليها « فونت » بنفسه ، و تنشر نتائج البحوث بعد ذلك فى المجلات ثم فى الكتب، ومما لا شك فيه أن « فونت » وطلابه لقوا مصاعب كثيرة فى دراساتهم فى علم النفس التجريبى؛ لأن الحصول على مفحوصين يعرضون أنفسهم للتجارب المختبرية كان أمرا بالغ الصعوبة، فكان العلماء يتبادلون دور الفاحص والمفحوص ، وكانت الروح السائدة فى ذلك الوقت هى الدراسة الفلسفية لموضوع علم النفس، ولم يكن الفلاسفة بأية حال من الأحوال قادرين على أن يتقبلوا الدراسة السيكولوجية التى تستعمل أجهزة مثل البندول أو الكرونوجراف .

وكانت البحوث فى مختبر « فونت » تتناول - كما هو متوقع - موضوعات الإحساس والإدراك، وكان معظمها بحوثا « سيكوفيزقية » بالمعنى الحرفى لتلك الكلمة، وتتعلق بدراسة العلاقات الكمية بين المنبه والإحساس، وذلك مع عدم إهمال النواحى الكيفية. وكانت حاسة الإبصار هى محط الاهتمام فى ذلك المجال، ودرست موضوعات مثل سيكوفيزيقا الألوان ، والصور اللاحقة ، وعمى الألوان ، والرؤية فى الظلام، و خداع البصر (شغل موضوع خداع البصر العلماء فى أواخر القرن التاسع عشر وكان هو الموضوع الرئيسى فى الإحساس والإدراك) وكذلك درست حاسة السمع بالإضافة إلى دراسة موضوعات مثل الإيقاع والنغم، وهذا الموضوع الأخير - موضوع النغم - كان مثار جدل وخلاف بين « فونت » و « ستمف » .

وإلى جانب ذلك اهتم « فونت » بدراسة موضوع زمن الرجع، حيث كان يطلب من المفحوص أن يستجيب لمثير ضوئى، وسمى هذا قياس زمن الرجع البسيط، أو يطلب من المفحوص الاستجابة لمثير ضوئى أخضر وألا يستجيب لمثير ضوئى أحمر ، وهذا ما يسمى - بتجارب زمن الرجع التمييزى . ونوع ثالث من التجارب يتعلق بزمن الرجع الاختيارى، حيث يطلب من المفحوص أن يستجيب باليد اليمنى للضوء الأخضر واليد اليسرى للضوء الأحمر. ومما يجدر ذكره أن هذه التجارب التى مضى عليها قرن من الزمان ما تزال تدرس حتى الآن لطلاب علم النفس .

وبعد هذا الاستعراض السريع لأعمال «فونت» نستطيع أن نقول إن «فونت» تبوأ مقاعد ثلاثة هى :

* المقعد الأول : عمادة المدرسة البنائية إحدى المدارس الكبرى فى علم النفس الألمانى.

* المقعد الثانى : عمادة علم النفس التجريبى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

* المقعد الثالث : عمادة « هيئة علمية » هى مختبر «ليبزج» ، تخرج فيه عدد كبير من العلماء من أمريكا وأوربا .

وبالنسبة للمدرسة البنائية تولى قيادتها بعد « فونت » تلميذه « تتشنر » كما انتسب إليها كل من « ستمف » و « جورج موللر » ، وانتسابهما إلى البنائية راجع إلى اهتمامهما بموضوع الإحساس والإدراك واستخدامهما منهج الاستبطان .

ومما يجدر ذكره أنه عاصر المدرسة البنائية « تابع » هو علم نفس الفعل بقيادة « برنتانو » ، وتابع آخر هو مدرسة «فرزبورج» بقيادة «كولبة» . وهذه المدرسة البنائية وتابعاها دليل على عملقة الفكر الألمانى فى ذلك الوقت، وأن المؤرخ لعلم النفس ليشكر لتلك الجامعات الألمانية التى احتضنت علم النفس فى تلك الفترة الجنينية، فولد قويا، وعاش فى ألمانيا فتيا إلى أن ترك الوطن الأم ألمانيا إلى الوطن الجديد أمريكا .

ونعرض الآن لبقية علماء المدرسة البنائية ، ثم نعرض لنهايتها الدرامية، ثم نعرض بعد ذلك لتابعيها .

«كارل ستمف» Stumpf (١٨٤٨/ ١٩٣٦م) :

يعد « كارل ستمف» المنافس المباشر « لفونت » . وفى عام ١٨٩٤م منح جائزة الأستاذية المبرزة لعلم النفس فى ألمانيا ، بينما كان « فونت » عميد السيكولوجيين الألمانيين بحق هو الشخص المناسب والمتوقع لهذه الجائزة ، وقد أشيع فى ذلك أن معارضة « هلمهولتز» هى التى منعت « فونت » من الحصول على هذا الشرف .

وقد تأثر « ستمف » بسيكولوجية الفعل عند « برنتانو » وهذا دعاه إلى قبول منهج استبطانى أقل دقة وصرامة من الشروط التى وضعها « فونت » للاستبطان . وكانت موضوعات دراسة «ستمف » هى الأنغام، ويبدو اختلاف النظر بينه وبين «فونت » فى عدد كبير من المقالات اللاذعة، وبالطبع اختلف موقف الاستبطانى المدقق « فونت » وموسيقى بارع مثل « ستمف » حول موضوع الأنغام، ولكن «ستمف » فتح بابا واسعا فى علم النفس التجريبى موضوعه الأنغام والأصوات .

وقد اهتم بإنشاء مختبر لعلم النفس فى « برلين » ولكنه كان مختبرا صغيرا بالقياس إلى مختبر « فونت » العملاق، وكان الاهتمام الرئيس لمختبر « ستمف » هو عملية السمع، إذ كانت الموسيقى حبه الحقيقى، ومما يجدر ذكره أنه درس بمختبر «ستمف» ثلاثى الجشطلت « فرتيمر » و «كهلر» و «كوفكا» .

ومهما يكن من أمر فإن « ستمف » ينتسب إلى المدرسة البنائية لأنه قبل بالاستبطان منهجا فى علم النفس .

« إدوارد تتشنر» Tetchener (١٨٦٧/ ١٩٢٧م) :

كان « تتشنر » تلميذاً «لفونت» فى ليبزج، وبالرغم من أنه كان إنجليزيا بالميلاد، إلا أنه أصبح ألمانيا فى تفكيره، حيث انتقل إلى ألمانيا، وبقى سنتين يتدرب تحت يد

«فونت»، وقد بقى المانيا بعد ذلك ولمدة خمسة وثلاثين عاما، وهى فترة بقائه فى أمريكا حيث جاء إليها فى ١٨٩٢م و قام بإنشاء مختبر «كورنل».

واستمرارية «تتشنر» فى ألمانيته تعد من قبيل الأسطورة ، ويتجلى ذلك فى شخصيته الأوتقراطية، ومحافظته على الشكليات فى إلقاء محاضراته مرتديا الروب الجامعى، بل حتى فى لحيته ومظهره الألمانى، وكانت محاضراته بالغة الدقة والتنظيم، ويشارك فى إعدادها طلابه ومساعدوه. وكانت المحاضرة تناقش بعد ذلك بجدية بالغة من قبلهم .

وكانت سماته العقلية أشبه بسمات الشخصية الألمانية، ولم يكن من بين طلاب «فونت» من هو مثل «تتشنر» فى الإعجاب بالخط الذى اتخذه « فونت» . وربما كانت الثقافة الإنجليزية التى جاء منها «تتشنر» ممهدة لقبول علم النفس الألمانى أكثر من الثقافة الأمريكية التى تتسم بالعقل العملى، ومما لا شك فيه أن «تتشنر» قد تأثر أثناء وجوده فى إنجلترا بالترابطيين الإنجليز السابقين على «فونت»، وعلى أية حال فإن علم النفس عند «تتشنر» يتشابه إلى حد كبير بعلم النفس عند «فونت» .

وهناك فكرة رئيسية فى أعمال «تتشنر» هى وحدة العلم، حيث تبين له أن جميع العلوم إنما تنبع من أساس واحد هو عالم « التجربة الإنسانية » وعندما نلاحظ هذا العالم بأساليب مختلفة، تنشأ علوم مختلفة، ومثال ذلك أن الفيزياء نشأت عندما نظر إلى العالم على أنه آلة هائلة، وكذلك نشأ علم النفس عندما نظر إلى العالم على أنه عقل وعلى أنه مجموعة من الخبرات تنظمها القوانين السيكولوجية، ولكى يصور فكرته تلك عن وحدة العالم ، قام بمقارنات بين علم النفس - العلم الوليد فى ذلك الوقت - وبين علوم أخرى مثل الكيمياء والبيولوجيا .

وقد شعر «تتشنر» شعورا قويا أن الأسلوب المميز لمنهج البحث العلمى هو الملاحظة والتى هى أساس التجريب. وقد رأى أن التجربة هى ملاحظة يمكن إعادتها ويمكن عزلها ، مما يضمن ويكفل الوضوح والدقة، وقد قارن بين نموذج الملاحظة فى مجال الطبيعة أو ما أسماه « النظر إلى » وبين الملاحظة السيكولوجية أو الاستبطان أو ما أسماه « النظر فى » .

وكانت حالات الشعور هى الموضوع المناسب لتلك الدراسة السيكولوجية. وقد نقل « تتشنر » البنائية إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى مقالة نشرها عام ١٨٩٨م تحت عنوان « مسلمات علم النفس البنائى » ، وقد ذكر فى هذه المقالة أن البيولوجيا تعرف على أنها العلم الذى يدرس الكائنات الحية، ويمكن أن تتناول البيولوجيا دراسة تركيب أو بناء الكائن الحى، وذلك بغض النظر عن « وظيفته » وهكذا علم النفس، ذلك أن هدف علم النفس التجريبى هو دراسة تركيب أو بناء العقل، وذلك بغرض تبين تفصيلات العمليات الأساسية، إن هدف علم النفس التجريبى فى نظر «البنائية » هو التشريح بقصد الوصول إلى نتائج تتعلق بالبناء والتركيب وليس بالوظيفة .

وقد عرف «تتشنر » الشعور بأنه جماع خبرات وتجارب الشخص، فى موقف معين، وكذلك عرف العقل بأنه جماع خبرات الشخص وتجاربه من المهد إلى اللحد .

ويرى «تتشنر » أن علم النفس يدرس الخبرات والتجارب على أنها غير مستقلة عن الشخص الذى يدرس، ومعتمدة عليه ، بينما الفيزياء تدرس الخبرات والتجارب. مستقلة عن الشخص الذى يدرس ، وغير معتمدة عليه، وعلى هذا فإن الفرق بين الفيزياء وعلم النفس هو فرق فى الاتجاه الذى يتخذ حيال دراسة هذه التجارب والخبرات .

وقد استبعد « تتشنر » علم الطفل وعلم نفس الحيوان من مجال علم النفس، ولم ينكر « تتشنر » فائدة دراسة سلوك الطفل، ولكنه أنكر أن تكون المعلومات التى نصل إليها عن سلوك الطفل أو الحيوان ذات صفة سيكولوجية .

ويميل « تتشنر » إلى إعلاء كلمة التجريب بصورة فيها كثير من المبالغة أكثر مما كان يميل « فونت » . وقد اعتقد « فونت » بأن علم النفس يجب ألا يكون تجريبيا فقط بل يجب أن يكون علما بحتا، ذلك أنه رأى أن فكرة العلم التطبيقى هى ضرب من التناقض، ذلك أن العالم - كما يراه « تتشنر » - يجب أن يبقى نفسه متحررا من فكرة القيمة « العملية » لما يفعل .

ويتفق « تتشنر » مع «فونت » فى التوازى بين النفس والجسم حلا لمشكلة علاقة النفس بالجسم، أما الفلسفة فهى لم تثر اهتمامه، وقد قبل بها لضرورة عملية ، فى أنها تسمح بالمضى قدما ومتابعة دراسة علم النفس .

كذلك دافع « تتشنر » بشدة - كما فعل « فونت » - عن استقلال علم النفس عن التأملات الفلسفية ، وأن هذا الاستقلال كان مرده إلى الطريقة التجريبية التى اتبعها. ويرى « تتشنر » أن التجربة النفسية يجب أن تضبط ، وأن يكون الاستبطان وسيلة دراستها، ويحتاج المجرب إلى أن يستوضح مشكلته وإلى جهاز يقيس به ، ثم عليه بعد ذلك أن يسجل ملاحظات الشخص الذى يستبطن والذى درب على عملية الاستبطان تدريبا جيدا .

ويمكن أن نجمل أهم مبادئ المدرسة البنائية فيما يلى :

أولاً : منهج البحث عند هذه المدرسة هو الاستبطان، والاستبطان لم تتعلمه البنائية من الفلسفة بل من الفيزياء والفسيولوجيا، حيث لجأ علماء الفيزياء فى دراستهم عن السمع وعن البصر إلى انطباعات المفحوصين، ولم يكن أمامهم إلا كذلك ، لأن الملاحظ الإنسانى فى نظر البنائية يمكن تشبيهه بآلة تسجيل دقيقة مثل ميزان الحرارة. وعن طريق الاستبطان تجرى العديد من التجارب الكلاسيكية فى المختبر النفسى مثل: تجارب تقدير الأوزان، ومقارنة الأوزان، وتجارب التفكير وإصدار الأحكام .

ثانيـا : ترى المدرسة البنائية أن علم النفس يهدف إلى دراسة العقل الإنسانى، وتهتم البنائية بما هو عام، ولذا لا تلتفت إلى دراسة الفروق الفردية، كما أن البنائية لا تهتم بدراسة ما هو غير سوى، وتتجاهل دراسة المصابين بالاضطرابات النفسية والعقلية .

ثالثا : وبالنسبة لمسلمات علم النفس البنائى فإن هذه المسلمات لم تكن من قبيل المسلمات الرسمية ولكنها مجموعة من العبارات التى قيلت لكى ترشد سلوك العالم .

ومن الصعب أن نحدد مسلمات هذه المدرسة بالتفصيل، ولكن « فونت » و«تتشنر» قبلا المسلمتين الأساسيتين فى العلم وهما : الضبط والتحليل ، وقد أكدا بشدة على

التجريب ، واستبعدا الطرق الأخرى على أساس أنها ليست علمية، وكذلك أكدا أن علم النفس أصبح له مجاله الخاص، ولم يعد معتمدا على الميتافيزيقا، وأن المعارف السيكولوجية معارف علمية أمبيريقية نحصل عليها من التجربة ، وليست معارف قبلية موجودة فى عقولنا، وكذلك فإن تعبير العقل وتعبير الشعور أساسيان فى الدراسة السيكولوجية ، كما اعتبرا الاستبطان منهج البحث الصحيح ، وهذا الاستبطان يتطلب تدريبا شاقا .

رابعـا : وبالنسبة لطبيعة المادة العلمية، اعتقد « تتشنر » أن المادة العلمية لعلم النفس يجب أن نحصل عليها من خلال الاستبطان وفى ظروف تجريبية صارمة، واعتقد أن ما نحصل عليه من خلال التجربة من مادة علمية يجب أن يكون موضوعيا شأنه شأن أى مادة علمية فى فروع العلوم التجريبية .

خامسا : وبالنسبة لعلاقة النفس بالجسم اعتبرت البنائية أن الجسم والعقل نسقان متوازيان، وهذا رأى كل من « فونت » و« تتشنر » .

البنائية فى الميزان :

تلك هى المدرسة النبائية التى أسدت إلى علم النفس الكثير ، وحررته من الميتافزيقا ودفعته إلى الدراسة التجريبية ، ولكن أهم إسهام للبنائية هو النقد الذى أثارته والذى أثرى علم النفس إثراء عظيما .

ولقد توجه النقد إلى قلب المدرسة البنائية، ألا وهو منهج الاستبطان. وبعض أوجه النقد الموجه إلى الاستبطان تنبه إليها كل من «تتشنر» و «فونت» وحاولا تداركها .

وأول نقد يوجه إلى الاستبطان أنه يصبح وكأنه إعادة استبطان، لأن المفحوص يروى بعد أن يمر بالخبرة الشعورية، وهذا من شأنه أن يتدخل عنصر النسيان ، وهذا النسيان يحدث بسرعة وربما يحدث أكثر فور الانتهاء من الخبرة الشعورية، ومطالبة المفحوص بتذكرها وروايتها، وعلى ذلك فجزء غير قليل من الخبرات الشعورية يكون فى عداد الفاقد ، أضف إلى ذلك أن إعادة الاستبطان من شأنها أن تؤدى إلى الخطأ

والخلط وخاصة إذا كان القائم بالاستبطان يميل إلى نظرية معينة تقوم التجربة بغرض التأكد من صدقها .

وهذا الاعتراض ردت عليه البنائية - جزئيا - بأن دربت القائم بالاستبطان بحيث يؤدى عمله على مدى فترات قصيرة ، مما يؤدى إلى أن يتلاشى احتمال النسيان. وكذلك يحدث الاعتماد على الصورة التذكرية الأولى، وهى نوع من الصدى العقلى تحفظ فيه خبرة المستبطن حتى يرويها ، وإذا تمت الرواية بصورة فورية فإن نسبة الفاقد تكون قليلة إلى حد بعيد .

وثمة صعوبة أخرى فى الاستبطان . ذلك أن فعل الاستبطان نفسه يتأثر بتغير الحالة النفسية للمستبطن، ومثال ذلك استبطان الغضب وهو حالة انفعالية مؤقتة تختفى بعد وقت قصير ، ناهيك أن الغضب حالة انفعالية تؤثر على الاستبطان وتؤثر على التذكر، وهذا ينطبق على الانفعالات الأخرى مثل الخوف والفرح .

وثمة صعوبة ثالثة وهى تتعلق بالتضارب بين النتائج التى يصل إليها العلماء الذين يتخذون الاستبطان منهجا للبحث فى تجاربهم المختلفة، وهذا التضارب دليل صارخ ضد الاستبطان .

وثمة اعتراض رابع على الاستبطان - وربما كان أكثر هذه الاعتراضات حسما - ذلك أن علم النفس فى نموه وتقدمه ليكون علما راسخا بين العلوم الأخرى يحتاج إلى كم هائل من البيانات والمعلومات يصعب بل ويستحيل الحصول عليها بواسطة الاستبطان ، كما أن علماء نفس الحيوان قد توصلوا إلى معلومات عظيمة ونتائج مفيدة دون استخدام الاستبطان ، وليس علماء نفس الحيوان فقط بل علماء نفس الطفل أيضا توصلوا إلى معارف ممتازة دون اللجوء للاستبطان الذى لا يقدر عليه الطفل .

وثمة إعتراضات على المدرسة البنائية بالإضافة إلى الاعتراضات الموجهة إلى الاستبطان وهى :

* قدم « فونت » وبعده « تتشنر » حيزا ومجالا ضيقا لعلم النفس، وهو الخبرة الشعورية ، وقد قال «تتشنر » عندما بدأ « واطسون » فى نشر دراساته السلوكية : إن

هذه الأعمال ليست فى حيز علم النفس ومجاله. وهذا التضييق فى حيز علم النفس لم يكن منسجما مع التزايد الهائل فى البحوث النظرية والتطبيقية التى شاعت فى علم النفس الحديث والمعاصر .

* قامت البنائية على أساس « دراسة الخبرة الشعورية وتحليلها » وكان هذا التحليل محل هجوم عنيف من مدرسة ألمانية قوية هى مدرسة « الجشطلت » التى قالت بالكلية والعمومية .

وأكبر الظن أن المدرسة البنائية سادت علم النفس حينا من الدهر لأنه تولى قيادتها رجلان عظيمان (هما « فونت » و «تتشنر ») كان لهما مكانة علمية سامية ، وأثرا على علم النفس تأثيرًا لا يمكن إنكاره ، ودافعا عن هذه المدرسة دفاعا عظيما . ولكن – وللأسف – لم يرث عمادة هذه المدرسة رجال عظام يطورون أفكارها ويوسعون معارفها ويردون عنها هجوم المدارس الأخرى، فكان قدر هذه المدرسة أن تبيد .

كما أن أحداث علم النفس كانت تجرى بسرعة كبيرة لم يكن ليدركها « تتشنر» أبو البنائية ومؤسسها والنافخ فى نارها، ذلك أنه كان غزير الإنتاج عندما ذهب إلى أمريكا وأسس مختبر «كورنكل» ، ولكن إنتاجه العلمى تضاءل بعد ذلك وانسحب تدريجيا من جمعية علم النفس الأمريكية .

كما أسهم « واطسون » إسهاما فعالا فى الإجهاز على المدرسة البنائية بدراساته السلوكية المعروفة، وقد انسحب «تتشنر » من الحياة العلمية منصرفا إلى ممارسة هوايته فى جمع العملات القديمة .

وقد حاول «بورنج » Boring (١٨٨٦ / ١٩٦٨) وهو تلميذ « تتشنر » المفضل (وكان ينتظر أن يخلفه على رأس المدرسة النبائية، وهو أيضا شيخ مؤرخى علم النفس) نقول حاول « بورنج » فى عام ١٩٣٣م أن يزاوج بين البنائية وما توصل إليه علم النفس المعاصر من معارف واسعة واكتشافات جمة ، لكن تأثير « تتشنر » بسلبياته فى موضوع علم النفس ومنهج البحث جعلت « بورنج » يحارب فى معركة خاسرة .

وفى عام ١٩٣٧م أيقن « بورنج » أن البنائية خسرت معركتها فى ميدان علم النفس إلى الأبد، وانتهى إلى القول بأن الخبرة الشعورية الذاتية لا يمكن أن تدرس بعلمية موضوعية ، وكأنه بهذا يدق المسمار الأخير فى نعش مدرسة عظيمة سادت ثم بادت ، ولكنها دفعت علم النفس دفعات قوية إلى الأمام لا يمكن لمؤرخ - مهما كان اتجاهه - أن ينكرها أو يتجاهلها .

التابع الأول - علم نفس الفعل Act Psychlogy

يعد « فرانز برنتانو » Brentano (١٨٣٨/ ١٩١٧م) الألمانى (أو بالأحرى النمساوى) من أكثر تلاميذ «فونت» تأثيرا على الحركة البنائية بوجه خاص، وعلى علم النفس الألمانى بوجه عام ، وقد درس برنتانو فى جامعات « برلين » و «ميونخ» و«توبنجن». وحصل على درجة جامعية فى الفلسفة فى عام ١٨٦٤م حيث رسم قسيسا فى العام نفسه، وبعد عامين عمل بالتدريس فى جامعة « فيرزبورج» وجامعة « فينا » وكان يدرس الفلسفة وكانت فلسفة «أرسطو » محل اهتمامه فى المحاضرات التى يلقيها، وفى عام ١٨٧٠م اصطدم «برنتانو » بمجلس الفاتيكان الذى قبل مبدأ معصومية البابا الذى أعلن « برنتانو » رفضه لها ، مما أدى إلى تركه سلك الكهنوت وكان تأثير « برنتانو » على جيل عصره تأثيرا كبيرا حيث كان محاضرا ممتازا .

وفى عام ١٨٧٤م عين أستاذا للفلسفة بجامعة «فينا» و كان تأثيره على مدارس علم النفس غير البنائية مثل « الجشطلت » و « التحليل النفسى » كبيرا، كما أنه كان منافسا لكل من «فونت » و « تتشنر » . ومن الجدير بالذكر أنه من بين الذين درسوا على يديه « ستمف » و «فون آر نفلز » و «فرويد». وفى عام ١٨٩٤م اعتزل العمل الجامعى وعاش فى إيطاليا وسويسرا يدرس ويكتب حتى وفاته .

وأشهر مؤلفات « برنتانو » كتاب « علم النفس من وجهة النظر الأمبيريقية » حيث نشر عام ١٨٧٤م، وهو العام نفسه الذى نُشر فيه الجزء الثانى من كتاب «فونت» عن «أسس علم النفس الفسيولوجى »، وكان هذا الكتاب معارضة صريحة لرأى «فونت».

ويعد «برنتانو» من أهم المعارضين لنظام « فونت » بالرغم من أنه يشترك مع «فونت» فى محاولة جعل علم النفس علما بين العلوم ، إلا أن علم النفس «الفونتى» ، علم تجريبى، بينما علم النفس « البرنتانى » علم نفس عملى أمبريقى، ويرى «برنتانو» أن منهج البحث الأساسى فى علم النفس هو الملاحظة وليس التجربة. ورغم ذلك فإن «برنتانو» لا ينكر فائدة التجريب .

وقد عارض «برنتانو» وجهة نظر «فونت» فى أن علم النفس يجب أن يدرس محتوى الخبرة الشعورية، واعتبر أن موضوع علم النفس هو دراسة الخبرة العقلية كفعل وليس موضوعه المحتوى العقلى، ومثال ذلك عملية السمع فإننا يجب – فى نظر «برنتانو»– أن ننظر إلى السمع كعملية أو فعل عقلى يسير بالضرورة إلى شىء، وعلى هذا فإن الحادثة العقلية هى السمع، وهى فعل لا محتوى، وكذلك الأمر إذا رأينا أحد الألوان فإن الرؤية هى الواقعة أو الفعل أو الحادثة العقلية ، لا الشىء المرئى، وهذا الفعل هو الذى يؤدى بنا إلى المضمون أو المحتوى ، وكذلك الأمر فى أفعال الحكم والرغبة ، وهكذا فإن موضوع علم النفس فى نظر «برنتانو » هو الفعل وليس المحتوى، والمضمون الذى يؤدى إليه الفعل هو أمر فيزيقى وليس نفسيا .

وهكذا تناقض فكرة علم نفس الفعل مع فكرة « فونت » فى أن العمليات النفسية هى محتوى. وعارض كذلك ا لقول بأن الخبرة بناء والخبرة نشاط ، ذلك لأن المحتوى الحسى للون الأحمر – مثلا – مختلف تماما عن فعل رؤية اللون الأحمر . وقال «برنتانو»: إن فعل الرؤية أو الفعل بوجه عام هو موضوع علم النفس. وقرر أيضا أن اللوني ليس صفة عقلية أو نفسية ، ولكنه صفة فيزيقية حسية، لكن فعل الرؤية هو أمر عقلى .

وهذا الاتجاه أسفر بالضرورة عن أساليب بحثية جديدة؛ لأن الأفعال – خلافا للمضامين الحسية – لا يمكن وصفها باستخدام الاستبطان الذى كان أسلوب البحث فى مختبر «فونت»، ذلك أن دراسة الأفعال العقلية تتطلب ملاحظة شاملة واسعة أوسع بكثير مما يتطلبه الاستبطان الكلاسيكى .

ومنهج البحث عند مدرسة « علم نفس الفعل » هو المذهب الظاهرياتى الذى يهدف إلى دراسة الظواهر أو الأحداث بطريقة مباشرة وبدون وسائل ، (وسوف نعرض للظاهراتية فى فصل قادم) .

والواقع أن « برنتانو » يعد فيلسوفا أكثر منه عالما ، وأمبريقيا أكثر منه تجريبيا ، إلا أنه لا يمكن القول بأن علم نفس الفعل كان رده إلى الفلسفة التأملية - ر غم أنه مذهب غير تجريبى - وربما ترجع أهمية «برنتانو » إلى أنه عارض البنائية بقوله إن موضوع علم النفس هو الفعل لا المحتوى ، والمنهج هو الظاهرانية لا الاستبطان .

وبعد، فلم تكن معارضة « برنتانو » لمذهب «فونت» إلا صرخة فى واد لم تجد إلا رجع الصدى، إذ تقدم « فونت » وطلابه فى دراساتهم تقدما طيبا وذلك لتوضيح فكر «فونت» وتحديد منهجه فى البحث، الأمر الذى كان يعوز «برنتانو » بشكل صارخ. ويقال إن « برنتانو » حاول عام ١٨٧٤ تأسيس مختبر لعلم النفس فى «فينا» ولكنه لم يوفق فى ذلك .

زبدة القول : إن علم نفس الفعل مذهب تعوزه الأسس التى من الممكن أن يقوم عليها مذهب جديد ، وهى الوضوح فى فكرته الأساسية والمنهج العلمى الدقيق والدراسات التجريبية . ولذا بقى علم نفس الفعل فى مجال علم النفس الفلسفى ولم يتجاوز ذلك إلى علم النفس التجريبى .

التابع الثانى : مدرسة «فرزبورج» Wurzburg School

كان « أوزوالد كولبة » Kulpe (١٨٦٢ - ١٩١٥) فى بداية حياته تلميذا درس على يد « فونت » ، ولكنه من خلال حياته العلمية كون فريقا من الطلاب خرجوا عن خط «فونت» ، وبالرغم من أن حركة « كولبه » ليست ثورة بالمعنى الدقيق على «فونت» إلا انها تمثل تحررا من البنائية الفونتية التقليدية .

بدأ « كولبة » دراسته الجامعية فى سن التاسعة عشرة فى «ليبزج» ، وكان فى نيته أن يدرس التاريخ، ولكن تحت تأثير «فونت» اتجه إلى دراسة الفلسفة وعلم النفس . وقد

عمل بعد تخرجه فى مختبر «فونت» ، وأصدر عام ١٨٩٣م كتابه «مجمل علم النفس» وقد عرف فيه علم النفس على أنه العلم الذى يدرس وقائع الخبرة مستقلة عن الشخص الذى يعاين هذه الخبرة أو يتعرض لها .

وفى عام ١٨٩٤م أصبح أستاذا بجامعة « فرزبورج » حيث أسس مختبرا لعلم النفس عام ١٨٩٦م . ومن الذين اجتذبتهم الدراسة فى جامعة « فرزبورج » العالم الأمريكى «أنجل » مؤسس الحركة الوظيفية، وكان تأثير « كولبة » على طلابه بالغا .

وفى كتابه « مجمل علم النفس » لم يتعرض بالدراسة لعمليات التفكير العقلية العليا حيث كان واقعا – عند تأليف هذا الكتاب – تحت تأثير «فونت» . وبعد عام ١٩٠٠م اقتنع « كولبة » بأنه من الممكن دراسة عمليات التفكير دراسة تجريبية. ومما يجدر ذكره أن « أبنجهاوس» فى عام ١٨٨٥م قد بدأ فى دراسة التذكر من حيث كونها عملية دراسة تجريبية . وكان التساؤل: إذا كان من الممكن دراسة التذكر دراسة تجريبية ، فلم لا يدرس التفكير دراسة تجريبية أيضا؟ وهكذا أصبح «كولبة » فى مواجهة «فونت» الذى ارتأى بأن العمليات العقلية العليا لا يمكن أن تدرس تجريبيا .

وثمة فرق آخر بين مدرسة « فرزبورج » (كما أصبحت تسمى) وبين «فونت»، وذلك فيما يتعلق بالاستبطان حيث توصل «كولبه » إلى الاستبطان التجريبى المنظم، إذ يطلب من المفحوص أن يقدم تقريرا استعاديا retrospective عن عمل تفكيرى مثل «الربط المنطقى بين مفاهيم متعددة » ، أى أن يطلب من المفحوصين أن يمارسوا بعض العمليات العقلية كالتفكير أو الحكم ، ومن ثم ينظرون كيف فكروا أو حكموا ، وهذه الطريقة – فى نظر «كولبة » – منظمة ، لأن الخبرة كلها تشرح بدقة جزءا جزءا، ويعاد هذا الإجراء أكثر من مرة بحيث يمكن تصحيح وتدقيق هذه التقارير الاستعادية، كما توجه حيالها العديد من الأسئلة بحيث يلفت انتباه المفحوص إلى نقط متعددة يريد الفاحص أن يستكملها .

والاستبطان عند «كولبة» يختلف عنه عند « فونت » فى أن المفحوص عند «كولبة» لا يعرف مقدما ماذا سوف يطلب منه استبطانه ، بينما المفحوص عند « فونت »

يعرف ذلك . ومع ذلك فإن «كولبة» لم يرفض دراسة «فونت» للخبرة الشعورية، ولم يرفض كذلك منهجه فى البحث وهو الاستبطان. لكن مدرسة «فرزبورج » ترى أن يتسع مفهوم علم النفس ليشمل العمليات العقلية العليا وأن يطور الاستبطان منهجا للبحث .

وثمة سؤال أساسى : ما نتيجة هذا الموقف لمدرسة «فرزبورج»؟ إن وجهة نظر «فونت» تؤكد أن الخبرة الشعورية يمكن أن ترجع إلى عناصرها الأصلية الحسية أو التصورية، وكل الخبرة كما يقول « فونت » تتكون من إحساسات أو صور حسية . ولكن « كولبة » استنتج من دراساته أن التفكير من الممكن أن يحدث دون إحساسات أو محتوى تصورى، وسمى « كولبة » ما توصل إليه التفكير بلا صور .

ومن أتباع مدرسة « فرزبورج » «كارل مارب » Marbe (١٨٦٩/ ١٩٥٣م) – و هو حاصل على درجة الدكتوراه من «ليبزج» ثم التحق بجامعة « فرزبورج» – حيث رقى فيها إلى درجة الأستاذية عام ١٩٠٩م ، وقد حل محل « كولبة » فى «فرزبورج » ، ومن الطريف أن نذكر أن «مارب» تعرف على «كولبة» أثناء زيارة الأخير لجامعة « ليبزج » مما شجع «مارب» على الالتحاق بجامعة « فرزبورج » .

ومن أهم دراسات « مارب » وأكثر دراسات «فرزبورج » شهرة ، دراسة عملية الحكم عند تقدير ومقارنة الأوزان، وقد وجد «مارب» أنه برغم أن الإحساسات والصور الحسية توجد أثناء عملية تقدير ومقارنة الأوزان ، إلا أن هذه الإحساسات والصور الحسية لا تلعب دورا فى عملية الحكم نفسها، ذلك أن المفحوصين لا يعرفون كيف تأتى الأحكام إلى أذهانهم (بأن الوزن أخف أو أثقل). وهذا يخالف ما كان معروفا فى ذلك الوقت من أن المفحوصين – أثناء تقديرهم المقارن للأوزان – يستعيد الواحد منهم صورة عقلية للشىء الأول الذى قدر وزنه ، ويقارنها بالإحساسات الواردة إليه من الشىء الثانى. ولكن تجارب « مارب » برهنت أنه لا توجد مثل هذه المقارنة وأن عملية الحكم هى أكثر تعقيدا مما كان يفترض فى ذلك الوقت .

ومن أتباع مدرسة « فرزبورج » كذلك «كارل بوهلر » Buhler (١٨٧٩ / ١٩٦٣م)، حيث يمثل موقفا مهما فى تلك المدرسة ، وقد أجرى دراسة حول موضوع التفكير عام

١٩٠٧م حيث كان يقدم للمفحوصين سؤالا يتطلب بعض التفكير قبل الإجابة عليه ثم يعطى المفحوص تقريرا كاملا قدر الإمكان عن الخطوات المتبعة للوصول إلى الإجابة ، ويقوم الفاحص بطرح بعض الأسئلة عن هذه العملية. وتتركز أهمية «بوهلر» في برهنته على أن عمليات التفكير لا تعتمد على الحس .

أما موقف «فونت» حيال مدرسة « فرزبورج » - فكان الانتقاد الشديد ، وقد أطلق «فونت» على الاستبطان « الفرزبورجى » بأنه مجرد «هزل» mock - وقد بقى «كولبة» خمسة عشر عاما فى «فرزبورج» ثم غادرها عام ١٩٠٩م إلى «بون» ثم إلى «ميونخ» عام ١٩١٣. ويقول « بورنج» عن « كولبة » إنه فى خلال حياته لم يقنع معارضيه، وقد توفى فى لحظة درامية فى سن الثالثة والخمسين، دون أن يقنع رجالات علم النفس بأن « فونت » على خطأ أو على صواب . أما أثر مدرسة «فرزبورج » فسيكون قويا على مدرسة الجشطلت .





الفصل الرابع عشر

المدرسة الوظيفية Functionalism

يهتم علم النفس الوظيفى بدراسة العقل من حيث وظائفه أو من حيث إنه يستخدم فى تكيف الكائن الحى مع البيئة، وقد ركزت الحركة الوظيفية على سؤال رئيسى: ما وظيفة العمليات العقلية ؟ ودرس الوظيفيون العقل لا من حيث مكوناته أو عناصره ولكن من حيث وظائفه ومناشطه التى تؤدى إلى التكيف مع البيئة .

وتعد المدرسة الوظيفية أول مدرسة أمريكية فى علم النفس، وكانت بمثابة رد واحتجاج على البنائية ، ذلك أن حيز علم النفس عند البنائية كان حيزا ضيقا، ولم تكن البنائية بمستطيعة الإجابة على السؤال الأساسى الذى طرحته الوظيفية، وهو : ماذا يفعل العقل ؟ وكيف يفعل العقل ما يفعل ؟ أو بمعنى آخر ما وظائف العقل ؟ وكيف يؤدى العقل هذه الوظائف ؟

وبالرغم من أن الوظيفية قامت فى مواجهة المدارس الأخرى، – البنائية خاصة – إلا أن الوظيفية لم تكن فى مبدأ أمرها مدرسة رسمية لها مسلمات معلنة يدافع عنها رجالات المدرسة ، حيث لم يكن للعلماء الذين مهدوا للوظيفية هذا الطموح ، ولكن مع مرور الأيام أصبحت أتجاها عاما له خصائصه . وكانت الوظيفية إلى جانب ذلك اتجاها أوسع من أن تشمله مدرسة ، حيث كان هناك العديد من العلماء ذوى الانتماءات الوظيفية، وكان كل و احد منهم يختلف بقدر كبير أو قليل عن الآخرين .

ولكن رغم هذه الاختلافات فإن علماء هذه المدرسة اهتموا أيما اهتمام بدراسة وظائف الكائن الحى فى البيئة، إلى جانب اهتماماتهم بتطبيقات علم النفس فى الميادين المختلفة .

وقد مهد لظهور المدرسة الوظيفية علماء من خارج ميدان علم النفس مثل «دارون» ، وعلماء ممن جمعوا بين الدراسات النفسية والبيولوجية مثل «جالتون» ، ولكن مؤسسها الحقيقى هو العالم الأمريكى «أنجل» .

ونتحدث فيما يلى عن أهم الرجالات الذين مهدوا لهذه المدرسة ، وأبرز إسهاماتهم ، ونعقب ذلك بالحديث عن مؤسس هذه المدرسة العالم الأمريكى «أنجل» .

«دارون» Darwin (١٨٠٩/ ١٨٨٢م) :

هو صاحب الكتاب المشهور « أصل الأنواع » والمنشور عام ١٨٥٩م ويقال إنه من أعظم الكتب تأثيرا فى الحياة الغربية بوجه عام ، إلى جانب أنه من أهم عماء البيولوجيا الذين أثروا على علم النفس .

وهو إنجليزى المولد والأصل، ولم تكن طفولته تبشر بشىء ذى بال، وفى سنى حياته الأولى لم يظهر اهتماما بالدراسة ولكن أظهر اهتماما شديدا بالتاريخ الطبيعى والحفريات، وقد أرسله أبوه إلى جامعة « أدنبرة » ليدرس الطب، ولكنه لم يجد فى نفسه إقبالا عليه ، ورأى أبوه أن يكون قسيسا . ثم ذهب للدراسة فى جامعة « كمبردج » وبقى فيها لمدة ثلاة سنوات ضاعت دون فائدة، وقضى « دارون » فيها وقته بين اللهو والقنص وجمع الحشرات .

وفى عام ١٨٣١م أبحر على السفينة «بيجل » أو كلب الصيد، فى رحلة علمية استغرقت حتى عام ١٨٣٦م ، زار فيها كثيرا من بلاد العالم ، وقد مكنته هذه الرحلة من ملاحظة العديد من مظاهر الحياة عند النبات والحيوان، وجمع خلالها مادة علمية وفيرة، وغيرت هذه الرحلة من طباع « دارون » إذ أصبح شخصا جادا ميالا إلى البحث العلمى .

وتزوج عام ١٨٣٨م . وفى عام ١٨٤١م استقر فى مدينة «دون» قرب « لندن » حتى يستطيع أن يركز على عمله العلمى بعيدا عن ضوضاء المدينة، وفى الوقت نفسه بدأت تنتابه الأمراض، مثل انتفاخ المعدة والقىء والأكزيما، وقد عانى منها « دارون » طول حياته ، ومن الواضح أنها أمراض ذات صلة وثيقة بالاضطراب العصابى، ولكن أفاده هذا المرض من ناحية أخرى ، حيث أبقاه فى صومعته العلمية بعيدا عن ملاهى الحياة .

ومنذ عودته من رحلته العلمية تلك ، كان دارون مقتنعا بنظريته فى التطور، ولكن انتظر مدة طويلة تزيد على العشرين عاما حتى أعلنها للناس، والسر فى ذلك يرجع إلى أن دارون كان يعرف تماما أن نظريته فى التطور سوف تلقى معارضة شديدة، وكان محتاجا إلى المزيد من التروى والمزيد من المادة العلمية المؤيدة لأقواله. وقد أصدر عام ١٨٤٢، ١٨٤٤م كتابين شرح فيهما نظريته باختصار، وفى الوقت نفسه دأب على الدراسة والاطلاع .

وفى عام ١٨٥٨م تلقى خطابا من عالم صغير فى مجال العلوم هو « ألفرد والاس» الذى توصل إلى نظرية للتطور تتشابه مع نظرية «دارون» . وفى هذا الخطاب يستطلع «والاس» رأى «دارون» العالم العتيد، ولنا أن نتخيل ما وقع فيه «دارون» من قلق عند قراءته لذلك الخطاب، إذ بعد الجهود المضنية يتعرض سبقه العلمى للضياع، وفى هذه الأثناء توفى ابن له وكان مصابا بالضعف العقلى، وهذا زاد فى مأساته. وهنا طلب منه الأصدقاء أن يعلن نظريته وقد كان، فنشر كتابه الأشهر «أصل الأنواع» عام ١٨٥٩م ولقى هذا الكتاب رواجا منقطع النظير .

ولسنا فى هذا المقام بسبيل التعرض لنظرية « دارون » بالعرض أو النقد والتحليل، ولكن نقول فى عجالة : إن هذه النظرية تفترض حدوث تطور طبيعى أثناء نشوء الإنسان وارتقائه من الأسلاف ، وذلك من خلال الانتخاب الطبيعى وتوارث الخصائص والسمات من جيل إلى آخر، وخلال هذا التطور تغيرت أشكال الحياة تبعا لتنازع البقاء بين الكائنات الحية. وكانت قدرة كل كائن على التكيف هى أساس بقائه واستمراريته .

وكان لدراسات « دارون» فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر الأثر البالغ على علم النفس، ذلك أن النظرية أشارت إلى الاستمرارية بين الإنسان والحيوان فى الوظائف النفسية ، وأدى ذلك إلى الاهتمام بعلم نفس الحيوان ودخول الحيوان إلى مختبرات علم النفس من أوسع أبوابها .

وقد أثر « دارون » على عدد من العلماء الأمريكيين ، بحيث أصبح الاتجاه أن يكون موضوع علم النفس هو دراسة الوظائف التى يؤديها الشعور ، وهذا أصبح بالنسبة لعدد كبير من الباحثين أهم من دراسة عناصر السلوك ومكوناته ، وهكذا اهتم علم النفس بموضوع تكيف الكائن الحى مع البيئة . وفقد موضوع عناصر العملية العقلية أو تجزئة العملية العقلية أهميته. وكذلك أثر «دارون» على علم النفس، بلفت أنظار علماء النفس إلى موضوع الفروق النفسية، ذلك أن نظرية «دارون» أكدت أن هناك فوارق بين أفراد النوع الواحد، ولن يكون هناك تطور إذا كان كل جيل نسخة من جيل سابق له. وعلى هذا فإن التغاير عنصر أساسى فى نظرية «دارون» . ومن هنا راح علماء النفس يدرسون كيف يختلف شخص عن شخص آخر .

ومما يجدر يذكره أن نظرية « دارون » أثارت نقدا شديدا عند ظهورها، وما تزال تثير هذا النقد، ولقيت تنديدا مستمرا، ومما يذكر - على سبيل المثال - أنه فى عام ١٨٥٩م عندما نشر كتاب «أصل الأنواع» وقام حوله الكثير من الجدل عقدت الجمعية البريطانية للعلوم مناظرة فى جامعة « أوكسفورد » ، حيث اختلف «دارون» مع كثير من تعاليم المسيحية ، وفى أثناء المناظرة وقف قبطان السفينة « بيجل » - وهى التى أبحر عليها «دارون» فى رحلته العلمية - وكان هذا القبطان مؤمنا إيمانا راسخا بالمسيحية، وقف أثناء المناظرة ممسكا بالإنجيل وصائحا : الكتاب ! الكتاب ! وهو يقصد أن ينبه الحاضرين إلى مخالفة نظرية دارون لتعاليم المسيحية . وقد استمر هذا القبطان يلوم نفسه؛ لأنه سبب غير مباشر فى التوصل لتلك النظرية ، ثم انتحر بعد خمس سنوات من تلك المناظرة. وربما يرجع انتحاره إلى شعوره الشديد بالذنب .

وزبدة القول أن نظرية «دارون» هى فرضية لم تثبت صحتها، ولكنها نبهت إلى

الاهتمام بدراسة علم نفس الحيوان والاهتمام بالوظيفة التكيفية للكائن الحى، وهو ما يهمنا فى هذا المقام .

«جالتون» Gallton (١٨٢٢/ ١٩١١م) :

. هو « سير فرانسيس جالتون» وهو عالم إنجليزى موسوعى متعدد المواهب، وهو من مؤسسى حركة القياس النفسى، وله تأثير هائل على علم النفسى التجريبى، وهو يمت بصلة القرابة إلى العالم البيولوجى «دارون» .

ولد «جالتون» فى «برمنجهام» ، والتحق بالدراسة بجامعة «كمبردج» البريطانية العريقة، واهتم اهتماما بالغا بدراسة الوراثة وقوانينها، وكذلك كان جالتون من المهتمين بالرحلات التى توسع المعارف، فزار معظم بلاد « أفريقية » ومن الطريف أن نذكر أنه كان من رواد دراسة بصمات الأصابع لاستخدامها فى تحقيق الشخصية، وكان واسع الاهتمامات بحيث لا نستطيع أن نعده متفرغا لعلم النفس مثل « فونت » أو «فرويد» .

وقد اهتم «جالتون» - ضمن اهتماماته العديدة - بدراسة ظواهر التخلف العقلى والمرض العقلى، و ذلك بدراسة التحليل الإحصائى عامة، ومعامل الارتباط بصفة خاصة .

ويمكن اعتبار « جالتون » ضمن العلماء الممهدين لظهور الوظيفية، وذلك لاهتمامه بموضوع الوراثة والتكيف وإصداره كتابا بعنوان «الوراثة والعبقرية » عام ١٨٦٩م ، وفيه طبق المفاهيم الإحصائية على مشكلات الوراثة ، وتبين له أن الرجال البارزين ذوى الذكاء الرفيع يكونون فى الغالب أبناء لآباء يقاربونهم فى المستوى نفسه، وقد تضمنت دراسته التعقبية لذوى الذكاء الرفيع عينة بلغت ٩٧٧ فردا .

وإلى جانب ذلك شجع تلميذه «كارل بيرسون» على ابتكار معادلة الارتباط الشهيرة.

أما بالنسبة للاختبارات العقلية فإن « جالتون » يعد الممارس الأول فى علم النفس، حيث صاغ العديد من الاختبارات العقلية (رغم أن تعبير الاختبار العقلى يعد من

صياغة « جيمس ماكين كاتل ») وقد افترض «جالتون» أنه يمكن قياس الذكاء عن طريق قياس القدرة على التمييز الحسى، حيث افترض أن الأكثر ذكاء هو الأقدر على التمييز الحسى، ويعرف طلاب علم النفس خطأ هذا الرأى، ويعرفون أيضا أن العالم الفرنسى «ألفرد بينيه» له قصب السبق فى التوصل إلى قياس دقيق الذكاء .

ومن ابتكارات «جالتون» «صفارة جالتون» للتمييز الحسى الصوتى «وقضيب جالتون» لقياس التمييز الحسى البصرى، وكذلك يعزى إلى «جالتون» ابتكار أول اختبار لتداعى المعانى، ويقال إن « فونت » استخدم هذا الاختبار فى «ليبزج» ، ومعلوم أن «يونج» طور هذا النوع من الاختبار فيما بعد .

ويقول « فلوجل » مؤرخ علم النفس الشهير: إنه يندر أن يتكرر مرة أخرى فى تاريخ العلم شخص بهذه الألمعية وتعدد المواهب والقدرات مثل «جالتون» .

«وليم جيمس» James (١٨٤٢/ ١٩١٠م) :

هو الفيلسوف وعالم النفس الأمريكى الشهير ، التحق بجامعة «هارفارد» عام ١٨٦١م ، ولكنه قطع دراسته للعمل مع بعثة علمية بيولوجية ، وبعد هذه البعثة اتجه إلى أوربا. وفى عام ١٨٦٨م حصل على إجازة فى الطب من جامعة «هارفارد» ، ثم التحق بالجامعة نفسها للعمل فى وظيفة محاضر للفسيولوجيا، ومن الفسيولوجيا اتجه إلى علم النفس وأسس أول مختبر لعلم النفس فى أمريكا عام ١٨٧٥م ، وبعد سنوات بدأ كتابه العظيم « مبادئ علم النفس » الذى نشره عام ١٨٩٠م ، وكان هذا الكتاب حدثا عظيما فى تاريخ علم النفس الأمريكى، وكان إلهاما لطلاب علم النفس الأمريكى، حيث كان فى نظرهم يضارع إسهام « فونت » ، وقد أصبح هذا الكتاب هو الكتاب الأول فى علم النفس الأمريكى لسنوات طويلة .

ويعد « وليم جيمس » أكبر شخصية فى تاريخ علم النفس الأمريكى بلا منازع رغم أنه خصص جزءا من حياته العلمية لإرساء قواعد الفلسفة البرجماتية « العملية » .

ويرى «بورنج » – شيخ مؤرخى علم النفس – أن ارتقاء «وليم جيمس » عمادة علم

النفس الأمريكى إنما يرجع إلى الأسلوب الباهر الذى كتب به مؤلفاته، وإلى أنه عالم كبير فى مواجهة البنائية الوافدة من ألمانيا .

وفى مؤلفه الأشهر « مبادئ علم النفس » ، يعالج « جيمس » علم النفس على أنه علم طبيعى بيولوجى ، ورغم أن هذه النظرة ليست جديدة تماما فى ذلك الوقت ، إلا أن معالجة جيمس لموضوع علم النفس كانت اتجاها جديدا مخالفا للتيار الألمانى السائد فى علم النفس فى ذلك الوقت .

ويمكن أن نلخص أهم إنجازات «وليم جيمس » فى علم النفس فى النقط التالية :

* قرر « جيمس » أن العمليات العقلية وظائف تكيفية ليتوافق الكائن الحى مع البيئة الطبيعية التى يعيش فيها . وهو فى هذا يتفق مع الاتجاه العام الذى يسود المدرسة الوظيفية .

* أشار « جيمس » إلى أن الإنسان كائن يحس ويشعر ، كما أنه كائن يفكر ويعقل، وليس كائنا عقليا محضا ، بل إلى جانب ذلك يخضع للعوامل الانفعالية والعاطفية ، بل إن التفكير الإنسانى يتأثر بالدوافع والحاجات .

* ويرى «جيمس » أن علم النفس هو العلم الذى يدرس الحياة العقلية، ويوافق على منهج الاستبطان ، ولكن مع مراعاة النواحى التجريبية والاهتمام بالدراسات المقارنة .

* رفض «جيمس» الأفكار الذرية التجريبية التى تقول بها الترابطية ، وأن كلمة سلسلة أو كلمة تتابع لا تحسن وصف الشعور ، بل نقول بأن الشعور ينساب أو يتدفق مثل نهر أو مجرى ماء ، ويهتم « جيمس » - متأثرا فى ذلك « بدارون » - بدراسة وظيفة الشعور لا محتوياته، ذلك أن الشعور يخدم غايات وأهداف الكائن الحى، وأول هذه الغايات والأهداف هى استمرارية تكيف الكائن الحى مع البيئة .

* أن العقل فى نظر « جيمس » يتعامل مع المعطيات الواردة من البيئة، كما يتعامل المثال مع قطعة الحجر ، ذلك أن العقل فى نظره ليس صفحة سلبية ترسم عليها الخبرات .

* رغم أن علم النفس يدرس الحياة العقلية إلا أن اتجاهه يجب أن يكون فسيولوجيا ، ذلك أن المخ هو الأساس فى العمليات العقلية .

* رفض « جيمس » الإطار الضيق الذى حددته البنائية لعلم النفس .

* أكد « جيمس » على أهمية علم النفس البرجماتى «العملى» وأن الأساس الذى تقوم عليه البرجماتية فى نظره هو أن أى فكرة تكون صالحة فى حدود ما تؤدى إليه من نتائج. وأساس البرجماتية هو العبارة التى تقول «الشىء الصادق هو الشىء المؤدى إلى نتيجة » .

* صاغ جيمس نظرية شهيرة فى الانفعالات خالف فيها أسلوب التفكير فى ذلك الوقت ، والذى يقول: إننا عندما نقابل حيوانا متوحشا فإننا نخاف ثم نجرى، أى أن انفعال الخوف يكون قبل فعل الجرى. ولكن «جيمس» قال : العكس هو الذى يحدث . إن فعل الجرى يكون أولا، ويتبعه انفعال الخوف، فالانفعال ليس فى ذاته شيئا إلا ما يحدث فى الجهاز الجسمى من تغيرات .

«ستانلى هول» Hall (١٨٤٤ / ١٩٢٤م) :

أمريكى. وبالرغم من أن « وليم جيمس » هو أول عالم أمريكى كبير إلا أن علم النفس الأمريكى يدين بالكثير لعالم آخر هو « ستانلى هول ». وترجع شهرة «هول» إلى الأولويات التى حققها . فهو أول حاصل على الدكتوراه فى علم النفس من جامعة أمريكية حيث حصل عليها من «هارفارد » عام ١٨٧٨م ، وهو أول أمريكى يدرس فى مختبر «فونت» فى «ليبزج» عقب حصوله على الدكتوراه، كما أنه أسس و احدا من المختبرات الرائدة فى أمريكا وهو الذى انشأه عام ١٨٨٣م جامعة « جونز هويكنز » ، وكذلك كان أول رئيس لجامعة «كلارك» الأمريكية عام ١٨٨٨م ، إلى جانب أنه كان أول رئيس لجمعية علم النفس الأمريكية عند إنشائها عام ١٨٩٢م ، هذا كله بالإضافة إلى أنه كان أول من أسس مجلة علمية فى علم النفس فى أمريكا وهى مجلة علم النفس الأمريكى عام ١٨٨٧م .

ويعد « ستانلى هول » من رجالات المدرسة الوظيفية؛ لأن نظرية النشوء والارتقاء عند «دارون» وأثرها فى علم النفس كانت المحور الذى دارت حوله معظم دراساته ، وكان عمله العلمى فى إطار الاتجاه « الداروني » ، حيث كان يرى أن النمو الطبيعى للعقل يكون من خلال المراحل التطورية .

وإلى جانب ذلك اهتم «هول » بعلم نفس اللمو ودراسات الطفولة والمراهقة، وفى عام ١٩١٥م أعد « هول » وتلاميذه عددا كبيرا من الاستبيانات للدراسات الخاصة بمراحل النمو المختلفة وخصائص كل مرحلة. وهذا الاهتمام لفت الأنظار إلى مشكلات الطفولة .

وكانت إسهامات «هول » فى علم نفس النمو وعلم النفس التربوى أكبر من إسهاماته فى علم النفس التجريبى رغم حبه له ، إلا أنه ضاق ذرعا بالعمل المختبرى الذى لا يتفق مع طموحاته الواسعة .

ومهما يكن من أمر فإن إسهامات « هول » فى علم النفس تبدو قليلة ، ولكن هذا يرجع فيما يبدو إلى انشغال هذا العالم بأمور تنظيمية إدارية ، استفاد منها علم النفس كثيرا ، مثل إنشاء جمعياته العلمية ومجلاته وتأسيس المختبرات .

« جيمس ماكين كاتل» Cattel (١٨٦٠/ ١٩٤٤م) :

ولد « كاتل » فى «بنسلفانيا» وحصل على درجة الليسانس من كلية « لافيت » عام ١٨٨٠ حيث كان والده عميدا لتلك الكلية ، وجريا على العادة المتبعة فى ذلك الوقت ذهب إلى أوروبا للاستزادة من العلم، وقصد ألمانيا حيث درس على يد «فونت» فى «ليبزج» .

وفى عام ١٨٢٢م عاد إلى أمريكا والتحق بجامعة « جون هوبكنز » حيث درس الفلسفة؛ لأن علم النفس لم يكن يدرس بتلك الجامعة فى ذلك التاريخ، وفى ذلك العام الدراسى التحق بجامعة «جون هوبكنز » أستاذ عظيم لعلم النفس هو «ستانلى هول» ، وهنا التحق «كاتل » بدراسة علم النفس ومعه « جون ديوى »، ثم عاد عام ١٨٨٣م إلى «فونت» فى «ليبزج» وقال قولته المشهورة «لفونت» «أيها الأستاذ أنت محتاج لمساعد

وسأكون مساعدك » واتجه إلى دراسة الفروق النفسية ، ومنذ ذلك الحين أصبح موضوع الفروق النفسية موضوعا أساسيا فى علم النفس الأمريكى .

وحصل على الدكتوراه عام ١٨٨٦م ، وعمل بجامعة «بنسلفانيا» ثم بجامعة «كمبردج » بإنجلترا حيث التقى بالعالم الإنجليزى الشهير « فرانسيس جالتون»، وكان اهتمامهما مشتركا بموضوع الفروق النفسية .

وفى عام ١٨٨٨ م عين أستاذا لعلم النفس فى جامعة «بنسلفانيا» وكان لهذا التعيين معناه، لأن هذه كانت أول أستاذية لعلم النفس فى جامعات العالم ، وشكلت اعترافا بعلم النفس، ثم انتقل من «بنسلفانيا » إلى جامعة «كولومبيا» حيث بقى مدة ستة وعشرين عاما .

وخلال عمله بجامعة « كولومبيا » منح العديد من درجات الدكتوراه أكثر من أى جامعة أخرى فى ذلك الوقت. وقد أكد «كاتل » على أهمية الاستقلالية فى العمل العلمى، وأعطى طلابه الحرية فى اختيار وإنجاز بحوثهم بأنفسهم ، وقد آمن «كاتل» بأن الأستاذ يجب أن يكون مستقلا عن الجامعة . وعاش فى منزله الذى يبعد حوالى أربعين كيلو مترا عن الجامعة وأسس فى منزله مختبرا ومكتبة وكان لا يذهب إلى الجامعة إلا أياما محدودة كل أسبوع. وبذا استطاع أن يتجنب الخلافات والحزازات التى تزخر بها الجامعة. وكان سلوكه هذا مثار ضيق المسئولين بالجامعة، وصدر قرار بإحالته للتقاعد عام ١٩١٧م . ورغم ذلك بقى نشيطا ومنتجا حتى و فاته فى ١٩٤٤ م .

ومما يجدر ذكره أنه عين أستاذا فى جامعة « بنسلفانيا » وهو فى سن الثامنة والعشرين، وعين رئيسا لقسم علم النفس فى «كولومبيا» فى سن الحادية والثلاثين، كما عين رئيسا لجمعية علم النفس الأمريكية وهو فى سن الخامسة والثلاثين. أما فى سن الأربعين فقد تم اختياره عضوا فى الأكاديمية الوطنية للعلوم، وهو أول عالم نفسى يتبوأ هذا المنصب .

ومن ناحية الأعمال العلمية فقد كان اهتمام «كاتل» بدراسة الفروق النفسية كما سبق القول، وإلى جانب ذلك اهتم بدراسة الإدراك والترابط والسيكوفيزيقا . ولكن

الفروق النفسية كانت محل اهتمامه الأساسى والتى قاسها عن طريق الاختبارات النفسية، وقد صاغ عام ١٨٩٠م تعبير « الاختبار العقلى » وقام بتطبيق عدد من الاختبارات على طلاب جامعة «بنسلفانيا » وأكمل برنامج الاختبارات فى جامعة «كولومبيا» ، وكانت اختباراته تدور حول قياس الذكاء، وكذلك قياس المهارات الحركية وقياس قبضة اليد، وقياس الإحساس باستخدام العتبات، وباستخدام اختبارات فروق الأوزان. هذا إلى جانب اهتمامه بدراسة زمن الرجع بالنسبة للمثيرات الصوتية وسرعة تسمية الألوان والقدرة على الحكم ، ولكن عند دراسته للارتباط بين نتائج تلك القياسات ونتائج الاختبارات المدرسية كانت الارتباطات متدنية بدرجة مخيبة للآمال مما أدى إلى القول بأن الاختبارات الحركية والحسية لا تعد مؤشرًا على الذكاء ، ولكن قدر علم النفس أن يكون « ألفرد بينيه » هو رائد قياس الذكاء كما هو معلوم .

وأما أثر « كاتل » على علم النفس الأمريكى بوجه عام وعلى الحركة الوظيفية بوجه خاص فهو أنه كان صاحب دراسات تجريبية ، ومتحدثا عن علم النفس أمام المجتمع العلمى، وبسبب اهتمامه بالقياس العقلى التفت علم النفس الأمريكى إلى هذا الفرع الوليد من علم النفس، فنما نموا عظيما ، وكذلك كان « كاتل » بمثابة سفير لعلم النفس، حيث كان يلقى المحاضرات ويكتب المقالات ويخرج الطلاب الذين تولوا قيادة علم النفس الأمريكى فيما بعد مثل « ثورندايك » صاحب نظرية التعلم بالمحاولة والخطأ و مثل « ودورث » مؤرخ علم النفس الشهير ، ومن خلال دراسته للفروق النفسية دعم الحركة الوظيفية فى علم النفس الأمريكى ودفعها خطوات قوية إلى الأمام .

«جون ديوى» Dewey (١٨٥٩/ ١٩٥٢م) :

هو الفيلسوف وعالم النفس الأمريكى الشهير. وقد حصل على الدكتوراه من جامعة « جونز هوبكنز » الأمريكية عام ١٨٨٤م، ثم عمل بجامعة « ميتشجن» . وفي عام ١٨٩٤م التحق بجامعة « شيكاغو » ، وذلك لكى يؤسس قسما جديدا للفلسفة وعلم النفس والتربية، وفى عام ١٩٠٤م انتقل « ديوى » إلى جامعة «كولومبيا» حيث بقى حتى اعتزاله .

وهو يرى أن السلوك الإنسانى وإمكاناته التطورية هى نتيجة للتطور الطبيعى وهو فى ذلك متأثر « بدارون»، وقرر أن السلوك وظيفة وأداء، وقد لخص «ديوى» اتجاهه الوظيفى فى علم النفس عام ١٨٦٩م فى مقالة بين فيها أن مفهوم « القوس المنعكس» refex are ، هو توافق كلى بين المثيرات والاستجابات، اى بين عناصر البيئة وسلوك الشخص، وأصبح بذلك من أوائل العلماء الذى أشاروا إلى أن التداخل بين الكائن الحى والبيئة هو أساس النمو .

وهذه الفكرة تكون أساسا لمدرسة «شيكاغو» الوظيفية فى علم النفس، وبينما تؤكد الوظيفية الأسس التطورية للسلوك، أكد «ديوى » أن معظم جوانب السلوك الإنسانى هى جوانب ناشئة عن تأثير العادة، وعلى هذا فإن هدف التربية والتعليم هو المساعدة على تكوين العادات السليمة .

وبسبب تأثر « ديوى » بنظرية التطور ، كانت فلسفته مبنية على فكرة التغير الاجتماعى، وكان ضد الفكرة القائلة بأن الأشياء تظل ساكنة، وكان «ديوى» يرى ضرورة الأخذ بالتقدم الذى يؤدى إليه صراع العقل الإنسانى مع الواقع. ومن خلال هذا الصراع تتحدد الأساليب السديدة التى من شأنها دفع الإنسان إلى التقدم، ووظيفة الكائن الحى هى تحقيق هدف، وهذا الهدف هو الاستمرار فى الحياة، وعلى هذا فإن علم النفس هو دراسة الوظائف التكيفية للكائن الحى .

هذا وقد لقى «ديوى» تقديرًا كبيرًا فى الأوساط الأمريكية ، ليس لأنه عالم نفس، ولكن لأنه فيلسوف كبير فى المحل الأول حيث اهتم فى دراسة الفلسفة بتحقيق الرفاهية للإنسان فى النواحى الجسمية والاجتماعية مع تركيز الاهتمام بالأخلاق، واعتبر أن الوظائف النفسية مثل التفكير والتعلم هى أمور أساسية بالنسبة لتكيفنا مع الحياة، وهو يرى إلى جانب ذلك أن التفكير هو أداة تطبيقية نواجه بها ضروريات الحياة ومتطلباتها، فنحن نفكر إذن نحن نعيش .

كما أن الجهود التى يبذلها الإنسان تؤدى إلى المعرفة، والمعرفة هى السلاح الذى نحارب به من أجل الاستمرار فى الحياة، والمعرفة أيضا هى أداة فى العملية التكيفية

للكائن الحى، وعلى هذا فإن الحياة عملية تعلم ، ويمثل التعلم على هذا الأساس أحد أبواب علم النفس الهامة .

وترجع أهمية « ديوى » إلى تأثيره ليس على علم النفس أو الفلسفة فقط ، بل على الحياة الأمريكية بوجه عام . ويعد كتاب «كيف نفكر » الذى أصدره عام ١٩١٠م من أكثر الكتب تأثيرا على الحياة الفكرية والاجتماعية فى أمريكا .

« جيمس إنجل» Angell (١٨٦٩/ ١٩٤٩م) :

هو عالم نفس أمريكى، ورائد الحركة الوظيفية، وقد درس «إنجل» فى جامعة «ميتشجن» على يد « جون ديوى » ، وفى جامعة «هارفارد» على يد «وليم جيمس » ثم انتقل إلى جامعة «هال» فى ألمانيا ، حيث حصل على درجته العلمية، وعندما عاد إلى الولايات المتحدة قام بالتدريس لمدة عام واحد فى جامعة «مينسوتا» ، ثم انتقل إلى جامعة « شيكاغو» حيث بقى فيها خمسة وعشرين عاما فى وظائف الأستاذية والإدارة لقسم علم النفس، وهناك تبوأ مركزه زعيما لحركة علم النفس الوظيفى، وبعد أن ترك مركزه عمل رئيسا لجامعة « ييل » الأمريكية، وهو أول رئيس لهذه الجامعة يكون حاصلا على درجته العلمية من خارج الولايات المتحدة الأمريكية. وبعد اعتزاله العمل الأكاديمى عام ١٩٣٧م عين مستشارًا تعليميا لإحدى الشركات الإذاعية .

ويعد «إنجل» من المبرزين بين رجالات علم النفس الوظيفى، وهو قائد هذه الحركة حيث طورها وجاهد حتى أعطاها شكلا مرموقا، وكان له - إلى جانب شهرته العلمية - شهرة إدارية واسعة ، حيث جعل قسم علم النفس بجامعة « شيكاغو » قسما مرموقا فى أيامه . وبين تلاميذه « واطسون » مؤسس السلوكية «وهارفى كار» عالم النفس الوظيفى .

وفى عام ١٩٠٤م نشر «إنجل» كتابه الشهير الذى ضمنه نظريته فى «علم النفس الوظيفى » وكان هذا الكتاب ناجحا بحيث ظهرت له أربع طبعات حتى عام ١٩٠٨م ، مما يشير إلى أهمية الحركة الوظيفية فى ذلك الوقت. وهو يرى أن وظيفة الشعور هى تحسين الإمكانيات التكيفية للكائن الحى، وأن علم النفس يدرس كيف يساعد العقل على هذا التوافق بين الكائن الحى والبيئة .

ويمكن توضيح موقف « إنجل» فى علم النفس الوظيفى فى النقط التالية :

* أن علم النفس الوظيفى هوالعلم الذى يدرس العمليات العقلية. وكانت بنائية «فونت» و «تتشنر » ما تزال قوية حين وضع « إنجل» الوظيفية فى مواجهتها ، وأن مهمة الوظيفية هى اكتشاف كيف تتم العملية العقلية؟ وماذا يتم عند حدوثها؟ وتحت أى ظروف تحدث ؟ .

* أن علم النفس هو العلم الذى يهتم بالشعور والمستفادات الأساسية منه، والشعور إذا نظر إليه بهذه الطريقة فإنه يكون وسيطا بين الكائن الحى ومطالب البيئة، وأن الوظيفية تدرس العمليات العقلية على أنها ليست حوادث منعزلة مستقلة بذاتها، ولكن على أساس أنها جزء أساسى من النشاط البيولوجى، وجزء من حركة أوسع فى تطور الكائن الحى. ويعتقد « إنجل » أن الشعور يجب أن يؤدى خدمة حيوية للكائن الحى، وما يقال عن الشعور يقال عن العمليات الأخرى مثل التفكير والحكم .

* علم النفس الوظيفى هو علم النفس الذى يهتم بالعلاقات « النفسجسمية » وبالعلاقات الشاملة بين الكائن الحى والبيئة، ويستتبع ذلك ألا يكون ثمة تمييز بين ما هو نفسى وما هو جسمى ولا تعتبرهما الوظيفية شيئين مختلفين بل هما ينتميان إلى النسق نفسه .

* أشار «إنجل » إلى أنه لا يقصد أن يكوِّن مدرسة بالمعنى المفهوم تحت اسم علم النفس الوظيفى، واعتقد أن فكرته أوسع من أن تقتصر على إطار عمل مدرسة واحدة، ومع ذلك لم يحدث ما تصوره «إنجل» إذ أدى موقفه هذا إلى ظهور المدرسة الوظيفية، والأكثر من ذلك أنها ارتبطت لزمن ليس بالقصير بعلم النفس الذى كان يدرس فى جامعة « شيكاغو » فى ذلك الوقت .

« هارفى كار » Carr (١٨٧٣/ ١٩٥٤م) :

أمريكى. درس الرياضيات فى جامعتى « دى باو » و «كولورادو »، ثم تحول من الرياضة إلى علم النفس. ونظرًا لعدم وجود مختبر نفسى فى جامعة « كولورادو» انتقل إلى جامعة «شيكاغو» حيث تلقى أول دروس علم النفس التجريبى على يد «إنجل» ، كما درس علم نفس الحيوان على يد « واطسون » .

حصل على الدكتوراه عام ١٩٠٥م وأشرف عليه فى دراسته للدكتوراه «إنجل» و«ديوى» وعمل مدرسا بمعهد « برات » لفترة قصيرة ، ثم عاد إلى شيكاغو عام ١٩٠٨م ليخلف «واطسون» الذى انتقل إلى جامعة «جون هوبكنز » ، وبعد ذلك ترأس قسم علم النفس بجامعة «شيكاغو» خلفا لـ «إنجل» ، وخلال رئاسته لهذا القسم من ١٩١٩ إلى ١٩٣٨م منح القسم مائة وخمسين درجة دكتوراه .

وقد تولى «كار» قيادة المدرسة الوظيفية بعد أن رسخت أقدامها مدرسة معترفًا بها فى علم النفس، وتوقفت الحملات بينها وبين المدارس الأخرى، وخاصة البنائية، ووصلت الوظيفية فى عهده إلى أوج قوتها. وقرر « كار » أن علم النفس الوظيفى هو علم النفس الأمريكى، ورأى أن المدارس الأخرى مثل السلوكية والجشطلت والتحليل النفسى من قبيل المبالغات التفسيرية التى لا لزوم لها .

ويعد كتاب « كار » عن علم النفس الصادر عام ١٩٢٥م صورة نهائية للوظيفية. ويهمنا فى هذا الكتاب أن «كار» قرر أن موضوع علم النفس هو النشاط العقلى وعملياته مثل الذاكرة والإحساس والإدراك والتخيل والحكم والإرادة، ووظيفة هذه العمليات أن تكتسب الخبرة وتنظمها ثم تستخدمها فى تكيف السلوك وتوافقه.

وهنا نرى تأكيدا على العمليات العقلية أكثر من التركيز على عناصر ومكونات الشعور، ونرى كذلك وصفا للنشاط العقلى على أنه أمر يتمكن الفرد بواسطته من التكيف أو التوافق مع البيئة .

وبالنسبة لأسلوب دراسة النشاط العقلى فإن «كار» يؤكد على أهمية كل من الاستبطان وأسلوب الملاحظة فى مجال الطبيعة، وقد أشار إلى أن أسلوب البحث التجريبى هو الأسلوب الأمثل، ولكنه أقر فى الوقت نفسه بأن الدراسة التجريبية للعقل صعبة إن لم تكن مستحيلة، كما اعتقد «كار» بأن دراسة الآثار الحضارية مثل الأدب أو الفن أو اللغة أو دراسة المؤسسات السياسية والاجتماعية يمكن أن تؤدى إلى معرفة المناشط العقلية التى أنتجتها، وقد اعترف أيضا بأهمية معرفة العمليات الفسيولوجية التى تسهم فى النشاط العقلى .

وفى نظر « كار » لا ترتبط الوظيفية بأسلوب واحد فى منهج البحث كما ترتبط البنائية بالاستبطان، ولكن تؤكد المدرسة بوجه عام على الصبغة الموضوعية للدراسة الوظيفية، كما أن قدرا كبيرا من البحوث التى أجريت فى جامعة « شيكاغو » لم تستخدم الاستبطان، فى الحالات التى يمكن استخدامه فيها، وكانت هذه البحوث تركز أساسا على الضبط الموضوعى .

ومن المهم أن نذكر أن مدرسة «شيكاغو» اتجهت بدراسة علم النفس من دراسة العقل أو الشعور إلى دراسة السلوك الظاهر، وساعدت بذلك على نقل علم النفس الأمريكى بعيدا عن البنائية إلى اتجاه المدرسة السلوكية .

* * *

الفصل الخامس عشر

مدرسة الجشطلت

Gestalt Psychology

عندما كانت المدارس الكبرى فى علم النفس - التى أسلفنا الإشارة إليها - تزدهر فى أوربا وأمريكا ، ظهرت حركة عظيمة وكبيرة فى علم النفس ، كان موطنها ألمانيا - الوطن الأم لعلم النفس - وكانت هذه الحركة الجديدة بمثابة احتجاج على البنائية ، هذه الحركة هى مدرسة الجشطلت .

وحتى يمكن لنا أن نفهم دور هذه الثورة الجشطلتية نعود بالذاكرة إلى العقد الثانى من القرن العشرين ، تلك الأيام التى يسميها مؤرخ علم النفس الكبير «ودورث» « أيام الاضطراب » ، تلك الأيام التى بدأت فيها هجمة السلوكية القاسية على آراء « فونت » ومدرسته البنائية ، وأيضا على المدرسة الوظيفية ، وكان عملاق المدرسة السلوكية « واطسون » قد توغل في ميدان دراسة علم نفس الحيوان .

هذا وقد كانت حركة الهجوم الجشطلتية على البنائية معاصرة لظهور السلوكية الأمريكية وإن كانت مستقلة عنها تماما . إذن قامت السلوكية والجشطلت بالهجوم على بنائية « فونت » وأسهمتا فى القضاء عليها ، ولكن سرعان ما واجهت كل مدرسة منهما الأخرى بعد ذلك . وكان هناك خلاف واختلاف حادان بين الجشطلت والسلوكية ، ذلك أن علم نفس الجشطلت قبل مبدأ وجود الشعور ، ولكنه انتقد تقسيمه أو تفتيته إلى عناصر بينما رفضت المدرسة السلوكية حتى مجرد الاعتراف بمفهوم الشعور .

وقد أشار الجشطلتيون إلى علم نفس « فونت » على أنه سيكولوجية « الطوب والملاط » على أساس أن العناصر « الطوب » تتماسك بعضها ببعض عن طريق «الملاط » .

وقال الجشطلتيون : إنه عندما ينظر الإنسان من النافذة إلى الطريق فإنه يرى على الفور الأشجار والسيارات والسماء ، وقد افترض علم النفس « الفونتى » أن إدراك الأشياء يتكون من تجميع العناصر متعددة فى حزمة ، لكن الجشطلت ترى أنه عندما تتجمع العناصر أو الأجزاء فإن ثمة شيئا جديدا يظهر . ولنعزف مجموعة من الأنغام بعضها مع بعض ، فلا شك أنه سوف يظهر لحن جديد . وهنا يكون مبدأ الجشطلت الأساسى « إن الكل ليس مجموع الأجزاء » .

هذا وقد اعتقد اجشطلت أن ثمة شيئا يحدث فى عملية الإدراك أكثر مما يرد إلى العين ، ذلك أن إدراكنا يذهب أبعد من مجرد المعطيات الحسية .

ولأفكار مدرسة الجشطلت - شأنها فى ذلك شأن مدارس علم النفس الأخرى - خلفيات وإرهاصات سابقة نناقشها قبل أن نعرض لرجالات هذه المدرسة وإنجازاتهم الكبيرة .

الخلفية التاريخية :

إن أساس الجشطلت وهو « كلية الإدراك » يمكن أن نجده بشكل من الأشكال عند الفيلسوف الألمانى الكبير « كنط » Kant (١٧٢٧ - ١٨٠٤) . هذا الرجل الذى انقطع تماما لدراسة الفلسفة مدة تقترب من الأربعين سنة ، ورغم أن إسهاماته فلسفية فى أساسها إلا أنه أشار إلى عدد من القضايا السيكولوجية أثناء دراسته لقضية « المعرفة » الفلسفية .

وقد اثر « كنط » على علم النفس من حيث تأكيده على وحدة الفعل الإدراكى، ذلك أننا عندما ندرك الأشياء - أو ما نسميه الأشياء - فإننا نقابل عناصر يمكن أن تقسم إلى أجزاء أو إلى قطع ، لكن هذه العناصر تنتظم بصورة « قبلية » apriori ،

وهذا الانتظام « القبلى » لا يكون من خلال عمليات ترابطية آلية ، كما أن العقل خلال العملية الإدراكية يمارس خبرة أو تجربة تقوم على الوحدة .

وطبقا لما يراه « كنط » فإن الإدراك ليس إحساسا سلوكيا أو تجميعا لعناصر حسية متفرقة ، ولكنه تنظيم نشط لهذه العناصر فى وحدة وفى خبرة كلية ، وعلى هذا فإن المادة الخام للإدراك إنما تعطى صورتها وشكلها من تنظيم يقوم به العقل. هذا الموقف الذى اتخذه « كنط » على النقيض تماما من لب الترابطية .

ويرى « كنط » أن ثمة مقولات أو صورا يضيفها العقل على الخبرات الحسية، وهذه الصور أو المقولات سليقية جبلية عند الإنسان ، وهى مثل الزمان والمكان . معنى هذا أن الزمان والمكان من حيث كونهما مقولتين صوريتين ، ليستا مشتقتين من التجربة الحسية ولكنهما توجدان سليقيا فى العقل من حيث كونهما صوراً قبلية. وهذه الصور القبلية إنما نعرفها عن طريق الحدس intution .

كما أسهم « برنتانو » في إرهاصات حركة الجشطلت ، وذلك من خلال تأكيده على أن علم النفس هو دراسة الخبرة النفسية عملا وفعلا أكثر من كونه دراسة لمحتواها . ويقصد « برنتانو » بمحتواها ما أسماه العناصر الأولية للإحساس، وهو بهذا يميل إلى دراسة الخبرات النفسية فى مجملها لا فى تفاصيلها . وقد رأى أن أسلوب الدراسة فى علم النفس هو ملاحظة الخبرات كما تقع ، وهو فى هذا قريب من أسلوب البحث عند الجشطلت .

كما أسهم « أرنست ماش » Mach (١٨٣٨ - ١٩١٦م) وهو من علماء الفيزياء الألمان ، وكان له أيما تأثير على حركة الجشطلت حيث أصدر كتابا عام ١٨٨٥ م بعنوان « تحليل الإحساس » تحدث فيه عن فكرتى المسافة والزمن ، وقرر أن هاتين الفكرتين مستقلتان عن عناصرهما الجزئية . مثال ذلك أن الدائرة - وهى نموذج أولى عند « ماش » ـ قد تكون كبيرة أو صغيرة سوداء أو بيضاء ولكن ذلك لا يفقدها خاصيتها الأساسية من حيث كونها دائرة .

وكذلك أشار « ماش » إلى أن إدراكنا السمعى أو البصرى للأشياء لا يتغير ،

رغم أننا قد نغير موقعنا من هذا الشيء ، وهذه إشارة إلى ثبات الشكل . مثال ذلك أن المنضدة هي هي بعينها سواء نظرنا إليها من الأعلى أو من أحد الجوانب أو من إحدى الزوايا ، وكذلك فإن الأنغام الموسيقية تبقى هي هي حتى وإن تغير توزيعها الموسيقى .

كذلك قام « فون أرنفلز » Ehrenfts (١٨٥٩ - ١٩٣٢م) بتوسيع دراسات «ماش» ويعد « أرنفلز »-وهو ألماني - في نظر البعض الجد الأكبر لعلم النفس الجشطلتي . وهو يرى أن هناك خصائص للخبرات لا يمكن أن تفسر عن طريق الربط بين الإحساسات المختلفة . وقد أسمى هذه الخصائص « بالخصائص الجشطلتية » ، ومعنى هذا : أن الإدراك إنما هو مبني على شيء آخر خلاف إحساسات الفرد . مثلا النغم هو خاصية جشطلتية ذلك لأن أصواته هي هي حتى وإن عزفت على آلات موسيقية مختلفة ، أي أن النغم هو شيء مستقل ومغاير للإحساسات السمعية التي يتكون منها فعلا .

كذلك هاجم « وليم جيمس » - في أمريكا - الذرية السيكولوجية ، فكان بذلك من المبشرين بعلم نفس الجشطلت . حيث قرر أنه من الخطأ تحليل الخبرة الشعورية إلى عناصر جزئية ، ذلك أننا عندما نرى ، فإنما نرى الأشياء ولسنا نرى مجرد حزمة من الإحساسات البصرية .

وثمة تأثير على الجشطلت من تأثير الحركة الظاهراتية التي سادت في ألمانيا عند ظهور مدرسة الجشطلت . وتعني الظاهراتية باختصار : الوصف الحر غير المنحاز للخبرات المباشرة كما تحدث بالضبط ، أي أنها الملاحظة الصحيحة وغير المحرفة للخبرات ولا تحلل فيها الخبرات إلى عناصر جزئية أو ما شابه من أساليب اصطناعية ، إنها تتطلب خبرة الفهم الساذج أكثر ما تتطلب خبرة الباحث المدرب على الاستبطان والذي يحمل خلفية مذهبية معينة كما هو الحال في المدرسة البنائية .

ويقال : إن الاتجاه الظاهرياتى فى علم النفس ، بدأ بتأثير من شاعر ألمانيا الكبير « جوته » (١٧٤٩ - ١٨٣٢م) . ومن أشهر علماء النفس الذين مهدوا للظاهراتية « جورج موللر » مؤسس مختبر « جوتنجن » فى ألمانيا .

وينبغى علينا ألا ننسى عندما نعرض المؤثرات التى أدت إلى ظهور علم نفس الجشطلت أن نشير إلى ما يمكن تسميته « روح العصر » التى سادت أواخر القرن التاسع عشر ، إذ أصبح علم الفيزياء - أهم العلوم الطبيعية فى ذلك الوقت - أصبح أقل ذرية ، وأصبح الاتجاه واضحا إلى التخلى عن « نيوتن » وأصبح علماء الفيزياء يبحثون بقصد الوصول إلى قوانين شمولية تنتظم موضوعات عديدة ، مثل القوى المغناطيسية والقوى الكهربائية ، وهذا الاتجاه فى ميدان العلوم البحتة أثر على علم النفس الذى كان يشتاق إلى محاكاة العلوم الطبيعية .

ومن الجدير بالذكر أن « كهلر » أحد مؤسسى الجشطلت كانت له خلفية علمية فى الفيزياء ، بل إنه درسها على يد واحد من أكبر علماء الفيزياء فى عصره وهو « ماكس بلانك » ، وقد قرر « كهلر » بنفسه أنه بتأثير من دراسة الفيزياء انتبه إلى أهمية فكرة « الكل » التي هى أساس مهم فى مدرسة الجشطلت وتأثر بها فى دراسته لعلم النفس ، بل إنه يقول فى كتابه « علم نفس الجشطلت » إن « علم نفس الجشطلت هو تطبيق للفيزياء فى المجالات الأساسية لعلم النفس » .

تأسيس الجشطلت :

يجمع مؤرخو علم النفس على أن البداية الرسمية لحركة الجشطلت كانت على يد « فرتيمر » وذلك بدراسته التى أجراها عام ١٩١٠ م ، إذ عندما كان «فرتيمر » يركب القطار فى إحدى رحلاته بدت له فكرة إجراء تجربة عن رؤية «حركة ظاهرة » لا تحدث فعلا ، وذلك بتأثير تطلعه من نافذة القطار ورؤيته المناظر التى يمر عليها القطار ، وبعد عودته إلى مدينة فرانكفورت اقتنى جهازاً لقياس سرعة الدوران بدأ به مجموعة من التجارب البسيطة ، ثم قام بتجارب على جهاز العرض السريع Tachistoscope بجامعة فرانكفورت ، وفى هذه الجامعة كان ثمة

اثنان من العلماء الشباب هما « كهلر » و « كوفكا » وما لبث الثلاثة أن كونوا جماعة علمية هاجمت بضراوة علم النفس « الفونتى » .

وكانت المسألة الأساسية فى بحوث « فرتيمر » هى موضوع إدراك الحركة الظاهرة ، وقد استخدم كل من « كهلر » و « كوفكا » مفحوصين فى هذه التجارب ، وذلك باستخدام جهاز العرض السريع . وقد عرض « فرتيمر » مصدرين من الضوء خلال فتحتين مستطيلتين : واحدة رأسية والأخرى تميل عنها بزاوية قدرها ٢٠ أو ٣٠ درجة . ثم يقوم بعرض الضوء من الفتحة الأولى ثم الفتحة الثانية على التوالى ، وقد تبين من هذه التجربة أنه إذا كان الفارق الزمنى بين العرضين ما يزيد عن ٢٠٠ على ألف من الثانية فإن المفحوص يرى خطين ضوئيين متتابعين ، الضوء الأول من الفتحة الأولى والضوء الثانى من الفتحة الثانية . أما عندما يكون الفارق الزمنى ٦٠ على ألف من الثانية فإن المفحوص يرى خطا ضوئيا واحدا يتحرك من فتحة إلى أخرى وهكذا .

وهذه النتيجة تبدو بديهية ولا جديد فيها ، ذلك أن هذه المعلومة عن الحركة الظاهرة كانت معروفة وواضحة ، ولكن طبقا للقوانين السيكولوجية للمدرسة البنائية ، فإن جميع الخبرات الحسية يمكن أن تحلل إلى عناصرها الجزئية ، ولكن المشكلة هى : كيف لنا أن نفهم « الحركة الظاهرة » من خلال قانون المدرسة البنائية الجزئى ؟. وهكذا وقعت المواجهة بين « فرتيمر » وبنائية « فونت » التى كانت سائدة فى ذلك الوقت .

وقد اعتقد « فرتيمر » أن الحركة الظاهرة التي درسها فى مختبره هى مسألة أساسية ، شأنها شأن الإحساس إلا أنها بالطبع تختلف عنه ، وأطلق عليها اسم ظاهرة « فاى » phi phenomenon ولنا أن نسأل : كيف استطاع « فرتيمر » أن يفسر ظاهرة « فاى » بينما عجزت البنائية الاستبطانية عن تفسيرها ؟ وكانت إجابته بليغة بسيطة حيث قال : إن الحركة الظاهرة لا تحتاج إلى تفسير ، إنها توجد هكذا كما تدرك ولا يمكن أن تجزأ إلى شىء أقل منها .

وطبقا لبنائية « فونت » فإن استبطان المثير تفسيرا لهذه الظاهرة يؤدى إلى القول بأن ثمة خطين أو صورتين متتابعتين ، ولكن من المتعذر تفسير الحركة الظاهرة . ثم إن أى تحليل أو تفتيت للظاهرة إلى عناصرها – وهو أسلوب المدرسة البنائية – لن ينجح فى التفسير ، ذلك أن الحركة الظاهرة هى شيء مختلف عن مجرد مجموع جزأيها . وهكذا تمت المواجهة بين الجشطلت من ناحية والبنائية والترابطية اللتين سادتا فى ذلك الوقت من ناحية أخرى . هذا وقد نشر « فرتيمر » نتائج دراسته تلك فى مقالة له صدرت عام ١٩١٢ م بعنوان « الدراسة التجريبية لإدراك الحركة » ، وهذا المقال هو الإشارة الأولى إلى ظهور مدرسة الجشطلت .

ونتحدث فيما يلى عن أعلام الجشطلت الثلاثة وهم على التوالى « فرتيمر » ، « كوفكا » و « كهلر » .

« ماكس فرتيمر » Wertheimer (١٨٨٠ - ١٩٤٣)

ولد فى مدينة « براجو » فى ألمانيا، وانتهى من دراسته بمدارس «الجمنيزيم» – وهى الثانوية فى ألمانيا – فى سن الثامنة عشرة ، حيث اتجه إلى دراسة القانون التى استمر فيها لمدة سنتين ونصف ، واتجه فجأة إلى الفلسفة حيث درسها مع علم النفس فى جامعة « برلين » ، وحصل على درجته العلمية الجامعية من جامعة «فرزبورج » عام ١٩٠٤ م تحت إشراف « كولبة » . هذا إلى جانب تأثره بالعالم الألمانى « أرنلفز » .

وفى المدة من ١٩٠٤ إلى ١٩١١م قضى الوقت متنقلا بين « براجو » و « فينا » و « برلين » ثم استقر أخيرا فى مدينة « فرانكفورت » وحاضر فى جامعة « برلين » فى المدة من ١٩١٢م حتى ١٩١٦م . وفى عام ١٩٢٩م منحته جامعة « فرانكفورت » درجة الأستاذية ، وفى خلال الحرب العالمية الأولى قام ببحوث ذات صبغة عسكرية وذلك عن وسائل التنصت للغواصات والتحصينات البحرية .

وكان « فرتيمر » أكبر قادة الجشطلت الثلاثة سنا ، وهو أيضا رائدها الفكرى، وقد أسهم كل من « كوفكا » و « كهلر » فى إبراز دور « فرتيمر » الرائد رغم

أن لكل منهما تأثيرا بالغا على مجال الدراسة . ومن المهم أن نذكر أن إنتاج «فرتيمر» المنشور كان قليلا . ومن أهم إنتاجه مقالات نشرت عن « التفكير الابتكارى» عام ١٩٢٠ ومقالات نشرت عن « الإدراك » عام ١٩٢٣ م .

وفى عام ١٩٢١م كوّن « فرتيمر » و « كوفكا » و « كهلر » بالتعاون مع صديق حركة الجشطلت « جولدشتين » Goldstein (١٨٨٧ / ١٩٦٥م) مجلة باسم « البحوث النفسية » كانت لسان حال الجشطلت ، وقد صدر منها اثنان وعشرون مجلدا قبل أن تتوقف فى عهد « هتلر » عام ١٩٣٨ م .

وكان « فرتيمر » من أوائل العلماء الذين هاجروا إلى أمريكا حيث وصل «نيويورك » عام ١٩١٢ م ، وبقى فى هذه المدينة حتى توفى عام ١٩٤٣ م . وكانت سنوات إقامته حافلة بالأعمال والمناشط ، وخاصة تلك التى تتعلق بالتكيف مع بيئة جديدة ولغة جديدة ، وكانت معظم مناشطه العلمية تدور حول لقاءات ومناقشات مع علماء النفس الأمريكيين . وقد اهتم خلال سنواته الأخيرة بالعالم الأمريكى الشاب - الذى لمع فيما بعد « إبراهام ماسلو » .

« كيرت كوفكا » Koffka (١٨٨٦ - ١٩٤١م)

يعد « كوفكا » أكثر ثلاثى الجشطلت إنتاجا - وقد تلقى تعليمه - حيث ولد - فى « برلين » . وفى شبابه درس العلوم والفلسفة فى جامعة « أدنبرة » عامى ١٩٠٣، ١٩٠٤ . وبعد عودته إلى « برلين » اتجه إلى دراسة علم النفس ، وحصل على درجته العلمية عام ١٩٠٩ م تحت إشراف « كارل ستمف » ثم بدأ خطه العلمى مع «فرتيمر» و « كهلر » ، وفى عام ١٩١١ م ذهب للعمل بجامعة « جيشن » وهى مدينة تبعد عن « فرانكفورت » بحوالى ٤٠ كيلومترا حيث بقى هناك حتى عام ١٩٢٤ م وفى جامعة « جيشن » قام ببحوث عديدة ، وخلال الحرب العالمية الأولى عمل فى وحدة الطب النفسى حيث اهتم بعلاج أمراض الكلام والانهيارات العصبية .

وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى - حيث أصبح علم النفس الأمريكى على دراية بحركة الجشطلت فى ألمانيا - طلب منه أن يكتب عن هذه الحركة فى «المجلة

السيكولوجية » Psycholgical Bulletin وحرر مقالا نشر عام ١٩٢٢ م بعنوان «الإدراك – مقدمة لنظرية الجشطلت » وقدم المفاهيم الأساسية للمدرسة الجديدة.

وبالرغم من أهمية هذه المقالة ، من حيث كونها التعريف الأولى بالجشطلت فى أمريكا ، إلا أنها عرقلت – بعض الشىء – انتشار الجشطلت فى علم النفس الأمريكى فى ذلك الوقت ، لأن عنوان المقالة وهو الإدراك أثار سوء الفهم – الذى ربما ما يزال حتى اليوم – من أن علم نفس الجشطلت يقتصر على دراسة موضوع الإدراك ، وعلى ذلك فلا توجد علاقة بين الجشطلت وموضوعات علم النفس الأخرى .

وفى الواقع أن علم النفس الجشطلتى كان يهتم بموضوع التفكير وموضوع التعلم ، وإثارة المشكلات الفلسفية حول المعرفة ، ولكن السبب الأساسى الذى من أجله ركز دعاة الجشطلت بحوثهم المنشورة حول الإدراك هو الروح العلمية السائدة فى ذلك العصر ، وهى وليدة علم النفس « الفونتى » ، الذى كانت ضده ثورة الجشطلت ، وكان الاهتمام الرئيس لعلم النفس « الفونتى » هو الإحساس والإدراك ، ولذلك شاءت المدرسة الجشطلتية أن تهاجم « الفونتية » فى عقر دارها ، ومن هنا تركزت بحوث الجشطلت الأولى حول موضوع الإدراك .

وفى عام ١٩٢١ م نشر « كوفكا » كتاب « نمو العقل » وهو كتاب فى علم نفس الطفل ، وقد لاقى هذا الكتاب نجاحا كبيرا فى ألمانيا وأمريكا ، وعمل أستاذاً زائراً بجامعتى « كورنل » و « سكونسن » ، وفى عام ١٩٢٧ م عين فى « كلية سميث » – وهى من أرقى المعاهد العلمية فى ولاية « ماسشوستس » الأمريكية – حيث بقى حتى وفاته – وفى عام ١٩٣٢ م قام برحلة علمية لدراسة شعوب وسط آسيا ، كما توفر بعد ذلك على تحرير مؤلفه بعنوان « مبادئ علم نفس الجشطلت » الذى نشره عام ١٩٣٥ م ولكن هذا الكتاب لم يلق النجاح الذى يستحقه لأنه كتب بأسلوب صعب ومعقد.

« ولفجانج كهلر » Kohler (١٨٨٧ - ١٩٦٧م)

كان « كهلر » أصغر ثلاثى الجشطلت سنا ، ولكنه المتحدث باسم حركة الجشطلت أمام الدوائر العلمية ، وكانت مؤلفاته – التى كتبها بدقة وعناية شديدتين.

من المظهر الممتاز لمدرسة الجشطلت . كما أن دراسة « كهلر » للفيزياء وتدريه على مناهجها على يد العالم الألمانى الشهير « ماكس بلانك » اقنعته بأن علم النفس يجب عليه أن يحاكى الفيزياء . هذا وقد ولد « كهلر » ، فى منطقة البلطيق ، ثم انتقلت أسرته إلى شمال ألمانيا ، وكان تعليمه الجامعى فى جامعات « توينجن » و « بون » و « برلين »، وقد حصل على إجازته العلمية من « برلين » على يد « ستمف » ثم وصل إلى « فرانكفورت » عام ١٩١٠ م .

وفى عام ١٩١٣ م ـ وبدعوة من الأكاديمية البروسية للعلوم ـ ذهب « كهلر » إلى « تنريف » إحدى جزر الكنارى الواقعة فى المحيط الأطلسى لدراسة الشمبانزى وبعد وصوله بستة أشهر قامت الحرب العالمية الأولى ولم يكن باستطاعته مغادرة جزر الكنارى ، ولمدة سبع سنوات تالية قام « كهلر » بدراسة التعلم عند الشمبانزى وأصدر كتابه الكلاسيكى ذائع الصيت « عقلية القردة » عام ١٩١٧ م ، وفى طبعة ثانية عام ١٩٢٤ . وترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية عام ١٩٢٧ م وإلى الفرنسية عام ١٩٢٨ م .

وفى عام ١٩٢٠ م عاد إلى ألمانيا ، ثم خلف « كارل ستمف » فى جامعة برلين عام ١٩٢٢ م والسبب الذى من أجله عين « كهلر » فى هذا المنصب الرفيع هو نشره عام ١٩٢٠ م كتابا عن الجشطلت لقى تقديراً كبيراً .

وقد زار « كهلر » الولايات المتحدة عامى ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ حيث حاضر فى جامعة « كلارك » وجامعة « هارفارد » ، ثم نشر عام ١٩٢٥ كتابا بعنوان « علم نفس الجشطلت » ويعد أوضح ما كتب عن هذه الحركة . وفى العام الجامعى ١٩٣٤ - ١٩٣٥ زار أمريكا وألقى محاضرات فى جامعة « هارفارد » .

وقد ترك « كهلر » ألمانيا عام ١٩٣٥م، وذلك بسبب صراعه المستمر مع النظام النازى . وقد حرر مقالة جريئة ضد النازى فى إحدى جرائد « برلين » وكانت مقالة « كهلر » هى آخر مقالة ضد النازية تنشر بصراحة فى الصحف الألمانية . وبرغم أن « كهلر » لم يكن يهوديا ولكنه طرد ضمن طرد اليهود من الجامعات الألمانية ، ومن

المهم أن نذكر أن « كهلر » كان يتميز بشجاعة أدبية ، ذلك أنه تحدث كثيراً إلى طلابه فى فصول الدراسة منتقدا النظام النازى . وفى الليلة التى نشر فيها مقالته تلك فى إحدى جرائد « برلين » جلس « كهلر » فى بيته مع نفر من أصدقائه متوقعين أن يعتقله « الجستابو » ، وقضوا وقتا يعزفون الموسيقى فى انتظار دقات « الجستابو » المفزعة على الباب ولكن هذه الدقات لم تأت . وكانت هجرة « كهلر » إلى أمريكا حيث أسهم فى تعريف علم النفس الأمريكى بحركة «الجشطلت » ، وأصدر في أمريكا عام ١٩٣٨ م كتابا بعنوان « ديناميات علم النفس». وفى عام ١٩٥٦ م منح جائزة الإنتاج المتميز من جمعية علم النفس الأمريكية . وفى عام ١٩٥٩ م انتخب رئيسا لهذه الجمعية .

هذا وتتميز مدرسة الجشطلت باتفاق آراء ثلاثى المدرسة فى المبادئ الأساسية . ولذا نتحدث عن الأساس العلمى لهذه المدرسة بصورة إجمالية دون اللجوء إلى شرح إنجازات كل عالم على حدة . على أن نفرد حاشية عن « مورينو » صاحب نظرية المجال ، ونتحدث عن ذلك فى النقط الآتية :

طبيعة ثورة الجشطلت :

كانت مبادئ الجشطلت معارضة للتقليد الأكاديمى فى علم النفس الألمانى حيث إنها كانت معارضة أساسا لسيكولوجية « فونت » . وقد شعر الرواد الأوائل للجشطلت أنهم يواجهون موقفا بالغ الصعوبة ، شأنهم فى ذلك الحركات الثورية الأخرى . فإن الأمر كان يتطلب - بالنسبة لهم - إعادة النظر فى علم النفس بالصورة التي وجدوه عليها من الألف إلى الياء ، إذ بعد أن درسوا موضوع الحركة الظاهرة سارعوا إلى دراسة ظواهر تتعلق بالإدراك تؤيد موقفهم العلمى ، حيث تبين لهم أن الدراسة التي تتعلق بثبات الإدراك تمثل موضوعا واسعا يمكن لمدرسة «الجشطلت» أن تدلى فيه بدلوها . فمثلا عندما يقف شخص أمام نافذة مباشرة فإنه تسقط على الشبكية صورة تشكل نافذة على هيئة مستطيل . ولكن عندما يقف الشخص نفسه فى زاوية أو نقطة جانبية من النافذة فإن شكل النافذة الذى يسقط على الشبكية يكون شبه منحرف ، ومع ذلك فهو يظل يدرك النافذة على أنها شكل

مستطيل . أى أن إدراكنا للنافذة ، لا يتغير رغم تغير الصورة التى تسقط على شبكية العين . وهذا ما تسميه الجشطلت ثبات الإدراك .

والأمر نفسه يحدث بالنسبة لثبات الحجم ، إذ تتغير الصورة التى تسقط على شبكية العين لابتعادنا عنها ، ولكننا نميل إلى إدراكها وكأن الحجم ثابت . ومثال ذلك إذا نظر الشخص إلى صورة ذات حجم معين ثم تراجع إلى بعد ثلاثة أمتار فإن الصورة تصغر فى الحجم ، ولكنه لا يدرك هذا التغيير .

أضف إلى ذلك أنه فى موضوع الحركة الظاهرة حيث تدرك الحركة على أنها حركة مستمرة وليست مجموعة نقلات كما يحدث فى الواقع ، وعلى هذا الأساس فإن مدرسة الجشطلت لفتت النظر إلى أنه ثمة فرق واضح بين المثيرات الحسية وبين ما ندركه بالفعل . وعلى هذا فإن الإدراك لا يمكن تفسيره على أنه تجميع لمجموعة من العناصر الحسية ، ولا يمكن تفسيره على أنه تجميع لأجزاء .

وهذا معناه أن عملية الإدراك تشير إلى عملية كلية أو إلى صيغة كلية حيث لا مكان لعملية التجزئة الذرية التحليلية . وفى هذه النقطة تكمن مشكلة علم النفس فيما يرى أصحاب مدرسة « الجشطلت » ؛ لأن العناصر الحسية والمدركات هى «المادة الخام » لعلم النفس . فإذا بدأنا بدراسة العناصر فقد بدأنا بداية خطأ حيث تحاول مدرسة « الجشطلت » الاتجاه إلى دراسة الإدراك الساذج البسيط ، أى إلى دراسة الخبرة المباشرة التى لم تفسدها عناصر جزئية بل وحدات كلية .

هذا وقد لاحظ « بورنج » شيخ مؤرخى علم النفس أن كلمة « جشطلت » Gestalt أثارت بعض الصعوبات ، لأن معناها ليس واضحا قاطعا مثل السلوكية أو الوظيفية . ومما يزيد فى صعوبة الأمر أنه لا توجد كلمة إنجليزية مرادفة لكلمة جشطلت الألمانية ، ومع ذلك دخلت هذه الكلمة وفرضت نفسها على اللغة الإنجليزية وعلى لغات أخرى .

وقد أشار « كهلر » فى كتاب « علم نفس الجشطلت » إلى أن كلمة « جشطلت» تستخدم فى الألمانية بمعنى الشكل أو الصورة ، على أساس أن الشكل أو الصورة

هما من خصائص الأشياء أى أن كلمة « الجشطلت » هى إشارة إلى الخصائص العامة مثل التماثل أو التجانس أو مثل وصف الشكل الهندسى بأنه رباعى أو خماسى أو سداسى . أو وصف اللحن بأنه متتابع أو متقطع .

هذا وتعرف المعاجم اللغوية كلمة جشطلت بأنها شكل أو صورة أو صيغة - أو نمط إدراكى أو صيغة إدراكية تتميز بخصائص ، ليست مجرد مجموع أجزاء هذه الصيغة أو هذا النمط - بمعنى أن الصورة أو الشكل أو الصيغة أو النمط الإدراكى وحدة متكاملة تختلف عن كونها مجرد مجموع الأجزاء .

المبادىء الأساسية للجشطلت :

توصلت الجشطلت إلى مجموعة من المبادئ وهى :

١ - مبدأ التنظيم organization ، حيث يرى « فرتيمر » أننا كما ندرك الحركة الظاهرة ، ندرك الأشياء فى وحدات إدراكية ، وليس كمجموعة من الإحساسات الفردية ، وأن قوانين التنظيم عند « فرتيمر » التي تتحدث عنها مراجع علم النفس المختلفة هى مجموعة قواعد وقوانين ينظم بها هذا العالم الذى ندركه.

وثمة مقدمة أساسية عند « فرتيمر » وهى أنه عندما نسمع أو نرى مجموعة مختلفة من الأنماط والأشكال الإحساسية ، فإننا نقوم فى الوقت نفسه بعملية لتنظيمها ، حيث يتم ربط أجزاء من المجال المدرك وخلفيته ، وهكذا فإن العملية التنظيمية فورية ، ولا مناص منها متى نظرنا حولنا فى البيئة المحيطة بنا . ونحن لا نتعلم عملية التنظيم هذه كما قد يدعى البعض ، ولكننا نتعلم فقط إضفاء الأسماء على الأشياء .

وطبقا لنظرية « الجشطلت » فإن عمل الدماغ الأساسى ليس مجرد تجميع شراذم من المناشط المنفصلة ، ذلك أن المنطقة البصرية فى الدماغ لا تستجيب لمثيرات جزئية واردة إليها ، بل إن الدماغ جهاز دينامى فعال بحيث تنشط كل العناصر لتتفاعل فى وقت محدد ، ذلك أن العناصر المتشابهة تميل إلى التجمع ، وكذلك فإن العناصر غير المتجانسة تميل إلى التفرق .

وثمة قوانين يشملها مبدأ التنظيم هى :

* التقارب Proximity . ويشير إلى أن الأجزاء المتقاربة فى الزمان والمكان تميل إلى أن تدرك بعضها مع بعض .

* التشابه Similatity . أي أن الأجزاء المتشابهة تميل إلى أن تدرك على شكل مجموعات .

* الإغلاق Closure . ذلك أن هناك ميلا فى إدراكنا إلى إكمال الأشكال الناقصة وإلى سد الفجوات .

* التسوية Pragnaze أى أن هناك ميلا لإدراك الأشكال فى صورة محسنة ، والشكل المحسن يتسم بالانسجام والبساطة والثبات .

وعوامل التنظيم هذه لا تعتمد على العمليات العقلية العليا أو على الخبرة السابقة للفرد ، إن هذه العوامل حاضرة فى المثيرات نفسها . وقد أكد « فرتيمر » على هذه العوامل الخارجية ، ولكنه راعى كذلك أن العوامل المركزية - أى تلك التى تتصل بالكائن الحى - يمكن أن تؤثرعلى الإدراك . وعلى أية حال فإن أصحاب مدرسة الجشطلت يميلون إلى التركيز على العوامل الخارجية المؤثرة على الإدراك أكثر من التركيز على دور التعلم أو الخبرة .

٢ - مبادئ التعلم . كان موضوع الإدراك هو الموضوع الذى طرقته مدرسة الجشطلت أولا ، ثم اتجهت بعد ذلك إلى دراسة التعلم . ومن أشهر الدراسات فى تاريخ التعلم دراسة « كهلر » عن تعلم القردة .

ومنذ البداية عارض أصحاب مدرسة الجشطلت مبدأ المحاولة والخطأ الذى صاغه « ثورنديك » وكذلك عارضوا مبدأ المثير والاستجابة الذى قالت به السلوكية فيما بعد ، ويقدمون بديلا عن هذين المبدأين مبدأ التعلم بالاستبصار .

ونذكر هنا انعزال « كهلر » فى جزر الكنارى خلال الحرب الأولى حيث تفرغ لدراسة موضوع « عقلية القردة » من الشمبانزى ودراسته لقدرتهم على حل المشكلات ، وقد أجريت هذه الدراسة داخل أقفاص الحيوانات التى كانت توضع

حيال بعض المشكلات . وقد فسر « كهلر » تعلم الشمبانزى بأنه يقوم على إدراك الموقف كله وعلى العلاقات بين مختلف المثيرات فى الموقف .

ومثال ذلك إحدى دراساته إذ وضع خارج قفص القرد إصبعاً من الموز مربوطاً بخيط وطرف الخيط داخل القفص وقال « كهلر » : إن وضع المشكلة بهذه الصورة مكن القرد من استبصارها وحلها بجذب الخيط وبالتالى أصبح الموز فى متناول يده. فلو كانت مثلا الخيوط الواصلة من الموز إلى القفص عددها كبيرا لأصبح القرد فى حيرة أى خيط يوصل إلى الموز ؟.

ومثال آخر من دراساته حيث وضع إصبع الموز خارج القفص ووضع داخل القفص عصا ، وعندما ينظر القرد فى هذا الموقف ويستبصر عناصره جميعا فإنه يستطيع استعمال العصا فى سحب الموز إلى متناول يده .

ومثال ثالث وهو وضع مجموعة من الصناديق داخل القفص وأصابع الموز أعلى القفص بحيث لا يستطيع القرد الوصول إليها بيده ، وعند استبصار القرد بعناصر الموقف استطاع أن يضع الصناديق بعضها فوق بعض ثم يصعد عليها ممسكا بالموز الذى يحبه .

هذا وتزخر كتب علم النفس بتجارب « كهلر » على القرد سلطان أذكى قردة «كهلر » . هذا النوع من التجارب يعرف بتجارب التعلم بالاستبصار .

ــ ومفهوم التعلم بالاستبصار عند « كهلر » يختلف بشدة عن التعلم بالمحاولة والخطأ عند « ثورندايك » . وقد انتقد « كهلر » تجارب « ثورندايك » وقال : إن تصميم تجربة القط والقفص عند « ثورندايك » أدى إلى انه لا يكون شىء أمام القط إلا التخبط الأعمى والسلوك العشوائى ، وإن القط « الثورندكى » لم توضح أمامه عناصر الموقف الذى وضع فى مواجهته . ولا يستطيع – والحالة هذه – إلا التخبط والمحاولة والخطأ ، شأنه فى ذلك شأن الحيوان فى المتاهة لا يستطيع إلا التخبط من طريق إلى آخر داخل المتاهة . ولكن عند الجشطلت فإن الكائن الحى يجب أن توضح له عناصر الموقف وأجزاء المشكلة حتى يحدث الاستبصار .

وزبدة القول : إن فكرة مدرسة الجشطلت عن التعلم أنه يتضمن إعادة التنظيم ، أو إعادة تركيب البيئة السيكولوجية للكائن الحى .

٣ - التفكير المنتج Productive Thinking . والتفكير المنتج هو عنوان كتاب أصدره « فرتيمر » عام ١٩٤٥ م طبق فيه مبادئ الجشطلت على التفكير المنتج أو الابتكارى . وقال فيه إن مثل هذا التفكير إنما يكون فى إطار الكليات . وليس فقط على المتعلم أن ينظر للموقف التعليمى ككل بل أيضا على المعلم أن يقدم الموقف ككل.

وقد تضمنت الحالات التى أوردها الكتاب دراسات متعددة، منها دراسات للأطفال الذين يحلون المسائل الهندسية ومنها دراسة العمليات الفكرية عند عالم الفيزياء الأشهر « ألبرت اينشتين » والتى أدت إلى نظرية النسبية ، ومن الطريف أن نذكر أن « فرتيمر » و « أنشتين » كانا صديقين لسنوات طويلة ، وفى كل الأعمار وفى كل مستويات المشكلات وجد « فرتيمر » ما يؤيد فكرته أن الكل يقدم على الأجزاء ، وأن حل المشكلات يسير باتجاه محدد من الكل إلى الجزء وليس العكس .

وقد اعتقد « فرتيمر » أن المدرس إذا قام بترتيب المشكلات بحيث تكون عناصر الموقف التعليمى منظمة فى وحدات كلية ذات معنى فإن ذلك سوف يؤدى إلى الاستبصار عند الطلاب . وبرهن كذلك على مبدأ حل المشكلات إذا تم التوصل إليه مرة فإنه يمكن أن ينتقل إلى مواقف أخرى .

وقد هاجم « فرتيمر » أسلوب التعليم التقليدى المتمثل فى التلقين الآلى والتعلم بالحفظ ، والمشتق من النظرية الترابطية فى التعلم ، ذلك أنه رأى أن التكرار العميانى نادرا ما ينتج ، وأنه من الخير للطالب أن يتعلم حل المشكلات عن طريق الاستبصار وليس عن طريق الحفظ . هذا رغم أنه يوافق على أنه ثمة أشياء لابد من تعلمها بالحفظ مثل الأسماء والتواريخ ، واعتقد أن التكرار مفيد فى حدود معينة ولكن التعود عليه من الممكن أن يؤدى إلى أداء ميكانيكى بدلا من أن يؤدى إلى تفكير منتج وخلاق .

٤ - المماثلة isomorphism . بعد أن توصلت مدرسة الجشطلت إلى ما قالت به من أن العملية الإدراكية عملية كلية ، اتجهت إلى دراسة مشكلة آليات أو مكانزمات لحاء قشرة الدماغ التى تتم أثناء العملية الإدراكية ، وحاول أصحاب هذه المدرسة الوصول إلى نظرية تفسير الارتباطات العصبية للصيغة المدركة ، وترى وجهة النظر الجشطلتية أن اللحاء Cortx وهو نسق دينامى تتداخل فيه العناصر الجزئية المدركة - يختلف مع ما يسمى آلية الجهاز العصبى ، حيث يتم تشبيه الجهاز العصبى بأنه لوحة سنترال الهاتف التى توصل المدركات الجسية إلى الدماغ ، وعلى هذا تكون وظائف الدماغ سلبية استقبالية وليست قادرة على تنظيم أو تعديل العناصر الحسية الواردة إليها .

وقد افترض « فرتيمر » أثناء دراسته عن الحركة الظاهرة أن نشاط اللحاء هو عملية كلية صياغية ، وذلك لأن الحركة الظاهرة والحركة الحقيقية تدركان وكأنهما متماثلتان ، مما يدل على وجود عمليات تدخلية للدماغ ، وقد سميت وجهة النظر هذه المماثلة ، وطبقا لمبدأ المماثلة ، فإنه لا يوجد تطابق بين المثيرات والمدركات ، وعلى ذلك فإن الصيغ المدركة هى « تمثيل » للعالم الواقعى الذى نعيش فيه ، ولكنها ليست صورة مطابقة له . إن المدرك ليس صورة « بالكربون » من المثير ، مثل الصور المدركة فى ذلك مثل الخريطة ليست صورة بالكربون للمنطقة التى تمثلها ولكنها أيضا « تمثيل » لها ، وعلى ذلك فالمدرك هو « صورة مماثلة » للعالم الحقيقى ، وهذه الصورة المماثلة هى مرشد ثابت يدلنا على العالم الواقعى . ومبدأ المماثلة هذا اتفق عليه ثلاثى الجشطلت .

انتشار الجشطلت :

فى خلال العشرينيات من هذا القرن كانت مدرسة الجشطلت قوية متماسكة فى ألمانيا ، وكان مركزها معهد علم النفس بجامعة برلين ، حيث اجتذبت عدداً كبيراً من الطلاب فى مختلف أنحاء العالم .

وبحلول عـام ١٩٣٣ م وظهـور حـركـة النـازى فى ألمانيـا بدأت هذه المدرسـة العظيمة فى الانحسار ، واضطر رجالاتها العظام إلى الرحيل عن ألمانيا الوطن الأم لعلم النفس . وكانت هجرة الجشطلت إلى أمريكا حيث لم تقابل بالحفاوة الجديرة بها ، ذلك أن السلوكية الأمريكية كانت فى أوج مجدها ، إذ كان من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - هزيمتها فى عقر دارها ، وثمة مشكلة أخرى واجهت رجالات الجشطلت . وهى مشكلة اللغة ما أدى إلى صعوبة تمثل مبادئ « الجشطلت » هذا بالإضافة إلى سوء فهم شاع فى الأوساط الأمريكية وهو أن مدرسة الجشطلت لا تهتم إلا بموضوع الإدراك ، أضف إلى ذلك أن رجال الجشطلت علموا فى جامعات أمريكية لم تكن بها برامج للدراسات العليا فى ذلك الوقت ، بحيث لم تتح الفرصة لتكوين طاقم من كوادر الجشطلت .

وعندما وجدت الجشطلت فى حلبة علم النفس الأمريكى كانت السلوكية مزدهرة على أطلال المدرسة البنائية ، وجاءت الجشطلت مهاجمة للمدرسة البنائية حيث كان علم النفس الأمريكى قد تجاوز البنائية « الفونتية » وأصبحت مواجهة الجشطلت للمدرسة البنائية غير ذات تأثير ، لأن علماء النفس الأمريكيين اعتقدوا فى ذلك الوقت أن الجشطلت يهاجمون مدرسة ميتة ، وهذا موقف خطير لم يكن فى صالح الجشطلت بأى حال من الأحوال ؛ لأن أى حركة جديدة فى علم النفس فى الربع الأول من القرن العشرين كان لابد لها لكى تتقدم إلى الأمام من أن تكون ثورة على مدرسة أخرى ، فكانت الجشطلت فى نظر علم النفس الأمريكى ثورة على لا شىء . كذلك اتجه علماء مدرسة الجشطلت إلى إنكار ما قامت بإنكاره المدرسة السلوكية مثل إنكار السلوكية للاستبطان ، وإنكارها دراسة الخبرة الشعورية ، وهكذا كانت ثمة مواجهة بين الجشطلت وبين السلوكية التى كانت - وما تزال - معقل علم النفس الأمريكى الذى لا يمكن النيل منه .

ومهما يكن من أمر تلك العقبات فإن بعض مبادئ الجشطلت دخلت إلى مجالات مختلفة مثل : علم نفس الطفل وعلم النفس التطبيقى والطب النفسى والتربية والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع ، كما ظهرت مدرسة للعلاج النفسى تتخذ المبادئ الجشطلتية أساساً لها .

وساد الاعتقاد فى أمريكا أن إسهامات مدرسة الجشطلت مفيدة وجيدة يمكن أن يستفاد ببعضها فى دعم علم النفس الأمريكى . ولكن دون الأخذ بمبادئ مدرسة الجشطلت فى جملتها ، وذلك على اعتبار أن مدرسة الجشطلت جسم غريب بالنسبة لعلم النفس الأمريكى .

« كيرت ليفين » Lewin (١٨٩٠ / ١٩٤٧م) :

كان الاتجاه الذى تتخذه مدرسة الجشطلت هو الاتجاه من الذرية التجزيئية إلى الكلية التجميعية ، وبتأثير من الجشطلت ظهرت نظرية المجال حيث تهتم هذه النظرية بإدخال مصطلحات العلوم الرياضية والطبيعية - خاصة الهندسة - فى مجال الدراسات النفسية مثل مصطلحات الحيز والمسافة والتكافؤ. وكان « ليفين » من أكثر العلماء السيكولوجيين إعجابا بالرياضة على أساس أنها نسق من الرموز ، وهى لغة متطورة جدا ووسيلة دقيقة لعرض الحقائق .

ولد « ليفين » فى ألمانيا وتعلم فى جامعات « فريبورج » و « ميونخ » و«برلين» وحصل على درجته الجامعية فى علم النفس عام ١٩١٤ م كما درس الرياضة والطبيعة ، وخدم فى الجيش الألمانى من ١٩١٤ إلى ١٩١٨م حيث حصل على أحد الأوسمة العسكرية . وفى عام ١٩٢١م عين بجامعة برلين ، حيث لمع واشتهر بنظرية فى « علم نفس المجال Field Psychology » ، وقد سافر إلى أمريكا عام ١٩٣٢ م حيث عمل أستاذا زائراً بجامعة « ستانفورد » لمدة ستة شهور . وفى عام ١٩٣٣ م ترك ألمانيا بسبب اضطهاد النازى وهاجر إلى أمريكا حيث عمل بجامعة « كورنل » ثم بجامعة « ايوا » ثم ترأس مركز بحوث ديناميات الجماعة بجامعة « ماسشوتس » منذ ١٩٤٤ م حتى وفاته . وبرغم أنه بقى فى هذا المنصب الأخير مدة قصيرة إلا أن برامجه البحثية كانت حافلة وفعالة بحيث إن هذا المعهد ما يزال باقيا حتى الآن تحت وصاية جامعة « متشجن » .

ونتعرف لأهم النقط فى نظرية « ليفين » المجالية فيما يلى :

* تربولوجى Topology - حيث استخدم « ليفين » لفظ تربولوجى وذلك نموذج لوصف الظواهر النفسية أو السلوكية حيث يصف سلوك الإنسان باستخدام المصطلحات الهندسية ، فمثلا يمكن رسم دائرة تمثل الكائن الحى وهذه الدائرة

تمثل شخصية الفرد فى الوقت نفسه ، أما ما هو خارج محيط هذه الدائرة فإنه يشمل القوى المؤثرة على الفرد والتى يسميها حيز الحياة lif space ويشمل حيز الحياة كل ما من شأنه أن يؤثر على سلوك الفرد ، كذلك استعار « ليفين » مصطلح التكافؤ Valence من الكيمياء ، وهناك فى نظره نوعان من التكافؤ : التكافؤ الإيجابى ، وهو يحدث عندما ترضى حاجات الإنسان ، والتكافؤ السلبى عندما تمنع هذه الحاجات من الإرضاء ، أو يوجد ما من شأنه أن يهدد شخصية الإنسان . كما أن الإنسان يهدف فيما يرى « ليفين » إلى تحقيق التوازن بينه وبين البيئة ، وعندما يتعرض هذا التوازن للاختلال فإنه يؤدى إلى التوتر مما يؤدى بالتالى إلى التحرك بقصد استعادة التوازن ، ورغم ضرورة التوازن إلا أن حاجات الفرد وما تقوم به من إلحاح وضغط ، تؤدى إلى خلق حالة من عدم التوازن . ومهمة الفرد أن يستعيد حالة التوازن هذه . ويعرف « ليفين » الحاجة need على أنها الرغبة فى تملك شىء ما ، أو الوصول إلى هدف ما . والحاجات تتحدد بناء على حالة الكائن الحى .

كذلك اهتمت مدرسة المجال بدراسة التوتر tention وهو الحالة الانفعالية التى تصاحب الحاجة ، ذلك أنه من المفروض أنه فى حالة عدم وجود الحالة الانفعالية فإنه لا تتوافر للحاجة قوتها الحقيقية وتكون التوترات فى داخل الفرد ، وهذه التوترات أيضا لها طبيعة مؤقتة أى أنها تتفاوت وتختلف من وقت إلى آخر .

وقد قامت « بلوما زيجارنيك » Zeigarnik (١٩٠٠ - ١٩٩٠) - وهى تلميذة «ليفين» وأستاذة علم النفس بجامعة موسكو ، بدراسة عن سلوك الأفراد فى حالة التوتر ، وقد تبين من هذه الدراسة أن الأعمال غير التامة تستبقى فى الذهن أكثر من الأعمال التامة وهذا تأكيد لرأى « ليفين » الذى يقول إن تحقيق الهدف أو التحرك الناجح فى اتجاه التكافؤ الإيجابى يهدئ التوتر ويزيله بينما يؤدى العمل غير التام إلى استثارة القلق ، وعندما يثار التوتر بسبب هدف أو عمل معين فإن الكائن الحى يتجه إلى التصرف والتحرك باتجاه هذا الهدف ، أو هذا العمل ومادام لم يتوصل إلى الهدف فإن الحاجة تكون بذلك لم تتحقق ، وتشكل بذلك قوة أو منطقة جاذبة ، ولهذا السبب تبقى الأعمال غير التامة حية متأججة فى ذاكرة الفرد .

* ديناميات الجماعة group dynamics sy . من أشهر دراسات «ليفين » دراساته فى علم النفس الاجتماعى التى اهتم فيها بدراسة أثر الجو الاجتماعى على السلوك ، حيث قام « ليفين » – وزملاؤه – بتأسيس ناد للأطفال وقاموا بتخليق ثلاثة أجواء . جو ديمقراطى (شورى) ، جو أوتقراطى (استبدادى) ، ثم جو تسيبى (ترك الحبل على الغارب) .

وكل جماعة تعرضت لهذه التجربة كانت تتكون من خمسة أطفال يتساوون من حيث السن والذكاء والمركز الاقتصادى ، ثم حدد سلوك الجماعة بواسطة قائد مدرب تدريبا خاصا لغرض التجربة ، حيث قام القائد الديمقراطى بالتعاون مع أفراد الجماعة وكان يشجع المناقشات الجمعية واتخاذ القرارات بالأسلوب الجمعى، بينما القائد الاستبدادى (الأوتقراطى) يتخذ القرارات بنفسه ويملى أوامره على أفراد الجماعة ، بينما فى حالة النمط الأخير – القائد التسيبى – لم يقم القائد بإعطاء أية أوامر وبقى سلبيا وسمح للأطفال أن يفعلوا ما يعن لهم وهكذا فإن الجو الاجتماعى لكل جماعة كان يتم تخليقه بواسطة القائد .

وبالنسبة للجماعة التى ساد فيها الجو الديمقراطى كانت علاقات بعضهم ببعض علاقات ودية ، وكان الشعور بالانتماء للجماعة أقوى من الشعور الذى ساد لدى جماعة الجو الأوتقراطى ، وكذلك كانت العدوانية أقل بين أطفال الجماعة ذات الجو الأوتقراطى ، وفى الجماعة الأتقراطية كان الأطفال أكثر عدوانية وعادة ما يهاجمون أحد الأطفال ويتخذونه كبش فداء ، وكان على كبش الفداء هذا أن يغادر الجماعة ، وبالنسبة لمجموعة الجو التسيبى فقد اتسمت بضعف التماسك بين أفرادها .

الجشطلت فى الميزان :

ظهرت الانتقادات الكثيرة حيال مدرسة الجشطلت ، وأول اتهام وجه إلى الجشطلت انها حاولت حل المشكلات العلمية التي أثارتها بمجرد تحويل هذه المشكلات العلمية إلى مسلمات علمية . مثال ذلك ما أسمته الجشطلت موضوع تنظيم المدركات حيث عالجته الجشطلت ليس على أنه مشكلة علمية تدرس وتحل ولكن على أساس ما ادعته « الجشطلت » من أنه ظاهرة ، وهذا ما وصفه النقاد بأنه تعام عن حل المشكلة ، وذلك بإنكار المشكلة أصلا ووصفها بأنها ظاهرة .

أما الانتقاد الثانى الموجه إلى الجشطلت فيدور حول أن بعض المفاهيم الأساسية الجشطلتية تتسم بالغموض ، مثل مبدأ التنظيم ومبدأ المماثلة ، حيث لم تحدد هذه المفاهيم بالدقة العلمية اللازمة لمدرسة تريد أن تتبوأ مكانا ممتازا فى تاريخ علم النفس . وكان رد الجشطلت أن هذه المفاهيم الأساسية قد تكون ناقصة، وهذا من طبيعة المدارس الناشئة ، ولكن هذه المفاهيم ، ليست غامضة .

والانتقاد الثالث أن الجشطلت شغلت نفسها أكثر بالتنظير وشغلت نفسها أقل بالبحث التجريبى وتقديم المادة العلمية التى تؤيد إطارها النظرى .

أما الانتقاد الرابع فهو أن نتائج الجشطلت ليست نتائج مكممة يمكن أن تخضع للتحليل الإحصائى أو الفحص التجريبى .

ومهما يكن من أمر هذه الانتقادات فمما لا شك فيه أن مدرسة الجشطلت تركت بصماتها على علم النفس الحديث ، ومثلها فى ذلك مثل المدارس التى قامت ثورة على المدارس الأخرى وأدت إلى انتعاش علم النفس وتقدمه .

هذا ويكفى أصحاب مدرسة الجشطلت فخراً أن موضوع الإدراك - الذى تبنوه - احتل مكانه اللائق به في جسم علم النفس ، وأصبح هذا الموضوع زاخراً بالمعلومات التى يعرفها طلاب علم النفس فى كل مكان فى العالم . كما أن نظرية الجشطلت فى التعلم لها مكانها الذى لا ينازع بين نظريات التعلم العملاقة فى علم النفس الحديث .

كما أن ظهور مدرسة « فردريك برلز Perls » (١٨٩٣ - ١٩٧٠) فى العلاج النفسى الجشطلتى دليل على أن حركة الجشطلت الألمانية الأصل والموطن ، الأمريكية الإقامة حركة حية متجددة ، كما أنه يمكن القول بأن مدرسة الجشطلت انفردت بميزة منافستها الرئيسة « المدرسة السلوكية » ، بأن الجشطلت بقيت معسكرا واحدا يضم ثلاثة من كبار العلماء تحت لواء واحد يجدد كل منهم حركة الجشطلت بما يستطيع ، دون أن ينفرد كل منهم بمذهب مستقل أو رؤية مختلفة . بينما السلوكية تفرقت إلى معسكرات متعددة بحيث يمكن القول : إن كل واحد من علمائها يمثل سلوكية مستقلة عن العلماء الآخرين .

الفصل السادس عشر
مدرسة التحليل النفسى

Psychoanalysis

يعد اسم « فرويد » واسم مدرسة التحليل النفسى من أكثر الأسماء شيوعا لدى عامة الناس ، رغم أن عددا كبيراً من مؤسسى علم النفس مثل « فونت » و«تتشنر» و « بافلوف » ليسوا معروفين خارج دائرة علم النفس ، مما يمكن معه القول: إن « فرويد » شخصية نجومية . ومما يحزن مؤرخى علم النفس ذلك الاعتقاد الذى يسود عند العامة وعند طلاب علم النفس المبتدئين الذين يعتقدون أن علم النفس هو « فرويد » .

والواقع أن الأسبقية فى الظهور ربما تكون هى السبب ، لأن مدرسة التحليل النفسى سابقة على عديد من المدارس العريقة مثل السلوكية والجشطلت ، رغم أن مدرسة التحليل النفسى عاصرت مدارس أخرى مثل القصدية والبنائية والوظيفية . إلا أن اضمحلال هذه المدارس فى تاريخ علم النفس المعاصر ، أدى إلى تربع مدرسة التحليل النفسى على عرش علم النفس تربعا قد لا تستحقه .

وقد اهتمت مدرسة التحليل النفسى بدراسة السلوك اللاسوى الذى تجاهلته المدارس الأخرى تقريبا - والتى ركزت دراستها على الإحساس والإدراك والتعلم - من حيث كونها موضوعات رئيسة فى علم النفس ، كما أن ثمة علماء من « خارج المدارس » اهتموا بقياس الذكاء والاستعدادات مثل « بينيه » و « سيمون » ، إلا أنهم أغفلوا أيضا دراسة السلوك اللاسوى . ومهما يكن الأمر فمما لا يمكن إنكاره الأثر

الهائل لحركة التحليل النفسى الذى تركته فى علم النفس وفى العلوم الإنسانية وفى الآداب والفنون .

وبالرغم من أن « فرويد » هو صاحب نظرية التحليل النفسى ، فإن بعض الفلاسفة والعلماء السابقين عليه اهتموا بموضوعات تمثل قلب نظرية التحليل النفسى ، مثل موضوع اللاشعور وموضوع الاضطرابات النفسية .

ومن أكثر الأمور غرابة أن المهتمين بعلم النفس التجريبى فى أواخر القرن التاسع عشر كانوا على اقتناع بأن موضوع علم النفس هو محتويات الشعور ، ولا يوجد إلا « فخنر » (١٨٠١ - ١٨٨٧م) الذى شذ عن ذلك وأشار إلى اللاشعور ، وإلى أن العقل أشبه بجبال الثلوج التى تجوب البحار الباردة ، الجزء الأصغر منها ظاهر والجزء الأكبر منها غاطس خبىء . وقد تأثر « فرويد » تأثرا كبيرا بآراء « فخنر » وأشار إليها فى كتاباته .

وقبل ظهور علم النفس الحديث أشار الفيلسوف الألمانى « ليبنز » إلى نظرية « المونادا » monadalogy أى الجوهر الفرد ، والتى عدها بمثابة العناصر الحقيقية وهذه الجواهر ليست مادية بمعنى الكلمة ، ولكل جوهر فرد ذاتية نفسية . وقد أشار « ليبنز » إلى أنه بالرغم من أن المونادا أو الجوهر الفرد عقلى فى حقيقته ، فإن له الخصائص المادية ، حيث تتكون منه الأشياء ، وكذلك اعتقد « ليبنز » أن الحوادث العقلية وهى نشاط « المونادات » لها درجات مختلفة من الوضوح أو الشعورية ، وهى تتراوح بين أن تكون شعورية واضحة بينة وبين أن تكون غامضة غير واضحة ولا شعورية .

وبعد ذلك بقرن من الزمان قام عالم النفس الألمانى « هربارت » بتطوير فكرة « ليبنز » عن الشعور فى المفهوم الذى أسماه « عتبة الشعور » ورأى أن الأفكار التى توجد أدنى العتبة هى لا شعورية ، وعندما تقوم فكرة فى مستوى وعى الشعور فإنها تدرك فى نظر « ليبتز » ولكن « هربارت » ذهب إلى أبعد من ذلك حيث رأى أنه عندما تقوم فكرة فى الشعور فإنها يجب أن تكون منسجمة متجانسة مع الأفكار

الأخرى التى توجد فى الشعور فى الوقت نفسه ، ولكن الأفكار غير المنسجمة أو غير المتجانسة فإنها تكره على الخروج من الشعور لتكون « أفكاراً أصابها الكف » وقد رأى « بورنج » - شيخ مؤخى علم النفس - أن « ليبنز » اقترب من مفهوم اللاشعور ولكن « هربارت » هو الذى وصل إليه . (سبق الحديث عند ذلك عن عرض بدايات علم النفس التجريبى) .

ومن المفيد أن نذكر ملاحظة تتعلق بتاريخ علم النفس المرضى إذ كانت كل مدرسة ثورة على المدرسة الأخرى ، لكن بالنسبة لمدرسة التحليل النفسى فإن هذه المدرسة نشأت خارج نطاق علم النفس ولم تكن معارضة لمدرسة من مدارس علم النفس . وحتى نستطيع أن نعرف ماذا كانت مدرسة التحليل النفسى بالنسبة لتاريخ علم النفس فإن علينا أن ننظر إلى طبيعة العصر الذى ظهرت فيه هذه المدرسة وإلى أساليب التفكير الموجودة ، وذلك حيال المسألة الرئيسة التى تعرضت لها مدرسة التحليل النفسى ، وهى تفسير الاضطراب النفسى وعلاج الاضطرابات النفسية.

وإن تاريخ علاج مرضى العقول تاريخ حافل بالاجتهادات والمحاولات العلمية سواء فى العصور الوسطى أو فى مطلع العصر الحديث . ولكن العلاج بوجه عام ، والعلاج النفسى بوجه خاص ، كان فى حالة من التأخر الشديد .

وفى خلال القرن التاسع عشر كان هناك اتجاهان يسودان الطب النفسى : الاتجاه الجسمى والاتجاه النفسى . وكان أصحاب الاتجاه الجسمى يرون أن سبب اضطرابات السلوك هو الاضطرابات العضوية فى المخ . ولكن أصحاب الاتجاه النفسى كانوا يرون أن أسباب تلك الاضطرابات هى الأسباب النفسية والعقلية . هذا إلى جانب أنه قد وجدت إصابات فى المخ فى بعض حالات المرض العقلى ولم توجد إصابات فى حالات أخرى . إلا أنه يمكن القول بوجه عام : إن مدرسة التحليل النفسى كانت تمثل ثورة على الاتجاه الجسمى .

هذا ، وقد لعب التنويم المغناطيسى hypnosis دورا رئيسياً فى لفت الأنظار إلى الأسباب النفسية للسلوك الشاذ. وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

اهتم « مسمر » (الطبيب الذى عاش فى فينا فى المدة بين ١٧٣٤ - ١٨١٥م) بالتنويم المغناطيسى ، كما اهتم به « شاركو » ، الذى كان طبيبا للأمراض العقلية فى إحدى مستشفيات باريس . وقد عالج « شاركو » بعض حالات الهستريا عن طريق التنويم المغناطيسى حيث لقى بعض النجاح. وقد وصف أعراض كل من الهستريا والتنويم المغناطيسى بمصطلحات طبية فنية ، مما جعل الأكاديمية الفرنسية للعلوم تقبل بالتنويم المغناطيسى .

وقد تابع الطبيب الفرنسى « جانيت » (١٨٥٩ - ١٩٤٧م) - تلميذ « شاركو » وخليفته - الاهتمام بدراسة الحالات المرضية للهستريا ... وهكذا ففى السنوات الأولى التى أبدى فيها « فرويد » اهتماماته العلمية كان ميدان الاهتمام بعلاج الأمراض النفسية والعقلية زاخرا بالدراسات . (تحدثنا عن ذلك سابقا عند عرض تاريخ علم النفس المرضى) .

وإلى جانب ما سبق ، فقد تأثر فرويد بالأفكار التى سادت عصره مثل مذهب اللذة عند الفيلسوف الإنجليزى « بنثام » (١٧٤٨ - ١٨٣٢م) هذا الفيلسوف الذى يرى أن الإنسان يعمل ويكافح بقصد أن يتخلص من أكبر قدر من الألم ويحقق أكبر قدر من اللذة . أما نظرية النشوء والارتقاء عند « دارون » فكان لها على « فرويد » أثر لا يدانيه أثر آخر .

وبعد هذه المقدمة نتحدث عن مؤسسى التحليل النفسى وشيخها « فرويد » .

سيجموند فرويد Freud (١٨٥٦ / ١٩٣٩م)

حركة التحليل النفسى هى حركة تعتمد على جهود رجل واحد بصفة رئيسة ، هذا الرجل هو « فرويد » وحتى يمكن لنا أن نفهم مذهب « فرويد » حق الفهم لابد لنا من استعراض تاريخ حياته .

ولد « فرويد » فى ٦ مايو ١٨٥٦ م فى « مورافيا » (وهى جزء من تشيكوسلوفاكيا الآن) لأب يهودى كان يعمل بتجارة الأخشاب ، وقد نزح الأب من مورافيا إلى « ليبزج » ثم إلى « فينا » حيث كان عمر « فرويد » أربع سنوات . وقد بقى « فرويد » فى فينا لمدة تقرب من ثمانين عاما .

وكان والد « فرويد » يكبر أمه بعشرين عاما وكان جامدا متسلطا إلى حد ما ، وقد شعر الطفل « سيجموند فرويد » بالخوف تجاه هذا الأب وبالحب أكثر تجاه الأم ، وهذا الخوف من الأب والانجذاب نحو الأم هو ما أسماه « فرويد » بعد ذلك «عقدة أوديب » Oedipus Complex . وكان « سيجموند فرويد » واحدا من ثمانية أطفال ، ولكنه برز من بينهم بالتفوق العقلى الذى شجعته الأسرة بكل الأساليب الممكنة ، ثم التحق بمدرسة الجمنزيم (وهى المدرسة الثانوية التى تعد الطلاب للالتحاق بالجامعة) . وكان يصغر أقرانه بعام كامل ، كما أنه كان طالباً لامعاً ينجح بتفوق ظاهر . وإلى جانب ذلك كان متعدد الاهتمامات ، يقرأ عن التاريخ والحضارة والعلاقات بين البشر وعن التاريخ العسكرى . وقد أيقظت نظرية النشوء لـ « دارون» اهتماماته العلمية إلى حد بعيد ، ثم اتجه بعد ذلك إلى دراسة الطب وهو لم يقصد بذلك أن يكون طبيبا بقدر قصده إلى الاتجاه إلى البحث العلمى .

وقد بدأ دراسته فى جامعة « فينا » عام ١٨٧٣ م وقد استغرق فى دراسته ثمان سنوات ، وذلك لتنوع الدراسات التى كان يهتم بها والتى لا تتصل بالطب . وخلال تدريبه الطبى بدأ بحوثه على « الكوكايين » وقد تعاطى هذه المادة بنفسه ، وشجع خطيبته وأصدقاءه على تعاطيها فى الحدود الطبية وفى خدمة البحث العلمى ، وقد تبين له أن « الكوكايين » يخفف مما كان يشعر به من اكتئاب ومما يعانيه من اضطراب مزمن فى الهضم . ومما يجدر ذكره أنه لم يتعاط « الكوكايين » بعد انتهاء تدريبه الطبى .

وقد أراد « فرويد » أن يستمر فى البحوث داخل إطار الجامعة ولكن معهد «بروكة» الذى كان يعمل به لم يشجع اتجاه « فرويد » . وذلك بسبب ظروفه المالية حيث كان فقيرا . وبناء على ذلك اضطر « فرويد » إلى ممارسة مهنة الطب ، وكان هذا معناه أن يمارس العمل الإكلينيكى الطبى الذى لم يهتم به اهتماما كافيا أثناء دراسته الجامعية لانشغاله فى البحوث ، وفى خلال تدريبه العملى فى المستشفى اتجه إلى التخصص فى أمراض الأعصاب مثل الشلل ، وأمراض الكلام وإصابات المخ عند الأطفال .

وقد حصل « فريد » على درجته الجامعية عام ١٨٨١م ، وفى السنة التالية عمل طبيبا للأعصاب ، وفى عام ١٨٨٢ م خطب فتاة تسمى « مارتا برنايز » التي كانت فقيرة مثله وقد أجل زواجهما عدة مرات بسبب المتاعب المالية ، وبعد أربع سنوات من الخطبة تزوجا . وقد اضطر « فرويد » بعد الزواج إلى الاقتراض عدة مرات وإلى بيع ممتلكاته الشخصية لمواجهة متطلبات الحياة ، ثم تحسن موقفه المالى بعد ذلك ولكنه وزوجته لم ينسيا أيام العوز . وأنجبت منه زوجته ستة أطفال وكان عمله يستغرق منه وقتا طويلا بحيث لم يتوافر له إلا وقت قليل لرؤية زوجته ورعاية أطفاله .

وفى خلال تلك السنوات نشأت صداقة بين « فرويد » وبين « بروير » (١٨٤٢ - ١٩٢٥م) وهو طبيب عاش فى مدينة فينا ، وقد استفاد « فرويد » من علاقته وصداقته مع « بروير » شيئا كثيرا على المستوى العلمى وعلى المستوى الشخصى ، وكان « بروير » يشرك « فرويد » فى مناقشة الحالات المترددة على عيادته وبينها حالة « أنا » وهى حالة شهيرة فى التحليل النفسى ، وكانت « أنا » امرأة فى الحادية والعشرين من عمرها تتميز بالجاذبية والذكاء ، وكانت تعانى من أعراض هستيرية حادة مثل الشلل وفقدان الذاكرة والغثيان واضطراب الرؤية واضطراب الكلام . وقد وجد « بروير » أن المريضة « أنا » عندما تكون تحت التنويم فإنها تتذكر بعض الخبرات ذات العلاقة بالأعراض الهستيرية التى تعانى منها ، كما أن التحدث عن هذه الخبرات أثناء جلسات التنويم من شأنه أن يخفف شيئا من هذه الأعراض الهستيرية .

ومن الأعراض التى عانت منها « أنا » أنها فى فترة من الفترات لا تستطيع شرب الماء رغم شعورها بالعطش ، وتحت التنويم تذكرت أنها شعرت بتقزز من الماء فى مرة سابقة حيث شاهدت كلبا تقززت من منظره أثناء شربها الماء ، وبعد رواية هذه الحادثة أثناء علاج « بروير » لها أصبحت تشرب الماء بلا صعوبة واختفت الأعراض الهستيرية ولم تعد مرة ثانية إليها . - وقد استمر علاج « أنا » سنة كاملة ، وقد عبرت « أنا » عن التحدث أثناء العلاج بأنه بمثابة « غسيل مخ » أو « حديث الشفاء » .

وقد شعرت زوجة « بروير » بالغيرة بسبب العلاقة التي نشأت بين « بروير » و« أنا » حيث أبدت « أنا » ما يسمى بلغة التحليل النفسى الطرح الإيجابى positive transferance اى أنها نقلت مشاعر الحب تجاه أبيها إلى « بروير » ، وبعد ذلك اعتبر هذا الطرح - فى عرف أصحاب مدرسة التحليل النفسى - ضرورة وجزءاً من العلاج ، ولكن « بروير » مع ذلك اعتبر هذا الموقف من « أنا » موقفا مهددا مما دعاه إلى إيقاف العلاج ، وبعد ساعات قليلة من معرفة « أنا » بأن « بروير » أوقف علاجها بدت عليها أعراض هستيرية أنهاها « بروير » أثناء التنويم المغناطيسى ، ثم ترك «فينا » وسافر مع زوجته إلى مدينة البندقية فى إيطاليا لقضاء شهر عسل جديد .

وقد تناولت أقلام كتاب التحليل النفسى حالة « أنا » بالكثير وربما بأكثر مما تستحق ، ولكن مهما يكن من أمر فإن علاج هذه الحالة كان نقطة انطلاق بالنسبة للتحليل النفسى لأنها قدمت « فرويد » إلى ما يسمى « حديث الشفاء » وهو ما يعد جديدا فى هذه الحالة .

وفى عام ١٨٨٥ م سافر لعدة شهور إلى فرنسا حيث التقى بالطبيب الفرنسى « شاركو » ، وثمة حادث هام وقع أثناء إقامته فى باريس ، ذلك أنه فى أحد اللقاءات بين « فرويد » و « شاركو » أكد هذا الأخير على أن الصعوبات التى يعانى منها أحد المرضى لها أساس جنسى ، وكان لهذا التفسير أثره على « فرويد » ، إذ عده تفسيرا دقيقا يوضح أهمية الاضطرابات الجنسية وتأثيرها على المرضى .

كما شاهد « فرويد » « شاركو » وهو يمارس التنويم المغناطيسى في علاج الهستريا ، حيث بين « شاركو » أن الهستريا مرض يصيب الرجال وليس النساء فقط ، كما كان يسود الاعتقاد فى ذلك الوقت .

وبعد سنة من عودته من « باريس » تعرض لموقف ذكّره بأهمية الأساس الجنسى فى الاضطرابات التى يعانى منها المريض حيث طلب منه أحد الإخصائيين فى أمراض النساء علاج إحدى المريضات التى كانت تنتابها نوبات من القلق بسبب حياتها الجنسية غير الموفقة مع زوجها .

وقد استخدم « فرويد » التنويم المغناطيسي والتنفيس Catharsis وذلك فى التعامل مع مرضاه ، وبالتدريج أصبح أقل اقتناعا بالتنويم المغناطيسى بالرغم من أن التنويم كان ناجحاً فى إزالة الأعـراض ، ولكن التنويم لم يكن بمستطيع أن يصل بالمريض إلى الشفاء التام ، ذلك لأن المرضى الذين عولجوا بالتنويم حدثت لهم العديد من النكسات وظهور أعراض جديدة ، هذا بالإضافة إلى أن عددا كبيرا من المرضى العصابيين لا يمكن تنويمهم بسهولة أو حتى بعمق.

لهذه الأسباب مجتمعة ترك « فرويد » جانبا التنويم المغناطيسى فى العلاج ولكنه لم يترك الأسلوب التنفيسى . وبعد ذلك توصل إلى ما يمكن تسميته أهم خطوة فى تطور التحليل النفسى وهو « التداعى الحر » Free associalion ، وفى هذا التداعى الحر أو الطليق يجلس المريض مسترخيا على أريكة ويشجعه المحلل على التحدث بحرية وتلقائية ، ويعبر صراحة عن أفكاره مهما كانت غريبة أو سخيفة . وقد هدف « فرويد » من ذلك إلى استدعاء الذكريات أو الأفكار المكبوتة والتى يحتمل أن تكون سبب السلوك اللاسوى عند المريض ، ومن خلال التداعى الحر وجد « فرويد » أن ذكريات مرضاه تتناول مرحلة الطفولة كما أن بعض هذه الذكريات المكبوتة تتعلق بأمور جنسية . وبذلك أصبح « فرويد » متنبها إلى أهمية الأمور الجنسية فى حياة مرضاه .

وفى عام ١٨٩٥ م نشر « بروير » و « فرويد » كتابا بعنوان « دراسات عن الهستريا » وهو يعد تقريبا نقطة انطلاق مدرسة التحليل النفسى ، ولكن هذا الكتاب لم يلق الرواج على المستوى العام وإن لقى اهتماما طبيا من الهيئات العلمية داخل النمسا وخارجها ، ولكن « بروير » كان غير راغب فى نشر هذا الكتاب لاحتواء الأجزاء التى حررها « فرويد » على بعض الإشارات إلى نظريته في الجنسية . وفى حوالى عام ١٨٩٨ م حدثت القطيعة بين « بروير » و « فرويد » بسبب اختلاف آرائهما حول نظرية الجنسية .

ومع ذلك فقد اقتنع « فرويد » فى ذلك الوقت بأهمية الجنس ودوره فى إحداث العصاب، وذلك من ملاحظته مرضاه . ومن عجب أن « فرويد » الذى أشار إلى أهمية الجنس الحاسمة فى الحياة النفسية للإنسان كان اتجاهه حيال ممارسة الجنس اتجاها سلبيا ، وكثيرا ما أشار إلى أخطاء ممارسة الجنس حتى بالنسبة للأسوياء ، ونصح بالارتقاء فوق هذه « النزعة الحيوانية » ، ذلك أن ممارسة الجنس تستهلك الطاقة الجسمية والنفسية . وفى عام ١٨٩٧ م وهو لم يتجاوز الأربعين إلا قليلا أشار إلى أنه هجر الجنس بصورة نهائية .

وفى عام ١٨٩٧ م اهتم « فرويد » بدراسة موضوع الأحلام ، لأنه رأى أن أحلام مرضاه مادة ذات أهمية بالغة فى تفسير ما يعانون من اضطرابات . واعتقد « فرويد » بأن أحداث الحلم لا يمكن أن تكون بال معنى ، بل إن لها دلالات معينة وأن هذه الأحداث نتيجة نشاط فى اللاشعور ، وهذه الفكرة التي تدور حول رمزية الأحلام ودلالتها ليست من ابتكار « فرويد » بل هى موجودة فى تراث الشعوب القديمة . كما أن « فرويد » اهتم بتحليل أحلامه . ثم أصدر عام ١٩٠٠ م كتابه الواسع الشهرة « تفسير الأحلام » حيث يعد الآن أهم كتب « فرويد » على الإطلاق ، وفى هذا الكتاب أشار لأول مرة إلى « عقدة أوديب » مستندا بصفة رئيسية إلى طفولته هو ، وقد قرأ أحد الشبان هذا الكتاب وانجذب إلى التحليل النفسى «الفرويدى » – لفترة من الزمن – وأصبح هذا الشاب فيما بعد من رجالات هذه المدرسة الكبار وهو « يونج » .

ومن الكتب الهامة التى أصدرها « فرويد » كتاب « ثلاث مقالات فى نظرية الجنسية » (أصدره عام ١٩٠٥ م) ، وبعد صدور هذا الكتاب بثلاث سنوات طلب منه بعض مريديه أن يعقد اجتماعا علميا أسبوعيا ، ومن هؤلاء المريدين « يونج » و« أدلر » اللذان عارضا « فرويد » فيما بعد فى نظرية الجنسية .

وفى بداية القرن العشرين بدأ الناس يعرفون « فرويد » ومذهبه معرفة واسعة ودعته جامعة « كلارك » فى أمريكا لزيارتها عام ١٩٠٩ م ، وقابل فى هذه الجامعة

فحول علماء النفس فى ذلك الوقت من أمثال « وليم جيمس »، «جيمس ماكين كاتل» و « تتشنر » - ومنح الدكتوراه الفخرية من تلك الجامعة ، ولكنه لم يعجب بأمريكا وبعاداتها وأسلوب الحياة فيها ، ولم يعد إليها مرة ثانية ، وقال لمسجل سيرته الذاتية « أرنست جونز » : « إن أمريكا غلطة بل غلطة كبيرة » .

وفى عام ١٩١١ م تفرق عن فرويد تلميذاه « يونج » و « أدلر » وكون كل منهما مدرسة مستقلة ، ولكن « فرويد » أبقى على اسم مدرسة التحليل النفسى ، وظل « فرويد » أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها يعمل فى علاج المرضى والتأليف . وفى عام ١٩٢٣ م تبين أنه يعانى من سرطان في الفم ، وعاوده الألم مرارا وأجريت له أكثر من ثلاثين عملية جراحية .

وحاق اضطهاد النازى « بفرويد » عندما قفز « هتلر » إلى السلطة عام ١٩٣٣م ، وكان موقف النازى عدائيا صريحا تجاه التحليل النفسى فأحرقت كتبه فى شهر مايو ١٩٣٣ فى حضور جمع غفير من الناس ، وبينما هذه الكتب تلقى فى النار صاح أحد دعاة النازى : من أجل الروح الإنسانية النبيلة فإننى أقدم إلى النار كتب ذلك المسمى « فرويد » . وفي مارس عام ١٩٣٨م غزا النازى النمسا وفر « فرويد » إلى إنجلترا ، وعلى الرغم من أن إنجلترا أحسنت استقباله إلا أن حالته الصحية أخذت فى التدهور ، وتولى علاجه طبيب شاب وحيث كانت حالته ميئوسا منها فقد طلب من الطبيب أن يخلصه من آلامه ، وفى أحد الأيام أعطاه الطبيب حقنة بها جرعة كبيرة من المورفين وكرر الجرعة بعد اثنتى عشرة ساعة حيث أسلم «فرويد » الروح فى ٢٣ سبتمبر عام ١٩٣٩م بعد سنوات طويلة من معاناة المرض .

ويمكن أن نوجز مذهب « فرويد » فى النقط الآتية :

النقطة الأولى: التحليل النفسى طريقة للعلاج ، حيث وجد « فرويد » أن طريقة التداعى الحر تلقى صعوبات معينة إذ يصل المريض إلى نقطة لا يرغب أو لا يستطيع فيها أن يواصل رواية قصة حياته . واعتقد « فرويد » أن هذه المقاومة معناها أن المريض استدعى إلى ذاكرته أحداثا أو وقائع فظيعة ومخجلة . وقد اعتبر

« فرويد » أن المقاومة هى صورة من صور تحاشى مواجهة المشاعر المؤلمة التى تثيرها هذه الذكريات المكروهة أو المستهجنة .

وعلى هذا فهو يرى أن المقاومة تعنى أن العلاج يسير فى الاتجاه الصحيح . وقد أكد فرويد على أهمية معاونة المريض على تخطى هذه المقاومة خلال الجلسات العلاجية .

وفكرة المقاومة هذه أدت إلى صياغة « فرويد » لمفهوم الكبت reprssion وهو بمثابة نبذ الأفكار والذكريات المؤلمة وترحيلها من منطقة الشعور إلى اللاشعور . والكبت فى نظر « فرويد » هو التفسير الوحيد للمقاومة ، وعلى المعالج أن يساعد المريض على استحضار هذه المواد المكروهة المكبوتة فى اللاشعور إلى الشعور بحيث يستطيع المريض أن يواجهها وأن يتمايش معها .

وكذلك اعتقد « فرويد » أن الأحلام هى فى بعض الأحوال إرضاء للرغبات المكبوتة ، وعلى ذلك فإن حقيقة الحلم هى اكثر تعقيدا مما قد يبدو فى الظاهر ، وهذا يشار إليه فى قول « فرويد » : إن الحلم هو تحقيق رغبة ، وكما للحلم معناه الظاهر ، فإن له المعنى الباطن ، وهو الذى يهتم به « فرويد » ، كما أن لأحداث هذه الأحلام ووقائعها رمزيات معينة ، على المعالج النفسى أن يفسرها فى إطار دراسته لحياة المريض . ولكن هناك بعض الأحلام لا تكون بسبب المكبوتات والصراعات ، ولكن لأسباب أخرى عارضة مثل درجة حرارة حجرة النوم أو الإفراط فى الطعام فى وجبة العشاء ، وعلى هذا فإن كل الأحلام لا تتضمن بالضرورة الأمور الرمزية .

وقد أشار « فرويد » كذلك إلى التحليل النفسى للمحلل النفسى وبيَّن أن المحلل - قبل أن يتعرض لعلاج المرضى - لابد أن يخضع لفترة من التحليل والتدريب تبلغ عامين ، وقد آمن « فرويد » بشدة أن التحليل النفسى يجب أن يكون مهمة مستقلة عن الطب ، ومع هذا فإن « فرويد » يرى نفسه عالما وباحثا أكثر منه محللا نفسيا..

النقطة الثانية: الشخصية فى نظر التحليل النفسى . حيث كانت لنظرية التحليل النفسى « الفرويدية » آراء فى موضوع الشخصية أشار إليها « فرويد » فى كتاباته المتعددة ، وأهم مفاهيم وجوانب الشخصية فى نظر فرويد هى :

* **الغرائز** instincts حيث يرى أن الغرائز هى القوى البيولوجية للشخص ، وهي العوامل المحركة للشخصية . وكلمة غريزة التى استعملها « فرويد » بالألمانية هى trieb وهى لا تعنى الغريزة بقدر ما تعنى الدافع الغريزى أو القوة الدافعة . والغرائز فى نظر « فرويد » فطرية سليقية عند الإنسان وهدفها تخفيف التوتر وهى مثل غريزة الجنس والطعام والشراب .

ولم يحاول « فرويد » تصنيف الغرائز وتعديدها ولكنه أشار إلى مجموعتين أساسيتين من الغرائز : الأولى غرائز الحياة Life instincts وهى تشمل الجنس والطعام والشراب وهى تقوم بوظيفة بقاء الفرد وحفظ النوع ، والطاقة التي تشتمل على هذه الغرائز أسماها « فرويد » لبيدو Libido. وإلي جانب مجموعة غرائز الحياة التى تؤدى إلى الإنشاء هناك مجموعة من الغرائز أسماها « فرويد » غرائز الموت death instincts تتضمن الكراهية والانتحار ، وقد اعتقد « فرويد » اعتقادا تشاؤميا مضمونه أن الحياة صائرة إلى الفناء والعدم .

* **الشعور واللاشعور** Concious and unconscious حيث شبه « فرويد » الحياة النفسية للإنسان بجبال الثلوج التى تجوب بحار الشمال الباردة ، الجزء الظاهر وهو الجزء الأصغر أسماه « فرويد » الشعور ، وهو برغم أنه ظاهر واضح إلا أنه مظهر سطحى للشخصية . أما الغاطس من هذا الجبل وهو الجزء الأكبر والأهم فى شخصية الأنسان فقد أسماه اللاشعور ، وهو مستودع المكبوتات والغرائز التي هى محركات السلوك الإنسانى . وقد افترض « فرويد » أيضا وجود « القبشعور» Preconcious وهو منطقة ضبابية بين الشعور واللاشعور والمواد القبشعورية لم تكبت بعد ، ويمكن استحضارها إلى الشعور بشىء من اليسر .

* **قوي الشخصية**.وإلى جانب إشارته إلى الغرائز وتقسيمه الحياة النفسية إلى لا شعور ، وقبشعور ، وشعور ، قسم « فرويد » الشخصية إلى قوى ثلاث هى الهو id وهو أكثر قوى الشخصية بدائية وهمجية ، ويتضمن الغرائز الجنسية والعدوانية ، وهو جانب الشخصية قبل أن يتناوله المجتمع بالتحوير والتهذيب ، فهو لا يعترف بالقيم ، ولا بالمعايير ، ولا الأخلاقيات وهو يبتغى الإرضاء الفورى بلا تأجيل لدوافعه وحاجاته . أما المبدأ الذى يتخذه فهو مبدأ اللذة، ويهدف إلى تخفيف التوتر فى التو واللحظة ، كما أن الطاقة النفسية الأساسية « اللبيدو » يتكون داخل الهو ويعبر عنه من خلال الأفعال التى تهدف إلى تخفيف التوتر ، ويهدف تحفيف التوتر علينا أن نتصل بالعالم الخارجى ونتعامل معه ونحتك به . ومثال ذلك فإن الشخص الجائع سوف يلتمس الطعام بغية تخفيف التوتر وهنا تقوم القوة الثانية وهى « الأنا » ego بوظيفتها وسيطاً ومصلحاً بين «الهو» والعالم الخارجى ، « والأنا» يمثل العقلانية حيال اندفاعية « الهو » وغلوائه .

ويعمل « الهو » فى غير جذر ، غير مبال بالواقع لكن الأنا مبال بهذا الواقع واع له ، ويعمل إلى جانب ذلك طبقاً لمبدأ الواقع . و« الأنا » هو جزء من « الهو » انفصل عنه ، وتميز عنه بفعل الاحتكاك بالعالم الخارجى ، هو أشبه بلحاء الشجرة الذى كان جزءا من الجذع ولكنه جف وتصلب بفعل عوامل التعرية التى هى متطلبات المجتمع ومحاذيره، ويشبه « فرويد » العلاقة بين « الهو » و « الأنا » بالعلاقة بين الفرس والفارس ، الفرس يسير بقوته الذاتية والفارس يوجهه بخبرته ومعرفته .

أما القوة الثالثة فى الشخصية فى نظر « فرويد » فهى « الأنا الأعلى » Super ego وهى عادة ما تبدأ فى التكون فى بواكير الطفولة وذلك من خلال التعاليم السلوكية التي يلقاها الطفل من الوالدين ، ومن ممارسة الوالدين لأساليب الثواب والعقاب ، وعندما يشب الطفل عن الطوق ويكمل نضجه يصبح لديه مندوب مقيم للوالدين والأعراف والتقاليد الاجتماعية ، هذا المندوب هو « الأنا الأعلى » (أو الضمير) وهو أعلى وأرقى جانب فى شخصية الإنسان . ومن البديهى أن يكون «الأنا الأعلى » فى صراع مع « الهو » لأن « الأنا الأعلى » هو معايير وأخلاقيات ومثل بينما « الهو » اندفاعات وغرائز .

النقطة الثالثة: مراحل نمو الشخصية . حيث اعتقد « فرويد » أن الاضطرابات العصابية التى يبديها مرضاه إنما تأصلت فى مرحلة الطفولة المبكرة، وعلى هذا فقد اتجه إلى الاهتمام بتلك المرحلة وأثرها فى النمو النفسى وتكوين الشخصية وقد اعتقد أن شخصية الراشد توضع معالمها أساسا فى السنوات الخمس الأولى .

وقد توصل « فرويد » إلى نظرية فى تحديد مراحل النمو النفسى الجنسى تتمثل فى المراحل الآتية :

* **المرحلة الفمية:** oral stage وهى تستغرق السنة الأولى من حياة الطفل ويكون الفم هو المنطقة الشهوية ويكون تحقيق الإرضاء عن طريق المص .

* **المرحلة الإستية** anal stage وهذه المرحلة تمتد من سن سنتين إلى ثلاث سنوات حيث تكون الأغشية فى المنطقة الإستية هى مصدر اللذة .

* **المرحلة القضيبية** phallic stage وهذه المرحلة تمتد من سن أربع سنوات إلى خمس أو ست سنوات حيث يكون لمس الأعضاء التناسلية هو مصدر الإحساس باللذة .

* **مرحلة الكمون** Latency stae وهي تبدأ من أواخر السادسة إلى الثانية عشرة تقريبا ، حيث تقل أهمية الدوافع الجنسية وينشغل الطفل بتعلم المناشط والمهارات الجديدة .

* **المرحلة التناسلية** Genital stage حيث المراهقة وما بعدها ، بحيث تحصل أعمق مشاعر اللذة من العلاقات الجنسية الغيرية . ومن الناحية المثالية فإن المرحلة التناسلية تبلغ قمتها بالزواج وممارسة العلاقات الجنسية مع الشخص المحبوب وتربية الأطفال نتاج هذا الحب وعلاقته .

وقد ذكر « فرويد » أن المراحل الثلاث الأولى ذات أثر حاسم على شخصية الإنسان وعلى سلوكه . وعلى سبيل المثال الشخص الذى لم يحصل على الإرضاء الكافى فى المرحلة الفمية يحاول تعويض ذلك بالإسراف فى تناول الطعام ويقال إن

« لبيده » قد ثبت على المرحلة الفمية ، وبوجه عام فإن كل مرحلة من هذه المراحل لها بعض المتطلبات وتثير بعض الصراعات ، ومن أهم هذه الصراعات التى تثار أثناء المرحلة القضيبية الموقف « الأوديبى » حيث يعتقد « فرويد » أن كل طفل يعيد تمثيل « الدراما الأوديبية » من جديد ، فهو يتجه بالحب نحو الأم ويتجه بالكراهية نحو المنافس القوى - الأب - وأخشى ما يخشاه الطفل أن يقوم هذا الأب باستئصال قضيبه (أى إخصائه) وهذا القلق خشية الإخصاء يجعل الطفل يكبت حبه لأمه وكراهته لأبيه ، وعندما يصفى هذا الموقف ، يتجه الطفل بالحب الرقيق نحو الأم ويتوحد بالأب .

النقطة الرابعة: الآلية والحتمية فى نظرية « فرويد » . حيث تأثر « فرويد » تأثرا شديدا بالتفكير « الميكانيكى » الآلى الذى كان يسود علم وظائف الأعضاء فى ألمانيا . ومن النظرة الأولى فإن فكرة الآلية والحتمية قد تبدو غير منسجمة مع فكرة « فرويد » عن الدوافع الخبيثة التى تحرك السلوك ، إلا أن « فرويد » قرر أن الحوادث النفسية جميعا حتى هفوات اللسان وزلات القلم والأحلام هى أمور محتومة ، ولا يوجد شىء فى السلوك أو الفكر يمكن أن نرجعه إلى الإرادة الحرة . فهناك دائما سبب لكل حدث ودافع وراء كل سلوك هذا الدافع إن لم يكن شعوريا فهو لا شعورى .

وفى عام ١٨٩٥ م عمل « فرويد » بحماسة فى مشروع « لعلم النفس العلمى » حيث حاول أن يبين الجانب العلمي فى علم النفس وأن الظواهر النفسية لها الخصائص نفسها التى تتصف بها عمليات فسيولوجيا الجهاز العصبى . وبالرغم من أن « فرويد » لم يستطع أن يمضى قدما فى هذا المشروع إلا أنه بقى متمسكاً بفكرة حتمية السلوك الإنسانى .

النقطة الخامسة: الصراع بين التحليل النفسى وعلم النفس . ذلك أن التحليل النفسى يمثل خطا خارج علم النفس التقليدى ، وكون مدرسة التحليل النفسى رائدا ونظاما كانت من خارج علم النفس ، فقد أدى هذا إلى تأخير قبولها جزءاً من جسم

علم النفس . ومن أخطر الأمور التى أدت إلى صراع بين التحليل النفسى وبين علم النفس بوجه عام ، أن الطريقة التى توصل بها « فرويد » إلى نظريته وطرائقه فى البحث ، أدت بعلماء النفس التقليديين إلى رفض دخول «فرويد» فى زمرتهم . ومثال ذلك فإن « فونت » رفض بشدة فكرة اللاشعور فى علم النفس لأن عمله العلمي كان منصبا على العناصر البنائية للشعور ، وقد قال « فرويد» هولا عظيما فى مواجهة علم النفس التقليدى حيث قال : « لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الاعتقاد بأن علم النفس القديم قتله مذهبى ، ولكن علم النفس القديم هذا غير واع بهذه الحقيقة وما زال يدرس كالعادة » .

أضف إلي ذلك أن التعلم والتدريب الذى تلقاه « فرويد » كان فى مجال الطب وليس فى مجال علم النفس . وهناك بالطبع مقاومة بديهية من أصحاب علم النفس التقليدى لهذا الغازى الجديد - فى ذلك الوقت - والقادم من مجال الطب .

وفوق هذا كله فإن هدف علم النفس التقليدى كان هدفا علميا بحتا وهو دراسة السلوك الإنسانى بقصد التعرف إلى قوانينه ، أما هدف التحليل النفسى فكان هدفا تطبيقيا عمليا ، وهو شفاء المرضى الذين يعانون من الاضطرابات النفسية .

النقطة السادسة: نقد وتقييم لنظرية « فرويد » . النقد الذى وجه إلى «فرويد » ونظرياته أوسع وأكثر من أن يحتويه كتاب خاص - وهو كم كبير من النقد - وقد أتى هذا النقد من مصادر متعددة بعضها من داخل علم النفس وبعضها من خارجه ، وسوف يتركز الحديث النقدى على بعض الملاحظات التى وجهت إلى نظرية «فرويد» من داخل علم النفس .

وأولى هذه الملاحظات أن « فرويد » جمع مادته العلمية التى توصل منها إلى نظرياته من مرضاه ، وهم تحت حالة التنويم المغناطيسى أو حالة الاستسلام للتحليل النفسى ، وهذه حالات مؤقتة يكون الإنسان فيها على غير طبيعته تماما بل إن جمع المادة العلمية بهذه الطريقة يدل على عدم الكفاءة المنهجية ، ذلك أن «فرويد»

لم يسجل حرفيا أقوال مرضاه ولكنه فضل أن يجمع مادته العلمية من بعض ملاحظاته المكتوبة ، ومن بقائه عدة ساعات مع مرضاه .

ومن المتوقع أن قدرا كبيراً من أقوال المرضى قد ضاعت أو اختصرت أو تبدلت ، والقول فى هذا المقام أن مادة « فرويد » العلمية - وهى أقوال مرضاه - هى ما تذكره « فرويد » من أقوال هؤلاء المرضى ، وقد يكون الجزء المتذكر أقلها أهمية والجزء المنسى أكثرها أهمية ، إلى جانب الشك فى أن « فرويد » من المحتمل أن يكون قد وجهته مفاهيمه النظرية أو بقول آخر : إن « فرويد » سمع وتذكر ما يريد سماعه أو تذكره ، وبالطبع فمن المفروض أن ملاحظات « فرويد » مضبوطة ، ولكن إلى أى مدى من الدقة والانضباط ؟

ومهما يكن من أمر فإذا افترضنا دقة متناهية فى ملاحظات « فرويد » وتسجيله لمادته العلمية - وهى أقوال المرضى - فهل أقوال هؤلاء المرضى صحيحة ؟ ويعرف الطالب المبتدئ فى علم النفس أن الاضطرابات النفسية والعقلية من شأنها أن تشوش الإدراك والأحكام فهل من الممكن أن تكون هذه الإدراكات والأحكام المشوشة صالحة لمادة علمية لنظرية كبرى فى علم النفس.؟

أما الملاحظة الثانية فهى : كيف نخضع المبادئ الكثيرة التى قال بها «فرويد» للدراسة التجريبية ؟ مثلا مبدأ اللذة أو مبدأ الواقع أو الموقف الأوديبى . هناك صعوبة بالغة فى تصور ضبط تجريبى تختبر فيه هذه المبادئ اختباراً علمياً يقنع الباحث العلمى المدقق .

أما الملاحظة الثالثة فهى التداخل الواضح بين المفاهيم التى أوردها فى نظريته (مثل اللاشعور والقبشعور والشعور والهو والأنا والأنا الأعلى) ، ذلك أن لغة العلم هى لغة يتوخى فيها الدقة والتحديد، وكيف يبيح «فرويد» لنفسه أن يصوغ نظرية فى الشخصية الإنسانية قائمة على مجموعة من الحالات المرضية اللاسوية .

أما الملاحظة الرابعة فهى تدور حول ما لاحظه تلاميذ « فرويد » من شروخ فى نظريته ، فانشقوا عنه مكونين مذاهب « لا فرويدية » تقدم أفكاراً جديدة ورؤية

جديدة ، وهم موضوع الحديث فى بقية هذا الفصل . ولم يقتصر الأمر على المنشقين فقط بل ظهر عدد من العلماء منضمين - بقدر أو بآخر - تحت اللواء «الفرويدى » معدلين ومبدلين قدرا من مفاهيمه الأساسية ، مكونين مذاهب «فرويدية » جديدة .

ويضم معسكر المنشقين أمثال « يونج » و « أدلر » و « هورناى » و « فورم » أما معسكر المعدلين فيضم أمثال « ألبورت » ، « أريكسون » . ونتحدث عن المعدلين فى فصل لاحق يعالج بعض الاتجاهات المعاصرة فى علم النفس .

« كارل يونج » Jung (١٨٧٥ / ١٩٦١) :

نظر « فرويد » إلى « يونج » فى وقت من الأوقات على أنه خليفته على كرسى مدرسة التحليل النفسى ، وأسماه « الأمير المتوج » ولكن فى عام ١٩١٤ م حدث الانشقاق وكون « يونج » مدرسة مستقلة باسم « مدرسة علم النفس التحليلى» Analytical psychology .

ولد « يونج » فى إحدى القرى بشمال سويسرا ، وكانت طفولته تتميز بالانعزالية والشقاء ، وكان أبوه قيسسا شك فى إيمانه وأصيب بالحزن والقلق ، وكانت أمه تعانى من بعض الاضطرابات الانفعالية . وكانت الأسرة التي عاش فيها « يونج » أسرة غير سعيدة ، وقد تعلم « يونج » منذ نعومة أظافره الا يثق بوالديه أو بالناس ، ونتيجة لحياته تلك اتجه بالاهتمام إلى عالمه الداخلى من الأحلام والخيالات .

وعندما التحق « يونج » بالجامعة اتجه إلى دراسة علم الحياة . وفى عام ١٩٠٠ م حصل على إجازته فى الطب من جامعة « بازل » السويسرية ، وقد انجذب إلى الطب النفسى ، وكان أول عمل التحق به هو العمل طبيبا فى عيادة الطب النفسى بجامعة « زيورخ » ، وكان يوجهه فى تلك العيادة « بولر » وهو طبيب نفسى كان مهتما بدراسة الفصام . وفى عام ١٩٠٥ م عين محاضرا للطب النفسى فى جامعة « زيورخ» ولكنه بعد عدة سنوات ترك هذا العمل ليوجه جهوده لعلاج المرضى ولإجراء البحوث ونشرها .

وقد اهتم « يونج » بأعمال « فرويد » بعد قراءته كتابه « تفسير الأحلام » حيث وصف هذا الكتاب بأنه « إحدى الروائع » . وفى عام ١٩٠٦ م بدأت المراسلات بين الطرفين ، وذهب « يونج » عام ١٩٠٧ م لمقابلة « فرويد »، ومن الطريف أن الرجلين عندما تقابلا لأول مرة تحدثا لمدة ثلاث عشرة ساعة متواصلة فى إعجاب متبادل ، وفى عام ١٩٠٩ م سافر « يونج » مع « فرويد » إلى أمريكا فى احتفالات جامعة « كلارك » .

وخلافا لمعظم مريدى « فرويد » فإن « يونج » حرص على تكوين سمعته العملية ليكون شخصية مستقلة ، ولم يكن مجرد تابع فى فلك « فرويد » ، بل كانت له مواقف نقدية ، وإن لم تعلن فى سنى علاقتهما الأولى حرصا على هذه العلاقة من ناحية ، وحرصا على حركة التحليل النفسى من ناحية أخرى .

وفى عام ١٩١١ م أصبح « يونج » أول رئيس لجمعية المحللين النفسيين الدولية رغم معارضة مع أعضاء الجمعية ، إلا أن « فرويد » عد تعيين شخص من المسيحيين مثل « يونج » سوف يخفف من الطابع اليهودى الذى سيطر على التحليل النفسى فى ذلك الوقت . وقد دأب الأعضاء اليهود فى تلك الجمعية على معارضة «يونج » . وفى عام ١٩١٢ م اختلف « يونج » مع « فرويد » حول مفهوم « اللبيدو » ، وافترق الرجلان عام ١٩١٤ م حيث استقال « يونج » من جمعية المحللين النفسيين الدولية .

وقد اهتم يونج بدراسة الأساطير ، واهتم كذلك بدراسة أساليب التفكير عند البدائيين ، وسافر فى العشرينيات من هذا القرن إلى أمريكا وأفريقيا لهذا الغرض، ثم عين أستاذا فى جامعة « زيورخ » ، ولكنه استقال بسبب ظروفه الصحية عام ١٩٤٢ م . وفى عام ١٩٤٤ م تم إنشاء كرسى لعلم النفس الطبى فى جامعة « بازل » ولكن حالته الصحية لم تمكنه من الاستمرار أكثر من عام واحد ، ومع ذلك بقى يدرس حتى توفى عام ١٩٦١ م ، وقد نشر العديد من الكتب أهمها على الإطلاق « الأنماط النفسية » «Psychological Types» الذى أصدره عام ١٩٣٣ م وهو كتاب

كلاسيكى واسع الشهرة ، كما أنه نال العديد من الجوائز ، منها درجات الشرف من جامعة « هارفارد » وجامعة « أكسفورد » ، وما زال يلقى الاهتمام والاحترام فى الدوائر العلمية فى جميع أنحاء العالم .

ويمكن عرض أهم آراء « يونج » فى النقط الآتية :

النقطة الأولى: علم النفس التحليلى . حيث تعد نقطة الخلاف الرئيسة بين « يونج » و « فرويد » حول موضوع « اللبيدو » إذ يعرف « فرويد » « اللبيدو » من خلال المفاهيم الجنسية ولكن « يونج » يعرفه على أساس أنه الطاقة العامة للحياة ، والتى يكون الجنس أحد جوانبها .

ويرى « يونج » أن الطاقة « اللبيدية » للحياة تعبر عن نفسها فى صورة النمو والتكاثر وفى أنواع المناشط المختلفة الأخرى . كذلك رفض « يونج » فكرة عقدة أوديب عند « فرويد » وفسر انجذاب الطفل إلى الأم بما يلقاه الطفل من الأم من رعاية وإطعام . كذلك رفض « يونج » نظرية « فرويد » فى مراحل الجنسية الطفلية، لأن الجنسية عند يونج تبدأ فى سن البلوغ ، ولم ينكر «يونج» العامل الجنسى ولكنه رأى أن هذا العامل واحد من العوامل التى تكون الطاقة « اللبيدية » .

أضف إلى ذلك الخلاف بين « يونج » و « فرويد » فى موضوع الشخصية الإنسانية ، فبينما يعتقد « فرويد » أن الإنسان ضحية أحداث الطفولة وصنيعتها ، ويعتقد « يونج » أن الإنسان تحركه أهدافه المستقبلية وطموحاته وآماله كما تحركه أيضا أحداث الماضى . إن سلوكنا لا يتحتم بتجارب الطفولة وخبراتها فقط ، ولكنه عرضة للتغير كلما درجنا في مراحل النمو المختلفة .

النقطة الثانية: بناء الشخصية . حيث استخدم « يونج » مفهوم النفس psyche للإشارة إلى العقل الذى يتكون من ثلاثة مستويات : الشعور - اللاشعور الشخصى - اللاشعور الجمعى . ومركز الشعور هو الأنا ، وهو أقرب إلى شعورنا بأنفسنا، ويتضمن الشعور المدركات والذكريات وما شابه ، وهى طريق للاتصال مع الواقع ، والذى يمكننا من تكييف أنفسنا مع البيئة .

ويعتقد « يونج » أن ثمة اهتماما زائدا أعطى للشعور ويعده تاليا فى الأهمية للاشعور ، ذلك أن الشعور هو مظهر النفس ، مثل الجزء المرئى من جزيرة ولكنه ثمة جزء أكبر يختفى تحت هذا الجزء المرئى . وقد اهتم « يونج » بهذا الجزء الخبىء ، على أن « يونج » سلم بوجود مستويين للاشعور : اللاشعور الشخصى Personal unconscious وهو الذى يتعلق بالفرد ، ويتكون اللاشعور الشخصى من الدوافع والرغبات والمدركات الغامضة والتجارب العديدة التى عاينها الفرد فى حياته ونسيت أو كبتت . إن الأحداث التى توجد فى اللاشعور الشخصى من الممكن أن تستدعى إلى وعى الشعور ، مما يشير إلى أن هذا المستوى من اللاشعور ليس عميقا جدا .

وتتجمع الخبرات فى اللاشعور الشخصى فى مجموعات تسمى العقد Complexes ، وهى أنماط من الانفعالات والذكريات والرغبات مع بعض الأفكار مثل أفكار الدونية أو القوة ، وقد يكون الشخص مشغولا بفكرة القوة - مثلا - وهذا يؤثر على سلوكه . والعقدة هى أساسا شخصية صغيرة فى إطار شخصية الفرد العامة .

وتحت اللاشعور الشخصى يوجد المستوى الثالث وهو المستوى الأعمق ، ويسميه « يونج » اللاشعور الجمعى Collective unconscious وهو يحتوى على أمور يجهلها الشخص مثل جماع خبرات الأجيال السابقة . ويحتوى اللاشعور الجمعى كذلك على كل الخبرات التطورية التي مرت بالإنسان وكونت أساس شخصيته ، واللاشعور الجمعى يوجه السلوك الحاضر ، ومن ذلك فهو أهم قوة من قوى الشخصية . ونحن لا نتذكر الخبرات الموجودة فى اللاشعور الجمعى وليس لدينا صور ذهنية عن هذه الخبرات أى أننا غير واعين بهذا اللاشعور الجمعى .

وقد اعتقد « يونج» بأن اللاشعور الجمعى يؤثر فى نمو الشخصية، وقد سمى « يونج » النزعات الموروثة فى اللاشعور الجمعى - بالصور العتيقة archetypes ، وهذه الصور توجد فى جميع المجتمعات سواء متقدمة أو متخلفة ، وهذه الصور توجد فى القصص الخرافية مثل سندرلا والشاطر حسن . ومن الصور العتيقة

الرئيسة فيما يرى « يونج » : القناع ، والظل ، والذات . والقناع Persona هو الشكل الظاهرى للذات الحقيقية ، وهو القناع الذى نلبسه عندما نقابل الآخرين ، وهذا القناع نظهر به عندما نواجه المجتمع ، وعلى هذا فإن القناع قد لا يتفق مع شخصيتنا الحقيقية ، وهذه الفكرة تتفق مع فكرة لعب الأدوار سواء فى المجتمع أو على المسرح حيث يتصرف الناس فى ضوء ما يرسم لهم أو ما يتوقع منهم .

أما الظل shadow فهو الجزء المظلم من الذات ، هو الجزء الداخلى الوحشى ، وهو محتوى المناشط والرغبات المحظورة غير الأخلاقية . والظل هو الجانب الذى يحرضنا على أن نفعل مالا نرضاه لأنفسنا ، وعندما نتورط فى مثل هذه الأفعال نقول إن شيئا ما دفعنا إليها . ويرى « يونج » أن هذا الشىء هو الجزء البدائى الوحشى من طبيعتنا .

أما الذات Self فهى تعد أهم صورة عتيقة فى نظرية « يونج » . وهى تتكون من كل المظاهر اللاشعورية، وتعطى وحدة وثباتا لبقية الهيكل البنائى للشخصية ، والذات تحاول تحقيق التكامل بقصد الوصول إلى الواقعية والفاعلية . ويعتقد « يونج » أن تحقيق الذات يكون بالانسجام والتكامل بين أوجه الشخصية ، ويتم هذا فى منتصف العمر .

النقطة الثالثة: الانطواء والانبساط . اهتم « يونج » اهتماما شديدا بالإشارة إلى مفهوم الانطواء والانبساط ، حيث عرفهما فى حدود اتجاه الطاقة اللبيدية وعدهما اتجاهين أو أسلوبين للاستجابة للموقف ، وعدهما جزأين من الشعور . ويوجه المنبسط لبيده خارج الذات إلى الأشياء والأحداث الخارجية أى إلى الناس والمواقف ، وشخص هذا شأنه يتأثر بشدة بالقوى الموجودة فى البيئة ويتصرف انطلاقا من مبدأ الثقة بالنفس فى العديد من المواقف ، بينما يتجه لبيد المنطوى إلى الداخل ، وهذا المنطوى يكون أكثر ميلا إلى التأمل والاستبطان ومقاومة التأثيرات الخارجية ، وقليل الثقة بالعلاقات مع الآخرين ومع العالم الخارجى ، بالإضافة إلى ميله إلى الانسحاب الاجتماعى واتصافه بالخجل .

ويرى « يونج » أن هذين الاتجاهين المتعارضين يوجدان فى كل شخص بدرجات متفاوتة ، وكل شخص يكون محددا إلى واحد من الاتجاهين أكثر من الآخر. وأشار كذلك إلى أن الشخص لا يكون منطويا كلية ، أو منبسطا بصورة كلية ، بل هناك اتجاه سائد ، وهذا الاتجاه السائد يتأثر بموقف من المواقف فى لحظة معينة ، ومثال ذلك أن الشخص المنطوى قد يصبح منبسطا واجتماعيا فى موقف ما يثير ميوله واهتمامه .

النقطة الرابعة: تداعى المعانى : من المهم أن نشير إلى أن « يونج » أعد اختبارا لتداعى المعانى Word association - كأداة تشخيصية وعلاجية - واستخدمها لكشف العقد النفسية عند مرضاه . وفى هذه الطريقة تقرأ قائمة من الكلمات على المريض يستجيب لكل كلمة منها بأول كلمة تخطر على باله ، وقام « يونج » بقياس الفرق الزمنى بين الكلمة المثير والكلمة الاستجابة ، وكذلك ما يصاحب الاستجابة من تغيرات فسيولوجية ، وتوصل « يونج » من دراساته فى هذا المجال إلى أنه إذا حدث تأخر فى الاستجابة مع تغيرات فسيولوجية فإن الكلمة المحدثة لهذا التأخر فى الاستجابة ولتلك التغيرات الفسيولوجية تدل على وجود مشكلة انفعالية لا شعورية عند الشخص .

وثمة تعليق مختصر على نظرية علم النفس التحليلى عند « يونج » نقول فيه : إن لها بعض التأثيرات على علم النفس والطب النفسى ، لكن تأثير هذه النظرية كان شديداً على ميادين أخرى مثل الدين والتاريخ والفن والأدب . ومن أسف أن علم النفس تجاهل « يونج » ولم يعطه القدر الذى يستحقه ، ولم يلتفت إليه حق الالتفات رغم أفكاره الطيبة الجيدة البعيدة عن التعسفات والمبالغات ، كما أنه أعطى صورة متفائلة عن الإنسان ، ولكن قدر « يونج » أنه عاصر « فرويد » وكانت الهالة التي أحاطت « بفرويد » هالة باهرة حجبت ظهور عالم كبير مثل « يونج » .

« ألفرد أدلر » Adler (١٨٧٠ / ١٩٣٧)

ولد « أدلر » فى « فينا » لأسرة غنية ، لكن طفولته كانت غير سعيدة بسبب سوء صحته وغيرته من أخيه الأكبر ، وشعوره بالضآلة والمهانة ورفض أمه له ، وبرغم هذه البداية غير الواعدة – وربما بسببها – عمل بجد واهتمام حتى حقق لنفسه قدراً كبيراً من الاحترام والتقدير اللذين لم يلقهما فى أسرته .

وفى البداية كان « أدلر » تلميذا متخلفا إلى درجة أن أحد المدرسين قال لأبيه : إن « أدلر » التلميذ لا يصلح إلا لصناعة الأحذية ، ولكن بالتصميم والمثابرة انتقل « أدلر » من القاع إلى قمة الترتيب بين أقران فصله الدراسى ، ومن الناحية الاجتماعية والأكاديمية عمل بجد ليتجاوز نواحى نقصه ويحقق التعويض الموفق ، ويمكن أن ترجع فكرة الشعور بالنقص التى تكون نقطة مركزية فى نظرية « أدلر » إلى تجاربه فى الطفولة المبكرة .

والتحق « أدلر » بكلية الطب بجامعة فينا وحصل على درجته العلمية عام ١٨٨٥م ، وبدلا من أن يواصل الاهتمام بطب العيون الذى درسه اتجه إلى الطب النفسى . وفى عام ١٩٠٢ م بدأت لقاءاته مع « فرويد » وبعد عدة سنوات توصل «أدلر » إلى نظرية فى الشخصية تختلف عن نظرية « فرويد » فى نواح مختلفة ، وفى عام ١٩١١م انتقد بصراحة موقف فرويد من نظرية الجنسية رغم أن « فرويد » نصب « أدلر » عام ١٩١٠ م رئيسا لجمعية « فينا » للتحليل النفسى محاولا بذلك تقريب وجهات النظر بينه وبين « أدلر » ، ولكن كان لا مفر من الخلاف . واستقال «أدلر » من جمعية « فينا » للتحليل النفسى وانفصل رسميا عن الاتجاه الفرويدى .

وقد خدم « أدلر » فى الجيش النمساوى خلال الحرب الأولى ، وبعد الحرب اتجه إلى إقامة وتنظيم عيادات الإرشاد النفسى فى مدارس « فينا » ، وفى العشرينيات من هذا القرن عرف مذهب « أدلر » فى أوربا وأمريكا . وسافر إلى أمريكا عام ١٩٢٦ م حيث لقى ترحيبا شديدا . وفى عام ١٩٣٤ م عين أستاذا لعلم النفس الطبى فى كلية الطب بمدينة نيويورك . وقد توفى فى أسكتلندا أثناء جولة علمية له عام ١٩٣٧ م .

وأشهر مؤلفاته « علم نفس الفرد » أصدره عام ١٩٢٧ م .

وقد نعاه « فرويد » بعد وفاته عالماً نفسياً له قدره وفضله رغم معارضته لحركة التحليل النفسى الفرويدية .

وقد أسس « أدلر » مذهب علم النفس الفردى Individual Psychology والذى يمكن تلخيصه فى النقط الآتية :

النقطة الأولى: خلاف مع « فرويد » . حيث يختلف كل من « فرويد » و «أدلر» اختلافا حادا ، فبينما يؤكد فرويد على أهمية الطفولة المبكرة في تكوين شخصية الإنسان فإن تصور « أدلر » أن الشخصية تؤثر فيها أهداف المستقبل . وبينما يقسم « فرويد » الشخصية إلى قوى ومناطق ، فإن « أدلر » يؤكد وحدة الشخصية . أضف إلى ذلك أن « أدلر » أكد على أهمية العوامل الاجتماعية فى تحديد السلوك ، وليس القوى البيولوجية أو الغرائز التى قال بها « فرويد » وإننا في نظر « أدلر » نستطيع أن نفهم شخصية الفرد من خلال علاقاته الاجتماعية ، وهذا الاهتمام الاجتماعى يتكون فى الطفولة من خلال التعلم والخبرة . ومثل « فرويد » أكد «أدلر» على أهمية السنوات الأولى في حياة الطفل ، ولكنه يؤكد على العوامل الاجتماعية أكثر من العوامل البيولوجية ، كما قلل من دور الجنس فى تشكيل الشخصية .

النقطة الثانية: التفوق Superiority أكد « أدلر » على أهمية وحدة الشخصية واتساقها ، والشخصية يحركها هدف نهائى هو الرغبة فى الكمال أو التفوق ، وهو يتضمن تحقيق الذات وتطورها الكامل والتام . وفى هذا المقام يرى «أدلر » أن الجنس دافع هام ولكنه واحد من وسائل عديدة تهدف جميعا إلى التفوق والكمال ، وأن الدافع إلى التفوق والكمال دافع ولادى فيما يرى « أدلر »، وهذا الدافع هو المسئول عن تقدم الإنسان سواء أكان هذا التقدم على مستوى الأفراد أم على مستوى الجماعات .

النقطة الثالثة: الشعور بالنقص Feeling of inferiority – ولا يوافق « أدلر » على عد العوامل الجنسية العوامل الأساسية للسلوك ، ولكنه يعد الشعور بالنقص

القوة المحركة لسلوك الإنسان . (وهذا ينطبق على حياة « أدلر » الشخصية) . ويعزو « أدلر » الشعور بالنقص إلى العيوب الجسمية التى قد تصيب شخصاً ما بحيث يشعر بالنقص ، ويلجأ إلى التعويض Compensation . ومثال ذلك «ديموستين » اليونانى الذى كان يشكو من عيوب فى النطق ، ولكنه واظب على تدريب نفسه على التحدث حتى أصبح أخطب قومه .

وقد وسع « أدلر » مفهومه عن النقص بحيث شمل جميع أنواع النقص الجسمى والعقلى أو الاجتماعى الحقيقى أو المتوهم . وقد اعتقد « أدلر » أن ضآلة الطفل واعتماده على غيره من شأنه أن يخلق عنده شعوراً عاماً بالنقص ، وهذا الشعور العام بالنقص يتعرض له الناس جميعا ، ومع ذلك فإن الرغبة فى الكمال تسيطر على الطفل وتدفعه إلى تجاوز الشعور بالنقص . والشعور بعدم الأمن وعملية الشد والجذب هذه تستمر طول الحياة دافعة الفرد إلى مزيد من الإنجازات.

ومشاعر النقص تؤدى إلى فائدة لكل من الفرد والمجتمع ؛ لأنها تؤدى إلى تحسن مستمر لمواجهة مواقف الحياة المختلفة ، ومع ذلك فإن مشاعر النقص فى الطفولة والتى تقابل بمزيد من التدليل أو بمزيد من القسوة يمكن أن تؤدى فيما بعد، إلى سلوك تعويضى ، وكذلك فإن الإخفاق فى التعويض عن مشاعر النقص يؤدى إلى تكوين ما أسماه « أدلر » عقدة النقص inferiority complex ، والتى تجعل الفرد غير قادر على معالجة مشكلات الحياة معالجة سوية بناءة . وقد شاع تعبير عقدة النقص شيوعا واسعا سواء فى علم النفس ، أو فى الأدب أو فى الحياة العامة.

ويرى « أدلر » أن الرغبة فى التفوق هى عامة بالنسبة للبشر ، ولكنه أشار إلى أن هناك العديد من الأساليب السلوكية للوصول إلى هذا الهدف ، حيث يحاول كل شخص تحقيق التفوق بأسلوب خاص ، وهو ما أسماه « أدلر » أسلوب الحياة .

وأسلوب الحياة style of life فى نظر « أدلر » يتضمن الأنماط السلوكية التى بها نقوم بالتعويض عن مشاعر النقص الحقيقية أو المتوهمة ، وأسلوب الحياة هذا يتكون فى الطفولة ويصبح ثابتا وصعب التغيير ، وهكذا يؤكد « أدلر » على أهمية مرحلة الطفولة المبكرة ، مثله فى ذلك مثل « فرويد » .

النقطة الرابعة: القوة الخلاقة . حيث أشار « أدلر » إلى مفهوم أسماه القوة الخلاقة Creative Power وهذا المفهوم هو قمة نظرية « أدلر » حيث يرى أننا نحن البشر قادرون أن نحدد شخصياتنا فى إطار أسلوب حياتنا الخاص ، والقوة الخلاقة تمثل مبدءاً فعالا ونشطاً للوجود الإنسانى ، وهذا الفعل والنشاط قوام القدرات والخبرات . وقد اعتقد « أدلر » أن البشر قادرون على اختيار قدرهم ، وليس كما رأى « فرويد » من أن خبرات الطفولة من شأنها أن تحدد حتمية السلوك وتلغى الإرادة والحرية .

النقطة الخامسة: مركز الفرد فى الأسرة ، وحيث أكد « أدلر » على أهمية مركز الفرد فى الأسرة Constellation فى تشكيل أسلوب حياته ، ذلك أن الطفل الأول هو أكثر أطفال الأسرة تعرضاً لمشاعر النقص إذا قدم طفل آخر وأنزله من عرشه ، ومن مركزه المتميز . ولكن زمام هذا الموقف بيد الأم ويجب عليها - حتى تجنب طفلها الأول المخاطر - أن تمتنع عن التدليل الزائد للطفل الثاني على حساب الطفل الأول ، وفى مقابل ذلك أن تمتنع عن تركيز الاهتمام على الطفل الأول مع إهمال الطفل الثانى ، وذلك تجنبا لإيذاء مشاعر الطفل الثانى .

وبالإضافة إلى النقط الخمس السابقة ، فإن « أدلر » قبل فكرة تفسير الأحلام ولكنه رفض التفسير « الفرويدى » القائم على أساس نظرية الجنسية . وقدم تفسيراً جديداً مفاده : إن هذه الأحلام هى محاولة لحل مشكلات الفرد اليومية ، كما أن « أدلر » ابتكر أسلوبا للعلاج قائماً على مساعدة الفرد على تعديل أسلوب حياته بحيث يلتمس أساليب توافقية جديدة فى حياته الأسرية والاجتماعية.

وثمة تعليق مختصر على نظرية « أدلر » ، وهو أن الناس تقبلوها بمزيد من الارتياح والترحيب لأنها خالفت غلواء الفرويدية القائلة بحتمية السلوك ، وتحكم القوى الجنسية فيه ، حيث قدم « أدلر » صورة متفائلة مشرقة عن الإنسان .

ومع ذلك فإن مذهب « أدلر » لا يسلم من النقد ، فقد قيل عنه إنه مذهب سطحى غير متعمق ، كما أنه مبنى على بعض الملاحظات العامة . وقد أصاب

مـذهب « أدلر » مـا أصـاب مـذهب « يونج » من أن شـمس الفكر الفـرويدى أحـدثت كسوفا شديداً لنظرية « أدلر » فى علم النفس الفردى ، ولكن - ومن حسن الحظ - أن مذهب « أدلر » وأسلوبه فى العلاج قد لقيا الاهتمام في السنوات الأخيرة .

« كارين هورناى » Horney (١٨٨٥ / ١٩٥٢م) :

ولدت « كارين هورناى » فى مدينـة همبورج بألمانيـا ، وكان أبوها يعمل بحارا ويتصف بالتقوى والميل إلى الهدوء ، بعكس أمـهـا التى كانت تصـغـره بسنين عـديدة وكانت امرأة متمردة مرحة ، وكانت طفولة « هورناى » أبعد من أن تكون طفولة هينة لينة حيث عانت من رفض أمها لها إذ فضلت عليها أخاها الأكبر ، وكذلك عاملها أبوها معاملة جافة من شأنها تقليل قيمتها مما ترتب على ذلك أن شـعـرت شـعـورا قويا بأنها لا قيمة لها ، ويبدو أن الحاجة إلى الحب فى مرحلة الطفولة أثرت على « هورناى » أيما تأثير فى صياغتها لنظريتها فى القلق .

وقد حصلت على الماجستير من جامعة « فريبورج » فى ألمانيا عام ١٩١٣ م ، ثم ذهبت إلى الولايات المتحدة عـام ١٩٣٢ م . وخلال حياتها الأكاديمية عملت بمعهد « برلين » للتحليل النفسى ، ومعهد « شيكاغو » للتحليل النفسى - كذلك عينت عميدة للجمعية الأمـريكية للتحليل النفسى منذ عـام ١٩٤١ م حتى وفـاتها . وقد أثرت على حركة التحليل النفسى تأثيراً هاما ، وأصدرت العديد من الكتب التي لاقت الاهتمام والرواج . ومن أشـهـر هذه الكتب « الشـخـصية العـصـابية فـى هذا العـصـر » أصـدرته عـام ١٩٣٦ م « وطرق جديدة فـى التحليل النفسى » أصـدرته عـام ١٩٣٩ م ، وكتـاب « العصاب والنمو الإنسانى » أصدرته عام ١٩٥٠ م .

وقد اختلفت « هورناى » مع النظرية الفرويدية فى نقط عـديدة حيث اعتقدت بأن العديد من الافتـراضات الفـرويدية الأسـاسيـة كانت نتيـجة لطبيعـة العصـر الذى عـاش فيه « فـرويد » ، وأن الأخـلاقيـات وقيم السلوك بوجـه عـام قد تغيـرت كثيـراً ، كمـا أن « هورناى » قد صـاغت نظريتـهـا فى أمـريكا حيث الحـيـاة مـخـتلفـة بصـورة واضحة عن أوربا .

وقد عارضت « هورناى » « فرويد » فى قوله : إن تطور نمو الشخصية يعتمد على قوى من الدوافع الغريزية غير القابلة للتغيير ، وكذلك عارضت رأيه فى الأهمية البارزة للدافع الجنسى ، أضف إلى ذلك أنها رفضت القول بعمومية النظرية الأوديبية ومفهوم الليبدو . هذا كله بالإضافة إلى معارضتها رأى « فرويد » بأن المرأة تعانى مما أسماه « فرويد » حسد القضيب Penis envy وقالت « هورناى » : إن الرجل يعانى من حسد الرحم Womb envy وذلك لعدم قدرته على الإنجاب .

ويدور مذهب « هورناى » على أساس نقطة رئيسة هى مفهوم « القلق الأساسى » basic anxiety الذى عرفته بأنه : شعور الطفل بأنه وحيد فى هذا العالم الذى ينبئ بالعدوانية . وهذا القلق الأساسى يمكن أن ينشأ نتيجة اتجاهات الوالدين وأنماط سلوكهما حيال الطفل ، مثل الحاجة إلى الحب والحاجة إلى الحماية من أى شىء من شأنه تهديد العلاقة الآمنة بين الطفل ووالديه ، وهكذا فإن القلق الأساسى ليس فطريا بل هو نتيجة للظروف البيئية والأسباب الاجتماعية .

وقد شاركت « هورناى » « فرويد » رأيه القائل بأن الشخصية تتشكل فى مرحلة الطفولة المبكرة ، ولكنها اختلفت معه فى أن الشخصية من الممكن أن تتغير خلال المراحل اللاحقة للنمو .

وكما سبق القول بأن الفكرة الرئيسة عند « هورناى » هى القلق الأساسى الذى يتكون بسبب علاقة الطفل بوالديه ، هذا القلق الأساسى من شأنه أن يؤدى إلى مجموعة من الأساليب السلوكية strategies ، التى قد تثبتت وأصبحت جزءاً من الشخصية ، وتطلق عليها « هورناى » الحاجات العصابية . وهذه الحاجات تتضمن الحاجة إلى الحب والتقبل والمركز الاجتماعى والتحصيل والاستقلال والقوة ، وهذه الحاجات العصابية يمكن أن تتلخص فى ثلاثة اتجاهات :

الاتجاه الأول : وهو الاتجاه نحو الناس أو نحو الآخرين ، مثال ذلك الحاجة إلى الحب.

الاتجاه الثانى : الاتجاه بعيدا عن الناس أو الآخرين ، مثال ذلك الحاجة إلى الاستقلال .

الاتجاه الثالث : الاتجاه ضد الناس أو الآخرين، مثال ذلك الحاجة إلى القوة .

كذلك صاغت « هورناى » تعبير صورة الذات المثالية idealized self image والتى هى صورة زائفة عن الشخصية ، ذلك أن صورة الذات هى قناع مضلل يمنع الشخص العصابى من أن يتفهم أو يتقبل ذاته الحقيقية ، وباصطناع هذا القناع فإن العصابى ينكر صراعاته الداخلية ويبدو حيال نفسه فى صورة أحسن من الواقع بكثير .

هذا وقد أكدت على أهمية شعور الطفل بعدم الأمن ، مما يؤثر على خلق صراعات داخلية مما يترتب عليه أسلوب للحياة يتسم بالعصاب ، وهى كذلك تؤكد على أهمية دافع التفوق أو الاستعلاء مثل « أدلر » .

وثمة تعقيب على نظرية « هورناى » نقول فيه : إن هذه النظرية لقيت قبولا واستحسانا عند معاصريها ، وبعد مماتها ، وذلك لبساطة نظريتها وسهولة فهمها وميلها إلى التفاؤل بعكس النظرية « الفرويدية » التى تميل إلى التشاؤم وتزدحم بمجموعة من الفرضيات والميكانزمات والمفاهيم الغامضة .

« **أريك فروم** » Fromm (١٩٠٠ / ١٩٨٠) :

درس « فروم » علم الاجتماع وعلم النفس ثم تدرب على التحليل النفسى وأصبح من أشهر المحللين النفسيين .

ولد فى مدينة « فرانكفورت » بألمانيا من أبوين عصابيين ، حيث عانى والده من القلق ، وعانت والدته من الاكتئاب ، وفى سن الثانية عشرة ، صدم عندما شاهد حادث انتحار لأحد أصدقاء العائلة . وبعد سنوات قليلة صدمته أحداث الحرب العالمية الأولى وما حملته من وحشية ودمار . ولكى يفهم السلوك اللاعقلانى اتجه إلى دراسة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس . وحصل على درجته العلمية عام ١٩٢٢ م من جامعة « هيدلبرج » الألمانية ، وتدرب على التحليل النفسى فى معاهده المتخصصة فى « ميونخ » و « برلين » وسافر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٤ م ،

وحاضر فى جامعة « شيكاغو » ثم انتقل إلى مدينة « نيويورك » حيث افتتح عيادة خاصة للتحليل النفسى ، هذا إلى جانب قيامه بالتدريس فى العديد من الجامعات الأمريكية . إلى جانب قيامه بالتدريس بالجامعة القومية بالمكسيك ، حيث أسس قسما للطب النفسى فى كلية الطب بتلك الجامعة . وبعد اعتزاله عام ١٩٦٥ م بقى على صلاته العلمية بجامعة المكسيك وببعض الجامعات الأمريكية . وفى عام ١٩٧٤م سافر إلى سويسرا وبقى هناك حتى وفاته .

ومن أهم الكتب التى ألفها « فروم » كتاب « الهروب من الحرية » الذى أصدره عام ١٩٤١ م وكتاب « قلب الإنسان » الذى أصدره عام ١٩٦٤ م .

ويمكن تلهيص مذهب « فروم » فى النقط التالية :

النقطة الأولى: اثر المجتمع على الفرد . من أول الاهتمامات الأساسية عند « فروم » دراسة أثر المجتمع على الفرد ، حيث اعتقد أن الأنظمة السياسية الحديثة (ويقصد « فروم » المجتمع الغربى) لم تمد الفرد بالأمان الذى يحتاج حيث إننا نجحنا فى تحرير أنفسنا من الاعتماد على البيئة الطبيعية ولكن ليجد كل منا نفسه منعزلا عن أفراد المجتمع الآخرين .

ويرى « فروم » أننا عندما نتدرج فى مراحل النمو من الطفولة إلى المراهقة ثم إلى الرشد فإن الفرد يحقق الاستقلال ، ولكن تحقيق الاستقلال هذا يكون على حساب الشعور بالأمن ، كما أن المجتمع يتجه نحو مزيد من الحركة والتعقيد وإلغاء الشخصية الفردية مما يؤدى إلى فقد « العلاقات » الآمنة مع الجماعات الأساسية مثل الأسرة والعشيرة أو القرية التى ينتمى إليها . هذا كما فقدنا العلاقات الآمنة مع الطبيعة نفسها ، مما أورثنا الشعور بالوحدة والتفاهة .

وعلى هذا يرى « فروم » أننا نهرب من هذه الحرية إلى وجود أكثر أمنا ، كما يرى أن القوة الدافعة فى الإنسان ليس فى إرضاء الدوافع الغريزية بل فى تحقيق ما أسماه « فروم » الاعتمادية dependence . وفى كتابه « الهروب من الحرية » - الذى كتب أثناء سيادة النظام النازى فى ألمانيا - أشار « فروم » إلى أن النازية

تجتذب الناس لأنها قدمت لهم أسلوبا للعودة إلى الاعتمادية وإلى الشعور بالأمن . ويرى « فروم » أن الطبيعة الإنسانية تحددها العوامل الاجتماعية الحضارية وليست العوامل البيولوجية .

النقطة الثانية: التسلطية والإنسانية . حيث يرى أن من بين الأنظمة التى من خلالها نستطيع تحقيق الأمن هى التسلطية والإنسانية ذلك أن التسلطية authori-tarianisem تؤدى بالمجتمع إلى الانصياع إلى مجموعة من المبادئ الجامدة ، التى تؤدى إلى حالة من العبودية والاسترقاق ، كما رأى أن المجتمع الذى يمنع الفرد من تحقيق إمكاناته يولد فى الفرد شعوراً بالكراهية تجاه المجتمع . أما الحل الأمثل فى نظر « فروم » فهو الإنسانية humanism حيث يتحد الأفراد تحت مظلة من الحب ويشارك بعضهم بعضا فى العمل مستمسكين بأهداف التعاون المشترك بحيث يشعر الفرد بالاقتراب من الآخرين ، ومن ثم ينتفى شعوره بالوحدة والعزلة .

النقطة الثالثة: حاجات الفرد . ومن الشعور بالوحدة والعزلة تنشأ لدى الفرد حاجات خمس هى : الحاجة إلى معنى الشخصية الفردية ، والحاجة بالشعور للانتماء للمجتمع وبأن له جذورًا فيه ، والحاجة إلى تجاوز الطبيعة الحيوانية للإنسان والتحول إلى كائنات إنسانية خلاقة ، والحاجة إلى تكوين علاقة آمنة مع الآخرين ، وأخيرا الحاجة إلى إطار مرجعى ثابت .

كما لاحظ « فروم » أن المجتمع لا يقدم الوسائل الكافية لتحقيق هذه الحاجات ، بل إن المؤسسات السياسية والاجتماعية تثير العديد من الصراعات ، ذلك أنها ترضى بعض الحاجات على حساب الحاجات الأخرى ، هذا إلى جانب أن التوحد الزائد بالقومية من شأنه أن ينازع تحقيق الحاجة إلى معنى الشخصية الفردية .

ويقدم « فروم » أساليب عدة للخلاص من الشعور بالعزلة والشعور بفقدان الأمن الذى يشيع – حسب اعتقاده – فى المجتمعات الغربية الحديثة ، وأشار إلى ذلك فى كتابه « قلب الإنسان » ، حيث أشار إلى أساليب دينامية للتوجيه orientations ، وهذه الأساليب التوجيهية هى :

* **التوجيه التقبلى** receptive orientation حيث يعتقد الأفراد أن الأسلوب الوحيد لكى يحصلوا على ما يريدون من حاجات مادية أو عاطفية هو أن ينالوها من مصدر خارجى . وهكذا يصبح الأفراد الذين يتخذون هذا التوجيه التقبلى استسلاميين ومعتمدين على الغير ، ويتوقع الواحد منهم من الناس أن يهتموا به ويساعدوه .

* **التوجيه الاستغلالى** exploiative orientation حيث يتبدى هذا التوجيه الاستغلالى في السلوك العدوانى ، ويتوقع الأفراد الذين يتخذون هذا التوجيه أن يساعدهم الناس ، بل يحاولون استغلال الناس بالحيلة أو بالإكراه ؛ متخذين فى حياتهم فلسفة شعارها « القوة هى الحق » .

* **التوجيه الادخارى** hoarding orientation ، ويبدو هذا التوجيه فى اتخاذ موقف إدراكى مضمونه ، أن العالم الخارجى مصدر تهديد مما يؤدى إلى فقد الثقة بالآخرين ، فالشخص الادخارى يميل إلى التملك والادخار ولا ينفق إلا القليل ولا يحقق له الشعور بالأمن إلا حيازة الأموال والعقارات .

* **التوجيه طبقا للسوق** marketing orientation وهذا التوجيه يعكس التصور الرأسمالى ، حيث يكون النجاح بمدى تقبل الناس لما يقدمه الفرد من خدمات أو مدى الرضا الذى يحصل عليه ممن يستوظفونه . ويلعب الفرد عدة أدوار بهدف أن يبيع نفسه أكثر ما يهدف إلى تحقيق إمكاناته . فمعيار النجاح حسب هذا التوجيه هو مدى نجاح الشخص فى ساحة السوق وليس كفاءته الشخصية .

* **التوجيه المنتج** productive orientation . التوجيهات الأربعة السابقة توجيهات مرضية ، أما الشخص السوى فى نظر « فروم » فهو الذى يبدى توجيها منتجا ، حيث يحقق الفرد إمكاناته ، ويصل إلى أهدافه دون أن يسئ للآخرين ، ودون أن يسئ له الآخرون ، وهذا يتم عن طريق « الإسهامات المبتكرة » سواء فى مجال عمله ومهنته أم فى مجال أسرته أم فى مجال المجتمع بوجه عام .

وثمة تعقيب على نظرية « فروم » نقول فيه : إن فكرة « فروم » تدور حول علاقة الفرد بالمجتمع ، وهو متفائل فيما يخص قدرتنا على تشكيل مجتمع يساعدنا على تحقيق ذواتنا من حيث نحن كائنات بشرية ، وهذه الفكرة تروق للكثيرين لأنها تعطى الأمل فى تطوير المجتمع إلى الأفضل .

هذا وقد توجه النقد إلى « فروم » لعدم تقديمه دلائل تجريبية على الفرضيات التى اتخذها ، كما توجه النقد إلى نقده للمجتمع الغربى ، وذلك لأن المجتمع الغربى ينعم بقدر كبير من التقدم والرخاء والرفاهية .

ومهما يكن من أمر فإن كتابات « فروم » تتميز بالبساطة والسهولة بحيث لقيت رواجا عند القارئ العادى إلى جانب رواجها فى مجال علم النفس أيضا .



الفصل السابع عشر

المدرسة السلوكية Behaviorism

هى أشهر المدارس الأمريكية قاطبة. وقد أطلق عليها هذا الاسم مؤسسها الأول «واطسون» . وقد لعبت السلوكية دورا هاما ليس فى مجال علم النفس فقط، ولكن فى الحياة الثقافية الأمريكية بوجه عام ، حيث كان تأثيرها يضارع تأثير التحليل النفسى المستورد من أوربا .

ويتميز « واطسون» بأن له جانبا سلبيا وجانبا إيجابيا ، أما من حيث الجانب الإيجابى: فإنه أسهم فى بناء علم نفس موضوعى إذ رغب فى تطبيق أساليب البحث فى علم نفس الحيوان - الذى كان محل اهتمامه الأول - على الإنسان - وهذا المظهر الإيجابى من السلوكية يمكن تسميته بالسلوكية « الإمبيريقية» العملية. وكانت النقطة الأولى من هذه السلوكية العملية هى إصرار «واطسون» على أن يعد السلوك بمثابة المصدر الأول للمعارف السيكولوجية . أما الجانب السلبى عند «واطسون» فهو : تنديده المستمر باتجاه المفاهيم العقلية فى علم النفس، محتجا بذلك على علم النفس الاستبطانى عند «تتشنر» ، ومحتجا أيضا على ما شاب وظيفية «إنجل» من نقائص. وقال « واطسون» : إن «إنجل» قبل المعلومات التى نحصل عليها بالاستبطان، وهو فى هذا ينتهج نهجا يتسم بالتحيز. وقد أبدى «واطسون» أسفه و امتعاضه من سيادة الأفكار الفلسفية واستمرارها فى علم النفس. ومع ذلك فقد اتخذ هو نفسه موقفا فلسفيا مؤداه إنكار وجود العقل، وهذا يمثل سلوكيته المتطرفة والتى أثارت الكثير من الجدل .

ممهدات السلوكية :

وثمة أمور ساعدت على ظهور السلوكية لتكون مدرسة أمريكية فى علم النفس. وهذه الأمور هى :

* **الأمر الأول** : يتمثل فى الاتجاهات السابقة التى نادت بالموضوعية ، حيث لم يكن « واطسون» أول من نادى بذلك، إذ إن هناك تاريخا طويلا من العلماء الذين طالبوا بهذه الموضوعية ، وأغلبهم من الفلاسفة. فمثلا « ديكارت » الذى اتخذ أول خطوات فى سبيل القول بالموضوعية فى علم النفس طبق التفسيرات الميكانيكية على النفس وعلى الجسم معا .

وبالإضافة إلى «ديكارت» فإن المفكر الفرنسى « أوجست كونت » (١٧٩٨ - ١٨٥٧) يعد مؤسس الحركة الوضعية، إذ اعتقد بأن المعلومات التى تأتينا عن طريق الملاحظة الموضوعية هى وحدها التى يمكن أن تتصف بالصدق . وعلى هذا فإن الاستبطان الذى يعتمد على الشعور الخاص لا يمكن أن يمدنا بالمعرفة الصحيحة . كما أنكر «كونت » بشدة العقل الفردى ، وانتقد كذلك منهج البحث الذى يعتمد على الذاتية. وقال : « لكى تلاحظ فإن عقلك يجب أن يتوقف عن العمل والنشاط ولكن هذا العمل والنشاط هو الذى ترغب فى أن تلاحظه إذا اتبعت منهج الاستبطان . وإذا لم تكن تستطيع أن توقف النشاط العقلى فإنك لن تستطيع أن تلاحظ. وحتى لو افترضنا أنك استطعت أن توقف نشاط العقل فماذا تلاحظ ؟ لا شىء بالطبع » وكان لـ « أوجست كونت » تأثير بالغ على من عاصره أو جاء بعده من المفكرين، حيث شاعت بينهم الرغبة فى إقامة جميع العلوم على أسس موضوعية .

* **الأمر الثانى** : وهو ظهور الاهتمام بعلم نفس الحيوان . وكان هذا بسبب ظهور نظرية النشوء والارتقاء عند «دارون» (والتى تحدثنا عنها فى موضع آخر من الكتاب) وتأثيرها على علم النفس بوجه عام وعلم النفس الوظيفى بوجه خاص . وقد أعطت نظرية النشوء والارتقاء هذه دفعة هائلة لدراسة علم نفس الحيوان الذى يعد الأساس الأول فى نظرية « واطسون » السلوكية .

وقد تطور علم نفس الحيوان بصورة مباشرة أو غير مباشرة بتأثير نظرية النشوء والارتقاء ، وكان لهذه النظرية تأثير كبير على المفكرين الإنجليز. ولكنها لقيت معارضة شديدة من رجال الدين ، وكان الاعتراض الأول هو باتجاه فكرة « دارون » بالاستمرارية العقلية بين الإنسان والحيوانات الدنيا ، وكانت الإجابة القوية فى مجابهة الاعتراضات التى أثيرت ضد النظرية هى محاولة البرهنة على هذه الاستمرارية العقلية ، مما جعل من علم نفس الحيوان ضرورة لا محيص عنها ، وكان هناك طريق واحد للدفاع عن نظرية «دارون» وهى الإبانة عن وجود العقل عند الكائنات تحت البشرية ، وذلك لبيان الاستمرارية بين عقل هذه الكائنات تحت البشرية والعقل البشرى .

هذا وقد بدأ « دارون » هذه المعركة بنفسه، وكان ذلك فى مؤلفه « التعبير عن الانفعال عند الإنسان والحيوان » والذى أصدره عام ١٨٧٢م ، وكانت فكرته الأساسية فى هذا المؤلف أن السلوك الانفعالى أو الجوانب الانفعالية عند الإنسان هى ميراث من سلوك كان مفيداً فى وقت ما بالنسبة للحيوان ولكنه غير مفيد الآن بالنسبة للإنسان .

ولم يكن «دارون » هو الوحيد فى هذا الميدان بل ساعده فى ذلك العالم البيولوجى «جورج رومانس » Romanes (١٨٤٨ - ١٨٩٤م) حيث قام بعده بالدفاع عن نظريته ، وقد جمع « رومانس » كل المعلومات القصصية عن سلوك الحيوان من كل المصادر سواء أكانت مصادر شعبية أم مصادر علمية ، وجمع كمية كبيرة من المادة العلمية ومنها أعد أول كتاب فى علم النفس المقارن أصدره عام ١٨٨٦م بعنوان « ذكاء الحيوان ». وطريقة « رومانس » فى جمع المعلومات تسمى الآن الطريقة القصصية . ولكن «رومانس » لم يستطع أن يكون علميا ومنضبطا، ذلك أنه لم تتوافر لديه أساليب للتحقق من سلامة وصحة مصادره الأصلية ، وأن هذه النزعة التشبيهية (التى يقصد بها رؤية سلوك الإنسان واستطلاعه فى سلوك الحيوان) مثلها مثل الطريقة القصصية مرفوضة الآن فى علم النفس. وبالرغم من القصور الذى شاب منهج « رومانس » فإنه يستحق التنويه بأنه هو الذى أدى إلى تطوير وإنماء دراسة علم النفس المقارن، وذلك تمهيداً للمنهج التجريبى الذى اتخذ فيما بعد .

كما أسهم « مورجان » Morgan (١٨٥٢ / ١٩٣٦م) فى إثراء علم نفس الحيوان أيضا، وذلك بأن أصدر كتابه « مقدمة إلى علم النفس المقارن» عام ١٨٩٤م حيث استخدم منهجا شبه تجريبى ، واستطاع ممارسة ضبط تجريبى جزئى فى دراسته على الحيوانات الدنيا - وقد لجأ « مورجان » إلى التشبيهية، وذلك للبرهنة على الاستمرارية بين الحيوان والإنسان، بل بين إنسان وإنسان آخر، وكذلك لجأ « مورجان » إلى التأكيد على الاستمرارية بين الإنسان والحيوان عن طريق التشابه فى العادات، وكذلك عن طريق أسلوب التعلم بالمحاولة والخطأ الموجود عند الإنسان والحيوان، ولذا فإن تجارب «ثورندايك» تتفق مع « مورجان » كل الاتفاق .

ومن الطريف أن نذكر أن الثلاثى (مورجان - ثورندايك - واطسون) حاول أن يفسر التعلم عن طريق مجموعة من المبادئ البسيطة التى تنطبق على الإنسان والحيوان. أما المدارس الأخرى ، وبالذات مدرسة « الجشطلت» فهى أقرب إلى «رومانس » فى الميل إلى استجلاء الخصائص الاستبصارية فى التعلم الإنسانى والحيوانى .

ولا يفوتنا الإشارة - عند الحديث عن دراسات علم نفس الحيوان - إلى «جاكوب لوب » Loeb (١٨٥٩ - ١٩٢٤م) وهو بيولوجى ألمانى حضر إلى الولايات المتحدة فى عام ١٨٩١م، حيث قضى معظم حياته العلمية، وهو المسئول عن صياغة لفظ «الانتحاء» Tropism أو الحركة القسرية، ويقصد بالانتحاء نزعة الحيوان أو النبات إلى الحركة استجابة مباشرة للمثير، وهو أيضا استجابة قسرية . وقد رأى «لوب» أن كل سلوك الحيوانات الدنيا هو من أشكال الانتحاء أيضا. وثمة مثال مألوف للسلوك الانتحائى هو سلوك الفراشة الذى يتسم بالحركة الآلية باتجاه الضوء واللهب حتى وإن أهلكها ذلك ، وبالطبع فإن جميع الحركات الانتحائية ليست بالضرورة مهلكة .

ولم يكن « لوب » ضد نظرية النشوء والارتقاء بالتحديد ، ولكنه كان ضد فكرة التشبيهية بوجه خاص. وبالرغم من أن « لوب» شعر بأنه يمكن أن يفسر سلوك الحيوانات الراقية بالانتحاء، فإنه لم يتعرض أبدا لتفسير السلوك الإنسانى بالانتحاء،

ومما يجدر ذكره أن «لوب» درس «واطسون» عدة مقررات فى جامعة شيكاغو، مما لفت انظار هذا الأخير إلى علم نفس الحيوان أكثر وأكثر .

ومن الذين أسهموا فى موضوع علم نفس الحيوان العالم «روبرت يركز» Yerks (١٨٧٦ - ١٩٥٦م) وقد بدأ دراساته عام ١٩٠٠م على السرطانات والسلاحف والضفادع والفئران والديدان والغربان والحمائم والنسانيس والقردة ، إلى جانب الإنسان. ومن أهم إنجازاته: دراساته عن القردة وعرضها فى كتابه «الشمبانزى: مستعمرة التجارب» الذى أصدره عام ١٩٤٣م . وقد اشترك «يركز» مع «واطسون» فى بعض الدراسات عن علم نفس الحيوان ، ويعد « يركز » سلوكيا فى منهجه فى البحث رغم أنه ليس سلوكيا فى افكاره وعقيدته العلمية. أضف إلى ذلك أنه كان من المعجبين بالعالم البنائى «تتشنر» . وقد شعر أن إجراء التجارب هو من أمتع جوانب علم النفس، ومهما يكن من أمر فإن إسهام «يركز» الحقيقى فى علم النفس هو تقوية مركز علم النفس المقارن ، وخاصة عندما قام بتأسيس محطة تجارب الشمبانزى فى «فلوريدا» وسميت باسمه بعد ذلك .

وفى جامعة « كلارك » . قام « سمول » Small بتصميم أول متاهة للفأر فى عام ١٩٠٠م أى فى العام نفسه الذى بدأ فيه «يركز» بحوثه ، وقد خضع الفأر الأبيض للدراسة فى المتاهة حيث كان هذا الأمر « فتحا » فى هذا النوع من الدراسات .

ومن الطريف أن نذكر أن أول طالبة تحصل على درجة الدكتوراه تحت إشراف «تتشنر» هى «مارجرت واشبورن» . نشرت كتابا عن «علم نفسن الحيوان» عام ١٩٠٨م ضمنته خلاصة وافية للتجارب فى هذا المجال، كما اهتم هذا الكتاب بالدراسة التحليلية للعمليات العقلية عند الحيوان والإنسان، واحتوى كذلك على عديد من التجارب والمعلومات بحيث أصبح كتابا كلاسيكيا، وهكذا أسهم المعسكر البنائى فى إعطاء علم النفس السلوكى قوة دافعة إلى الاهتمام بدراسة الحيوان .

* **الأمر الثالث :** هو الوظيفية الأمريكية حيث كانت هذه الوظيفية الأمريكية هى القوة الثالثة التى أدت إلى ظهور السلوكية، فقد كان عدد السيكولوجيين الذين يتبعون المدرسة الوظيفية يميلون ميلا شديدا إلى الاتجاه الموضوعى، وعلى سبيل المثال

موقف «كاتل» الذى قال « إنه ليبدو لى أن كل البحوث التى أجريتها فى المختبر لا تعتمد على الاستبطان، وذلك كما هو حال البحوث فى الفيزياء وعلم الحيوان» وحتى «وليم مكدوجل» خصم «واطسون» العنيد عرف علم النفس «بأنه العلم الموضوعى للسلوك» رغم أنه كان يمثل المدرسة « الغرضية » كما هو معروف (سنعرض له بالتفصيل فى موضع قادم) .

* **الأمــر الرابع :** هو الأثر الهائل للمدرسة الروسية العملاقة فى علم النفس. وهى مدرسة المنعكس الشرطى التى أسسها العالم الفسيولوجى «إيفان ششنوف » (١٨٢٩ – ١٩٠٥) وطورها « بافلوف» و « بختـرف » . ومن العجيب حقـا أن نذكر أن «ششنوف » نشر عام ١٨٧٣ م كتابه عن «المنعكس الشرطى للمخ » بعد أن كان قد نشره فى صورة مقالة عام ١٨٦٣م . ومن الأكثر عجبا أن نرى الجانب المنهجى والفلسفى عند « ششنوف » يطابق الجوانب نفسها عند « واطسون » فى موضوعيته. ولا ننسى بالطبع فضل «ششنوف » فى السبق الزمنى .

وبعد هذه المقدمة نتحدث عن أهم رجالات المدرسة السلوكية فى النقاط التالية :

«جون واطسون» Watson (١٨٧٨/ ١٩٥٨م) :

ولد « جون واطسون » فى «كارولينا» الشمالية، وحصل على شهادة الماجستير من جامعة « فورمان » عام ١٩٠٠م بعد دراسة جامعية لمدة خمس سنوات ، ثم جذبته الدراسة فى جامعة شيكاغو بتأثير من «جون ديوى » ، واتجه إلى دراسة علم النفس التجريبى تحت تأثير «أنجل» كما درس الفسيولوجيا على يد «لوب». وبعد ثلاث سنوات حصل على الدكتوراه عام ١٩٠٣م.

وبالرغم من أن «واطسون» درس الفلسفة فى المرحلة الجامعية كما درسها فى مرحلة الدراسات العليا فإنه يذكر أنه استفاد من الفلاسفة الإنجليز، أساسا من «هيوم» وشيئا من «لوك» وقليلا من «هارتلى» . كما أنه لم يستفد من «جون ديوى » إلا النزر اليسير أما عملاق الفلسفة الألمانية « كنط » فإنه لم يستفد منه شيئا . ويقول

«واطسـون» عن «ديوى»: لم أعرف أبدا عن مـاذا يتكلم عندما درسته وأنا طالب، ومـا زلت لا أعرف عن ماذا يتكلم بعد ذلك (أى عندما أصبح «واطسون» أحد كبار علماء النفس) .

وعندما كان «واطسون » فى شيكاغو كانت دراساته منصبة على المفحوصين من الحيوانات. ذلك أنه كره أن تكون تجاربه على مفحوصين من البشر، لأنه كان يكره أن يكون هو مفحوصا ، كما أنه كان يرى أن الموقف التجريبى على مفحوصين من البشر هو مـوقف مـصطنع وغـيـر طبيعى ، أما بالنسبة للمفحوصين من الحيوانات فإن «واطسـون» كـان يفضله، وكـان يستطيع عن طريقه التوصل إلى الملاحظات العلميـة والدقيقة .

وكانت رسالته فى الدكتوراه تطبيقات فى مجال علم نفس الحيوان، وكان « أنجل » من بين المشرفين عليها، وكانت تتناول دراسة الارتباط بين زيادة تعقد وتطور السلوك وزيادة الغمد النخاعى medullation فى الجهاز العصبى المركزى. ومما يذكر أيضا أن من أحسن البحوث التى أجريت فى جامعة شيكاغو فى ذلك الوقت هى دراسة «واطسـون» عن تحليل المشعرات الإحساسية التى تؤدى إلى التعلم فى المتاهة عند الفأر، حيث استخدم «واطسون» مناهج بحثية موضوعية ومتقدمة توصل منها – بعد تحليل الحواس المختلفة – إلى أن الإحساس بالحركة فى العضلات والأوتار العضلية هو الأساس فى التعلم فى المتاهة .

وفى عـام ١٩٠٨م قـبل « واطسـون » وظيـفـة الأسـتـاذية فى جـامـعـة «هوبكنز» الأمريكية حيث أكمل دراساته التجريبية العملية على الحيوانات وذلك بالتعاون مع «يركز» (الذى عمل لفترة قصيرة فى كلية الطب بجامعة هوبكنز) حيث درس القدرات البصرية لدى الحيوان .

وفى هذا الوقت بدأ «واطسون» التفكير بطريقة أكثر موضوعية، وتركز اهتمامه فى دراسة الحيوان. وفى عام ١٩١٢م نشرت له مقالة بعنوان «علم النفس من وجهة نظر السلوكية»، وقد ظهرت هذه المقالة نفسها بعد ذلك بعام واحد فى مجلة «المراجعات السـيكولوجيـة » وفى هذا المـقـال أشـار « واطسـون » إلى أن : علم النفس كمـا تراه

السلوكية هوفرع تجريبى بحت من العلوم الطبيعية، وهدفه النظرى هو التنبؤ بالسلوك والتحكم فيه، ولا يمثل الاستبطان شيئا من منهجه فى البحث، وكذلك التفسيرات التى تعتمد على مفهوم الشعور ، أما السلوكية فإنها تهدف إلى الوصول إلى خطة موحدة عن استجابة الحيوان، وهى أيضا لا ترى خطا فاصلا بين الإنسان والعجماوات، وأن سلوك الإنسان بكل ما فيه من رقى وتعقيد يشكل فقط جزءا من خطة « السلوكى البحثية ».

وفى عام ١٩١٤م أصدر « واطسون » كتابه الأول «السلوك: مقدمة فى علم النفس المقارن » وتبين أن «واطسون» تجاهل «بافلوف » فى طبعته الأولى، ثم عاد فى طبعة تالية وأشار إليه واحتضن بعضا من آرائه .

وفى عام ١٩١٩م نشر « واطسون » كتابا ثانيا تحت عنوان « علم النفس من وجهة نظر السلوكية » وكان هذا الكتاب استكمالا لأسلوبه فى البحث، حيث توسعت طرق البحث الموضوعية لتشمل مشكلات السلوك الإنسانى ، وقد قبل « السلوك اللفظى » مادة بحثية، ولكنه رفض الاستبطان، وأعيد طبع هذا الكتاب عام ١٩٢٤م ، وظهرت فى هذه الطبعة دراسات «واطسون» عن الانفعالات الطفلية والأشراط الانفعالى .

وقد شعر « واطسون » بأن علم النفس من حيث كونه نسقا علميا، يجب أن ينفصل نهائيا عن الماضى. وقال بأن علم النفس بدأ بداية زائفة على يد « فونت » ، لأن هذا العلم لم يدفن ماضيه، ذلك أنه كان عليه أن يمد إحدى يديه متعلقا بأذيال تراثه، ويمد يده الأخرى باتجاه أن يكون علما، ولكن لا يمكن للأمر أن يكون كذلك، ذلك أن الفلك عندما تقدم دفن ماضيه وهو التنجيم ، وكذلك علم الكيمياء دفن السيمياء ولكن العلوم الاجتماعية مثل علم النفس وعلم الاجتماع لم تستطع أن تتخلص من ماضيها .

وفى عام ١٩٢٠م طلق زوجته وتزوج من فتاة أخرى، وكان موقف الرأى العام تجاه هذا الزواج بالغ الحساسية، و طلب منه الاستقالة من الأستاذية فى جامعة « هوبكنز» ، وكان ساخطا على التدخل في شئونه الشخصية، وعمل بعد ذلك فى مجال الإعلان ولعدة سنوات تالية استمر فى إلقاء المحاضرات فى مدينة « نيويورك » . ونشر

الموضوعات السيكولوجية ، وفي عام ١٩٢٥م أصدر كتابا عن « السلوكية » وهو تجميع لعديد من المحاضرات . ولم يصدر شيئا ذا قيمة بعد منتصف العشرينيات لهذا الرجل ، الذي كان له تأثير أيما تأثير على علم النفس .

ومهما يكن من أمرنا - نخالفه أو نوافقه - فإننا لا نملك إلا الأسف على فقدان علم النفس لرجل لامع نشيط من رجالاته ، انزوى ونفي من المحيط السيكولوجي، وهو بعد في الثانية والأربعين من عمره، بينما كان من خيرة رجالاته، وفي مثل سن اعتزال «واطسون» بدأ عدد كبير من السيكولوجية في الظهور ، ولو قدر له أن يستمر في إنتاجه العلمي وعمله الأكاديمي فربما كان للسلوكية شأن آخر .

ويمكن أن نوجز موقف «واطسون » في علم النفس في النقاط الآتية :

أولا : تعريف علم النفس : حيث يعرف «واطسون» علم النفس على أنه ذلك الفرع من العلم الطبيعي الذي يتخذ السلوك الحيواني أو السلوك الإنساني موضوعا له، هذا السلوك الذي يبدو في الأفعال أو الأقوال سواء المتعلمة أو غير المتعلمة، ويرى «واطسون» أن أفعالنا هي سلوك، وكذلك فإن « التحدث مع النفس » أي التفكير هو نموذج موضوعي للسلوك ، شأنه في ذلك شأن لعب كرة القاعدة «البيسبول » .

وتتميز سلوكية « واطسون » بعلامتين رئيستين :

- التنبؤ بالاستجابة على أساس معرفة المثير .

- التنبؤ بالمثير على أساس معرفة الاستجابة .

ولفظ المثير والاستجابة من الألفاظ الرئيسة التي أستخدمها «واطسون» مرارا، إذ يرى أنه لا يمكن أن نصف شيئا من السلوك دون أستخدام لفظي المثير والاستجابة، ويعني بالمثير أي حاصل في البيئة بوجه عام أو أي تغيير فيها ، كأن نمنع الطعام عن الحيوان أو نمنعه عن بناء عشه، ونعني بالاستجابة ما يفعله الحيوان مثل الابتعاد أو الاقتراب من مثير ضوئي أو القفز عند سماع الأصوات . وقد تكون الاستجابة أكثر تعقيدا مثل بناء ناطحة سحاب ورسم الخطط وإنجاب الأطفال .

ثانيا : مسلمات علم النفس حيث حددها « واطسون » بصورة صريحة فيما يأتى:

- السلوك مكون من عناصر للاستجابة ، ويمكن تحليل السلوك بنجاح وذلك بوساطة مناهج البحث العلمية الموضوعية .

- السلوك مكون - أساسا وكليا - من إفرازات غدية وحركات عضلية ، وهو على هذا خاضع للعمليات الفسيوكيميائية .

- إن هناك استجابة فورية من نوع ما لكل مثير ، وكذا فإن كل استجابة لها نوع ما من المثير، وعلى ذلك فإن هناك حتمية بين المثير والاستجابة .

- العمليات الشعورية - حتى وإن وجدت - لا يمكن دراستها علميا، وإن المزاعم القائلة بالعمليات الشعورية تمثل موقفا أشبه بالاتجاه بالتفسير بالقوى فوق الطبيعة .

ثالثا : موقف « واطسون » من الغريزة . ويتضح هذا الموقف فى أن «واطسون» لا يعترف بمفهوم الغريزة . وفى نظره فإن كل مظاهر السلوك التى تبدو غريزية فى ظاهرها هى استجابات متعلمة، فالتعلم هو أساس فهم تطور السلوك الإنسانى حيث كان «واطسون» سلوكيا متطرفا. وذهب إلى أبعد من مجرد إنكار الغريزة ، بأن أنكر الخصائص الوراثية والإمكانات والطاقات والمواهب من أى نوع، تلك الأشياء التى تبدو وكانهاوراثية، وهذا التأكيد على التأثير السيادى للبيئة وأنه بالإمكان تدريب الطفل على أى شىء نريده، كان هذا التأكيد سببا فى لفت الأنظار إلى «واطسون » .

رابعــا : موقف « واطسون » من التعلم. حيث يرى أنه لا غرائز ولا إمكانيات موروثة، وأن مرحلة المراهقة هى نتيجة للتعلم الإشراطى فى الطفولة. ومن هنا فإن التعلم يلعب دورا أساسيا فى المدرسة السلوكية ، وقد تحمس «واطسون» للإشراط الكلاسيكى عند «بافلوف» ، وهاجم فى الوقت نفسه قانون الأثر عند « ثورندايك»، ولم ينتبه إلى التقارب بين قانون التدعيم عند «بافلوف» وقانون الأثر عند «ثورنديك» ، هذا إلى جانب أن «واطسون» أكد على أهمية الحداثة والتكرار فى التعلم .

خامســا : موقف «واطسون» من الانفعالات. حيث يرى أن الانفعالات هى - ببساطة- استجابات جسمية لمثير معين، والمثير (مثل وجود خطر ما) يؤدى إلى

تغييرات جسمية داخلية، وإلى الاستجابة المتعلمة المناسبة لهذا المثير، وليس فى هذا شىء من الإدراك الشعورى للانفعال أو مجموعة إحساسات من الأعضاء الداخلية. وهو يرى أن كل انفعال يؤدى إلى تغييرات ميكانزم الجسم البشرى، وخاصة فى الجهازين الغدى والحشوى .

وقد درس « واطسون » المثيرات التى تؤدى إلى استجابات انفعالية عند الأطفال وأشار إلى ثلاثة من الانفعالات عدها الانفعالات الأساسية عند البشر، وهى الخوف والغضب والحب. والخوف تؤدى إليه الأصوات المزعجة أو الفقد المفاجئ للمساندة، أما الغضب فيحدث نتيجة إعاقة حركة الجسم، أما الحب فيحدث نتيجة ملاطفة الجسم والربت والطبطبة، أما الاستجابات الانفعالية الأخرى فهى تقوم على أكتاف تلك الانفعالات الأساسية وذلك من خلال الإشراط . هذا وقد برهن « واطسون » على نظريته تلك من خلال تجربته على الطفل «ألبرت»، وهو يبلغ من العمر أحد عشر شهراً، حيث أحدث له إشراطا بالخوف من الحيوانات والأشياء البيضاء، إذ أحدث صوتا مزعجا أثناء تقديم الحيوان الأبيض له، وكانت مجرد رؤية الحيوان بعد ذلك تبعث الخوف عند «ألبرت» وانتقل هذا الخوف إلى أشياء أخرى لها لون أبيض بالتعميم. وقد رأى «واطسون» أن الانفعالات سواء فى مرحلة الطفولة أو المراهقة تتكون بالإشراط .

سادساً : موقف «واطسون » من التفكير. حيث يرى أن التفكير هو لا شىء سوى سلوك حركى ضمنى، كما أشار إلى أن التفكير ، شأنه فى ذلك شأن بقية الوظائف النفسية ، هو سلوك حركى حسى من نوع ما . ودلل على ذلك بأن سلوك التفكير متضمن حركات الكلام، ثم إن التفكير اللفظى يمكن أن يحصر فى شكل حركات عضلية يعتادها الشخص، وهذه الحركات العضلية التى تصبح من قبيل العادة لا تكون مسموعة، وبعد أن نتعلم كيف نتكلم (ويكون هذا التعلم عن طريق الإشراط) يصبح التفكير هو الكلام الصامت الذى نتحدث به إلى أنفسنا ، وأشار إلى أن العلاقات الأساسية لهذا الكلام الصامت هى حركات الحنجرة واللسان. وهكذا أشار «واطسون» إلى أن الحنجرة أداة للتفكير، وبالإضافة إلى حركات الحنجرة فثمة حركات أخرى تشير إلى عملية

التفكير وهى إيماءات الوجه وتكشيراته وهز الكتفين، وهى كلها ترمز إلى ردود أفعال لمواقف مختلفة .

ومن أهم الأدلة التى تعزز نظرية « واطسون » أن معظمنا - إن لم يكن كلنا - يحادث نفسه أثناء عملية التفكير. ولكن ثمة وجه آخر لهذا الدليل وهو أن عملية محادثة الذات أثناء التفكير هى عملية استبطانية، حيث يرفض « واطسون » الاستبطان. ومن الصعب أن يبرهن مستخدما الاستبطان على صحة فكرة للمدرسة السلوكية، ذلك أن السلوكية مطالبة بأن تقيم برهانا على وجود حركات الكلام الضمنية، ولذلك بذلت محاولات لدراسة وتسجيل حركة اللسان والحنجرة أثناء التفكير ، وهذه الدراسات أسفرت عن وجود بعض حركات لليد والأصابع أثناء التفكير ، ورغم عدم قوة الأدلة إلا أن «واطسون» مضى إلى الاعتقاد بوجود حركات دالة على التفكير وأنه يوما ما سوف تتطور وسائل القياس التى تكشف عنها بصورة جيدة .

ونختم هذا الحديث عن «واطسون» بأن نذكر أنه لقى قبولا عظيما ليس من علماء النفس وحدهم ، بل من عامة الناس كذلك ، وذلك بسبب آرائه القوية الجريئة. وكان تأثير « واطسون » غلابا لأنه طالب بعالم قائم على السلوك العلمى المضبوط المتحرر من الخرافات والاعتقادات الزائفة. ومن أشهر أقواله التى يعرفها عامة الناس خارج علم النفس « أعطنى اثنى عشر من الأطفال العاديين الأصحاء وسوف أقوم بتربيتهم وبتنشئتهم بطريقتى وسآخذ أى واحد منهم بطريقة عشوائية وأدربه ليكون طبيبا أو محاميا أو فنانا أو تاجرا أو حتى شحاذا أو لصا، وذلك بغض النظر عن مواهبهم وميولهم وقدراتهم ووراثتهم ». وبالطبع لم يعطه أحد أولئك الأطفال الذين طلبهم ليمكن لنا التحقق مما قاله. ومما يجدر ذكره فى هذا المقام رأى « واطسون » من أن العلماء منذ مئات السنين يتكلمون عن أثر الوراثة وأهميته بالنسبة لأثر البيئة دون أن يكون لديهم دليل على ما يقولون .

وبالرغم من أن الحياة الإنتاجية العلمية التى عاشها «واطسون» استمرت أقل من عشرين عاما ، إلا أنه أثر أيما تأثير على علم النفس مما يجعلنا نضعه فى مصاف كبار علماء النفس. كما كان «واطسون» المثال الأمثل لطبيعة العصر التى كانت تهدف إلى

التغيير ، ليس فى علم النفس فقط بل فى فروع العلوم الإنسانية والطبيعية، ذلك أن القرن التاسع عشر شهد تحولا هائلا ، أما القرن العشرين فقد شهد تحولا يكاد يكون خياليا . وساد الظن أثناء هذا الانفجار المعرفى أن العلم مع تطوره يمكنه أن يعالج كل مشكلات البشرية ، وقد ساعدت سلوكية « واطسون » علم النفس الأمريكى فى الوصول إلى الموضوعية فى دراسة السلوك. وبالرغم من أن «واطسون» لم يحقق كل أهدافه العلمية فقد بقيت السلوكية قوة فعالة مؤثرة فى علم النفس الحديث .

«إدوارد تولمان» Toleman (١٨٨٦ - ١٩٥٩) :

أمريكى. وهو من السلوكيين الجدد، وتعد السلوكية الجديدة امتدادا طبيعيا لسلوكية «واطسون » ، حيث استمرت ثلاثين عاما تقريبا ابتداء من عام ١٩٣٠ إلى ١٩٦٠ . وفى هذه الفترة من الاستقرار وجد فى هذه المدرسة شخصيات رائدة يعرفها كل طلاب علم النفس، على رأسهم «تولمان» ومنهم «هل» و «جوثرى» وأخيرا عالم السلوكية العملاق « سكنر» .

ويعد « تولمان» أحد أعمدة المدرسة السلوكية، وقد اتجه أساسا إلى دراسة الهندسة، ولكنه تحول إلى علم النفس، وقد درس علم النفس فى جامعة « هارفارد » حيث حصل على الدكتوراه عام ١٩١٥م ، وقبل ذلك وفى صيف عام ١٩١٢م عمل مع أحد ثلاثى الجشطلت وهو «كوفكا » فى ألمانيا ، كما تدرب كذلك على طريقة «فونت» و«تتشنر» فى الدراسة باستخدام منهج الاستبطان طبقا لأسلوب المدرسة البنائية . ثم تعرف « تولمان » بسلوكية «واطسون » وكان هذا التعرف بمثابة «مثير عظيم يبعث على الراحة » كما وصف ذلك هو نفسه .

وبعد حصوله على درجته العلمية عمل بجامعة «نورثوسترن» ثم انتقل إلى جامعة «كاليفورنيا» فى «بيركلى » عام ١٩١٨م حيث قام بتدريس علم النفس المقارن وأجرى مجموعة من البحوث فى موضوع تعلم الحيوان وبالذات على الفئران ، وأصبح سلوكيا ولكن بصورة تختلف عن سلوكية «واطسون » .

وقد انقطع عن عمله العلمى فى «بيركلى» مرتين : الأولى خلال الحرب العالمية

الثانية، حيث عمل بمكتب الخدمات الإستراتيجية فى عامى ١٩٤٤ ، ١٩٤٥، والثانية فى المدة من ١٩٥٠ - إلى ١٩٥٣ حيث اشتغل بأعمال علمية، منها تدريسه بجامعتى «هارفارد » و «شيكاغو» .

ويمكن أن نوجز موقف « تولمان» فى علم النفس فى النقط التالية :

أولا : سلوكية «تولمان» القصدية. حيث أعلن عن هذه السلوكية فى أول كتبه «السلوك القصدى Purposive behavior عند الإنسان والحيوان » والذى أصدره عام ١٩٣٢م . ويبدو مذهبه لأول وهلة كأنه مزاوجة بين مصطلحين متعارضين، هما القصد والسلوك، ذلك لأن إضفاء القصدية على الكائن الحى تعنى وجود الشعور لديه ، وبالطبع فإن المدرسة السلوكية ترفض مصطلحا عقليا مثل «الشعور».

هذا وقد أوضح «تولمان» سواء فى كتابه هذا أو فى بحوثه الأخرى أنه سلوكى سواء فى موضوع بحثه أو فى منهج بحثه، وأنه لا يعود بعلم النفس إلى مفهوم الشعور. كما رفض بحدة الاستبطان الذى قالت به البنائية، وهو مثل «واطسون» ليس له اهتمام بما يسمى التجارب الداخلية والتى لا يمكن إخضاعها للملاحظة الموضوعية. ومع ذلك فإن «تولمان» لم يكن «سلوكيا واطسونيا » ذلك لأن الرجلين يختلفان فى نقطتين أساسيتين :

النقطة الأولى : هى أن « تولمان » لم يكن مهتما بدراسة السلوك فى مستوياته الجزئية أو فى صورة مثير واستجابة، وخلافا «لواطسون» لم يكن مهتما بوحدات عناصر السلوك مثل نشاط الأعصاب أو العضلات أو الغدد، وكان تركيزه على جماع السلوك، أى الاستجابة العامة للكائن الحى، ولهذا فإن مذهبه يجمع بين مفاهيم السلوكية ومفاهيم الجشطلت .

النقطة الثانية : هى قول «تولمان» بغرضية السلوك، وهذا القول يمثل ركنا أساسيا فى نظريته، وهذه الغرضية فى السلوك يمكن تعريفها فى عبارات سلوكية موضوعية دون الرجوع إلى الأستبطان أو مفهوم الخبرة الشعورية - ويرى «تولمان» أن من البديهى أن يكون السلوك موجها بدافع، ومثال ذلك أن القطة تريد أن تخرج من

الصندوق المحير، وكذلك يتعلم الفأر السير فى المتاهة، ويدرس الكائن الإنسانى الموسيقى. وهو يرى فى كل هذه الأنواع من السلوك روائح نفاذة للغرض، وكل السلوك موجه نحو تحقيق هدف معين، ويتم تعلم الوسائل من أجل تحقيق الغايات ، مثال ذلك الفأر يجرى خلال دروب المتاهة فى سبيل هدف معين وفى كل مرة تقل أخطاؤه، وهنا يتعلم الفأر، أى أن حقيقة التعلم عند الفأر وعند الإنسان أيضا هى دليل سلوكى موضوعى على و جود الغرض ، ويجب أن نلاحظ هنا أن «تولمان» يتعامل مع استجابات الكائن الحى، وأن مقاييسه فى حدود تغير الاستجابة السلوكية نتيجة التعلم، واستجابات الكائن الحى هنا هى بيانات موضوعية يتخذها أساسا لنظريته .

ومما يجدر ذكره أن نظرية «تولمان» كانت موضع نقد غلاة السلوكية « الواطسونية » ، على أنها تقوم على افتراض مفهوم الشعور عند الكائن الحى وهو مفهوم ترفضه السلوكية بطبيعة الحال، ورد « تولمان » بقوله : إنه لا يعنيه إذا كان الكائن الحى يشعر أم لا، ذلك أن هذه الخبرة الشعورية – إن وجدت – لا تؤثر على استجابات الكائن الحى ، وهذا لأنه مهتم – فقط – بالاستجابات السلوكية الصريحة . ويرى «تولمان » فى هذا الصدد أنه إذا كان ثمة وعى أو شعور بالهدف فإن ذلك أمر خاص بالكائن الحى، ولا يخضع للأدوات الموضوعية للعلم؛ لأن أى شىء لا يمكن ملاحظته من خارج الكائن الحى لا يدخل فى نطاق العلم.

ثانيا : العوامل المتداخلة. حيث يرى بعض مؤرخى علم النفس أن أهم إسهام قدمه « تولمان » إلى علم النفس هو مفهوم العوامل المتداخلة، حيث اعتقد « تولمان » من حيث كونه عالما سلوكيا – أن الأسباب المؤدية إلى السلوك، والسلوك الناتج عن هذه الأسباب، يمكن أن تكون محل ملاحظة موضوعية وتعريف إجرائى. وقال فى بيان ذلك : إن أسباب السلوك تتكون من خمسة متغيرات مستقلة هى :

المثيرات البيئية	Environmental stimuti (s)
الحوافز الفسيولوجية	Physiological Drive (P)
الوراثة	Heredity (H)
التدريب السابق	Presvious Training (T)
السن	Age (A)

وبين المتغيرات المستقلة والسلوك النهائى - سلم «تولمان» بوجود عدد من العوامل المتداخلة وهى غير ملحوظة - والتى هى المحددات الفعلية للسلوك، وهى أيضا العمليات الداخلية التى تربط بين المثيرات السابقة، والاستجابة التى يتم ملاحظتها، وعلى هذا فإن العبارة التى تقول (المثير - الاستجابة) يجب أن تعاد صياغتها بحيث تكون (المثير - الكائن الحى - الاستجابة) والعوامل المتداخلة هى تلك العوامل الموجودة فى الكائن الحى، والتى تؤدى إلى استجابة معينة لمثير معين .

ولكن هذه العوامل المتداخلة لا يمكن ملاحظتها موضوعيا، فهى لست بذات فائدة للعلم إلا إذا ربطت بصورة واضحة بكل من المتغيرات المستقلة وبالمتغير التابع أى السلوك، والمثال على ذلك المتغير المتدخل هو «الجوع» ، والذى لا يمكن مشاهدته فى الكائن الإنسانى أو فى حيوانات التجارب، ومع ذلك فإن الجوع يمكن إرجاعه إلى متغير تجريبى موضوعى مثل طول الوقت المستغرق منذ أن أكل المفحوص آخر مرة، ويمكن كذلك أن يرجع إلى استجابة موضوعية مثل كمية الأكل التى يمكن أن يأكلها المفحوص والسرعة التى يلتهمها بها . وهكذا فإن هذا المتغير المتدخل غير القابل للملاحظة، يمكن دراسته تجريبيا وتكميميا .

هذا وقد قدم «تولمان» مفهوم المتغير المتداخل حتى يكون لدى علم النفس أسلوب لعمل تقريرات موضوعية دقيقة عن الحالات الداخلية والعمليات التى يمكن ملاحظتها - وبقول آخر فإن فكرة المتغيرات المتداخلة هى أسلوب لجعل هذه الحالات الداخلية مفيدة فى علم النفس بحيث يمكن دراستها .

ثالثـــا : نظرية التعلم. حيث كانت بحوث «تولمان» فى موضوع التعلم حافزا للباحثين التالين له، وتمثل مركزه الممتاز فى هذا المجال. وقد اعتقد «تولمان» أن سلوك الإنسان والحيوان (ما عدا الانتحاءات والأفعال المنعكسة البسيطة) يمكن تعديلها من خلال الخبرة ، وهكذا يلعب التعلم دورا أساسيا فى نظريته السلوكية، كما أن «تولمان» قد رفض قانون الأثر الذى قال به «ثورندايك» وقال إن الثواب والعقاب ليس لهما دور فى التعلم، وإن وجد فهو دور ضئيل، ومقابل ذلك قال « تولمان » بنظرية معرفية فى التعلم والتى يؤدى فيها الأداء المتصل إلى تكوين ما يسمى «صيغة علامة »

Sing Gestalt - وصيغ العلامة هى علامات متعلمة بين المفاتيح الموجودة فى البيئة وبين توقعات الحى ، كما يرى «تولمان» أن الحيوان يعرف جزءًا من بيئته .

ولندرس فكرة «تولمان» ونحن نلاحظ فأرا جائعا داخل متاهة، فنرى الحيوان يتحرك أحيانا نحو مسارات صحيحة وأحيانا أخرى نحو مسارات خطأ، وبالصدفة يكتشف الطعام. وفى المحاولات التالية يرى «تولمان» أن سلوك الفأر يزيد عليه وجود غرض واتجاه لهدف السلوك وفى كل عملية اختيار تتأكد نقط للتوقعات حيث يتوقع الفأر أن اختيارات متعددة من بين المفاتيح الموجودة فى بيئة المتاهة سوف تؤدى إلى الطعام. وعندما تتأكد توقعات الفأر بأن يجد الطعام فعلا فإنه يحدث تقوية لما أسماه «تولمان» (صيغة العلامة) ومن نقط الاختيار المتاحة أمام الفأر فى المتاهة، تتكون خريطة معرفية فيما يرى « تولمان» ، وهذا النموذج - أى الخريطة المعرفية للمتاهة - هو ما يتعلمه الحيوان، ويسمى مجموعة من المهارات الحركية، وهذا معناه أن الفأر يكّون معرفة بالمتاهة أو بأى بيئة أخرى يوضع فيها. ويتكون فى « مخه » شيء أشبه بخريطة الموقع، وهذه الخريطة تمكنه من المضى من أى نقطة من البيئة الموضوع فيها، إلى نقطة أخرى دون أن يكون محكوما بسلسلة من الحركات البدنية الثابتة .

ومما يجدر ذكره أن «تولمان» عمل فى مختبره لمدة ثلاثين عاما دارسا ومؤكدا على نظريته تلك فى تعلم الحيوان. وقد أثر «تولمان» على علم النفس تأثيرا شديدا وإن لقى معارضة من بعض غلاة السلوكيين بسبب بعض المفاهيم « العقلية » فى نظريته .

« أدوين جوثرى » Guthrie (١٨٨٦ - ١٩٥٩م) :

أمريكى . حصل «جوثرى » على درجة الدكتوراه من جامعة «بنسلفانيا» عام ١٩١٢م - والتحق عام ١٩١٤م بجامعة «واشنطون» حيث عمل بها حتى اعتزاله فى عام ١٩٥٦م . وقد أبان «جوثرى»أثناء حياته العلمية أنه متحمس للمدرسة السلوكية فى علم النفس وهى حماسة لم تتذبذب. وقد اعتقد « جوثرى » أن العلم يجب أن يهتم فقط بالحالات والحوادث الموضوعية، والتى يمكن ملاحظتها، وكان «جوثرى» متشددًا فى اتجاهه العلمى هذا بحيث عارض إيجاد صلة بين الحوادث السلوكية وبين المخ والجهاز

العصبى. وبالرغم من أنه كان سلوكيا بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة إلا أنه لا يمكن عده « واطسونيا » فى تفكيره .

أما إسهام « جوثرى » الأساسى فى علم النفس فهو توصله لنظرية بسيطة فى التعلم عرضها فى كتابه « مبادئ التعلم » الذى أصدره عام ١٩٣٥م . وتقوم نظريته تلك على أساس مبدأ واحد هو رفض قانون الأثر عند « ثورندايك » وقانون التدعيم عند «بافلوف» ووضع بدلا منهما ما أسماه «الإشراط المتزامن Simultaneous Conditioning والذى اعتبره أعم قوانين علم النفس .

ويرى «جوثرى» أن كل أشكال التعلم تعتمد على الاقتران بين المثير والاستجابة، إذ عندما يؤدى مثير معين إلى استجابة معينة يحدث الارتباط بين ذلك المثير وتلك الاستجابة ، وهذا موقف تعليمى يسمى التعلم « بالمحاولة الواحدة » وهو من أشهر مبادئ «جوثرى» فى التعلم، وقانونه الوحيد فى التعلم مؤداه « إن مزيج المثيرات الذى صاحب حركة ما سيميل فى تكرره إلى أن يكون متبوعا بتلك الحركة ». ومعنى ذلك أنك إذا فعلت شيئا فى موقف معين ففى المرة التالية التى تجد نفسك فيها فى هذا الموقف فإنك تميل إلى فعل الشىء نفسه مرة أخرى . ويلاحظ فى هذا المبدأ إغفاله فكرة الدافعية أو فكرة التكرار، أو أية صورة من صور التدعيم .

وكذلك يذكر قانون «جوثرى» عن الحركة، والتى يميزها «جوثرى» عن الفعل، حيث إن الحركة فى نظره نمط من الاستجابات الغدية، أما الفعل فهو سلسلة حركات تؤدى إلى نتيجة. وبالرغم من أن الفعل هو ذاته حركة ، فإن الحركة ليست فعلا ، ذلك أن الفعل أوسع مدى. مثال ذلك أن دق مسمار بواسطة مطرقة هو فعل يتكون من حركات منفصلة، ويرى «جوثرى » أنه فى قياس التعلم يتخذ الفعل الكامل محكا وليس الحركة .

وقد قرر أن هذا التركيز على الحركات هو الظاهرة المميزة لنظريته. وقال إن «ثورندايك » مثلا كان مهتما بدراسة الفعل ككل، أى بدراسة اكتساب المهارة، (وهى خروج القط من القفص) وهذه المهارة عبارة عن مجموعة من الحركات الفردية الفعلية، وهذه الحركات الفردية تكتسب أو تنمى فى محاولات فردية، ولكن تعلم الفعل كله

يستدعى تكرار الممارسة، وهذه الحركات أو هذه الأجزاء للفعل المتعلم هى المادة الخام فى نظرية «جوثرى» التعليمية .

والواقع أن «جوثرى » من المؤمنين بأهمية النظرية فى علم النفس، وأن شيوع الاهتمام به إنما هو راجع إلى بساطة أفكاره ونظريته وعدم تعقيدها . ومما يذكر أن «جوثرى» منح عام ١٩٥٨م من المؤسسة النفسية الأمريكية American Psychological Foundation مكافأة « الميدالية الذهبية » تقديرا لجهوده فى علم النفس .

« كلارك هل » Hull (١٨٨٤ - ١٩٥٢) :

أمريكى . ويلقى « هل » تقديرا كبيرا فى علم النفس المعاصر وهو من العلماء الكبار الذين اهتموا باستخدام المنهج العلمى فى علم النفس، وقليل من علماء النفس من إستطاع أن يفهم الرياضة والمنطق الصورى مثل «هل». كما أنه استخدم الرياضة فى علم النفس بصورة لا يمكن أن يجاريه فيها أحد .

ومما يذكر أن «هل» أثناء طفولته وشبابه كان فريسة للمرض الذى كان ينتابه باستمرار، كما أنه عانى من ضعف الإبصار طول حياته، وقد أصيب بشلل وهو فى سن الرابعة والعشرين مما أدى إلى عجز إحدى ساقيه، وكانت أسرته فقيرة مما اضطره إلى ترك الدراسة ليحصل على لقمة العيش، ولكنه مع ذلك كان ذا طاقة هائلة وقدرة فائقة على مواجهة الصعوبات .

وقد حصل على الدكتوراه من جامعة « وسكونسن» عام ١٩١٨م حيث كان يدرس هندسة المناجم، ولكنه تحول عنها إلى علم النفس، وكانت اهتماماته الأولى و اسعة، ثم اتجه بعد ذلك إلى الدراسات فى موضوع التعلم. وقد تعلم فى جامعة « وسكونسن » من عام ١٩١٦م إلى ١٩٢٩م حيث انتقل بعد ذلك إلى معهد العلاقات الإنسانية بجامعة «ييل».

من أوائل الدراسات التى أصدرها «هل» دراسته حول «التنويم والإيحائية» التى أصدرها عام ١٩٣٣م . ومما يجدر ذكره أنه اهتم بدراسة أعمال العالم الروسى «بافلوف» مما لفت نظره إلى دراسة المنعكس الشرطى و التعلم. وفى عام ١٩٤٠م أصدر

مع خمسة من زملائه كتاب « النظرية الرياضية الاستنباطية للتعلم بالاستظهار» . وبالرغم من أن هذا الكتاب اعتبر فى وقته إسهامًا أساسيا فى علم النفس فإنه كان عسير الفهم لدرجة أنه لم يقرأه إلا قلة قليلة من الناس. أما الإسهام الثانى الذى قدمه «هل » إلى علم النفس فهو كتابه الشهير « مبادئ السلوك » الذى أصدره عام ١٩٤٣م ، حيث كان يسير الفهم إلى حد ما. وفى هذا الكتاب عرض «هل» إطارا مرجعيا من الاتساع بحيث يشمل كل نواحى السلوك، وبنشر هذا الكتاب اتخذ مذهب « هل » مركزًا مهمًا فى ميدان التعلم فى أمريكا. وأثار فى هذا الكتاب العديد من المناقشات والبحوث وأصبح «هل» مبرزا بصورة واضحة . ثم أصدر كتابه الأخير « نسق السلوك » فى عام ١٩٥٢م وهو الكتاب الذى مات قبل أن يقرأ تجارب طباعته، ونشر بعد وفاته .

ونعرض لأهم جوانب نظرية «هل » فى النقاط الآتية :

النقطة الأولى : الإطار المرجعى للسلوك. حيث اعتقد «هل» بأن السلوك الإنسانى هو نتيجة تفاعل مستمر بين الكائن الحى والبيئة، وأن المثيرات التى تصطنعها البيئة والاستجابات السلوكية التى يتخذها الإنسان هى حقائق مؤكدة ، ولكن هذا التفاعل يقع فى نطاق أوسع من مفهوم المثير والاستجابة .

وأن المضمون الأوسع أو الإطار المرجعى هو تكيف الكائن الحى لبيئته الفريدة، وأن استمرار الكائن الحى فى الحياة إنما يكون بسبب تكيفه البيولوجى، وكان «هل» يهدف إلى بناء علم نفس سلوكى لا مكان فيه لمفاهيم مثل الشعور والغرض أو أى فكرة عقلية من هذا القبيل، حيث حاول فى سلوكيته أن يحول كل مفهوم سيكولوجى إلى مصطلح فيزيقى .

كما اعتبر «هل» أن السلوك الإنسانى سلوك أوماتيكى دورى، وأن ملاحظة السلوك يجب أن تكون موضوعية تماما بعيدة كل البعد عن الذاتية .

النقطة الثانية : منهج البحث فى علم النفس - حيث يرى «هل» أن قوانين السلوك يجب أن تصاغ بلغة الرياضة الدقيقة، ويعد التكميم هو حجر الزاوية فى سلوكية «هل» . ، وعلى السيكولوجيين أن يفكروا باستخدام الأسلوب الرياضى، وعلى هذا الأساس

يتقدم علم النفس. وقد حدد «هل» أربعة أساليب يمكن أن تكون مفيدة للعلم وهى: الملاحظة البسيطة ، والملاحظة المنظمة والمنضبطة، والاختبار التجريبى للفروض ، وأخيرا الطريقة الفرضية والاستبطانية. وبهذه الطريقة الأخيرة يستطيع علم النفس أن يصبح موضوعيا شأنه شأن العلوم الطبيعية .

النقطة الثالثة : الدوافع. حيث عد «هل» أساس وجود الدافع هو إرضاء الحاجات البيولوجية، ويقوم الدافع بسبب الحاجة، وقوة الدافع يمكن تقديرها بواسطة متغيرات مثل : الحرمان ، القوة ، الشدة ، وقرر كذلك أن الحرمان يؤدى إلى استفزاز الدافع، والدافع ليس محركا للسلوك ولكنه مقوٍّ له. أما تحريك السلوك فإنه يكون عن طريق المثيرات البيئية .

ويرى «هل» أن هناك نوعين من الدوافع الأولية وهى التى ترتبط بالحاجات البيولوجية للكائن الحى، مثل الحاجة إلى الطعام والشراب والهواء والنوم والجنس والراحة من الألم . وهذه أمور أساسية للكائن الحى حتى يستطيع مواصلة الحياة. أما المجموعة الأخرى فهى الدوافع الثانوية أو الدوافع المتعلمة ، وهى التى ترتبط بالمواقف أو المثيرات الموجودة فى البيئة والتى ترتبط بتحقيق الدوافع الأولية ثم تصبح هى نفسها دوافع . مثال ذلك أن الشخص قد تلسعه حرارة الفرن، وعملية الحرق هذه تؤدى بالكائن الحى إلى التماس دوافع الخلاص من الألم أو تجنب الألم، و لكن المثير الذى يرتبط بهذا الموقف وهو الفرن يبقى مثيرا للخوف المتعلم ويبقى مثيرا لتجنب الألم، وهذا دافع متعلم لتجنب الألم ، وهناك العديد من الدوافع المتلمة، ذلك أن التعلم يلعب دورًا هاما فى نظرية «هل» .

النقطة الرابعة : التعلم . حيث تقوم نظرية «هل» على أساس الدافعية ، و قد يكون هذا مثيرا للدهشة باعتباره من علماء السلوكية، ولكن التعلم عنده هو آلية تسمح للكائن الحى بإرضاء حاجاته، وذلك فى ضوء مدى وتنوع مجهوداته .

وثمة جزء هام فى نظرية «هل» فى التعلم وهو المزاوجة بين قانون الأثر عند «ثورندايك » والإشراط عند « بافلوف » حيث اعتقد أن التعلم يمكن أن يفسر بمبادئ

مثل الحداثة والتكرار والتدعيم، ويقول «هل» عن مبدأ التدعيم : إنه عندما تحدث علاقة بين المثير واستجابة يصاحبها إرضاء لحاجة من الحاجات، فإن من المتوقع إذا تكرر موقف المثيل والاستجابة أن يتكرر الإرضاء وتكون الرابطة بين المثير والاستجابة عند «هل» راجعة إلى إرضاء الحاجة، وعلى هذا فإن حجر الزاوية فى نظرية التعلم عند «هل» هو أن التدعيم إنما يكون بإرضاء الحاجات الأساسية.

كما أشار «هل» إلى أن العلاقة بين المثير والاستجابة إنما يقويها عدد من التدعيمات ، وسمى قوة العلاقة بين المثير والاستجابة بقوة العادة، والتى تشير إلى استمرارية التدعيم. ولا يمكن أن يحدث التعلم فى غياب التدعيم الذى من شأنه أن يحقق إرضاء الحاجات .

وبالطبع فإن هذه العجالة التى عرضت فيها نظرية «هل» هى اختصار شديد لأهم إسهاماته فى علم النفس. وقد لقيت أعماله حظا كبيرا من التقدير ، وقدرا كبيرا من النقد أيضا ، وقد وجهت إلى نظريته اعتراضات ، أهمها: عدم عمومية هذه النظرية، وكذلك ما شاب محاولته التكميمية من قصور فى أن التكميم غير قابل للتعميم على جميع موضوعات علم النفس. كما وجه النقد إلى فرضياته على أساس أنها فرضيات غير دقيقة، وأن نظريته بوجه عام فيها الكثير من الاختلافات والفجوات .

وبالرغم من ذلك فإن هذه الاعتراضات لم تقلل من أهمية «هل» وعظيم مكانته فى علم النفس، فقد أسدى هذا الرجل إلى علم النفس خدمات جليلية منها أنه أجرى بحوثا كثيرة بالغة الدقة، وذلك بقصد الوصول إلى نظريته ، ثم بقصد تدعيم هذه النظرية، كما أسهم فى إضفاء الصياغات الموضوعية على دراسات علم النفس ناهيك عن براعته فى صياغة نظريته ، مما يعد درسا مستفادا لطلاب علم النفس، وهو فى مجال الصياغة التنظيرية بين علماء القمة بلا جدال .

«برهس سكنر» Skinner (١٩٠٤ - ١٩٩٠) :

يعد « سكنر » وجها من وجوه علم النفس المعاصر. وتشتمل اهتماماته على مجالات واسعة، ولسنوات عديدة كان «سكنر» قائد السلوكية الأمريكية بلا منازع .

ولد «سكنر» عام ١٩٠٤م فى مدينة صغيرة شمال شرقى «بنسلفانيا »، وبقى فى تلك المدينة حتى ذهب إلى الجامعة . ويقول «سكنر» عن البيئة التى عاش فيها طفولته: إنها «دافئة هادئة » . وقد التحق بالمدارس الثانوية نفسها ألتى تعلم فيها والده . ويقال إنه أحب المدرسة حبا جما ، وكان دائما أول طالب يصل كل صباح . كما كان له اهتمامات فى طفولته ومراهقته حيث كان يصنع الطوافات والمقاليع والمزالج. وكان شديد الاهتمام بدراسة الحيوان بالإضافة إلى أنه كان يحتفظ بعدد من الحيوانات الأليفة مثل السلاحف والضفادع والسحالى، إلى جانب اهتمامه الخاص بالحمائم - الذى ظهر فيما بعد - أضف إلى ذلك أنه كتب عددا كبيرا من القصص والمقالات الأدبية .

وقد حصل على درجته الجامعية فى اللغة الإنجليزية، حيث أراد أن يكون كاتبا ، ولكنه بعد أن عمل بالكتابة لمدة سنتبين قرر « أنه ليس لديه شىء يقوله » ثم قرأ - أثناء اطلاعاته الواسعة - أعمال «واطسون» و «بافلوف » لأنه كان مهتما بالدراسة النظرية والأدبية لسلوك الإنسان. ثم قرر أن يتجه إلى الدراسة العلمية لهذا السلوك والتحق بجامعة «هارفارد» لدراسة علم النفس فى برنامج الدراسات العليا. ولم يكن قد سبق له أن درس أى مقرر فى علم النفس فى أى جامعة، ومن أجل إتمام دراساته العليا قيد نفسه بقيود شديدة ، حيث كان يستيقظ فى السادسة صباحا ويذاكر حتى موعد الإفطار ثم يذهب إلى قاعة الدراسة وإلى مختبرات الجامعة وإلى المكتبة بدون فترات راحة ، إلا عدة دقائق ، ويستمر فى الدراسة والمذاكرة حتى التاسعة مساء حيث يذهب للنوم. وظل طوال فترة الدراسة لا يستمتع بمقتضيات الوقت المتاحة للشباب. وبعد سنتين حصل على الدكتوراه عام ١٩٣١م . وقد اهتم فى دراسته للدكتوراه بفرض مؤداه أن الفعل المنعكس هو ارتباط بين مثير واستجابة بلا زيادة أو إضافة .

ومن أهم معالم حياته العلمية أنه قام بالتدريس فى جامعة «مينسوتا» فى المدة (٣٦ - ١٩٤٥) وفى جامعة «أنديانا» فى المدة من (٤٥ - ١٩٤٧) وفى عام ١٩٤٧م عاد إلى جامعة «هارفارد» .

ومن أهم مؤلفاته :

- « سلوك الكائن الحى » أصدره عام ١٩٣٨م .

- « العلم والسلوك الإنسانى » أصدره عام ١٩٥٣م .

- « السلوك اللفظى » أصدره عام ١٩٥٧ م.

- « الحرية والكرامة » أصدره عام ١٩٧١ م .

وذلك بالإضافة إلى عدد كبير من المقالات العلمية .

ويمكن أن توضح نظرية «سكنر» فى النقاط الآتية :

النقطة الأولى : مقدمة عامة. حيث يشبه « سكنر » فى وجوه عديدة «واطسون» وتظهر روح «واطسون » فى كتابات «سكنر» . والنسق الذى يقول به « سكنر » هو نوع من « السلوكية الوصفية » وهو فى طبيعته نظام « لا نظرى » . وجل اهتمامه هو وصف السلوك أكثر من شرحه وتفسيره، وهو يتناول السلوك الذى يمكن إخضاعه للملاحظة، ويعتقد «سكنر» أن عمل البحث العلمى هو إقامة علاقات وظيفية بين ظروف المثير المنضبطة تجريبيا وبين استجابة الكائن الحى .

وفى كتابه « العلم والسلوك الإنسانى » قال « سكنر » : إن الكائن الحى الإنسانى هو عبارة عن آلة، ومثله مثل أى آلة أخرى . يتصرف الكائن الإنسانى الحى من خلال قوانين وأساليب وذلك فى استجابته للقوى الخارجية أو المتغيرات التى تؤثر عليه ، وعلى هذا فإن « سكنر » لا يهتم أبدا بتنظير أو تأمل ما يحدث داخل الكائن الحى ولا يتضمن برنامجه دراسة القوى الداخلية سواء وصفت بأنها عوامل متداخلة أو عمليات فسيولوجية ، ومهما يحدث بين وقوع المثير ووقوع الاستجابة فإنه لا يمثل شيئا ذا قيمة علمية بالنسبة لسلوكية «سكنر» . وقد سميت هذه السلوكية الوصفية البحتة بأسلوب الكائن الحى الفارغ empty organism، إذ ليس هناك شىء داخل الكائن له فائدة أو ضرورة لشرح السلوك، ذلك أن الكائن الحى معرض لتأثيرات قوى البيئة أى قوى العالم الخارجى وليست قوى توجد فى أنفسنا .

وبالرغم من أن مـذهب « سكنر » مـذهب « لا نظرى » فـإن «سكنر» لا يعـارض التنظير كلية بل هو يعارض التنظير الفج فى غياب المعلومات المؤكدة الكافية. وفى مقابلة أجريت معه عام ١٩٦٨م·قال إنه يهدف إلى الوصول إلى «نظرية عامة للسلوك البشرى ، تأتى بمجموعة من الحقائق، وسأكون مهتما بتبنى مثل هذه النظرية » .

وخلافا لعدد كبير من السيكولوجيين المعاصرين فإن «سكنر» لا يؤمن باستخدام أعداد كبيرة من المفحوصين ودراسة نتائجهم إحصائيا ، بل يهتم بالدراسة المركزة على مفحوص واحد .

النقطة الثـانيـة : الإشـراط الإجـرائى. حيث يعـرف طلاب علم النفس جميعا صندوق «سكنر» كما يعرفون نظريته فى التعلم «بالإشـراط الإجرائى » operant conditioning مقابل ما أسماه «سكنر» التعلم «بالسلوك المستجيب respondent behavior» » حيث إنه فى الموقف الإشراطى عند «بافلوف» فإن مثيرا معينا يصاحبه استجابة، وذلك بشرط التدعيم وتكون الاستجابة السلوكية محددة بواسطة موقف مشتمل على مثير ملحوظ .

ولكن الإشـراط الإجرائى « الفعال » من ناحية أخرى يحدث دون مثير خارجى ملحوظ ، وتكون استجابة الكائن الحى وكأنها تلقائية بحيث لا ترجع هذه الاستجابة إلى مثير ملحوظ، وليس معنى ذلك أنه ليس هناك بالتحديد مثير يؤدى إلى استجابة. ولكن معناه أنه ليس هناك مثير يمكن اعتباره سببا عندما تحدث الاستجابة .

وفرق بين كلب « بافلوف » وفأر «سكنر» . إن الكلب فى تجربة «بافلوف» لا يمكنه إلا أن يستجيب عندما يقدم المجرب له المثير ولا يستطيع الكلب أن يتصرف من تلقاء نفسه ليحد من المثير، ولكن سلوك الفأر فى صندوق « سكنر » له دور فعال فى الحد من المثير « الطعام »، إذ عندما يضغط الفأر على القضيب ، فإنه يتلقى الطعام، أو لا يحصل على الطعام إلا إذا ضغط على القضيب. وهكذا يطلق «سكنر» على التعلم عند كلب «بافلوف» السلوك المستجيب بينما يطلق على تعلم «فأره» التعلم الإجرائى .

ويرى «سكنر» أن التعلم الإجرائى أقرب إلى أن يكون ممثلا للتعلم الإنسانى فى مواقف الحياة اليومية، ولأن السلوك هو غالبا إجراءات متنوعة فإنه يجب فى دراستنا لعلم النفس أن نهتم بدراسة الإشراط الإجرائى .

والتجربة الكلاسيكية عند «سكنر» عبارة عن قضيب فى صندوق «سكنر» يوضع فيه فأر حرم من الطعام ، ويسمح له بالتجول داخل الصندوق. وأثناء تجواله هذا يصطدم -إن عاجلا أو آجلا - بقضيب يتصل برافعة متصلة هى الأخرى بمستودع لحبات من الطعام بحيث تسقط واحدة من هذه الحبات - عند حركة القضيب - أمام الفأر، وبعد عدد قليل من التعزيزات يحدث الإشراط. ومن الملاحظ هنا أن سلوك الفأر فى البيئة - وهو الضغط على الرافعة - أمر أساسى فى توفير الطعام . أما سرعة الاستجابة أو سرعة الضغط على القضيب فى تجربة صندوق « سكنر» فإنه يتم تسجيله على و رقة بواسطة مؤشر .

ومن هذه التجربة الأساسية اشتق «سكنر» ما أسماه قانون الاكتساب Law jof ac-quision والذى يقول إن قوة الإشراط الإجرائى تزيد عندما يستتبعه مثير معزز ، وبالرغم من أهمية الممارسة فى إيجاد سرعات عالية لضغط الفأر على القضيب إلا أن التعزيز هو العامل الأساسى ، وأن الممارسة وحدها لن تزيد سرعة لجوء الفأر إلى الضغط على القضيب ، بل إن كل ما تفعله الممارسة هو تمهيد الفرصة لكى يحدث التعزيز أثره .

ويعرف «سكنر» الدافع فى حدود عدد ساعات حرمان الفأر من الطعام. هذا وقد قام «سكنر» وتلاميذه بدراسات عن مختلف موضوعات التعلم وتتضمن دراستهم أثر العقاب فى اكتساب الاستجابة وأثر التدعيم وانطفاء الاستجابة والتعزيز والتعميم . كما استخدم «سكنر» الحمائم فى دراساته للتعلم والإشراط الإجرائى، وكذلك الآدميين حيث كانت دراسة الإشراط الإجرائى عندهم تتضمن حل المشكلات وذلك عن طريق السلوك اللفظى .

النقطة الثالثة: جداول التدعيم. حيث يعد « سكنر » مبرزا فى دراسة ما يسمى جداول التدعيم أو جداول التعزيز Schedules of Reinforcement ذلك أن الضغط على القضيب الحديدى فى صندوق «سكنر» يؤكد أهمية التعزيز فى السلوك الإجرائى. وفى هذا الموقف فإن سلوك الفأر يدعم فى كل ضغطة على القضيب، ذلك أن الفأر يتلقى الطعام فى كل مرة يضغط فيها بطريقة صحيحة على القضيب، ومع ذلك فإن التعزيز فى العالم الواقعى ليس من قبيل التأمل أو التفكير العلمى ، بل من ضرورة عملية ، ذلك لكى يكون التعزيز متقطعا. وهناك أمثلة على ذلك فى أن الطالب لا يحصل على تقديرات مرتفعة فى كل اختبار، وكذلك يعمل الموظف رغم أنه لا يحصل على علاوة فى كل مناسبة . إذن كيف يتأثر السلوك بهذه التعزيزات المتقطعة؟ أتكون جداول التعزيز - أى ربط التعزيزات بجداول زمنية - مؤثرة على السلوك ؟ وقد عمل «سكنر» سنوات طويلة فى الإجابة على هذه الأسئلة .

هذا وقد ظهر الاهتمام بدراسة الجداول الزمنية للتعزيز ليس من التأمل أو التفكير العلمى ، بل من ضرورة عملية ، ذلك أنه حدث عجز فى أحد الأيام فى حبات الطعام وسأل «سكنر» نفسه ماذا لو عزز الفأر بحبة الطعام، كل دقيقة بغض النظر عن عدد الاستجابات التى يأتيها الفأر بلمس القضيب ؟.

وفى مجموعة من الدراسات قام بمقارنة بين التعلم عن طريق التدعيم لكل استجابة، وعن طريق التدعيم فى فترات زمنية محددة، وهو ما أسماه « سكنر» التعزيز فى فترات محددة fixed interval reinforcement ، حيث يعطى التعزيز مرة كل دقيقة أو مرة كل أربع دقائق. والنقطة الأساسية هى أن التعزيز لا يعتمد على استجابة الحيوان، بل يعتمد على انقضاء فترة زمنية معينة، و مثال ذلك الأجر المدفوع للعامل كل شهر أو كل أسبوع فالأجر هنا يدفع ليس نظير عدد معين من الوحدات الإنتاجية (أى الاستجابات) بل نظير عدد معين من الأيام أو الأسابيع التى تنقضى .

وقد تبين بالبحث أنه كلما كانت الفترة بين كل تعزيز وآخر فترة قصيرة فإن الحيوان يستجيب بصورة أسرع. وبالمقابل فعندما تكون الفترة بين التعزيزات أطول فإن سرعة الاستجابة تقل بصورة واضحة .

كما درس «سكنر» ما أسماه التعزيز المثبت النسبة fixed ratio reinforcement وفى هذه الحالة يقدم التعزيز ليس بناء على فترة زمنية محددة بل بناء على عدد من الاستجابات سابقة التحديد بحيث «يحدد » الحيوان متى سوف يتم التعزيز؟ هل بعد حدوث عشر استجابات أو عشرين استجابة؟ وليس من الغريب أن الحيوانات كانت تستجيب فى نموذج التعلم المثبت النسبة بصورة بصورة أسرع من نموذج التعلم بحسب قوائم الفترات الزمنية المحددة .

النقطة الرابعة : السلوك اللفظى . حيث اهتم «سكنر» بدر اسة السلوك اللفظى Verbal behavior وهو المجال الوحيد الذى أقر فيه «سكنر» بوجود فوارق بين الإنسان والفأر. ويرى «سكنر» أن الأصوات التى تصدر من الكائن الحى وتمثل الكلام هى استجابات يمكن تعزيزها عن طريق كلام الآخرين أو إيماءاتهم، وذلك بالأسلوب نفسه الذى يعزز به سلوك فأر التجارب بواسطة الطعام .

ويتطلب السلوك اللفظى فى نظر «سكنر» موقفا فيه شخصان أحدهما متحدث، والآخر مستمع، والمتحدث يأتى باستجابات وهى الأصوات، والمستمع - بسلوكه الذى يتضمن التعزيز أو عدم التعزيز أو الرد المتضمن الاستهجان- يتحكم فى الاستجابات التالية للمتحدث ومثال ذلك إذا استعمل المتحدث كلمة أو عبارة معينة، ومن سماع هذه الكلمة أو العبارة ابتسم المستمع وقال هذا حسن فإن هذا يزيد من احتمال أن يستعمل المتحدث الكلمة نفسها مرة ثانية. أما إذا قام المستمع عند سماع هذه الكلمة أو العبارة بإبداء تكشيرة فى الوجه أو رد تهكمى أو استهجان من أى نوع، فإن هذا يزيد من احتمال عدم لجوء المتحدث إلى استخدام الكلمة نفسها أو العبارة فى المستقبل .

ويمكن ملاحظة هذا الموقف عندما يتعلم الأطفال الصغار التحدث إذ يشاهدون و يسمعون ردود أفعال الآباء وهم ينطقون الكلمات بطريقة خطأ، أو يتفوهون بكلمات نابية، ومن هنا يتعلمون تحدث اللغة من الآباء .

ولابد بعد هذا العرض الموجز لمذهب «سكنر» من التعرض له بشىء من التعليق، ذلك أن «سكنر» لقى - كما لقى رجالات السلوكية- قدرا كبيرا من التقدير وقدرا كبيرا

من النقد ، وكان موقف «سكنر» حيال منتقديه هو التجاهل وعدم الاهتمام ، ولقد قال مرة عندما قرأ عرضا لأحد كتبه ، «قرأت جزءا من هذا العرض ولم أكمل الباقى، ذلك أنه عرض أخطأ هدفه، وأنا لا أرد على من ينتقدونى بل لا أهتم بقراءة ما يكتبون، وهناك الكثير من الأشياء المفيدة التى أشغل وقتى بها، وهذه الأشياء أكثر نفعا من أن أصحح سوء الفهم لديهم » .

ومن أهم الأمور التى وجه النقد فيها إلى «سكنر» تركيزه على دراسة التعلم بواسطة « صندوق سكنر» ذلك لأن هناك مجالات أخرى للتعلم أهملها «سكنر» تماما . ومهما يكن من أمر الانتقادات الموجهة إليه إلا أن علم النفس الأمريكى المعاصر تأثر بأعمال «سكنر» أيما تأثير بحيث يمكن القول بأنه من أبرز وجوه علم النفس الأمريكى إن لم يكن أبرزها على الإطلاق .

وقد لقى «سكنر» تقديرات علمية عديدة منها أن الجمعية الأمريكية لعلم النفس منحته عام ١٩٥٨م جائزة الإسهام العلمى المتميز على أساس أنه عالم مبتكر متجمس. كذلك منح عام ١٩٦٨م الميدالية القومية للعلوم وهى أعلى تشريف تمنحه حكومة الولايات المتحدة للإسهامات العلمية المتميزة. إلى جانب أنه منح عام ١٩٧١م الميدالية الذهبية من المؤسسة الأمريكية لعلم النفس، وهذا كله دليل على قدر هذا الرجل ومكانته فى علم النفس . وبوفاته أصبحت المدرسة السلوكية بلا أب يحميها ولا يوجد فى الساحة السيكولوجية سواء على المستوى الأمريكى – أو العالمى – من هو قادر على شغل الفراغ الذى حدث بوفاة عملاق علم النفس المعاصر !!





الفصل الثامن عشر

المدرسة الغرضية «القصدية» Hormic Psychology

عندما تحول علم النفس باتجاه أن يكون علما موضوعيا، وجد بعض علمائه أن مفهوم الغرض Purpose مفهوم مثير لسوء الفهم، ومثير أيضا للخلافات، وذلك سواء على مستوى المدرسة البنائية أو على مستوى المدرسة السلوكية . حيث رأى «تتشنر» أن مفهوم الغرض مفهوم غيبى مثل المعنى أو القيمة . وعلى ذلك استبعد هذا المفهوم من مدرسته البنائية الاستبطانية ، كما عده عميد السلوكية «واطسون» من قبيل المفاهيم الغامضة مثل الرغبة أو الصورة الذهنية، والتى لا تعيرها السلوكية أى التفات .

ولكن تصدى لدراسة مفهوم الغرض والقصد عالم كبير من علماء النفس حمل وحده لواء مدرسة، وأمكن له أن يوجد لمدرسته مكانا بين المدارس الكبرى فى علم النفس، وهذا العالم الكبير هو «وليم مكدوجل» .

وقد دخلت المدرسة الغرضية إلى الصراع مع المدارس الأخرى عند إعلان ميلادها فى ١٩٠٨م بصدور كتاب «مكدوجل» «علم النفس الاجتماعى» . وصالت هذه المدرسة وجالت وأثرت علم النفس إثراء كبيرًا .

ونتحدث عن هذه المدرسة فى النقاط الآتية :

قصدية «مكدوجل» Medougel (١٨٧١ - ١٩٣٨م) :

هو « وليم مكدوجل» العالم الإنجليزى. ولد وتعلم بإنجلترا، واهتم بدراسة الطب وعلم الحياة إلى جانب دراسته للأنثروبولوجيا. واتجه إلى تدريس علم النفس عام

١٩٠٠م فى جامعتى «لندن» و «إكسفور» . وفى أثناء الحرب العالمية الأولى خدم فى الجيش البريطانى حيث كان مسئولا عن حالات عصاب الحرب، وذهب إلى أمريكا بعد الحرب عام ١٩٢٠م حيث عمل أستاذا بجامعة «هارفارد» ثم بجامعة «ديوك» .

وأهم كتبه على الإطلاق كتاب «علم النفس الاجتماعى» الذى أصدره عام ١٩٠٨م . ويجمع مؤرخو علم النفس على أنه من أكثر كتب علم النفس شعبية وانتشارا، وأجريت عليه العديد من التنقيحات، ويقال : إن هذا الكتاب طبع منه أربع عشرة طبعة منذ صدوره حتى عام ١٩٢١م .

ويعد « مكدوجل » من أوائل الذين عرفوا علم النفس بأنه علم السلوك ، حيث بدا له أن تعريف علم النفس بأنه علم الشعور، تعريف ضيق محدود، ذلك أنه رأى أن سلوك الإنسان والحيوان تحت الظروف المختلفة: من الصحة والمرض، هو موضوع علم النفس، وقد درس «مكدوجل» الفسيولوجيا وكان مغرما ومهتما بالحيوانات، وكان يستعملها فى بعض التجارب (كما سنتبين فيما بعد). وقد أكد «مكدوجل» على أهمية الدراسة الموضوعية، ولكنه لم يتنكر للاسبتطان؛ ذلك لأنه إذا استند الباحث إلى الدراسة الموضوعية فقط فإن ذلك سيؤدى إلى القول بآلية السلوك الإنسانى والحيوانى . ويرى «مكدوجل» أننا نعرف السلوك على أنه غرضى هادف Purposive وليس ميكانيكيا .

وما السلوك إذن؟ يجيب « مكدوجل » : إن السلوك غرضى وهذه الغرضية فى السلوك تتضح فيما يأتى : .

* **الاستمرارية** : حيث إن السلوك قد يبدأ على أنه استجابة لمثير، ولكنه يستمر بعد أن يتوقف المثير مثال ذلك الأرنب الذى يهرب ويبحث عن جحره، وذلك بسبب ضوضاء عابرة ويستمر هذا الفعل (الهرب) رغم توقف المثير .

* **المرونة** : ومع هذه الاستمرارية فإن هناك التنوع والمرونة والتلقائية وعدم الخضوع الأعمى للبيئة، فى الوقت نفسه الذى يستجيب فيه لهذه البيئة، ذلك أن الأرنب قد يحول طريقه ليتجنب العوائق بغية الوصول إلى غرضه .

* هذا السلوك الحركى المتغير ينتهى إلى هدوء وسكون بعد أن يصل إلى غايته أو غرضه ، ثم يبدأ نشاط نوع جديد مختلف - ومثال ذلك القطة التى يطاردها أحد الكلاب، تهرب منه بأن تصعد إلى غصن شجرة وتجلس آمنة مطمئنة وتراقب الكلب فى هدوء إلى أن ينصرف يائسا .

* فى اغلب الأحوال يكون الجزء الأول من أية « مجموعة سلوكية » عبارة عن حركات تهيئ الكائن للمرحلة التالية. مثال ذلك : تربص القطة الصائدة فى حالة هدوء وتحفز لتشرع فورا فى مهاجمة فأر تترصد له .

* إذا كثر تكرار الموقف الذى يستدعى مجموعة سلوكية، فإن السلوك المتغير يتخذ شكلا أكثر تحديدا، فتنحذف الحركات غير المفيدة وتحدث مجموعة من التحسينات أهمها الاختصار، وعلى ذلك فإن الكائن الحى يتعلم ليصل إلى هدفه بكفاءة أكثر. (نلاحظ أن هذه الأوصاف التى قدمها « مكدوجل » للسلوك تبنت المدرسة السلوكية بعضا منها فيما بعد) .

وإذا كان السلوك الإنسانى والسلوك الحيوانى يتسم بالغرضية وتحقيق الأهداف فإن ثمة مشكلة تظهر ، وهى محاولة اكتشاف الأغراض التى يهدف إليها ، وهذه الأغراض تختلف اختلافا كبيرا، ولكنها تقع تحت عدد قليل من المستويات، فمثلا الجحر بالنسبة للأرنب ، وغصن الشجرة بالنسبة للقطة « مكان آمن » لأنهما يؤديان الغرض نفسه. ثم ما الدوافع التى تؤدى إلى السلوك؟ حاول «مكدوجل» الإجابة على هذا السؤال فى كتابه « علم النفس الاجتماعى » ، وفى ثنايا الإجابة يعطى «مكدوجل» الأساس النفسى للعلوم الاجتماعية، وحتى ذلك الوقت الذى تعرض فيه «مكدوجل» لهذا الموضوع فإن علماء النفس تركوا علوما مهمة مثل الاجتماع والاقتصاد دون أن يؤثروا فيها . ودأبوا على الاهتمام فقط بدراسة العمليات العقلية، مثل الإحساس والإدراك والتعلم والتذكر والتفكير، وأهملوا جانبا مهما وهو ما تحتاجه العلوم الإنسانية من معرفة للدوافع الإنسانية، والتعرض لإجابة أسئلة مثل : لماذا يعيش الناس فى جماعة ؟ لماذا يستجيب الناس للعقائد ؟ لماذا ينضمون تحت لواء الدولة ؟ إن من مهام علم النفس أن يجيب على تلك الأسئلة .

وفى هذا المجال بدأ « مكدوجل » من حيث انتهى عالم الاجتماع الفرنسى «جوستاف لوبون » (١٨٤١ / ١٩٣١م) الذى اهتم أيضا بدراسات علم النفس الاجتماعى، وأهم دراساته تتناول السنن النفسية لتطور الأمم، وروح الجماعات وخصائص الحشد. ومن هنا اهتم «مكدوجل» بدراسة موضوعات مثل العقل الجمعى وسيكولوجية الحشد والدوافع الإنسانية التى تدفع الإنسان إلى الحياة فى مجتمع .

وفى إطار تصديه للعمل فى بناء علم نفس يدرس الدوافع – وذلك من أجل فائدة العلوم الإنسانية والاجتماعية – قدم نظريته الأساسية، وهى نظرية « علم النفس القصدى » . وافترض أن هناك عددا من الدوافع الأساسية الأولية التى تكون طبيعية وراثية ، وأن هناك عددا آخر مشتقا من هذه الدوافع الأولية. وقد اختار أن يسمى هذه الدوافع الأولية « بالغرائز » أو « الميل الغريزى » . والغريزة بالنسبة له ليست أمرا ميكانيكيا مثل الفعل المنعكس، أو سلسلة الأفعال المنعكسة ولكنها دوافع متجهة إلى غرض أو هدف، وقلب الغريزة هو « الانفعال ». ومثال ذلك : أن غريزة الخوف على سبيل المثال تتضمن حالة انفعالية تؤدى إلى محاولة الهروب من الخطر ، كما أن هناك عنصرا عقليا معرفيا cognitive فى الغريزة، وهو تبين الخطر فى حالة الخوف .

وقد اعتبر « مكدوجل » أن الغريزة عملية عقلية فى مستوى بدائى يمكن تحليلها إلى ثلاثة جوانب :

* من حيث التلقى هى الاستعدادات للمثيرات ذات الصلة أو ذات الدلالة، مثل رائحة الطعام فى حالة الجوع .

* من حيث التنفيذ هى الاستعداد لعمل حركات معينة أو الوصول إلى هدف معين، مثل أن يجد الكائن الحى ملجأ آمنًا عندما يشعر بالخوف .

* قلب الغريزة هو الاندفاع أو التهيج الانفعالى .

هذا وقد أعد « مكدوجل» قائمة بالغرائز الإنسانية instincts أو ما أسماه النزوعات الطبيعية الغرزية propensities وهذه القائمة تضمنت الغرائز الأولية فقط. ونلاحظ هنا أن «مكدوجل» لم يقع فى السخافة التى تقوم على تفسير كل سلوك بشرى

بأن وراءه غريزة، مثل القول بأن غريزة السياسة تفسر سلوك الإنسان السياسى ، وأن غريزة الدين تفسر سلوك الإنسـان الدينى ، وأن الغريزة المهنية تفسر نجاح الإنسان المهنى .

وقد أورد «مكدوجل » عام ١٩٠٨ م قائمة تحتوى على اثنى عشرة غريزة . وفى سلسلة من المراجعات نشر قائمة عام ١٩٣٢م تحتوى على ثمانى عشرة غريزة أو نزوعًا طبيعيًا هى :

١- غريزة البحث عن الطعام، وتتمثل فى البحث عن الطعام واختزانه.

٢- غريزة التقزز وتتمثل فى رفض وتجنب المواد الضارة .

٣- غريزة الجنس وتتمثل فى التزاوج .

٤- غريزة الخوف وتتمثل فى الهرب استجابة للمثيرات المؤدية إلى الألم .

٥- غريزة الاستطلاع وتتمثل فى اكتشاف الأشياء والأماكن الغريبة .

٦- غريزة الوالدية وتتمثل فى إطعام وحماية وإيواء الصغار .

٧- غريزة الاجتماع وتتمثل فى التماس الجماعة فى حالة العزلة، والرغبة فى البقاء مع جمع من الأصدقاء .

٨- غريزة تأكيد الذات وتتمثل فى السيطرة والقيادة وإثبات الذات فى مواجهة الآخرين

٩- غريزة الاستسلام وتتمثل فى الإذعان والخضوع للأقوى .

١٠- غريزة الغضب وتتمثل فى الامتعاض والاتجاه نحو تحطيم أى تهديد أو مقاومته ، وذلك لتحرير السلوك .

١١- غريزة الاستغاثة وتتمثل فى الصياح بصوت عال طلبا للمساعدة فى حالة الحاجة .

١٢- غريزة الإنشاء وتتمثل فى بناء المنزل والمأوى .

١٣- غريزة التملك وتتمثل فى التملك والاحتفاظ بكل ما نجده نافعا وجذابا .

١٤- غريزة الضحك وتتمثل فى الضحك على أخطاء وعيوب الآخرين .

١٥- غريزة الراحة وتتمثل فى إزالة كل ما من شأنه إحداث التعب .

١٦- غريزة النوم و تتمثل فى الاسترخاء و الراحة والنوم عند الشعور بالإرهاق أو التعب .

١٧- غريزة الترحال وتتمثل فى التجول والذهاب إلى الأماكن الجديدة .

١٨- مجموعة من الغرائز البسيطة التى تخدم الحاجات الجسمية مثل العطاس والإخراج والتبول والتنفس .

ويرى «مكدوجل» أن كل هذه الغرائز أو النزعات ينظر إليها على أنها دوافع أو ميول طبيعية inclinations و لا يكتسب الفرد غرائزه اكتسابا ، بل يرثها وراثة، وهى المنابع الأصلية لنشاطه، وبدونها لا تختلف طاقته النفسية والحركية عن مصنع عزل عنه التيار الكهربائى. إن الكائن الحى على هذا الأساس «قوة منفعلة» يسوقها إلى العمل المثيرات المختلفة التى تعرض لها .

وبالإضافة إلى ذلك فإن «مكدوجل» يرى أن السلوك حين ينظر إليه نظرة موضوعية، يتصف بالبحث عن هدف أو غاية أو غرض. أما السلوكية التى أهملت هذه الصفة الأساسية فهى مقصرة فى فهم علم النفس. والبحث عن هدف معناه وجود الدافع ، والدوافع الابتدائية الأساسية هى الغرائز أو الميول الغريزية. وبالرغم من إصرار «مكدوجل» على اعتبار أن الغرائز الموروثة هى الدوافع الأساسية للكائن الحى إلا أنه لم ينكر دور التعلم ، ذلك أنه أشار إلى أن الغريزة تتكيف بواسطة الكائن الحى .

أما القائمة السابقة التى تشمل الغرائز فهى لا تمثل نظرية «مكدوجل» بصورة شاملة وكاملة، حيث إن «مكدوجل» لاحظ - على سبيل المثال - أن نزعة التملك قد تبدو فى الميل إلى الامتلاك ، أو الميل إلى الادخار، وكذلك النزعة إلى الراحة تختلف باختلاف الأفراد واختلاف الشعوب. كما أن الميل إلى الضحك يشير حسب نظرية «مكدوجل» إلى استطاعة الإنسان أن يشارك الآخرين فى تجاربهم الانفعالية وبدون الضحك فإن الإنسان ينغمس فى الأحزان .

وكل غريزة ينظر إليها على أنها ميل طبيعى أو دافع طبيعى. ولكن الغريزة مع ذلك لها جانب مكتسب متعلم ، ومثال ذلك غريزة الغضب فإن ثمة أمورًا تثير غضب الطفل ولكنها لا تثيره عندما يصبح مراهقا. بينما مثيرات الغضب فى المراهقة مختلفة عنها فى الرشد. وهكذا فإن التعديل فى الاستجابة يكون عن طريق التعلم .

وثمة تعديل آخر يتم على الغرائز « المكدوجلية » حيث تتجمع بعض النزعات الغريزية أو الغرائز لتكون العواطف ، وتجمع الغرائز إنما يكون بسبب ارتباطها بموضوع ما ، مثال أن عاطفة حب رجل معين لامرأة معينة تتضمن غريزة الجنس وغريزة التملك، وكذلك الأمر فى العاطفة الوطنية، حيث لا توجد فى نظرية «مكدوجل» غريزة للوطنية ، ولكن أرض الوطن تكون هدفا لعدد من الغرائز، فمثلا إذا كانت أرض الوطن فى حالة تهديد فإن ذلك يوقظ غريزة الخوف، وعندما تهاجم أرض الوطن فإن ذلك يوقظ غريزة الغضب ، وإذا كان الوطن فى صراع أو منافسة مع بلد آخر فإن ذلك يوقظ غريزة تأكيد الذات، وهكذا تكون العواطف تجمعا لبعض الغرائز.

والعواطف تؤثر على تفكير الفرد وسلوكه، وقد تؤدى إلى تعارضات فى السلوك من الصعب أن نفسرها ، ذلك أننا نجد أنفسنا نشعر بعواطف متباينة تجاه الشخص نفسه مثل الحب والكره والرثاء. ومثال ذلك أن الأب قد يضرب ابنه لسوء سلوكه ولكنه لا يقبل أن يضربه شخص أخرعقابا له على سوء سلوكه، و هذا العقاب إنما يكون راجعا لعواطف متباينة منها حب الأب للابن وغيرته عليه .

علم النفس الفسيولوجى عند «مكدوجل» :

أصدر «مكدوجل» عام ١٩٠٥م كتابا بعنوان «علم النفس الفسيولوجى» حيث قدم فى هذا الكتاب نظرية مؤداها أن الوصلة العصبية هى مقر الشعور ، كما أشار إلى أن عملية الكف هى إعادة توزيع للطاقة أكثر من كونها منع حدوث شىء ما ، والكف بهذا المعنى بمثابة تصريف، وهو بذلك المقابل السلبى للعمليات الإيجابية .

وللأسف حظيت هذه النظرية بقدر قليل من الاهتمام، رغم إنها - فيما يرى مؤرخ علم النفس الكبير « فلوجل » - من أكثر النظريات الفسيولوجية - التى ظهرت فى ذلك الوقت - نجاحا . وقد طبق «مكدوجل» نظريته تلك فى أعماله الأولى على ظواهر شتى

وعلى كل مستويات الجهاز العصبى مثل أنواع الكف على المستوى الحسى، والكف المتبادل بين الغرائز . كما أن هذه النظرية تربط بين مفهوم الإعلاء الذى ينتمى إلى التحليل النفسى وبين مفهوم المنعكس الشرطى الذى ينتمى إلى الترابطية «البافلوفية».

ومن الغريب أن نجد «مكدوجل» الذى اهتم بعلم النفس الفسيولوجى وبموضوع الطاقة العصبية - وهما موضوعان ينتميان إلى الآلية والميكانيكية - لم يلتفت إلى التناقض الذى وقع فيه من تبنى وجهة نظر مسرفة فى الغائية بالنسبة للحياة النفسية وذلك عندما قدم نظريته فى علم النفس الغرضى .

علم نفس الحيوان عند « مكدوجل »

اهتم « مكدوجل » فى شبابه بدراسة الحيوان ، وعاد إلى هذه الدراسة بعد نضجه العلمى، إذ قاد مجموعة من التجارب أجريت على الفئران أثناء عمله بجامعتى «هارفارد» و «ديوك» .

وكانت هذه التجارب تتعلق بنظرية العالم الفرنسى الشهير «جين لامارك La-marck » (١٧٤٤ / ١٨٢٩م) ، وهو عالم متخصص فى دراسة الحيوانات وصاحب نظرية يقول فيها : إن مظاهر الحياة المختلفة كانت نتيجة عمليات التطور والتعديل خلال التاريخ ، كما أشار فى نظريته إلى أن الخصائص المكتسبة إنما تكتسب وتتطور نتيجة حاجات البيئة .

هذا وقد استغرقت دراسة « مكدوجل » تلك مدة طويلة بلغت سبع سنوات. ونشرت نتائج تلك الدراسة فى كتاب صدر عام ١٩٢٧م تحت عنوان (تجربة لاختبار فرض «لامارك») .

وهذه الدراسة تتضمن مجموعة من التجارب المحكمة، وذلك بغرض اختبار نظرية «لامارك» بخصوص توريث الصفات المكتسبة حيث درب « مكدوجل » عددا من الفئران لمدة ثلاثة وعشرن جيلا على الخروج أو الهرب من صندوق محير له مخرجان، مخرج مضىء ومخرج أقل إضاءة . ودرب الفئران على الخروج من المخرج الأقل إضاءة، حيث كانت تلقى صدمة كهربية مؤدية إلى الإحساس بالألم إذا حاولت الخروج

من المخرج المضئ. وكان التدريب مقصورا فى كل جيل على مجموعة تشكل نصف عدد الفئران . وقد أبدى نسل الفئران التى توالى تدريبها لمدة ثلاثة وعشرين جيلا سهولة ويسرا فى الخروج من الصندوق المحير من المخرج الأقل إضاءة، وتجنب الخروج من المخرج المضىء.

وكانت النتيجة التى توصل إليها « مكدوجل » من تجربته أن الفئران التى لم يتلق أسلافها تدريبا على الخروج من المخرج المضىء بلغ متوسط أخطاء الفأر منها ١٦٥ خطأ قبل أن يتحاشى الصدمة الكهربية المصاحبة للخروج من المخرج المضىء ، ثم الخروج من المخرج الأقل إضاءة، بينما كان متوسط أخطاء الجيل الثالث والعشرين من فئران المجموعة المدربة ٢٥ خطأ فقط فى أداء العمل نفسه وهذه التجربة تؤيد نظرية «لامارك» .

ومن أسف أنه رغم الضبط التجريبى الواضح فى هذه التجارب التى استغرقت تلك السنوات الطوال، والتى تدل على طول باع «مكدوجل» فى الدراسات التجريبية ، إلا أنها غير معروفة لمعظم طلاب علم النفس ، بل نادرا ما تذكرها مراجع علم النفس . وهذه التجربة - فيما نرى - تضاهى التجارب الكبرى فى علم النفس، وتقف على قدم المساواة مع تجارب « أبنجهاوس» و«بافلوف» و«ثورندايك» .

تأثير القصدية على العلوم الإنسانية .

ظهرت نظرية «مكدوجل» القصدية عام ١٩٠٨م حيث قابلها بعض السيكولوجيين - وليس كلهم - بالتقدير والحماسة. ولكن هذه النظرية سرعان ما فرضت موضوع علم النفس الاجتماعى على مجال العلوم الإنسانية، حيث ألفت فيه العديد من الكتب ، كما أصبح علم النفس الاجتماعى فرعا رئيسا من فروع علم النفس بعد أن كانت موضوعاته حكرًا على علماء الاجتماع .

وإن كانت نظرية «مكدوجل» لقيت بعض التقدير فى أوساط السيكولوجيين فقد لقيت أيضا التقدير نفسه فى أوساط علماء الاجتماع والاقتصاد ، إذ اهتموا بدراسة

موضوع وظيفة المجتمع من حيث هى إرضاء النزعات الغريزية لأفراده ، وأثيرت قضايا منها : أن المجتمع الصناعى يعطى فرصة ضئيلة لإرضاء غريزة « تأكيد الذات » كما أن تأخير الزواج من شأنه قمع الغريزة الجنسية، وهذا القمع للغرائز أو النزعات الغريزية من شأنه أن يؤدى إلى سلوك عصابى قلق، وكان هذا الاتجاه يمثل الخط الذى اتخذه الاقتصادى الانجليزى «جرهام ولاس » فى كتابه الذى أصدره عام ١٩٠٨م بعنوان «الطبيعة الإنسانية والسياسية»، وكذلك فى كتابه الذى أصدره عام ١٩١٤م بعنوان « المجتمع الكبير » .

ورغم أن القصدية التى قال بها « مكدوجل » أحسن استقبالها فى أول الأمر، إلا أنها أثارت فيما بعد غيرة مهنية من قبل علماء الاجتماع، حيث كانت أعين علماء الاجتماع موجهة صوب «الجماعة الاجتماعية » على أساس أنها الموضوع الرئيس فى الدراسة. وكانوا نتيجة لذلك أقل اهتماما بدراسة الغرائز أو النزعات الغريزية عند الفرد، وكانوا كذلك يميلون إلى الاعتقاد بأن الدوافع واللغة والعادات وأساليب السلوك بل والاعتقادات هى أمور ترجع إلى البيئة الاجتماعية ، كما اعتقد المشتغلون بالأنثروبولوجيا أن ثقافة المجتمع هى أمر يتلقاه الفرد، وعليه أن يمتثل له فنحن نتصرف تصرفا بشريا ليس بسبب غرائزنا أو نزعاتنا الغريزية ولكن بسبب ثقافة المجتمع التى تلقيناها .

وقد تركزت معارضة علماء الاجتماع لنظرية «مكدوجل» فى الكتاب الذى أصدره « برنارد » Bernard عام ١٩٢٤م بعنوان « الغريزة – دراسة فى علم النفس الاجتماعى »، حيث أشار فى هذا الكتاب إلى خطأ الرأى الشائع بخصوص الغرائز ، وبرهن على عدم أهمية الغريزة بالنسبة للمجتمع ، وكان شن هجوم « برنارد » على نظرية الغرائز أمرًا سهلا، ذلك لأن علماء النفس لم يتفقوا على قائمة بعدد الغرائز إذ قصرها بعضهم على غريزتين (مثل «فرويد») وزادها بعضهم (مثل «مكدوجل») إلى حوالى العشرين. وهذا القدر الواسع من الاختلاف بين السيكولوجيين أدى إلى الشك فى نظرية الغرائز من أساسها .

لكن الجانب الأخطر فى انتقاد «برنارد» هو أن ما نقول إنه غريزة ، سواء على مستوى كتب علم النفس أو على مستوى الحديث العابر ، ليس غريزيا صرفا بل مناشط مركبة ، تختلف من حضارة إلى أخرى، ويكتسبها الفرد من البيئة الاجتماعية. فمثلا التزاوج بين الجنسين وما يصاحبه من احتفالات الخطبة والزواج هو مثال على الصفة الاجتماعية لهذا المظهر الذى يطلق عليه غريزة الجنس ، وكذلك المظاهر التى تتعلق برعاية الأم لوليدها ليست من قبيل « النزعة الغريزية الوالدية » ، ولكنها مجموعة من المناشط تتعلمها الأم، إما من إرشادات الطبيب، أو من إرشادات العجائز، وكذلك الأمر فى غرائز مثل تأكيد الذات والتملك والإنشاء، فهى أمور أكتسابية وليس لها جذور وراثية.

هذا وقد أشار « مكدوجل » إلى أن لكل غريزة قلبًا انفعاليا ، يمثل قوة دافعة لكل المناشط المتعلقة بالغريزة. وهذا القول بدا فى نظر «برنارد » كأنه من قبيل اللمسة الصوفية البعيدة عن العلم . وبالطبع سلم « برنارد » بوجود بعض الغرائز البيولوجية مثل التنفس أو العطاس، ولكن مثل هذه الأمور ليس لها إلا أهمية اجتماعية ضئيلة، و لا يمكن أن ننسب إلى هذه الغرائز البيولوجية الدور الهام الذى ينسبه « مكدوجل » إلى الغرائز، ذلك لأنها لا تحدد أهداف الإنسان. ثم إنها لا تمثل قوة دافعة للسلوك الاجتماعى للإنسان .

ويرى «برنارد» أن البيئة الاجتماعية هى التى تحدد الأهداف وتعطى القوة الدافعة ، وهى كذلك المسئولة عن العوامل المحددة للذكاء والخلق، ذلك أن البيئة الاجتماعية للإنسان تختلف اختلافا تاما عن البيئة الطبيعية التى ترتبط بالغرائز البيولوجية. إن الجنس الإنسانى – فى نظر «برنارد» – استطاع خلال الأجيال العديدة إعداد بيئة صناعية تشتمل على المبانى والإنشاءات والطرق والمصنوعات المختلفة، وهذه البيئة الصناعية قوامها المؤسسات الاجتماعية والتقاليد والعادات، ومما لا شك فيه أن المجتمع مطالب بأن يرضى الاحتياجات البيولوجية للأفراد ، لكن الأمر الأهم أن الفرد قابل للتشكل طبقا للضغوط الاجتماعية .

وهذا الاستطراد لشرح موقف «برنارد» كان لبيان ما أثارته هذه النظرية من ردود افعال عند علماء الاجتماع. أما من قبل علماء النفس فإن النظرية الغرضية لقيت هجوما من المعسكر الأمريكى إذ هاجمها «ثورندايك » ثم «واطسون» وكان الهجوم مركزا على أن مفهوم الغريزة مفهوم واسع غير محدد تعوزه الأدلة العلمية، كما شككا فى مسألة فطرية السلوك على أساس أن السلوك متعلم من البيئة. أضف إلى ذلك ما عد ضعفا فى نظرية «مكدوجل» وهو قوله : بأن للغريزة قلبا هو الجانب الانفعالى الدوافعى، و هذا القلب ولادى فطرى لا يتأثر بالخبرة والتعلم فى حين أن النمط السلوكى للغريزة يتم تعديله طبقا لعملية التعلم، وعدت هذه الازدواجية فى نظرية «مكدوجل» من قبيل التناقض .

مناظرة بين عملاقين :

قدم « مكدوجل » نظريته فى الغرائز ولكنها ما لبثت أن لاقت معارضة شديدة من السلوكية الأمريكية، وهذا التعارض بين السلوكية والقصدية تعارض أساسى من حيث المبادئ العامة لكل نظرية. وقد تجلى هذا التعارض بأجلى صورة فى مناظرة شهيرة عقدت بين «واطسون» و «مكدوجل» فى فبراير عام ١٩٢٤م فى نادى علم النفس بمدينة «واشنطون» بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث كانت هذه المدينة لا تزال مدينة صغيرة، وقد شهد هذه المناظرة حوالى ألف شخص ومنهم عدد من السيكولوجيين (علما بأن عدد السيكولوجيين المنتمين إلى جمعية علم النفس الأمريكية هو ٤٦٤) ويعد حضور ألف شخص لهذه المناظرة – وهو عدد كبير بالنسبة لذلك الوقت – مبينا أهمية الخلاف بين السلوكية ممثلة فى «واطسون» والقصدية ممثلة فى «مكدوجل» .

ومما يجدر ذكره قبل الدخول فى تفاصيل هذه المناظرة أن «مكدوجل» فاز فى هذه المناظرة على «واطسون» مما يدل على قدرة «مكدوجل» على حسن عرض آرائه وقدرته على النقد فى الوقت نفسه ، هذا إلى جانب قدرته الاقناعية الفائقة .

ومن أهم الأبواب التى ولج منها «مكدوجل» عند هجومه على السلوكية قوله: إنه إذا كانت السلوكية ترفض الاستبطان فكيف لعلم النفس أن يدرس استجابات الأفراد؟ .

كيف لنا أن ندرس موضوعات رئيسة فى علم النفس مثل أحلام اليقظة والخيالات ؟ بل كيف نتفهم ونتذوق التجارب والخبرات المتعلقة بالإحساس الجمالى؟ . وسأل «مكدوجل» «واطسون» كيف يمكن للسلوكية أن تدرس إحساس الشخص الذى استمع إلى حفلة موسيقية أو مقطوعة موسيقية؟ مثال ذلك الآلات الموسيقية التى تعزف المقطوعات لتشنف أسماع الجمهور الذى ينطلق بعد ذلك فى تصفيق حاد معبرا عن الاستحسان. إن السلوكية لا تستطيع تفسير ذلك الحدث. كيف يستطيع السلوكى أن يفسر أثر تلك الأوتار التى تجعل المستمعين جالسين مستمتعين وكأن على رؤوسهم الطير؟ إن علم النفس فى نظر «مكدوجل» بل فى نظر الفهم العام يفسر ذلك بأن الجمهور يستمع إلى الموسيقى بمتعة وشغف شديدين، ويعبر عن إعجابه بالفنانين العازفين بالتصفيق، وعبارات الاستحسان، لكن المدرسة السلوكية لا تعترف بشىء مثل السرور أو الألم أو الإعجاب أو الاستحسان. إن السلوكية تركت جانبا هذه الاعتبارات الفلسفية باحثة عن تفسير آخر وهى تتخبط تخبطا أعمى باحثة عن التفسير . ويرى «مكدوجل» أن علينا أن ندعها فى تخبطها الذى قد يستمر قرونا فى بحثها عن التفسير أو عن اللا شىء ، ويحسن بالسلوكية أن تبقى كذلك حتى لا تزعجنا بتفسيراتها الآلية الميكانيكية .

ثم توجه « مكدوجل » بانتقاد إلى «واطسون» حول رأى السلوكية القائل بأن السلوك الإنسانى فى جميع نواحيه هو سلوك محتوم بخبرات الفرد السابقة، ويمكن التنبؤ به إذا عرفنا هذه الخبرات. وعلم نفس مثل هذا كأنه هوان للإنسان لأنه لا يترك أدنى فرصة لحرية الإرادة أو حرية الاختيار .

ومن الأمور التى جعلت موقف سلوكية «واطسون » سيئا فى تلك المناظرة الشهيرة أن العلم يقول بالحتمية بالنسبة للجوامد التى تزخر بها البيئة الطبيعية بينما تشير معظم العقائد الدينية وبعض الفلسفات إلى حرية الإنسان، ولكن «واطسون» كان ضمن معسكر القائلين بالحتمية والجبرية. ومعنى الجبرية والحتمية أننا غير مسئولين عن أفعالنا، لأنها قدر وحتم وجبر. وهذا القول اعتبره «مكدوجل» - وله بعض الحق - هولا عظيما؛ لأن معنى ذلك أن المجتمع لن يعاقب مخطئا على خطئه ، وهنا تتداعى أسباب الأمن الاجتماعى ويصبح الدفاع الاجتماعى غير ذى موضوع .

وإذا كان ذلك كذلك ، وكان كل شيء محتوما فما جدوى الكفاح والعلم ؟ وما جدوى رغبة الفرد فى تحسين وضعه وتحسين مجتمعه ؟ و على هذا فليس علينا أن نحاول منع الحروب وليس علينا أيضا أن نطالب بتحقيق العدل .

وكانت هذه المناظرة العاصفة بعد أحد عشر عاما تقريبا من قيام السلوكية . وقد تنبأ « مكدوجل » بأن سلوكية «واطسون» سوف تندثر خلال سنوات قليلة . ولكن كم كانت رؤية «مكدوجل» ونبوءته خطأ، بل لقد اعترف هو بنفسه فى مقدمة طبعة جديدة من تلك المناظرة (عام ١٩٢٩) بأنه كان مبالغا فى سوء تقديره للسلوكية، كما اعترف بأن «واطسون» عالم كبير له مكانته المشرفة وأن سلوكيته مبنية على أساس علمى قوى ومتين .

تعليق - حالة القصدية الحاضرة

انتقد «مكدوجل» بشدة موقف علم النفس الأمريكى (السلوكية) بأنه تعام عن أهم صفات وخصائص نشاط وسلوك الكائن الحى. وهذه الخصائص المهمة هى أن هذا السلوك والنشاط يتوجهان نحو هدف أو نحو قصد، كما أن السلوكية قد فسرت السلوك بأنه استجابة آلية للمثيرات، كما أن كل تعلم فى نظر السلوكية هو إضافة استجابة جديدة إلى الاستجابات القديمة وتعديلها .

وكانت مهمة «مكدوجل» الأساسية هى البرهنة على صحة علم النفس القصدى الذى يؤكد على التوجه نحو هدف ، وأن القصد حقيقة أساسية فى علم النفس، وأن هذا التوجه ليس أمرا آليا ميكانيكيا. ويرى «مكدوجل» أن علم النفس يجب أن يهتم بدراسة القصد باعتباره أساسا لفهمنا للسلوك الذى لا يمكننا فهمه بالقدر الكافى، ومن الممكن - مثلا - استخدام القصد فى علم النفس المرضى كما فعل بعض العلماء الذين يمكن تسميتهم «قصديين» ، مثل «فرويد» كما أنه يمكن تطبيق فكرة القصد فى علم نفس الحيوان .

ويرى « مكدوجل» أننا أمام سؤال رئيس : هل السلوك البشرى قصدى أم آلى ؟ - إنه قصدى؛ ذلك أن الفاعلية القصدية فى السلوك البشرى مضافا إليها إدراك الوضع

القائم وتوقع النتائج التى ستحدث والتوجه نحو هدف والرضا عندما يتحقق الهدف كل هذا يمثل الحقائق الأساسية فى نظرية « مكدوجل » .

وفى رأى « مكدوجل » – ولعلنا نوافقه على هذا الرأ ى – أن أعظم قيمة لعلم النفس القصدى هى تقديمه حقيقة وأهمية القصد في الحياة النفسية ، وهو يرى أن القول بالآلية والميكانيكية التى تسود بعض مجالات العلم – ومنها مجال علم النفس – هو قول فيه الكثير من التزيد والكثير من المبالغة .

هل ماتت القصدية أم ما تزال قائمة ؟ سؤال حرج من الصعب الإجابة عليه ، ولكن يمكن القول أن القصدية مدرسة مائتة للأسباب الآتية :

* إن مفهوم الغريزة الذى قدمته المدرسة القصدية اعتبر مفهوما غامضا ومن قبيل المفاهيم الغيبية وقد تعرض لهجوم شديد من المدرسة السلوكية .

* إن «مكدوجل» لم يقدم الأدلة التجريبية على صحة نظريته القصدية، رغم أنه قدم أدلة تجريبية على صحة نظرية «لامارك» .

* إن الغرضية ظهرت أول الأمر فى بريطانيا، ثم هاجرت إلى أمريكا حيث كان علم النفس السلوكى يبدأ خطواته كابن شرعى للحضارة الأمريكية ، فكان التصادم بين السلوكية والقصدية .

* من أسف أنه لم يرتق عمادة المدرسة الغرضية عالم كبير أو علماء كبار بعد «مكدوجل» أو معه، فكان « مكدوجل» رجل مدرسة بحيث ماتت هذه المدرسة بموت الرجل . ولو تولى بعده عمادة هذه المدرسة رجال عظام يطورونها ويعدلون بعض مفاهيمها ويجددونها – كما هو شأن السلوكية والتحليل النفسى – فلربما كان للمدرسة «الغرضية» شأن آخر .

ومهما يكن من أمر فقد أثرت هذه المدرسة علم النفس ثراء عظيما وفرضت موضوع علم النفس الاجتماعى والدراسات المتعلقة به على علم النفس، وعلى العلوم الاجتماعية والإنسانية. كما لفتت الأنظار إلى فكرة القصد فى السلوك الإنسانى وفتحت المجال الواسع لمناقشات علمية ذات فائدة .

الفصل التاسع عشر
أهم المذاهب المعاصرة

من خلال صفحات هذا الكتاب عرضنا لتاريخ علم النفس ومدارسه . وقد تبين أن هذه المدارس الحديثة - الأوربية الأصل فى معظمها - أسهمت فى صياغة علم النفس الأمريكى ، وقد رأينا أن كل مدرسة كانت - بقدر أو بآخر - ثورة فى مواجهة المدارس الأخرى بحيث يمكن القول : أنه من خلال « صراع المدارس » نمت المدارس جميعا .

ولا يسعنا إلا أن نقول إن كل حركة وكل مدرسة من مدارس علم النفس كانت ناجحة ، فقد قامت كل مدرسة بدورها . وهذا القول ينطبق على المدارس الحية السائدة مثل السلوكية والتحليل النفسى فى صورتهما الجديدة . ويقال كذلك على المدارس البائدة المائتة مثل البنائية والقصدية . إن المدارس جميعا أسهمت فى تطور علم النفس ، مما يدل على حيوية هذا العلم وعلى مستقبله الذى نتوقع له أن يكون مستقبلا طيبا .

وعلى أية حال فإن صورة علم النفس فى السنوات الأخيرة تدل على تطور القوة الأولى . ونعنى بها مدرسة التحليل النفسى فى صورة مجموعة من الاتجاهات التى تدخل ضمن التحليل النفسى مع بعض التعديلات . كذلك تطور القوة الثانية ونعنى بها مدرسة السلوكية ، والتى جرت عليها مجموعة من التعديلات هى الأخرى. ثم ظهور ما يمكن تسميته بالقوة الثالثة وهى علم النفس الإنسانى . هذا إلى جانب بعض الاتجاهات مثل الظاهراتية .

تطور نظرية التحليل النفسى :

لم تعد نظرية « فرويد » فى التحليل النفسى تلقى قبولا فى أوساط علم النفس بوجه عام ، وحتى فى أثناء حياة « فرويد » انشق عنه عدد من العلماء مثل « يونج » و « أدلر » و « هورناى » و « فروم » . كما أن هناك بعض العلماء المعاصرين يعدون أنفسهم من « الفرويديين » ولكنهم صححوا عددا من النقط فى النظرية « الفرويدية ».

ومما تجدر الإشارة إليه أن « فرويد » أثر على مجال دراسة الشخصية تأثيراً شديداً لا يوازيه تأثير عالم آخر . ومع ذلك فهناك - رغم ذلك - بعض العلماء الذين عدلوا الكثير من مفاهيمه ، رغم انضمامهم تحت لوائه ، وأشهر هؤلاء العلماء « ألبورت » و « موراى » و « أريكسون » وهم :

« جون ألبورت » Allport (١٨٩٧ / ١٩٦٧م) :

عالم نفس أمريكى درس فى جامعة هارفارد ، ثم بعد ذلك فى جامعات « برلين » و « هامبورج » و « كامبردج » وعاد بعد ذلك إلى الولايات المتحدة عام ١٩٢٤ م حيث عمل بالتدريس فى جامعة « هارفارد » الشهيرة . ومن أشهر أعماله العلمية كتابه الذى أصدره عام ١٩٣٧ م بعنوان « الشخصية : تفسير نفسى » ، وكتابه الذى أصدره عام ١٩٦١ م بعنوان « النموذج والنمو فى الشخصية » .

وهو إلى جانب ذلك صاحب فضل على علم نفس الشخصية ، حيث جعل « ألبورت » من دراسة الشخصية موضوعا يلقى الاحترام والتقدير .

كانت طفولته عادية - خلافا لعدد كبير من أصحاب مدرسة التحليل النفسى، وربما يكون هذا هو السبب الذى من أجله كانت نظرة « ألبورت » فى موضوع الشخصية تتسم بنظرة عقلية أكاديمية . ولم يتخذ وجهة محدودة من خلال تجارب الحياة الشخصية أو من ممارسة التحليل النفسى .

ومما يجدر ذكره أن « ألبورت » فى مبدأ حياته العلمية قابل « فرويد » فى «فينا » ، وقد خرج « ألبورت » من هذه المقابلة بأن التحليل النفسى يركز على

الدوافع والجوانب اللاشعورية . ويميل إلى إهمال الدوافع والجوانب الشعورية المؤثرة على السلوك . ولهذا الأمر فإن « ألبورت » يقلل من أهمية الدور الذى يلعبه اللاشعور فى التأثير على الشخصية . إلا فى حالات مرضى العصاب .

ولا يتفق « ألبورت » مع « فرويد » فى إضفاء الأهمية الشديدة على مرحلة الطفولة المبكرة وما فيها من صراعات ، وأثر هذه المرحلة على حياة الفرد حيث يرى « ألبورت » أن حياة الفرد إنما تتأثر بالخبرات الحالية وبالآمال المستقبلية أكثر من تأثرها بالماضى .

وثمة اختلاف أساسى آخر ، إذ إن « ألبورت » يرى أن الأسلوب الوحيد لدراسة الشخصية ليس هو دراسة العصابيين كما فعل « فرويد » ، بل دراسة الأسوياء . كما أنه خلافا « لفرويد » لا يرى أن السواء والعصاب يمثلان متصلا واحدا بل إن السواء والعصاب لا تشابه بينهما ، وعلى هذا لا يوجد أساس للمقارنة بينهما ، كما أكد « ألبورت » على موضوع تفرد الشخصية ، ولا يعتقد بأن هناك مبادئ أو أفكاراً عامة تنطبق على كل الناس ، كما ذهب إلى ذلك « فرويد » .

كذلك اعتقد « ألبورت » أن النقطة المركزية فى أى نظرية لتفسير الشخصية هى فى معالجة موضوع الدافعية ، ولكى يوضح الدافعية بالنسبة للشخص الراشد قدم « ألبورت » فكرة الاستقلال الوظيفى Functional Autonomy والتى تقول : إن الدافع لا يرتبط ارتباطا وظيفيا بأى خبرة من خبرات مرحلة الطفولة ، وأن الدافع هو أمر مستقل عن الظروف التى يظهر فيها . ومثال ذلك أن الشجرة لا تعود تعتمد على البذرة التى نمت عنها ، وعلى هذا فإن الشخص عندما يبلغ الرشد يكون بمثابة « مقرر أموره » ومثال ذلك أن الشخص الراشد عندما يبدأ حياته العملية فإنه يبذل جهدا كبيراً فى عمله حتى يحقق قدرا من المال ومن الأمان ، وقد يستمر فى بذل الجهد الكبير رغم أنه حقق أهدافه الأولى. ومن هذا يتضح أن الدوافع لا يمكن أن نفسرها بالرجوع إلى مرحلة الطفولة . ولكن يجب أن نفسر الدوافع فى إطار السلوك الحاضر وما فيه من نوايا .

ويقـدم لنا « ألبـورت » فكرة الذات Self . والذات فى نظره هى « أنا كـمـا يعرفنى الناس ويشعرون بى » ، وهى جزء شعورى هام من الشخصية وهذه الذات يحدث لها تطور وملاءمة خلال مراحل النمو من الطفولة إلى المراهقة ، وهذه المراحل التطورية ليست مراحل نمو نفسى جسمى كما ذكر « فرويد » ، بالإضافة إلى أن هذه المراحل خلو من الصراعات . والمهم فى نظر « ألبورت » فى تطور الذات هو العلاقات الاجتماعية، وخاصة العلاقة بالأم .

ومن الجديد بالذكر أن دراسات « ألبورت » عن سمات الشخصية هى أول دراسات تجرى فى أمريكا عن موضوع الشخصية . وقد ميز بين السمات traits وهى التى توجد عند عدد من الناس (مثل افراد حضارة معينة) وبين ما أسماه « ألبورت » النزعات الشخصية Personal dispositions والتى هى السمات المميزة لكل فرد . وكل من السمة والنزعة الشخصية يمكن التوصل إليها من ملاحظة السلوك فترة من الوقت . وقد سلم « ألبورت » بوجود ثلاثة أنواع من السمات :

- سمات رئيسة cardinal traits وهى التى تحكم الرغبات التى تسيطر على جميع مظاهر الحياة .

- سمات مركزية centeral traits وهى تتعلق بالنواحى السلوكية مثل التصرف بالعدوان أو التصرف بالعاطفة .

- سمات ثانوية secondary traits وهى النواحى السلوكية الأقل تواترا من النوعين الأولين .

وقد لقيت نظرية « ألبورت » استحسانا وتأثيراً في علم النفس يفوق ما لقيته نظرية التحليل النفسى التقليدى . ومع ذلك فقد كان ثمة صعوبة فى ترجمة مفاهيمها إلى بحوث يمكن إجراؤها بصورة تجريبية ومختبرية .

وقد توجه النقد إلى « ألبورت » لأنه ركز فى نظريته على تفرد الفرد بحيث يصعب التعميم . ولا يمكن والحالة هذه الوصول إلى قوانين عن السلوك الإنسانى ، ومع ذلك فإن « ألبورت » يعد من الوجوه الرئيسة فى علم نفس الشخصية . ذلك أن

كتاباته واضحة ومفاهيمه يسيرة . ويمكن القول : إن أكبر إنجازاته هو تعريفاته لسمات الشخصية وقياسه لتلك السمات ، وكذلك دراساته حول تطوير اختبارات قياس الشخصية .

« هنري موراي » Murray (١٨٩٣ / ١٩٨٨) :

أمريكى . وبينما كانت نظرية « ألبورت » في الشخصية رفضاً لآراء « فرويد » فإن نظرية « موراى » فى الشخصية Personolgy تبنى على أساس نظرية « فرويد». وقد درب « موراى » على التحليل النفسى ولكنه لم يمارسه وفضل عليه أن يدرس الشخصية من خلال دراسة الأفراد الأسوياء .

وتتسم طفولة « موراى » بأنه كان يعانى من رفض أمه له وحساسية شديدة لما يعانيه الآخرون ، وتعويضاً أشبه بالتعويض « الأدلرى » فى مقابل نقيصة كان يعانى منها وهى « الفأفأة » stuttering . والتخلف فى الألعاب الرياضية . ودرس الطب ثم اتجه إلى دراسة علم النفس بعد لقاءات مع « كارل يونج » . وبالطبع أثرت دراسته الطبية على نظريته فى الشخصية ، إذ أكد على أهمية الوظائف الفسيولوجية فى التأثير على الشخصية ، كما أكد على مفهوم أسماه تخفيض التوتر tension re- duction الذى عده قانونا أوليا يحكم السلوك الإنسانى ، متأثرا فى ذلك « بفرويد». كما أكد – متقدياً « بفرويد » – كذلك – على أهمية اللاشعور وأثر خبرات الطفولة على سلوك الراشد ، كما أشار فى نظريته إلى المفاهيم «الفرويدية » مثل « الهو » و« الأنا » و « الأنا الأعلى » مع إجراء تعديلات عليها .

وقد قسم « موراى » الشخصية إلى ثلاثة قوى : الهو ، الأنا ، الأنا الأعلى . والهو كما يرى « موراى » هو مستقر الرغبات الاندفاعية الولادية ، وهو يمد الشخصية بالطاقة ، وهو فى هذا يتفق مع « فرويد » . ولكنه يزيد على « فرويد » بقوله : إنه يتضمن بعض النزعات المرغوبة مثل التوحد والتعاطف وبعض صور الحب ، وعلى هذا فإن بعض جوانب « الهو » يجب أن تكبت ، أما الجوانب الأخرى فيسمح لها بالتعبير عن نفسها ، وذلك حتى تتطور الشخصية بصورة طبيعية .

وفى نظرية « موراى » تلعب « الأنا » دورا نشيطا ومؤثرا فى تحديد السلوك ، أكثر مما تلعبه فى نظرية « فرويد » ، حيث اعتقد « موراى » أن الأنا ليست مجرد جهاز فى خدمة « الهو » ولكنه تركيب أو بناء من شأنه أن يختار سلوكيات الفرد وينظمها ، وحيث يقوم الأنا بكبت رغبات « الهو » المحظورة فإنه يمكن من التعبير عن الرغبات غير المحظورة .

ويتفق « موراى » مع « فرويد » فى أن « الأنا الأعلى » يمثل استدماج قيم الحضارة ومعاييرها . ومع أن الأفراد إنما يقيمون سلوكهم فى إطار ما استدمجوه من قيم ومعايير . ولكن « موراى » أكد على أن « الأنا الأعلي » يستمر فى التطور والتكون خلال فترات النمو المختلفة وليس إبان فترة الطفولة - فقط - كما تشير النظرية الفرويدية .

ويعد مفهوم الدافعية محور نظرية « موراى » فى الشخصية . كما أن دراساته لموضوع الحاجات لشرح موضوع الدافعية تعد أهم إنجازاته ، ذلك أن الحاجات فى نظره تتطلب كل الوظائف العقلية والإدراكية ، كما أن الحاجات ترفع من مستويات التوتر فى الكائن الحى ، ومستويات التوتر هذه تنخفض بتحقيق الحاجات ، كما أن الحاجات تحدد السلوك وتوجهه إلى الطرق المؤدية إلى الإرضاء ، وقد أشار «موراى» إلى أن عدد حاجات الإنسان تبلغ العشرين ، من بينها الإنجاز والعدوان والاستقلالية والسيطرة وتجنب الأذى .

ومثل « فرويد » اعتقد « موراى » أن الشخصية تتطور خلال مراحل الطفولة وكل مرحلة تترك بصمتها على الشخصية فى صورة عقدة Complex وهى نموذج من السلوك يوجه لا شعوريا نمو الفرد بعد ذلك .

هذا وقد أثارت نظرية « موراى » العديد من الدراسات التى اهتمت بابتكار الوسائل لقياس الحاجات التي أشار إليها فى نظريته . لكن توجه النقد إلى نظريته بأن موضوع الحاجات لا ينسجم تماما مع بقية أركان نظريته ، كما أثر هذا الموضوع على ابتكار « موراى » لاختبار تفهم الموضوع الذى أعده عام ١٩٣٩م وذاع صيته من حيث كونه أحد اختبارات الشخصية الهامة .

« أريك أريكسون » Erikson (١٩٠٢م /) :

هو عالم نفسى أمريكى - ألماني الأصل وقد درب « أريكسون » على التحليل النفسى « الفرويدى » على يد ابنة « فرويد » (أنا) ، وقد درس الشخصية من وجهة نظر التحليل النفسى ، إلا أنه أضاف إلى نظرية « فرويد » نقطتين :

* **النقطة الأولى:** هى زيادته لمراحل النمو على أساس أن الشخصية تظل تنمو خلال جميع المراحل العمرية .

* **النقطة الثانية:** هى التأكيد على أثر الحضارة والتاريخ والمجتمع على الشخصية .

ومن أهم الكتب التي ألفها « الطفولة والشخصية » الذى أصدره عام ١٩٦٤ م - ثم « الهوية : الشباب والأزمات » الذى أصدره عام ١٩٦٨ م.

ويعرف « أريكسون » بالمفهوم الذى صاغه وهو أزمات الهوية Identity crisis ، وهي فكرة ربما ترجع إلى أزمات الهوية التى عاناها هو شخصيا خلال مراحل حياته ، والأزمة الأولى تتعلق بأن « أريكسون » فى سنى حياته الأولى خلط بين اسم جده واسم أبيه ، والأزمة الثانية فى سنى المدرسة فى ألمانيا حيث اعتبر نفسه ألمانيا فى حين رفضه زملاء الدراسة الألمان علي أساس أنه يهودى ، وكذلك رفضه زملاء الدراسة اليهود بسبب شقرته ومظهره الآرى ، - والأزمة الثالثة عندما تجول فى أوربا فى صدر شبابه يبحث عن هوية ، وحينما بلغ الخامسة والعشرين وصل إلى « فينا » حيث تلقى تدريبا فى التحليل النفسى ، وتزوج . وهكذا وجد هويته الشخصية والمهنية ، ولم يتجه « أريكسون » إلى استكمال دراسات عليا ولكنه ثقف نفسه بنفسه ثم ذهب إلى أمريكا حيث حاضر فى جامعة « هارفارد » وأصبح من أكبر المحللين النفسيين المعاصرين .

ونظرية « أريكسون » هى نظرية تطورية ، حيث تشير إلى أن نمو الشخصية يكون علي مراحل تستمر مدى الحياة . والنقطة المركزية فى نظريته هى البحث عن

الذات وتحقيق الهوية وقد قسم « أريكسون » حياة الإنسان إلى ثمانى مراحل من التطور النفسى الاجتماعى . وكل مرحلة تثير صراعا معينا يتطلب الحسم .

وتقوم هذه الصراعات لأن البيئة من شأنها أن تثقل كاهل الفرد بمتطلبات جديدة . وقد أسمى « أريكسون » هذه التحديات البيئية « الأزمات » ، وكل مرحلة من مراحل النمو وما يصاحبها من تحد من شأنها أن تحدث تغييرا فى شخصية الفرد حيث يختار بين أسلوبين للتصرف ، الأسلوب التكيفى والأسلوب غير التكيفى، وعندما تحل كل أزمة بصورة مرضية فإن الفرد يكون لديه القدرة الكافية للتعامل مع المراحل التالية من مراحل النمو .

ومراحل النمو الأربع الأولى عند « أريكسون » هى نفسها عند « فرويد» لكن المراحل الأربع التالية هى من إضافة « أريكسون » وهى تتناول الفرد من المراهقة حتى الشيخوخة ، وهذه المراحل الأربع الأخيرة هى التى تجاهلها « فرويد » . ومراحل النمو الثمانى عند أريكسون هى :

* المرحلة الفمية الحسية ، من الميلاد حتى سنة تقريبا ، وأسلوب التصرف فيها إما الثقة أو عدم الثقة .

* المرحلة الشرجية العضلية : من سنة حتى ثلاث سنوات تقريبا وأسلوب التصرف فيها إما الاستقلالية أو الشك والخجل .

* المرحلة القضيبية الحركية : من سن ثلاث سنوات حتى خمس سنوات تقريبا ، وأسلوب التصرف فيها إما المبادأة أو الشعور بالذنب .

* مرحلة الكمون : وهى من سن ست سنوات حتى إحدى عشرة سنة ، وأسلوب التصرف فيها إما الإنتاجية أو الشعور بالدونية .

* المراهقة : من سن اثنتى عشرة سنة إلى ثمانى عشرة ، وأسلوب التصرف فيها إما تحقيق الهوية أو عدم عثور الفرد على دوره .

* الرشد المبكر : من سن تسع عشرة إلى خمس وعشرين ، وأسلوب التصرف فيها إما الاختلاط بالناس أو الانعزال عنهم .

* الرشد : من خمس وعشرين إلى الخمسين وأسلوب التصرف فيها إما تكامل الشخصية أو الشعور باليأس .

وكانت إسهامات « أريكسون » فى ميدان التحليل النفسى ذات تأثير على ميادين أخرى مثل ميدان التربية وميدان العمل الاجتماعى . كما أن مؤلفاته ذات شعبية واسعة بين أوساط المتخصصين والمثقفين . ونظرية الشخصية عند «أريكسون » - مثلها مثل معظم نظريات الشخصية - لا يمكن التحقق من صدقها من الناحية التجريبية أو المختبرية لصعوبة تحديد مفاهيمها ، وصعوبة صوغ الاختبارات التى تقيس هذه المفاهيم . كما توجه إلى هذه النظرية النقد بأنها تنطبق على الذكور أكثر من انطباقها على الإناث ، إلا أن تقسيمه لمراحل النمو لاقى قبولا لدى عدد من المعالجين النفسيين والأطباء النفسيين ، لأنه أفادهم فى فهم مراحل نمو الإنسان .

وثمة إنجاز هام حققه « أريكسون » ، حيث قام بتطبيق نظريته عن مراحل النمو النفسى على بعض الرجال والزعماء مثل « هتلر » « والمهاتما غاندى » و«جورج برناردشو » ، إلى جانب دراساته السلوكية الأنثروبولوجية عن قبائل الهنود الحمر .

السلوكية : الثورة المعرفية :

أشار « واطسون » إلى أن علم النفس عليه أن يتخلى عن كل إشارة إلى مفهوم الشعور . وكان هذا نداء قويا وناجحاً . وقد استبعد أتباع « واطسون » مفهوم العقل ومفهوم العمليات الشعورية والمصطلحات العقلية بعامة من علم النفس ، وهذا أدى كما يقول العالم الإنجليزى « سيرل بيرت » Burt (١٨٨٣ / ١٩٧١م) إلى أن علم النفس كما فقد روحه وعقله يوشك أن يفقد شعوره .

وهكذا ، بتأثير السلوكية المتشددة أصبحت كلمات مثل الرغبة والمشاعر والصورة الذهنية والعقل والشعور مستبعدة تماما من علم النفس ، وكأنها أصبحت محرمات لا يتلفظ بها علماء السلوكية إلا فى مجال التنديد والنقد . ومثال ذلك « سكنر » الذى أنشأ سلوكيته مكونا نظرية عن الكائن الحى دون أن يهتم بما يمكن

أن يكون داخل هذ الكائن الحى . ولسنوات طويلة خلت كتب علم النفس – التى حررها رجالات السلوكية – من الإشارة إلى العقل وإلى الشعور .

ومع ذلك ورغم طغيان الطنين السلوكى ، ظهرت دلائل على أن علم النفس قد يستعيد شعوره حيث ظهرت بعض الدعوات للعودة إلى مفاهيم مثل العقل ومثل الشعور . ناهيك عن أن رئيس جمعية علم النفس الأمريكية « ولبرت مكيشى » قال فى إحدى خطبه التي ألقاها عام ١٩٧٦ م : « إن مفهوم علم النفس قد تغير ، ويتمثل هذا التغير فى العودة إلى مفهوم الشعور » وعلى ذلك فإن صورة علم النفس عن الطبيعة الإنسانية أصبحت إنسانية أكثر منها ميكانيكية .

كما أن « هلجارد » فى مؤلفه الشهير « مقدمة فى علم النفس » يتجه إلى تعريف علم النفس بأنه العلم الذى يدرس السلوك والعمليات العقلية .

وهذه الحركة المسماة بالثورة المعرفية ظهرت حوالى ١٩٦٠ ، ولكنها كانت ضعيفة . ومما يذكر أن « جثرى » الذى كان فى بداية حياته سلوكيا متحمسا اتجه فى أواخر حياته إلى التخلى عن « النموذج الآلى » فى علم النفس . وأشار إلى أن مفهوم المثير لا يمكن أن يفسر دائما فى حدود المصطلحات الفيزيائية ، كما أن الحركات الظاهرة للكائن الحى يجب ألا تفسر على أنها مجرد « حركات فى المكان» بل يجب فى نظر « جثرى » أن نصف المثير الذي نتعامل معه فى علم النفس فى حدود المصطلحات الإدراكية أو المعرفية ، وليس فى حدود المصطلحات الفيزيائية، وعلى هذا فإن مفهوم المثير يشير إلى معنى الكائن الحى المستجيب . وعلى ذلك فإنه لا يمكن لعالم النفس أن يتعامل مع « معانى » مصطلحات علم النفس من خلال المصطلحات السلوكية الجامدة ، لأن مثل هذه المصطلحات تتعلق بعمليات عقلية أو عمليات شعورية .

ولنا أن نتساءل : كيف حدث تطور من التمسك الحرفى بالسلوكية الجامدة إلى الاتجاه نحو التفسير المعرفى ؟ لأن ذلك تطور هام فى تاريخ علم النفس . إن

جواب هذا السؤال هو فى « طبيعة العصر » ، ذلك أن العلم - شأنه فى ذلك شأن الكائن الحى - يتوافق ويتكيف طبقا لتغيرات ومتطلبات البيئة وظروف الحياة .

إذن ما طبيعة العصر التى أدت إلى « الثورة المعرفية » فى السلوكية ؟ . ينظر بعض مؤرخى علم النفس إلى الفيزياء على أساس أنها النموذج الذى احتذاه علم النفس فى العصر الحديث ، ذلك أنه فى بداية القرن العشرين حدثت تطورات فى الفيزياء على يد بعض العلماء وعلى رأسهم « أينشتين » ، هذه التطورات أدت إلى رفض أفكار « نيوتن » عن « النموذج الميكانيكى » فى الفيزياء ، هذا النموذج الذى اتخذه علم النفس نبراساً منذ « فونت » حتى « سكنر » ، ولكن هذا النموذج الميكانيكى والقائم على الفصل النهائى بين الملاحظ والعالم الخارجى سقط نهائيا فى علم الفيزياء ، وحل محله نموذج جديد له صدى فى علم النفس ، ومضمون هذا النموذج أنه لا يمكن أن نفهم هذا العالم دون أن نزعجه . وهكذا فإن الفجوة المصطنعة بين الملاحظ والشىء الذى يلاحظ ، أو بين العالم الداخلى والعالم الخارجى ، أو بين عالم الخبرة وعالم المادة ، هذه الفجوة قد تم تخطيها ، حيث تحول اهتمام البحث العلمى من التركيز على المعرفة العلمية المستقلة عن الكون إلى التركيز على ملاحظاتنا عن الكون ، ومعنى هذا أن العالم تحول من الملاحظة المستقلة إلى الملاحظة المباشرة .

وعلى هذا أصبح « النموذج المثالى » عن حقيقة موضوعية بالإطلاق أصبح نموذجا لا يمكن الوصول إليه ، وأصبحت الفيزياء الآن تتميز باعتقاد سائد مؤداه أن ما نسميه المعرفة الموضوعية هى فى نهاية الأمر ذاتية؛ لأنها تعتمد على الملاحظ ومن هذا يمكن القول إن كل المعارف ذاتية، ومثل هذا الموقف يذكرنا برأى قال به «باركلى » بأن المعارف ذاتية لأنها تعتمد على الشخص الذى يلاحظها .

هذا وقد قاوم علم النفس السلوكى نجاح هذا « النموذج الفيزيائى » لمدة تقترب من الخمسين عاما ، معتمدا على تصور صاغه بأن نموذج علم النفس هو علم يدرس دراسة موضوعية . ولكن يبدو أن السلوكية تستسلم لطبيعة العصر

وتعدل « نموذجها لعلم النفس » - كما ستظهر حركة جديدة هى علم النفس الإنسانى . مركزة على الإنسان وشعوره ، ومستجيبة لنموذج الفيزياء الجديد . ومن أظهر الأمثلة على تأثير الثورة المعرفية فى السلوكية نظرية « بندورا » فى السلوكية الاجتماعية .

« **ألبرت بندورا** » Bandura (١٩٢٥ /) :

أمريكى . بدأ « بندورا » فى الستينيات من هذا القرن ، تبنى نظرية سلوكية أسميت نظرية التعلم الاجتماعى Social Learning .

وهذه النظرية تتخذ اتجاها سلوكيا اجتماعيا ، ونظرية التعلم الاجتماعى هذه تعد أقل تشددا من سلوكية « سكنر » ، وتعكس أهمية النظرية المعرفية ، ولكن رغم ذلك يبقى « بندورا » ضمن الإطار السلوكى ، وتقوم هذه النظرية على أساس ملاحظة سلوك الفرد الإنسانى فى عملية التفاعل الاجتماعى ، ولا تستخدم الاستبطان منهجاً للبحث ، ولكنها تؤكد على أهمية دور التدعيم فى اكتساب وتعديل الأنماط السلوكية ، وقد عرض لهذه النظرية فى كتابه الذى أصدره عام ١٩٧٧ م بعنوان « نظرية التعلم الاجتماعى » .

ونظرية « بندورا » ، إلى جانب أنها نظرية سلوكية ، فهى نظرية معرفية أيضا . إنها تأخذ فى الاعتبار أهمية جداول التدعيم الخارجى على عمليات تفكيرية مثل الاعتقادات والتوقعات ، وفى رأى « بندورا » أن الاستجابات السلوكية لا تتأثر آليا بواسطة المثيرات الخارجية بأسلوب ميكانيكى آلى ، بل إن الاستجابات للمثيرات إنما يتم تنشيطها ذاتيا . وعندما يتم تغيير السلوك بواسطة تدعيمات خارجية فإن ذلك يحدث لأن الفرد يكون واعيا وشاعراً بما يتم تدعيمه ، وفى حالة تهيؤ لقبول هذا التدعيم المؤدى إلى تغيير السلوك .

وبالرغم من أن « بندورا » يتفق مع « سكنر » فى أن سلوكنا يمكن أن يتغير نتيجة للتدعيم إلا أنه يرى بناء على دراساته التجريبية ، أن كل الأنماط السلوكية يمكن أن يتم تعلمها فى غياب التدعيم البديل Vicarios reinforcement ، وذلك بملاحظة سلوك الآخرين وملاحظة النتائج التى يؤدى إليها هذا السلوك .

إن القدرة على التعلم بالمثال وبالتدعيم البديل هذه القدرة تتضمن امكانية توقع النتائج التى نلاحظها فى الاخرين ، والتى لا نتعرض لها بأنفسنا . وهكذا نكون قادرين على تنظيم سلوكنا ، وذلك بأن نتخيل النتائج المتوقعة من الأنماط المختلفة، ونتصرف طبقا لذلك ، بأن نمارس نمطا سلوكيا ونتجنب نمطا سلوكيا آخر .

وإلى جانب التعلم بالمثال أو التدعيم البديل ، فإن « بندورا » يوضح جانبا آخر من نظريته ، ويشير إلى التعلم خلال « النماذج » modeing . ذلك أننا نلاحظ الأفراد الآخرين ثم نتصرف متخذين أنماطهم السلوكية نماذج . وفرق بين « سكنر» و « بندورا » فى أن التعزيز يتحكم فى السلوك عند « سكنر » بينما عند « بندورا » فإن النماذج الموجودة فى المجتمع هى التى تتحكم فى السلوك .

وهذا الاتجاه السلوكى المعرفى لقى الكثير من الترحيب فى الأوساط العلمية وقامت على أساسه بحوث عديدة ، كما استخدمت فكرته الأساسية فى العلاج السلوكى ، حيث يعرض على الأشخاص في هذا النوع من العلاج السلوكى نماذج من السلوك المرغوب والتى يطلب منهم محاكاتها .

ومما يدل على أهمية « بندورا » فى علم النفس المعاصر والتقبل العام لآرائه البعيدة عن التطرف هو انتخابه رئيسا لجمعية علم النفس الأمريكية عام ١٩٧٤ م . ومهما يكن من أمر فإن « بندورا » رغم مخالفته « سكنر » ما يزال تحت المظلة السلوكية لأن السلوك ما يزال هو المسألة المركزية فى نظريته وبحوثه ، وما تزال السلوكية قوية داخل علم النفس الأمريكى رغم أنها سلوكية تختلف بقدر أو بآخر عن سلوكية « واطسون » الصارمة .

ويمكن القول : إن السلوكية قد تمت توسعة قاعدتها وتقوية هذه القاعدة عن طريق إدخال نظرية « بندورا » التى تهتم بالجوانب الاجتماعية والمعرفية فى التعلم وتغيير السلوك .

علم النفس الإنسانى :

وهو يسمى تجاوزا « القوة الثالثة » على اعتبار أن القوة الأولى هى التحليل النفسى ، والقوة الثانية هى السلوكية . ومع ذلك فإن علم النفس الإنسانى ما يزال أضعف من أن يناطح إحدى هاتين القوتين .

وعلم النفس الإنسانى ما يزال جديدا بحيث لا يمكن اعتباره مدرسة رئيسة فى علم النفس ، ذلك لأنه لم يصبح بعد كيانا فى جسم علم النفس . ومع ذلك فإننا لا يمكن أن نتجاهل علم النفس الإنسانى ونحن بصدد دراسة عن تاريخ علم النفس ، لأن علم النفس الإنسانى من حيث كونه قوة جديدة ، ظهر منذ ما يزيد عن ربع قرن، ومدة - هذا شأنها - تعد هامة إذا قدرنا أن تاريخ علم النفس الحديث بدأ منذ حوالى قرن فقط من الزمان .

ومما يدعونا إلى التعرض بالدراسة لعلم النفس الإنسانى أنه أصبح مصدر جاذبية لعدد كبير من علماء النفس ، وخاصة الشباب منهم . ومما يجدر ذكره أن علم النفس الإنسانى له جذور تاريخية عند بعض العلماء هذا بالإضافة إلى إسهام قطبيه « ماسلو » و « روجرز » .

وعلم النفس الإنسانى له أصوله التاريخية التي يمكن أن نتبينها فى بداية عصر النهضة عند المفكر والشاعر الإيطالى الكبير « فرانسسكو بترارش » Pe-trarch (١٣٠٤ / ١٣٧٤) وتعنى الإنسانية أساسا التخلى عن الأفكار العقيمة التى سادت العصور الوسطى فى أوروبا ، والتى تنظر للإنسان نظرة تقلل من قيمته وتهدد من إنسانيته . والإنسانية فى أول عهدها حركة فلسفية أدبية تركز على دراسة قوى الإنسان وإمكاناته وقيمته وحاجاته ، وهى فى دراستها تلك تستشعر التفاؤل بالإنسان وما يمتلك من إمكانات .

كما أن الأفكار الأساسية فى علم النفس الإنسانى يمكن أن نجد لها جذورا عند العلماء والفلاسفة السابقين ، كما هو الحال فى معظم مدارس علم النفس ، ومن هذه الأفكار الأساسية التأكيد على أهمية الخبرة الشعورية ، والوحدة بين

طبيعة الإنسان وسلوكه ، والاعتقاد فى وجود الإرادة الحرة والمبادأة عند الإنسان ، وكذلك تأكيد القدرة الخلاقة عند الفرد . ومثل هذه الأفكار توجد عند عدد من علماء النفس القدامى .

وعلى سبيل المثال فإن « برنتانو » انتقد الاتجاه الآلى فى دراسة علم النفس ، وأشار إلى أن علم النفس يدرس الشعور من حيث كونه فعلا ، وأن الشعور له نوعية كلية ، وليس مجرد محتوى سلبى لجزئيات . وكذلك عارض « وليم جيمس » الاتجاه الآلى فى دراسة علم النفس ، وحث على تركيز الدراسة فى علم النفس على الشعور وعلى الفرد ككل .

كما أشارت مدرسة « الجشطلت » إلى وجوب الاتجاه نحو دراسة كلية للشعور كما أن هناك عدداً من علماء مدرسة التحليل النفسى مثل « أدلر » و « هورنانى » و« فروم » عارضوا فكرة الحتمية الفرويدية ، تلك الحتمية التى تقررها القوى البيولوجية والقوى النفسية اللاشعورية ، وهذه الانشقاقات عن التحليل النفسى « الفرويدى » بشرت بأفكار جديدة مثل المبادأة وحرية الإرادة وتأثير جميع المراحل العمرية فى تكوين الشخصية ، وكذلك اعتبار أن الشخصية هى قوة خلاقة تستطيع أن تشكل نفسها .

ومما لا شك فيه أن طبيعة العصر لعبت دورا فى قيام علم النفس الإنسانى ، حيث تضمنت طبيعة العصر عدم الارتياح وعدم الرضا تجاه التفسيرات الآلية التى ازدحم بها علم النفس ، وقد أظهر علم النفس الإنسانى تنديدا بالآلية التى أظهرت الإنسان وكأنه حيوان « يتصرف بالحتمية » استجابة لمثيرات البيئة أو الخبرات الطفولية المبكرة .

كذلك ساد الاحتجاج بأن الحضارة الغربية بعامة ، والحضارة الأمريكية بخاصة ، قد قللت من إنسانية الإنسان وأهدرت فرديته بحيث أصبح ترساً صغيرا فى الآلة الاجتماعية الكبيرة ، وأصبحت النظرة إلى الفرد على أنه مجموعة من الأرقام والإحصائيات ، وليس على أنه إنسان . إن تلك الحضارة الغربية قللت

الشعور بذاتية الفرد ، وقللت من قدرته على تغيير حياته ، بحيث أصبح المجتمع بما فيه من « بيروقراطية » عملاقة بمثابة قدر متسلط على الفرد يلغى حريته ويقيد حركته . وهذا كله أدى إلى زيادة الشعور بالاغتراب سواء اغتراب الفرد عن مجتمعه أو اغترابه عن نفسه . كل هذه الصيحات ضد تجريد الإنسان من إنسانيته على أيدى القوتين العظميين فى علم النفس - التحليل النفسى والسلوكية - مهدت الطريق لظهور علم النفس الإنسانى من حيث كونه قوة ثالثة .

وعلى هذا قام علم النفس الإنسانى فى مواجهة التحليل النفسى والسلوكية . وقبل أن نتعرض بالدراسة للنقط الأساسية فى علم النفس الإنسانى ننظر أولا فى المواقف التى يعارضها علم النفس الإنسانى .

والنقطة الأولى فى ذلك : أن علم النفس الإنسانى يعتقد أن السلوكية تتخذ منهجا يتسم بالقصور فى دراسة وفهم الطبيعة البشرية . وهذا المنهج يوصف بأنه مصطنع وضيق وعقيم ، وإن تركيز السلوكية على دراسة السلوك الظاهر جرد الإنسان من إنسانيته وجعله أشبه ما يكون « بفار أبيض كبير أو حاسب الكترونى بطىء » . ويرى علماء النفس الإنسانيون أن التفسير السلوكى بالمثير والاستجابة صورة غير كاملة عن طبيعة الإنسان . كما أن الاتجاه إلى التكميم والموضوعية أمر مرفوض لأن الإنسان ليس آلة وليس كائنا خاويا .

كما يرى الإنسانيون أن هذا الكم الهائل من البحوث التى أجرتها السلوكية عن السلوك الظاهر ليس له فائدة تذكر فى فهم طبيعة الإنسان ، ولا فى توضيح ما يعانيه من مشكلات .

هذا كما توجه الإنسانيون بالنقد إلى نظرية « الفرويدية » على أساس الاتجاه « الحتمي » الذى تتخذه ، وتقليلها لدور الشعور ، كما توجه « ماسو » بالنقد إلى «فرويد » لاقتصاره في دراسته على الأشخاص المضطربين المصابين بالعصاب أو الذهان . ومن ثم ، فإذا ركزت مدرسة مثل مدرسة التحليل النفسى دراستها على المرض النفسى والعقلى فقط فكيف لعلم النفس أن يتوصل إلى معرفة الخصائص

والصفات البناءة للإنسان ؟ هذا وقد أشار « ماسلو » إلى أن علم النفس تجاهل خصائص الإنسان ومميزاته الإيجابية ، مثل الفرح والرضا والقناعة والبهجة والرحمة والكرم ، ذلك لأن علم النفس يهتم بالتركيز على الجانب المظلم والجانب المريض من الشخصية الإنسانية ، ويتجاهل قواها وفضائلها . إن التركيز على دراسة عينات من المعتوهين والمعوقين وغير الناضجين وغير الأصحاء من شأنه أن يوصلنا إلى فلسفة معوقة وعلم نفس معوق .

وفى مقابل علم النفس ، مثل الذى تقول به السلوكية أو يقول به التحليل النفسى ، قام علم النفس الإنسانى ليكون قوة ثالثة . ويأمل الإنسانيون أن نتخذ اتجاها جديدا وإطارا جديدا واضحا نحو علم النفس ، بدلا من أن نتخذ علم نفس جديدا على الإطلاق، فهم لا يريدون إنشاء مدرسة جديدة من الفكر « العلم نفسى » ولكنهم يريدون تشكيل القوى الموجودة الآن فى علم النفس ، وأن يضيفوا إليها . وقد اعترف « ماسلو » بأن دراسة سلوك مرضى النفوس والعقول ضرورى لفهم الطبيعة الإنسانية ، ولكن مثل هذه الموضوعات الضيقة المحدودة لا يمكن أن تكون هى المجال الوحيد لعلم النفس .

هذا وقد نشرت الجمعية الأمريكية لعلم النفس الإنسانى عام ١٩٧٢ م مجموعة من المبادئ لهذه القوة الجديدة ، وهذه المبادئ هى :

- الاهتمام بخبرات الفرد لأنها ظاهرة أساسية فى دراسة الإنسان ، على أن يكون كل من التفسيرات النظرية والسلوك الظاهر أمرين ثانويين بعد خبرات الفرد ، ومعنى تلك الخبرة بالنسبة للإنسان .

- التأكيد على أهمية الخصائص الإنسانية المميزة مثل الاختيار والابتكار وتحقيق الذات فى مقابل اعتبار الإنسان مجرد كائن آلى .

- التأكيد على قيمة الإنسان وكرامته مع الاهتمام بتنمية القوى والإمكانات الموجودة عند الإنسان .

– أن فهم الطبيعة الإنسانية لا يمكن التوصل إليه من الاعتماد على الدراسات التى تجرى على الحيوان ، إذ إن الإنسان ليس مجرد فأر أبيض كبير .

– أن الموضوعات التى يتم اختيارها للدراسة يجب أن تكون ذات معنى بالنسبة للوجود الإنسانى ، ولا يكون اختيار الموضوعات فقط لمجرد صلاحيتها للدراسة المعملية وسهولة التكميم .

يجب أن يكون هناك استمرارية واتصال بين ما يسمى علم نفس البحث ، وعلم النفس التطبيقى ، وأن محاولة الفصل بينهما أمر بالغ الضرر لكل منهما .

وحتى تستوفى الصورة التى توضح معالم علم النفس الإنسانى نتحدث باختصار عن البشر بعلم النفس الإنسانى وهو « ماسلو » والمؤسس له وهو « روجرز» .

« إبراهام ماسلو » Maslow (١٩٠٨ / ١٩٧٠) :

عالم نفس أمريكى حصل على الدكتوراه من جامعة « وسكونسن » عام ١٩٣٤م واشتغل بتدريس علم النفس ، وقدم علم النفس الإنسانى من خلال دراسات عن تحقيق الذات وترتيب الدوافع . ومن أهم مؤلفاته « مبادئ علم نفس الشواذ » أصدره عام ١٩٤١ م . « والدوافعية والشخصية » أصدره عام ١٩٥٤ م . إلى جانب عدد من الكتب والمقالات .

ويسمى « ماسلو » الأب الروحى لعلم النفس الإنسانى ، وهو الذى أطلق شرارة هذا المذهب ، والذى أعطاه شكله الأكاديمى ، وبغرض الوصول إلى فهم أقصى إمكانات الكائن الإنسانى درس « ماسلو » عينة صغيرة لأكثر الناس تكاملا ، بحيث يستطيع أن يعرف كيف يختلف هؤلاء عن المرضى أو عن العاديين . ومن هذه الدراسة توصل إلى نظرية فى الشخصية تركز على الدافع للنمو والتطور وتحقيق الذات ، والوفاء بكل ما لدى الإنسان من إمكانات وطاقات .

وفى البداية كان « ماسلو » سلوكيا متحمسا مقتنعا بأن الأسلوب الآلى الذى تتخذه العلوم الطبيعية يمكن أن يقدم إجابات شافية عما لدى الإنسان من تساؤلات

ومشكلات . ولكن « ماسلو » من خلال تجربة حياته اقتنع بأن السلوكية محدودة جدا بحيث لا تستطيع أن تقدم حلولا لمشكلات الإنسان ، وقد تأثر « ماسلو » كثيرا بعدد من السيكولوجيين الألمان الفارين من النازية. وقد تقابل مع « أدلر » و «فروم» و « هورناى » و « فرتيمر » الذى كان يكن قدرا كبيرا من الحب والاحترام له ، هذا إلى جانب تأثره بالأنثروبولوجية الأمريكية « روث بندكت » .

ويرى « ماسلو » أن كل إنسان يميل إلى تحقيق الذات ، و « تحقيق الذات » هذا هو أعلى مستوى للوجود الإنساني ، فيه يستغل الإنسان إمكاناته وطاقاته . وحتى يكون تحقيق الذات تاما فإنه من الضرورى أن ترضى الحاجات الأربع ، والتى هى فى أدنى سلم الحاجات hierarchy of needs وهذه الحاجات الدنيا هى حاجات ولادية فطرية وترضى الواحدة منها بعد أن ترضى الأخرى ، أى أن هناك ترتيباً متدرجاً لهذه الحاجات ، بمعنى أنه إذا أرضيت حاجة ظهرت حاجة جديدة تتطلب الإرضاء .

وهذه الحاجات ترتب كما يلى :

* الحاجات الفسيولوجية للطعام والماء والهواء والجنس .
* الحاجات الأمنية وهى الحاجة للأمان والاستقرار والنظام والحماية والتحرر من الخوف والقلق .
* الحاجة إلى الحب والانتماء .
* الحاجة إلى تقدير الآخرين وتقدير الذات .
* الحاجة إلى تحقيق الذات .

وقد ركز « ماسلو » فى دراساته العلمية على دراسة خصائص الأفراد الذين وصلوا إلى تحقيق الذات وتبين أنهم يشتركون فى الخصائص التالية :

* إدراك موضوعى كامل للحقائق .
* تقبل كامل للذات .

* الاهتمام بالعمل والانغماس فيه .

* البساطة والتلقائية فى السلوك .

* الخصوصية والاستقلال .

* ممارسة « تجربة القمة » والتى تتضمن الزهو والفرح والدهشة .

* حب البشر والتعاطف معهم .

* رفض الخضوع والاستسلامية .

* الاتجاه نحو الابتكار .

« كارل روجرز » Rogers (١٩٠٢ / ١٩٨٧) :

من اهم علماء النفس الأمريكين المعاصرين ، وأقواهم تأثيرا وأكثرهم شهرة. ويرجع هذا كله إلى الأسلوب العلاجى غير المباشر الذى أسماه « العلاج المعقود على العميل » Client-Centered therapy ومن المعلومات التي حصلها « روجرز » خلال علاجاته تلك توصل إلى نظرية فى الشخصية مفادها أن الإنسان له دافع واحد مهيمن وهذا الدافع هو تحقيق إمكانات وقدرات الإنسان .

وقد اشتق « روجرز » نظريته تلك من خلال دراساته على الأسوياء وعلى المرضى من خلال علاجاته « المعقودة على العميل » ، وأن هذه التسمية تمثل جزءا من رأيه فى الشخصية الإنسانية حيث يضع مسئولية التغيير على عاتق العميل أكثر من وضعها على عاتق المعالج (كما تفعل مدرسة التحليل النفسى) حيث يفترض «روجرز » أن الإنسان يستطيع شعوريا وعقلانيا أن يتحكم فى نفسه ، وأن يتحول من الأساليب غير المرغوبة فى الفكر والسلوك إلى الأساليب المرغوبة ، وهو لا يعتقد أن الناس محكومون بالقوى اللاشعورية ، أو بخبرات الطفولة المبكرة ، ذلك أن الشخصية فى نظره تتشكل بأحداث الحاضر وبرؤيتنا لهذه الأحداث .

ومن أبرز الدلائل على أهمية « روجرز » فى علم النفس المعاصر أنه انتخب عام ١٩٤٦ م رئيسا لجمعية علم النفس الأمريكية (A P A) ومن أهم كتبه « العلاج

المعقود على العميل » الذى أصدره عام ١٩٥١ م « تكون الشخص » on Becoming a Person الذى أصدره عام ١٩٦١ م .

ويعتقد « روجرز » أن القوة الدافعة الأساسية عند الإنسان هى « تحقيق الذات » . ورغم أن الدافع نحو تحقيق الذات دافع ولادى إلا أن التعلم والخبرات التى يتعرض لها الفرد . تؤثر على هذا الدافع . ومن الأهمية بمكان فى نظر « روجرز » علاقة الطفل بأمه لأن هذه العلاقة من شأنها أن تؤثر على الشعور بالذات ، وعندما ترضى الأم حاجة الطفل إلى الحب والتى يسميها « روجرز » الاهتمام الإيجابى Positive regard فإن الطفل ينشأ غالبا على شخصية سوية .

وعندما تجعل الأم بذل الحب لطفلها مشروطا بما ينتهجه من سلوك لائق فإن الطفل سوف يستدخل اتجاه الأم ، ويكون ما أسماه « روجرز » « إشراطات الجدارة » Conditions of Worth . وفى هذا الموقف يشعر الطفل بذاته فى ظل ظروف أو شروط معينة ، ويحاول أن يتجنب تلك السلوكيات التى تؤدى إلى غضب الأم أو عدم رضاها . ونتيجة لهذا كله فيما يرى « روجرز » فإن الذات لا يسمح لها بالنمو الكامل ، لأنه لا يتاح لها التعبير عن كل مظاهر جوانبها .

وهكذا فإن المطلب الأساسى من أجل صحة نفسية سوية هو أن يتلقى الطفل الاهتمام الإيجابى بأسلوب « غير إشراطى » بحيث تبدى الأم حبها وتقبلها للطفل بغض النظر عن سلوكه . وفى هذه الحالة فإن الطفل لا يكون « إشراطات الجدارة » وبالتالى فلا يضطر إلى كبت أو قمع أى مظهر من مظاهر « ذاته النامية » emerg-ing self وفى هذه الحألة فقط فإنه يمكن للطفل الوصول إلى تحقيق الذات .

وإن هدف تحقيق الذات فى نظر « روجرز » هو الوصول إلى أعلى مستوى للصحة النفسية ، وهى حالة يسميها « روجرز » « كمال الوظيفة » . والفرد كامل الوظيفة يتميز بالانفتاح على كل الخبرات والتجارب ، ويميل إلى أن يعيش في كل لحظة من وجوده ، كما يتميز بإحساس بالحرية فى الفكر والعمل ، هذا إلى جانب قدر كبير من الابتكارية .

وبالنسبة للعلاج « المعقود على العميل » فهو نظام للعلاج النفسى يقوم على أساس الافتراض القائل بأن الفرد أو العميل هو الأقدر على حل مشكلاته ، وأن على المعالج أن يخلق جوا علاجيا يتسم بالدفء والتسامح بحيث يشعر المريض بالحرية فى مناقشة مشكلاته ، مما يمكنه من الاستبصار بها ، وفى العلاج المعقود على العميل يقوم المعالج بدور غير مباشر ولا يتدخل إلا بالتشجيع والتعليقات البسيطة على ما يرويه العميل .

ومما يجدر ذكره أن أسلوب « روجرز » فى العلاج لقى قبولا لدى علماء النفس أكثر من القبول الذى لقيته نظريته فى الشخصية التي توجه إليها النقد بالذات حيال الفكرة التي ترى أن تحقيق الذات هو دافع ولادى .

وليس باستطاعة مؤرخ علم النفس أن يحدد أثر علم النفس الإنسانى على علم النفس الحديث والمعاصر ، نعم إن قوة جديدة تحاول أن تجمع أطرافها ، ولكن علم النفس الإنسانى لم يصبح بعد مدرسة « قوية » تأخذ مكانها بين مدارس علم النفس العريقة . وقد يجادل مجادل فى أن عدم احتلال علم النفس الإنسانى مركزه ليكون مدرسة مرموقة ، إنما يرجع إلى حاجة هذه « القوة الثالثة » إلى رجل عظيم يستطيع أن يتحدث عن أهدافها ومفاهيمها من مركز قوة كما فعل « فرويد » بالنسبة للتحليل النفسى ، وكما فعل « واطسون » بالنسبة للسلوكية ، ذلك أن «روجرز » رغم مكانته العلمية لا يستطيع أن يقف ندا لهذين العالمين الكبيرين .

ومهما يكن من أمر فإن الأمل قائم بالنسبة لهذه القوة الثالثة ، إذ تنطق باسمها مجلة علمية أسست عام ١٩٦١ م باسم « مجلة علم النفس الإنسانى » كما تكونت جمعية علمية باسم « الجمعية الأمريكية لعلم النفس الإنسانى » عام ١٩٦٢ م، كما أنشئ فى الجمعية الأمريكية لعلم النفس قسم لعلم النفس الإنسانى عام ١٩٧١م . ولعل إنشاء مثل هذا القسم اعتراف صريح بأهمية علم النفس الإنسانى بالنسبة لعلم النفس بوجه عام ، وعلم النفس الأمريكى بوجه خاص .

الظاهراتية :

فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين سادت فى علم النفس الألمانى مدرستان هامتان . الأولى : هى مدرسة « فونت » البنائية التى تدرس الخبرة الشعورية بواسطة الاستبطان ، وترى أن المحتوى العقلى يعتمد على الخبرة الحسية ، أما المدرسة الأخرى : فهى مجموعة من العلماء كانوا على شىء من الخلاف مع « فونت » مثل « برنتانو » و « ستمف » وكذلك مدرسة « فرزبورج » التي تزعمها « كولبة » . حيث مهد هؤلاء العلماء للظاهراتية .

والظاهرتية Phenomenolgy تتعلق بدراسة الظواهر . والظاهرة من الناحية اللغوية هى ما يظهر للمشاهد أو الملاحظ. وتعنى الظاهراتية بأنه يجب عند الدراسة أن تؤخذ الظواهر من حيث كونها حوادث تدرس فى ذاتها بطريقة مباشرة، بغض النظر عن أسبابها ومصاحباتها . والدراسة الظاهراتية من حيث كونها أسلوبا فى علم النفس تؤكد على الخبرة كما يعاينها الفرد ، وهى تعارض أى تحليل من شأنه تحطيم الحادثة النفسية إلى شظايا متناثرة .

وعلى ذلك فإنه بالنسبة للظاهراتية ، فإن الخبرة المباشرة الفورية هى نقطة البداية بالنسبة لفهم الأحداث النفسية . والدراسة الفورية معناها أن ندرس الظاهرة فى وقت حدوثها نفسه بدون أن تجرى تحريفات بسبب التفاعل العقلى . ويتمثل هذا التفاعل فى نسيان أجزاء من الظاهرة أو المبالغة فى تقدير أجزاء أخرى . أى أن الباحث قد يهتم بالجوانب التى تؤيد مذهبه العلمى أو الفلسفى ، ويهمل الجوانب التى لا تؤيده .

ومثال للدراسة الظاهراتية ، أنه فى حالة وقوع شخص ما فى الحب فإن هناك مجموعة من المشاعر والأفكار والعواطف التى يعاينها ، ويمكن وصف هذه المشاعر والأفكار والعواطف فى مظاهر معينة مثل زيادة ضربات القلب أو احمرار الوجه أو التوتر أو الارتباك من حضور الشخص المحبوب ، كما أن المحب يميل إلى

تضخيم مزايا المحبوب والتقليل من عيوبه ، بل قد يميل إلى اعتبار هذه العيوب بمثابة مزايا .

إن الظاهراتية ترى أن محاولة تحليل عاطفة الحب ووصفها بطريقة تحليلية تفصيصية أمر مرفوض ، لأن هذا التحليل من شأنه البعد عن « حقيقة » هذه العاطفة . إن الظاهراتية تطالب أن تكون الدراسة هى الوصف الحر المباشر عن طريق المعاينة الذاتية أو المعاناة الذاتية . وإلى جانب ذلك ترى الظاهراتية أن هناك فرقاً بين الخبرة « الفعلية » عن طريق المعاينة والمباشرة وبين الدراسة التحليلية لهذه الخبرة لأن التحليل من شأنه تشويه هذه الخبرة .

ولا يفوتنا أن نذكر أثر « جوته » Goethe (١٧٣٩ / ١٨٣٢م) شاعر ألمانيا وأديبها العظيم على انتشار الأفكار الظاهراتية فى الفكر الألمانى ، حيث كانت له أعمال أدبية كثيرة أعظمها على الإطلاق كتاب « فاوست » الذى صدر الجزء الأول منه عام ١٨٠٨ م والثانى بعيد وفاته عام ١٩٣٢ م . وفى هذا الكتاب يعطى « جوته » وصفاً رائعاً لمراحل الحياة والفن الشعرى والأدبى ، وكذلك وصفاً لآرائه الفلسفية . وتبدو فى هذا الكتاب محاولة « جوته » الوصول إلى المعرفة الكاملة والخبرة المباشرة لظواهر الحياة . وكان لهذا الكتاب أثر بالغ على الثقافة العامة فى ألمانيا عامة . وعلى المشتغلين بالفلسفة وعلم النفس خاصة .

ومن أهم علماء هذا المذهب :

(أ) « **أدموند هوسرل** » Husserl (١٨٥٩ / ١٩٣٨م) :

ألمانى وهو مؤسس المذهب الظاهرياتى المعاصر ، ولد فى مورافيا (تشيكوسلوفاكيا الآن) وقد درس فى « ليبزج » على يد « فونت » كما درس الرياضيات فى « فينا » ووقع تحت تأثير « برنتانو » واشتغل « هوسرل » بتعليم الفلسفة فى جامعة « جوتنجن » من عام ١٩٠٠ حتى ١٩١٦ . حيث تركها إلى كرسى الفلسفة بجامعة « فريبورج » . وبقى فى هذا الكرسى إلى اعتزاله فى ١٩٢٨ م .

ومن أهم الأعمال التى أصدرها كتابان عن « الظاهراتية » أصدر الأول عام ١٩١٣ م وأصدر الثانى عام ١٩٢٨ م .

ويرى « هوسرل » أن ثمة مبدأين أساسيين يتخذهما فى فلسفته الظاهراتية:

* **المبدأ الأول :** أنه يجب التحرر من كل رأى سابق على أساس أن ما ليس مبرهنا ببرهان قاطع صحيح فلا قيمة له ، وهى حالة قريبة من شك « ديكارت » ، ولكن الشك عند « هوسرل » يؤدى به أن يضع بين قوسين الأشياء الموجودة فى العالم الخارجى ، وذلك لكى يحصر نظره في خصائصها الجوهرية كما هى ماثلة فى الشعور .

* **المبدأ الثانى** أنه يجب الذهاب إلى الأشياء نفسها ، أى إلى الأشياء الظاهرة فى الشعور ظهورا بينا ، مثل الألوان أو الأصوات ، فهذه الأشياء الظاهرة مدركة بحدس خاص ولا سبيل إلى تفتيتها أو تحليلها ، وهى مدركة بصورة مباشرة .

وهدف « هوسرل » هو التوصل إلى فلسفة للعلوم ومنهج للبحث ، على أن تكون هذه الفلسفة وهذا المنهج فى غاية الدقة ، كما للطرق الأمبيريقية ، ولكن بشرط ألا يؤدى إلى تفتيت موضوع الدراسة إلى عناصر . وقد ميز « هوسرل » بين فرعين عامين للمعرفة . الفرع الأول : يتضمن دراسة خبرة الشخص عن العالم الفيزيقى الخارجى والذى يؤدى بالفرد إلى الاتجاه نحو البيئة ، وأسمى « هوسرل » هذا الفرع بالعلوم الطبيعية التقليدية . والفرع الثانى : وهو الفلسفة موضوعا لدراسة خبرة الفرد حينما يتجه إلى داخل ذاته ، أو داخل نفسه . والإسهام الأساسى الذى أتى به « هوسرل » هو أن على علم النفس أن يوصل أو يقنطر bridge بين هذين الفرعين ويدرس خبرات الفرد الناتجة عن الاتجاه إلى العالم الخارجى وخبراته الناتجة عن الاتجاه إلى داخل الذات .

ويرى « هوسرل » أن الشعور لا يوجد فى إطار مفهوم مجرد ، أو فى صورة مخزن للذكريات ، بل إنه يرى أن الشعور هو كون الشخص على وعى بشىء ما . فالشعور هو خبرة الشخص بموضوع . ويؤكد « هوسرل » أن كل فعل شعورى يهدف

إلى موضوع ما . ولدراسة الشعور قدم « هوسرل » منهجا أسماه الاختزال الظاهرياتى phenomenological Reduction وهو ليس منهجا تجزيئيا يفتت الحادثة النفسية إلى أجزاء ، بل إنه منهج يقوم على الغوص فى المادة اللاصقة لمكونات التجربة أو اختراقها .

وقد أثرت آراء « هوسرل » على بعض المعاصرين له من فلاسفة الظاهراتية مثل « هيدجر » كما أثر على بعض الفلاسفة الذين مزجوا بين الظاهراتية والوجودية مثل « ميرلو - بونتى » .

(ب) « مارتن هيدجر » Heidgger (١٨٨٩ / ١٩٧٦م) :

هو من مساعدى « هوسرل » فى جامعة « فريبورج » الألمانية والذين وسموا المذهب الظاهراتى . ولد فى « بادن » بألمانيا والتحق فى بداية حياته بالعمل قسيساً في مدينة « فريبورج » . وعندما قرأ بعض دراسات « برنتانو » اهتم بدراسة الفلسفة ، وفى عام ١٩١٤ م حصل على درجته الجامعية وكانت رسالته الجامعية بعنوان « نظرية الحكم فى علم النفس » . وبعد ذلك بقليل أصبح مساعدا لفيلسوف الظاهراتية « هوسرل » ، وكانت علاقته بالنازى منذ عام ١٩٣٣ م مضطربة وفيها تناقض بين التأييد والمعارضة .

ومؤلفه الرئيسى « الكينونة والزمن Being and Time » أصدره عام ١٩٢٧م ، كان فيه بذور معارضته لأستاذه « هوسرل » ، ذلك أن « هوسرل » رأى أن الفلسفة الظاهراتية تدرس الشعور بينما يرى « هيدجرد » أن الفلسفة الظاهراتية هى دراسة الكينونة . ذلك أن الناس مغتربون عن كينونتهم الحقيقية ، والظاهراتية عند «هيدجرد » تساعد على عودة الناس إلى كينونتهم . وعلم النفس فى نظره ، هو دراسة كينونة being الأفراد التي تتضح فى حالاتهم الشعورية ، فالإنسان يوصف بأن له حالة شعورية . بل هو الحالة الشعورية نفسها . إن الإنسان هو الفرح . إن الإنسان هو الحزن . والوجود الإنسانى يجب أن يكون هدفه فهم كينونته بحيث نستبين زيف التجربة أو حقيقتها .

وثمة مزج بين الظاهراتية والفلسفة الوجودية ظهر فى مجال علم النفس المعاصر تحت اسم « علم النفس الوجودى الظاهرياتى » Existential Phenomeno-logical Psychology وهو اتجاه يهتم أكثر ما يهتم بمجال العلاج النفسى .

والوجودية Existentialism هى حركة فلسفية فى القرن العشرين ، ترى أن الإنسان هو الذى يختار أفعاله وهو أيضا مسئول عنها ، وهى لذلك تؤكد على أن الوجود سابق على الماهية بالنسبة للإنسان ، أى أن الإنسان يوجد أولا ثم يحقق ماهيته وخصائصه بعد ذلك . وهى كذلك تركز على الفرد وعلى علاقته بالوجود الذى يعيش فيه . والوجودية لها تأثير شديد على الفكر الأدبى فى الفلسفة والأدب والمسرح .

ومن أشهر فلاسفة الوجودية وأكثرهم ضجيجا وإنتاجا الفيلسوف الفرنسى « سارتر » Sartre (١٩٠٥ / ١٩٨٠) ، الذى اشتغل إلى جانب الفلسفة بالآداب ، وتعكس أعماله الأدبية والفلسفية نظرته إلى الإنسان على أنه صانع وجوده ، ومختار أفعاله ، ومن أشهر أعماله العملية « الوجود والعدم » الذى أصدره عام ١٩٤٣ م . وله رواية شهيرة بعنوان « الغثيان » أصدرها عام ١٩٣٨ . ومما يذكر أنه رفض جائزة نوبل للأدب ، التى رشح لها عام ١٩٦٤ م.

ومن المزج بين الوجودية والظاهراتية خرج علم النفس الوجودى الظاهرياتى بعدة مبادئ أهمها :

- كل إنسان ينظر إليه علي أنه فرد له كينونته فى هذا العالم . ذلك أن وجود كل إنسان هو وجود فريد من نوعه متميز عن الآخرين . وهذا الوجود الفردى يعكس إدراكات الفرد واتجاهاته وقيمه .

- إن الفرد يجب أن يعامل على أنه نتاج تطوره ونموه الذاتى الشخصى ، وليس مجرد حالة أو مثال ضمن تعميمات واسعة . وعلى هذا فإن علم النفس يجب أن يهتم بالخبرات الشخصية .

- إن الفرد يتحرك خلال حياته محاولا أن يواجه ما يقوم به المجتمع من محو لشخصيته ، وهذا المحو من شأنه أن يؤدى إلى الاغتراب والشعور بالوحدة والقلق .

« ميرلو بونتى » Merleau Ponty (١٩٠٨ / ١٩٦١م) :

فرنسى من أشهر الشخصيات فى الحياة الثقافية فى فرنسا فى الربع الثانى من القرن العشرين ، وقد تلقى تعليما ذا مستوىً عال فى الفلسفة والعلوم التجريبية، وقام بالتدريس فى أرقى المعاهد الفرنسية . وفى عام ١٩٢٧ م التقى بالفيلسوف الوجودى « سارتر » وأسس معه مجلة العصور الحديثة ، والتى تهتم بنشر مقالات فى الموضوعات الفلسفية والسياسية والفنية . وفى عام ١٩٥٢ م اختلف مع «سارتر» حول بعض المسائل الفلسفية والآراء السياسية . وفى العام نفسه تبوأ أستاذية كرسى الفلسفة بكلية فرنسا College de France أرقى المعاهد الفرنسية وأكثرها عراقة ، وهو أصغر شخص سنا يعين فى هذا المنصب .

ومن أشهر أعماله العلمية كتاب « ظاهراتية الإدراك » الذى أصدره عام ١٩٤٤ م - حيث ذكر « مارلو بونتى » أن علم النفس هو دراسة الفرد والعلاقة بين الشعور وبين الطبيعة . وليس الإنسان فى نظره هو مجرد كائن له مشاعر تدرسها الفسيولوجيا وعلم النفس التجريبى ، ولكن علم النفس فى نظره يقوم على دراسة اتجاه الفرد وعزمه وانتباهه نحو البيئة .

يضع « مارلو - بونتى » ثلاثة أسئلة رئيسة فى مواجهة علم النفس الحديث هى :

- هل الإنسان كائن إيجابى أم أم كائن استجابى ؟
- هل يتحدد نشاط الإنسان من داخل الفرد أو من خارجه ؟
- هل النشاط النفسى للإنسان له سبب أو أصل داخلى فى الفرد ؟ وهل يستطيع العلم أن يروض الخبرة الذاتية بحيث يستطيع أن يدرسها ؟

وقد اعتقد « مارلو - بونتى » أن الخبرات الإنسانية لا يمكن أن تدرسها الفسيولوجيا أو علم النفس التجريبى ، بل على العكس يجب أن يكون موضوع علم النفس الخبرة الذاتية أو الشخصية والتي تقع للفرد ولا تكون موضوع دراسة تجريبية. وعلى هذا فإن منهج البحث الصحيح في علم النفس هو دراسة الإدراكات الداخلية للشخص ، وهذا يمكن التوصل إليه فقط باتباع الأسلوب الظاهرياتى .

وإذا وضعنا الظاهراتية والوجودية الظاهراتية فى الميزان نجد أن هذه الحركات المسماة بالجديدة ، ليست بالجديدة كل الجدة ، لأن الأفكار الظاهراتية والوجودية والتى أكدت على أهمية الشعور وأهمية الإنسان وجدت عند فلاسفة وعلماء كثيرين ، من أمثال « برنتانو » و « فونت » و « تتشنر » بل وجدت بعض الأفكار الوجودية عند القدماء من أمثال « سقراط » و « افلاطون » .

وفى تقدير المؤرخ المدقق لعلم النفس أن هذه الحركة المسماة بالجديدة هى محاولة - غير ناجحة - للعودة بعلم النفس من العصر التجريبى إلى العصر الأرائكى الفلسفى . نعم إن علم النفس التجريبى وخاصة السلوكى ، عليه بعض المآخذ مثل التركيز على دراسة السلوك الظاهر ، والنظر إلى الكائن الحى نظرة آلية . لكن هذه الحركة المسماة بالجديدة لم تعط شيئا يمكن الاستفادة منه غير أسلوب وصفى أقرب إلى أسلوب الشعراء والأدباء منه إلى أسلوب علماء النفس ، وأثارت المشكلات العديدة فى مواجهة علم النفس دون أن تقدم الحلول الواضحة لهذه المشكلات .



الفصل العشرون

علم النفس الروسى Soviet Psychology

إن الظاهرة الأساسية التى تميز علم النفس الروسى هى رفض النظريات الإثنينية أو الازدواجية التى تفسر سلوك الإنسان، حيث يتخذ علماء النفس الروس موقفا مؤداه أن العلم إنما يتطور عن طريق الصراع بين المثالية والموضوعية .

أما من الناحية التاريخية فيمكن القول بأن تاريخ علم النفس الروسى هو تاريخ الصراع بين اتجاهين أساسيين : الاتجاه الأول الذى يعتمد على العقائديات القديمة التى بنيت على تعاليم الكنيسة الروسية المستمدة من الكتاب المقدس. أما الاتجاه الثانى فهو يعتمد على الأفكار التى تبناها الفيلسوف الاجتماعى الألمانى «كارل ماركس» (١٨١٨ - ١٨٨٣م) وزميله الفيلسوف الاجتماعى الألمانى «فردريك إنجلز» (١٨٢٠ - ١٨٩٥م) .

هذا وقد مر علم النفس الروسى بأدوار ثلاثة - الدور الأول هو الدور التمهيدى حيث غلبت الأفكار الفلسفية الأرائكية على الدراسات النفسية ، ثم الدور الثانى وهو الدور التأسيسى ، حيث وضعت المبادئ العامة لعلم النفس الروسى - أما الدور الثالث فهو علم النفس الروسى الحديث و المعاصر . والدور الثالث هذا هوامتداد طبيعى للدور الثانى ويقوم عليه .

وعلى ذلك نتحدث عن علم النفس الروسى فى نقاط ثلاث هى الدور التمهيدى، ثم الدور التأسيسى ، ثم علم النفس الروسى الحديث والمعاصر .

أولا : الدور التمهيدى :

غلبت الأفكار الفلسفية على هذا الدور، وربما كان من أسباب النهضة العملية فى روسيا ما قام به الإمبراطور الروسى الشهير «بطرس الأكبر» (١٦٧٢- ١٧٢٥م) من إصلاحات إدارية واهتمام بالتعليم .

وتناولوا هذا الدور الذى شغل القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر تميز بظهور عدد من المفكرين والفلاسفة الذين تناولوا الدراسات النفسية والذين نتحدث عنهم باختصار فيما يلى من نقط :

« تتشيف » Tatishchev (١٦٨٦/ ١٧٥٠) :

هو المنظر الأول الذى عاون « بطرس الأكبر» فى إصلاحاته العملية والتربوية، كما أنه بارك خطوات « بطرس الأكبر » فى الاهتمام بالعلوم التطبيقية وإحلالها محل العلوم النظرية وذلك على أساس فائدة العلوم التطبيقية فى الحياة اليومية للشعب الروسى . كما هاجم رجال الكنيسة الروسية واتهمهم بالحرص على أن يعيش الناس فى ظلام ويمنع الناس من تفهم الحقائق .

« كانتمر » Kantemir (١٧٠٨/ ١٧٤٤م)

هو من أوائل المفكرين الروس الذين اهتموا بدراسات النفس وذلك فى كتابه «مقالات عن الطبيعة والإنسان» الذى نشره عام ١٧٤٢م وتأثر فيه بآراء الفيلسوف الفرنسى «ديكارت» وأشار إلى أن الإنسان مكون من روح وجسد وأن الإنسان يختلف عن المادة وأن هذا الاختلاف عن المادة يتمثل فى اعتقاد الإنسان بوجود الله ، وكذلك أكد على أن الإنسان له إرادة حرة، وعلى ذلك فهو مسئول عن أعماله .

أما مذهبه الفلسفى فيتلخص فى أن العلم الطبيعى يجب أن يتخلص من أفكار الكنيسة ، كما أشار إلى أن تقييم الموقف أو الشىء إنما يكون حسب المنفعة المترتبة عليه ، كما حدد الخطيئة بأنها أى فعل من شأنه الإضرار بالإنسان، وفى مقالتين نشرتا عام ١٧٣٣م ، الأولى بعنوان « فائدة العلم والمدارس » والثانية بعنوان «رسالة إلى ابنى » أشار إلى أن مهمة علم النفس هى التوصل إلى معرفة قوى وإمكانات النفس الإنسانية .

«لومونوسوف» Lomonosov (١٧١١ / ١٧٦٥م)

وهو يعد أول عباقرة الفكر الروسى فى القرن الثامن عشر، وله أهمية خاصة فى تاريخ علم النفس الروسى ، وذلك لإسهامه فى مجالين أساسيين الأول هو مجال علم النفس والثانى هو مجال معالجة الحقائق وأسلوب التفكير .

و « لومونوسوف» هو أحد مؤسسى جامعة موسكو، وقد مثل روح العصر الحديث التى تتسم ببحث الظواهر الطبيعية والاجتماعية دراسة علمية، متحرراً من تعاليم الكنيسة الروسية. بل إنه ألف قصيدة شعرية صور فيها رجال الكنيسة بأنهم يخفون أفكارهم الزائفة وراء ستار من مظهرهم الدينى .

ويمكن القول أنه كان ينتمى إلى تلك المجموعة من الرجال الذين ثاروا ضد ديكتاتورية الكنيسة الروسية، وأنه كان يرى أن العلم الحديث – وعلم النفس جزء منه – هو من نتيجة هذه الثورة .

والعناصر الأساسية فى أفكاره تشير إلى أن « الفائدة العملية » هى المحك النهائى للأمور . كما تحث أيضا على البحث عن الارتباطات بين الأحداث والأشياء ومعرفة أسباب تلك الارتباطات ، هذا إلى جانب ضرورة الاهتمام بشرح الظاهرة الاجتماعية وشرح تاريخ الشعوب شرحا موضوعيا بعيدا عن التهويل والتزييف، كما أشار « لومونوسوف» إلى الأهمية القصوى للنواحى الاقتصادية والإنتاج الصناعى والإنتاج الزراعى والتجارة فى تطور الحياة الإنسانية وتطور العلم .

هذا وقد وصفه الشاعر الروسى الكبير « بوشكين» (١٧٩٩/ ١٨٣٧م) « إنه كان رجلا عظيما إذ فى المدة بين عصر « بطرس الأكبر » إلى عصر «كاترين الثانية» (١٧٢٩/ ١٧٩٦م) كا كان البطل الحقيقى الوحيد للتنوير ، كما أنه أسس أول جامعة فى روسيا، بل كان هو ذاته أول جامعة للشعب الروسى » .

«سكوفورودوفا » Skovorodova (١٧٢٢/ ١٧٩٤م) :

هو معاصر « لومونوسوف» ويعد أول فيلسوف روسى بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة ، وكان اهتمامه الرئيسى دراسة « طبيعية الإنسان » ، وقد درس الفلسفة القديمة.

وفى أثناء دراسته لطبيعة الإنسان توصل إلى أن جميع عناصر المظهر الخارجى للإنسان هى مجرد علاقات تخفى قلب الإنسان وروحه. إن الشخص الظاهر لنا هو مجرد ظل للروح الحقيقية .

هذا بالإضافة إلى قوله : إن الشر والخطيئة أمور متأصلة فى الإنسان، كما أن العلم توصل إلى معارف كثيرة عن الطبيعة حولنا، عن الأرض والجو والمعادن والكواكب ؛ بل إن كل يوم يأتى بالاكتشافات الجديدة، لكن معارفنا عن الإنسان معارف قاصرة .

« راديششف » Radishchev (١٧٤٩ / ١٨٠٢م) :

عاش هذا المفكر فى عصر الإمبراطورة الروسية الشهيرة « كاترين الثانية »، حيث توجه بالنقد إلى النظام الاجتماعى فى روسيا فى ذلك الوقت. وقد شمل هذا النقد الأنظمة العسكرية والاقتصادية والكنسية الروسية مما أدى إلى نفيه إلى سيبيريا .

وقد درس فى جامعة « ليبزج » الألمانية الشهيرة وتأثر بمفكرى أوربا أمثال «ليبنز» و «فولتير» و «لوك» - كما تأثر بالفلاسفة القدماء مثل «أفلاطون» و «أرسطو».

وهو يرى أن قوة الإنسان وكرامته هى فى كونه « كائنا مفكرا » و«كائنا حرا » . وهذه الحرية تتمثل فى حرية التفكير والاعتقاد والتعبير. كما يرى أن الأسلوب الأمثل لتربية الإنسان فى مرحلة الطفولة، هو تعريض الطفل للتجارب الحياتية ليقوى ويشتد، كما أنه يحرص على أن نتوخى الخشونة فى تربية الطفل، وتتمثل هذه الخشونة فى تعويد الطفل على العمل الشاق .

أما بالنسبة للمعرفة الإنسانية فهو يرى أن العقل ليس مجرد صفحة فارغة تتقبل الإحساسات من العالم الخارجى، لكن هناك أفكارا سليقية فى هذا العقل ، وعلى رأس هذه الأفكار السليقية فكرة وجود الله ، وأداة التفكير عند الإنسان هى المخ. أما التجربة الحسية فهى أساس كل المعارف التى نكتسبها من الطبيعة .

كما أنه يميز بين الخبرة الحسية والخبرة العقلية. ذلك أن الخبرات الحسية تتجمع فى العقل وبمساعدة المنطق تتحول الخبرات إلى أفكار ثم إلى مبادئ أى إلى خبرة عقلية. فالفرق بين الخبرة الحسية والخبرة العقلية هو فرق فى الدرجة وليس فى النوع .

«بلنسكى» Belinsky (١٨١١ / ١٨٤٨م) :

هو مؤسس المادية الروسية ، وقد اهتم بدراسة فلسفة «هيجل» ونشأ فى جو من الوطنية والحماسة التى أعقبت غزو «نابليون» لمدينة موسكو عام ١٨١٢م وكانت ويلات الحرب وذكرياتها تحيط به فى سنى حياته الأولى .

وفى شبابه عندما كان فى التاسعة عشرة طرد من جامعة «موسكو» بسبب مسرحية أعدها وهاجم فيها نظام الإقطاع وأقنان الأرض. وفى ثلاثينيات القرن التاسع عشر استمر فى انتقاد الإقطاع الروسى غير القائم على العدل ، وكانت أفكاره فى أول حياته العلمية تقترب من الفلسفة المثالية، ولكنه فى أواخر حياته أصبح مفكرا واقعيا ، وانتقد بشدة المؤسسات الرئيسة فى روسيا القيصرية المتمثلة فى الإقطاع والاستبداد الحكومى والكنيسة الروسية، وكان إلى جانب هذا كله مفكرا اشتراكيا .

هذا ويمكن تحديد معالم تفكيره فيما يلى :

- تأكيده على أهمية العقل والدراسة العلمية .
- تنديده بالنظريات المثالية فى تفسير الحياة الإنسانية .
- انتقاده الاجتماعى المرتكز على نزعته الإنسانية التى تهتم برفاهية الفرد .
- محاولته الوصول إلى طريقة موضوعية لفهم الحقائق .

وفى نظره أن علم النفس يجب أن يقوم على أساس من الفسيولوجيا ومن علم التشريح . ذلك أن النشاط العقلي هو مظهر لنشاط المخ، حيث يرى - وهو لذلك أول الماديين الروس - أن الفكر المجرد أو العقل بلا جسد هو محض خيال ، ولكن هذا ليس معناه أن النشاط العقلى يمكن تفسيره فقط من خلال القوانين الفسيولوجية . بل العكس . إن النشاط العقلى له مظاهره الخاصة التى يدرسها علم النفس، فهو بذلك يؤكد على وحدة الكائن الحى وينكر الوجود المستقل للروح غير المادية، ذلك أن الطبيعة النفسية للإنسان إنما يمكن دراستها فى علاقتها بالجسم الإنسانى وبالبيئة التى يعيش فيها الإنسان . إن الفكر فى نظره ليس المادة ، ولكنه برغم ذلك لا يمكن أن يوجد دون أن توجد المادة .

«شرنيفسكى » Chernihevski (١٨٢٨ / ١٨٨٩م) :

هو أحد أعمدة علم النفس الروسى المادى، وفى الوقت نفسه خصيم النظام القيصرى الروسى . وقد قضى عددا من سنوات عمره بين السجن والسخرة والنفى ، حيث اتهم بتحرير المقالات التى تهاجم النظام الاجتماعى الروسى وتسخر من عدالته الزائفة .

وهو يعرف علم النفس على أنه دراسة ظواهر الحياة النفسية . هذه الظواهر التى تتأتى الواحدة منها من الأخرى وتتأتى هذه الظواهر كذلك من البيئة الخارجية المحيطة بالإنسان، وكل هذه الظواهر لا تقع عشوائيا بل تتبع قانون العلية، هذا إلى مطالبته بالتحالف بين الفلسفة والعلم، وكذلك التحالف بين الفسيولوجيا وعلم النفس .

وهو إلى جانب ذلك يؤكد على أن الطبيعة الإنسانية تشكل وحدة متكاملة تقوم على أساس من الحياة المادية للجسم الإنسانى. ومثال ذلك أن التفكير هو وظيفة لمخ الإنسان الحى، وهذا التفكير ، يقوم على عنصرين : العنصر الأول هو الأشياء الخارجية التى تعطى الإحساسات. والعنصر الثانى : هو الكائن الإنسانى الذى يتلقى هذه الإحساسات ، ذلك أن إحساساتنا هى انعكاسات دقيقة للأشياء فى العالم الخارجى .

وهو يفسر الدافعية الإنسانية بنظرية أسماها « الأنانة العاقلة » rational egoism، وهذه النظرية مفادها أن البشر يصدرون فى أفعالهم بما أسماه الاهتمام بالذات ، وهذا الاهتمام الذاتى ليس بالضرورة أن يكون مناقضا للاهتمام العام للمجتمع. إن الأنانة العاقلة معناها أن يتصرف الفرد من واقع اهتمامه بذاته، أى من واقع أنانيته، ولكن هذا التصرف لابد أن يكون تصرفا عاقلا بحيث لا يصطدم صالح الفرد بصالح المجتمع .

«شاديف» Chaadayev (١٧٩٤ / ١٨٥٦م) :

ويعد شخصية هامة فى علم النفس الروسى، وذلك لقوله بالطبيعة العاقلة للإنسان وإرجاعه خصائص الإنسان وصفاته إلى تأثير البيئة الاجتماعية. كما يرفض

الفكرة القائلة بأن الإنسان مجرد جزء من الطبيعة والمجتمع. بل إن الإنسان كائن روحى يعيش بين عالمين ، واحد فقط من هذين العالمين يمكن للعلم أن يعرفه ويتوصل إليه، وهو العالم الخارجى، أما العالم الداخلى الروحى فهو سر مغلق .

ولكن هذا الموقف الفلسفى الذى أبداه «شاديف» وغيره من الفلاسفة لم يجد قبولا لدى رجالات الفكر الروسى فى القرن التاسع عشر ، لأن المجتمع الروسى فى ذلك الوقت كان فى حالة تهيؤ لقبول الأفكار المادية والتخلى عن الأفكار المثالية .

«خوميكوف» Khomyakov (١٨٠٤/ ١٨٦٠م) :

اعتقد «خوميكوف» أن روسيا ذات طبيعة خاصة بين الدول، وأن لها خصائص حضارية معينة . ويترتب على ذلك أن عليها أن ترفض ما يرد إليها من الخارج من أفكار أو مبادئ أو أساليب حياة .

ويندد «خوميكوف » بالفكرة القائلة بأن الإنسان مجرد انعكاس للعالم الخارجى. وكان يرفض الفكرة القائلة بحتمية السلوك الإنسانى، ذلك أن الإنسان فى نظره يتمتع بالإرادة الحرة المختارة، والعاقلة . لكن الحرية الإنسانية فى نظره ليست أمرًا مطلقا لكنها هبة، على الإنسان أن يحسن استخدامها .

وهو يرى أن العمليات المعرفية تبدأ بالإيمان واليقين ثم تتأدى إلى التحليل المنطقى إلى أن نصل إلى « العقل الكلى » الذى يحتوى على كل المعارف الإنسانية .

«بيروجوف» Perogov (١٨١٠/ ١٨٨١م) :

هو كاره للاتجاه المادى فى علم النفس، ونشر عدة مقالات فى عام ١٨٥٦م تحت عنوان « مشكلات الحياة » انتقد فيها النظام التعليمى فى روسيا، لما فيه من سطحية واهتمام بالقشور ، وعدم الاعتناء بتربية المواطن بحيث يستطيع أن يقف بجوار الحق وأن يقف أيضا فى مواجهة الصعاب .

وبالنسبة إلى مشكلة المعرفة فإنه ينزع إلى المثالية ، حيث يرى أن المعارف التى تبنى على أسس «إمبيريقية» لا يمكن أن تعطينا الحقائق كاملة، ذلك أن إدراكنا للزمان

والمكان يقدم على أساس الحواس الأساسية التى وهبت للإنسان ، ولا يستطيع الإنسان أن يحسنها أو يطورها، وعلى هذا فإن معطيات الحواس يجب أن تصحح عن طريق النظر والتأمل ، وبهذه الطريقة يتحسن تفكير الإنسان .

وهو يرى أن طبيعة الإنسان لها أساس من الشر والدوافع الخبيثة فى قاع النفس الإنسانية ، مما يؤدى إلى أن يكون الإنسان منشغلا بالصراع مع قوى الشر الموجودة فى داخله، ويكون الإنسان كائنا حرا بقدر سيطرته على تلك الدوافع .

ومما يجدر ذكره أن المفكرين السابق ذكرهم ، يمكن اعتبارهم فى مجال علم النفس الأرائكى الفلسفى الذى يتراوح بين المثالية تارة والمادية تارة أخرى . ولكن ميلاد علم النفس الروسى الحقيقى يؤرخ له بإصدار « ششنوف» «انعكاسات الدماغ» الذى أصدره عام ١٨٦٣ م .

* * *

ثانيا : الدور التأسيسى

حتى يمكن لنا أن نتفهم علم النفس الروسى فى دوره التأسيسى فإن الأسلوب الأمثل لذلك هو مقارنته بعلم النفس الغربى فى مطلع القرن العشرين ويمكن القول بوجه عام بأن علم النفس الغربى يتميز بالخصائص التالية :

- إن علم النفس الغربى نما وتطور فى ظل الاعتماد على التجربة .

- يقوم علم النفس الغربى فى أساسه على دراسة الفرد وسماته وقدراته واستعداداته .

- يتسم علم النفس الغربى بنزعة تجميعية من اتجاهات متباينة بقصد الوصول إلى نظرية تقوم أساسا على التجريب .

- إن علم النفس الغربى يتجنب التلوث بالأفكار الفلسفية .

وإلى جانب ذلك يمكن القول بأن علم النفس الروسى فى دوره التأسيسى - وحتى الآن - يتميز بخصائص هى :

- أن علم النفس الروسى ، رغم أنه علم تجريبى ، إلا أنه يرفض التجربة أساسا لتنظيم المعلومات العملية .

- يحاول علم النفس الروسى أن يفسر المعلومات العلمية من خلال افتراضات عن الطبيعة الإنسانية، وهذه الافتراضات مشتقة من النظرية الماركسية .

- يهتم علم النفس الروسي بدراسة الفرد، ولكن ليس بصفته كائنا مستقلا منعزلا بل فى إطار المجتمع .

- يرفض علم النفس الروسى النزعة التجميعية التى تقوم على أساس عناصر متعددة من نظريات مختلفة . ويقوم على أساس أيديولوجية واحدة هى الأيديولوجية الماركسية .

وما يجدر ذكره أن علماء النفس الروس ينكرون أن علم النفس قد تم تأسيسه على يد «فونت» أو أى عالم آخر من العلماء الغربيين، لكنهم يعتقدون أن علم النفس اسس على أيدى علماء روس مثل «بلنسكى » الرائد الأول للاتجاه المادى ، وهو الاتجاه الوحيد – فى نظرهم – الذى يمكن أن يقوم على أساسه علم يدرس الإنسان .

ولا ينكر الروس أن «فونت » أسس مختبرا لعلم النفس فى مدينة «ليبزج» عام ١٨٧٩ م ولكنهم يباهون بأن «بخترف» أنشأ مختبرا لعلم النفس فى «كازان» عام ١٨٨٦م . ومهما يكن من أمر تأسيس علم النفس الروسى، فإنه يمكن القول : إن قمة علم النفس الروسى تتمثل فى الخط الماركسى الذى تتبناه المدرسة الفسيولوجية الروسية التى يتربع على عمادتها علماء كبار مثل «ششنوف » و«بافلوف » و «بخترف» وحاكاهم عدد آخر من العلماء نتحدث عنهم فيما يلى من نقط :

«ششنوف» Sechenov (١٨٢٩/ ١٩٠٥م)

هو المؤسس الأول لعلم النفس الروسى المادى حيث أصدر كتابه الشهير «انعكاسات المخ» Reflexes of Brain عام ١٨٦٣م وكان لهذا الكتاب التأثير البالغ . وهذا الكتاب يعد رسالة علمية تحاول أن تثبت أن الحركات الإرادية هى فى الواقع أفعال منعكسة . ويقال إن هذا الكتاب، هو دون غيره من الأعمال العلمية الروسية، يتضمن

تأسيسا موضوعيا لعلم النفس. وقد تقبله العلماء الروس بترحيب شديد ، أما الفلاسفة الروس فقد هاجموه هجوما قاسيا على أساس أنه تضمن مادية تهبط بخير ما فى الإنسان إلى مستوى الآلة وتجرده من الشعور بالذات ومن الإرادة الحرة، وتصف تصرفاته بالآلية ، كما رأى الفلاسفة فى هذا الكتاب تاسيا لفكرة الخير والشر التى على أساسها يقوم الصلاح الاجتماعى، وتترتب على أساسها المسئولية الاجتماعية والأخلاقية التى عدها الفلاسفة الروس أساسًا فى بناء المجتمع .

ومهما يكن من أمر هجوم الفلاسفة الروس فإن هذا الكتاب مهد لظهور علم المنعكس الشرطى Reflexology الذى أسسه «بخترف» بعد ذلك بوقت قصير، ناهيك عن أن الكتاب مهد لأعمال «بافلوف» التى حررت علم النفس من التأملات الفلسفية ووجهته وجهة تجريبية .

ومما هو جدير بالذكر أن «ششنوف» قضى شطرا من حياته العلمية فى دول غرب أوربا وخاصة ألمانيا ودرس على يد « هلمهو لتز » .

ومن الدراسات المهمة التى أجراها « ششنوف » تلك التى أجراها عام ١٨٦٠م عن «فسيولوجيا التسمم الكحولى » حيث قام بدراسات عن الكحول وعن كيمياويات الدم، وتوصل إلى حقيقة مفادها الوحدة بين الكائن الحى والظروف التى يعيش فيها . وكذلك ضرورة الحاجة إلى كشف النواحى الشعورية باستخدام الطرق الموضوعية .

وقد توصل « ششنوف » إلى القول بأن النشاطات النفسية هى نتيجة المؤثرات البيئية، أى أن السبب المباشر لأفعال الإنسان إنما يكمن خارج الإنسان ، بل إن نشاط الإنسان النفسى والحركى يخضع للقوانين نفسها التى يخضع لها العالم المادى. وعلى هذا فإن «ششنوف» يرى - على عكس النظرية المثالية. أن قوانين العلية هى التى تحكم الوظائف الجسمية والوظائف النفسية - أيضا - للكائن الحى . وأن الدراسات العلمية للسلوك الإنسانى يجب أن تقوم على العلاقات العلية .

كذلك يقسم «ششنوف» الحياة النفسية للإنسان إلى قسمين أساسيين : العقل والانفعال، وهو يقبل هذا التقسيم على أنه « نموذج عمل » ، حيث تنتمى عمليات

الإحساس و الإدراك والتذكر والتفكير إلى المجال العقلى، وينتمى الخوف والسرور والحب والحماسة والنشوة والبهجة إلى الجانب الانفعالى . وهذه الظواهر فى الحياة النفسية هى نتيجة وظائف المخ التى تسيطر على الجهاز الجسمى.

كما يرى «ششنوف» أن الحياة النفسية للإنسان ترتبط بالجهاز العصبى الذى تتم استثارته عن طريق المؤثرات المحيطة به، وبسبب تلك الاستثارات تتم عمليات الإدراك وعمليات رد الفعل وعمليات التكيف مع العالم الخارجى. والحياة النفسية أساسها المثيرات الخارجية لأعضاء الحس، وهناك إلى جانب ذلك بالطبع عمليات يستجيب فيها الجهاز العصبى للبيئة الداخلية للإنسان، وهذه البيئة الداخلية تتمثل فى أطراف الجسم والعضلات وأجهزة الجسم المختلفة والقانون الذى يحكم عمليات الجهاز العصبى هو قانون العلية، وعلى هذا فلا يوجد شيء فى الحياة النفسية يخضع للصدفة أو العفوية أو الاعتباطية فهو على هذا يلغى الإرادة الحرة .

وهكذا فإن الحياة النفسية للإنسان تتكون من البيئة الداخلية والبيئة الخارجية للإنسان . وفى مرحلة الطفولة يحدث تطور ارتقائى، حيث تبدأ الوظائف النفسية الراقية فى الظهور تدريجيا ، هذه الوظائف مثل التفكير والتأمل والاستدلال . كذلك ، ومن خلال النمو الإنسانى يتعلم الشخص كف بعض الاستجابات ، وتعلم الكف هذا يكون بسبب «ترابطات منعكسة» تعرض للإنسان أثناء حياته، وهذا الكف يكون مركزيا بالنسبة لجميع أعضاء الجسم، أى أن المخ يكون هو المتحكم فى عمليات الكف بمستوييها النفسى والفسيولوجى .

ويمكن القول ، بأن جوهر نظرية «ششنوف» أن الأفعال الإنسانية هى منعكسات، وأن ما يسمى العمليات العقلية العليا هى نتيجة تكوينات كفية للجهاز العصبى ، ومما يجدر ذكره أيضا أن «ششنوف» يهاجم دراسة الشعور على أنه موضوع علم النفس، كما يرفض الاستبطان كطريقة لدراسة العمليات التفكيرية ، ذلك لأن بعض خطوات العملية التفكيرية تضيع أثناء محاولة استبطانها . وهذا فى نظره أهم عيب فى الطريقة الاستبطانية :

وهكذا يصل «ششنوف» إلى التدر بالاستبطان طريقة ذاتية، لأنه لا يستطيع أن يعزل ما أسماه الوحدة الأساسية basic unit « للفعل النفسى » وهذا يؤدى به إلى القول بالتشابه بين الأفعال النفسية وبين علميات الجهاز العصبى . ذلك أن قوس المنعكس re-flex arc هو الوحدة الأساسية فى الدراسة الفسيولوجية. أما بالنسبة للدراسة النفسية فإن الوحدة الأساسية هى الفعل النفسى Psychial arc ، هذا على أن الفعل النفسى هو منعكس مخى .

ولا تعليق على أعمال «ششنوف» ودراساته إلا بقول موجز وهو أن هذا العالم أنشأ قنطرة بين علم النفس والفسيولوجيا، ضاربا بكل قوة الأفكار الفلسفية الأرائكية ، وممهدا لظهور علم النفس الروسى فى صيغته الجديدة .

«إيفان بافلوف» Pavlov (١٨٤٩/ ١٩٣٦م) :

تعرضنا بالحديث عن العالم الروسى «بافلوف» ضمن علماء المدرسة الترابطية، ولكن لابد من العودة إلى الحديث عن «بافلوف» لنتبين أهميته فى علم النفس سواء أكانت هذه الأهمية على المستوى العالمى أم على المستوى المحلى .

ومما يجدر ذكره أن «بافلوف» أثر على علم النفس بالمستوى العالمى . ويتضح هذا التأثير من أن السلوكية – المدرسة الأولى فى علم النفس الأمريكى – قد استفادت كثيرا من المفاهيم « البافلوفية » . كما أن الاهتمام بعلم نفس الحيوان سواء أكان داخل المدرسة السلوكية أم خارجها اتخذ من دراسات « بافلوف » المنضبطة تجريبيا مثالا يمكن الاقتداء به .

أما تأثير «بافلوف» على المستوى المحلى فى روسيا، فأوضح من أن نعرف به، ولعل أكبر دليل على أهمية «بافلوف» ومكانته فى بلاده أنه بعيد قيام الثورة الروسية – وكانت وما تزال الحياة العامة فى روسيا فى حالة من التخبط وعدم الاستقرار – صدر قرار عام ١٩٢١م وقعه قائد الثورة «لينين» بنفسه ويتضمن هذا القرار توفير أحسن الظروف التى تمكن « الأكاديمى بافلوف» ومجموعة مساعديه من الاستمرار فى عملهم العلمى .

ومما يجدر التذكير به أن علاقة «بافلوف» بالثورة الروسية – وخاصة فى سنواتها الأولى – لم تكن على مايرام ، ولم تتحسن العلاقة إلا بعد سنوات .

وبعد وفاة «بافلوف» بسنوات عديدة عقد عام ١٩٥٠م «مؤتمر بافلوف» تحت رعاية الأكاديمية السوفيتية للعلوم، حيث تقرر فى هذا المؤتمر أن مستقبل علم النفس الروسى يجب أن يتركز حول تطوير نظريات « بافلوف » وأساليبه البحثية .

وقد شارك فى هذا المؤتمر ما يزيد على الألف من علماء الاتحاد السوفيتى فى تخصصات علم النفس والفسيولوجيا والطب النفسى .

وكانت أمام هذا المؤتمر الهام نقطتان أساسيتان هما :

* دراسة إسهامات «بافلوف» فيما يتعلق بدراسة السلوك .

* الحاجة إلى أن تتطور العلوم الطبية فى حدود دراسات بافلوف وإنجازاته .

وقد دارت العديد من المناقشات فى هذا المؤتمر ، حيث أسفرت هذه المناقشات عن « مبادئ عشرة » وتكون هذه المبادئ أساسا منهجيا لعلم النفس والطب النفسى والفسيولوجيا . وهذه المبادئ هى :

١- أن المفاهيم العلمية يجب ألا تتعارض مع مبادئ المادية الجدلية التى أشار إليها «لينين» ، ونعرض عند التحدث عنها لأهمية «لينين» فى علم النفس الروسى بعد قليل.

٢- أن مفهوم « بافلوف » عن الكائن الحى على أنه نسق «ذاتى الانضباط» مفهوم أساسى، وأن ما أبداه من آراء بخصوص العمليات الفسيولوجية يعكس مبادئ المادية الجدلية .

٣- أن كل العلوم الطبية – وبالذات علم النفس والطب النفسى والفسيولوجيا – يجب أن تدور فى فلك آراء « بافلوف » .

٤- بالنسبة للبحوث التى تجرى على المشكلات التى يعانى منها الإنسان يجب أن تتم دراسة هذه المشكلات بالطرق الموضوعية، وليس بالأساليب الاستبطانية .

٥- يجب أن تستكمل الأساليب التحليلية فى البحث العلمى بواسطة الأساليب التركيبية والعكس بالعكس، كما أن التحليل يجب أن ينتهى دائما إلى التركيب .

٦- أن المعلومات والنظريات الغربية هى بوجه عام معادية للماركسية، ولذا يجب أن تستبعد من المجال العلمى السوفيتى .

٧- أن علم نفس الحيوان فى الغرب - من الناحية المنهجية - غير دقيق، ما دام هذا العلم يعزو خصائص الإنسان إلى الحيوان بأسلوب يعوزه الضبط التجريبى . ويجب أن يكون أسلوب البحث فى هذا الفرع من علم النفس باستخدام طريقة الفعل المنعكس الشرطى .

٨- لا يوجد شيء عفوى أو تلقائى بالنسبة للكائن الحى، بمعنى أن الأشياء لا يمكن أن تحدث دون وجود مثير خارجى أو داخلى، ذلك أن الحتمية هى أمر أساسى فى العلم، كما أن وظيفة العلم هى الوصول إلى قوانين صادقة بالنسبة لجميع الظواهر ، ومن بينها الظواهر النفسية .

٩- أن النشاط العقلى هو انعكاس للعالم الخارجى ، كما أن هذا النشاط العقلى يتأثر بالذاتية ، وهناك وحدة بين الذاتية والموضوعية بالنسبة لعمليات النشاط العصبى العليا .

١٠- أن ما نحتاج إليه فى العمل ليس مجرد وصف الظواهر، بل الوصول إلى القوانين التى تحكم تطور هذه الظواهر إذ لا يقوم العلم بمجرد وصف الظاهره .

« فلاديمير بخترف » Bekhtrev (١٨٥٧ / ١٩٢٧) :

هو معاصر «لبافلوف» . وكان «بخترف» فسيولوجيا وسيكولوجيا وطبيبا نفسيا، حيث درس الطب فى الكاديمية الطبية العسكرية فى «بطرسبرج» ، وحصل على درجته الجامعية عندما كان فى سن الحادية والعشرين وحصل على الدكتوراه عام ١٨٨١م برسالة بعنوان « نتائج الفحوص الإكلينيكية لدرجة حرارة الجسم فى بعض حالات المرض العقلى » . وفى عام ١٨٨٤ م سافر إلى خارج روسيا، إلى «ليبزج» حيث درس على يد «فونت» وإلى «باريس » حيث درس على يد «شاركو » . وفى عام ١٨٨٥م عين

أستاذا بجامعة « كازان» وأسس مختبرا لعلم النفس فى روسيا عام ١٨٨٦م ، وفى عام ١٨٩٦م أسس مجلة علمية باسم « الطب النفسى، وأمراض الأعصاب، و علم النفس التجريبى » .

وفى عام ١٨٩٣م عاد إلى كليته الأم (الأكاديمية الطبية العسكرية فى بطرسبرج) وبعد سنتين عين مديرا لهذه الأكاديمية العتيدة، وفى الوقت نفسه أسس الجمعية الروسية لعلم النفس .

وأعمال «بخترف» كثيرة ومتنوعة ، ولكن أهمها على الإطلاق كتابين عظيمين هما «علم النفس الموضوعى » أصدره عام ١٩٠٧م و« المبادئ الأساسية للفعل المنعكس عند الإنسان» أصدره عام ١٩١٧م كما اهتم بدراسة وظائف المخ وعلاقتها بالنشاط النفسى .

ومن المناصب التى تولاها «بخترف» بعد الثورة الروسية: رئيس قسم الطب النفسى والفعل المنعكس فى جامعة «بتروجراد» حيث تولاه فى عام ١٩١٨م وبقى فيه حتى مات .

ويعد «بخترف» فى مقدمة رجالات علم النفس الروس الذين حاولوا إقامة نظام جديد للتفكير العلمى ، وقد توجه النقد إلى اتجاهه هذا من قبل الماركسيين المتشددين على أساس تأثر « بخترف » بالألمان فكرا وعلما. وكان طموح « بخترف » العلمى كبيرا إذ كان ينشد الوصول إلى قوانين علمية لها قوة قوانين الطبيعة. وقد اهتم بدراسة علم الفعل المنعكس وللأسف فإن أهمية «بخترف» فى علم النفس على المستوى العالمى لم تظهر إلا بعد ظهور دراسات «واطسون» السلوكية، ذلك أن عملقة «بافلوف» وشهرته العظيمة حجبت عالما فذا من أن يعرفه علم النفس الغربى فى الوقت الذى ظهر فيه وليس فى وقت متأخر .

وهو مثل «بافلوف» يمثل الاتجاه التقدمى والمادى لجماعة من العلماء الروس، اهتموا بتطوير دراسات «ششنوف» ، وقد أخذ على عاتقه فى أعماله العلمية أن يهاجم بشدة النزعة الفلسفية والنزعة المثالية فى علم النفس .

ومن الجدير بالذكر أن «بخترف» توجه بنقد شديد - وسديد - إلى الأساليب البحثية التجريبية التى نفذها «بافلوف» فى دراساته الإشراطية ، وذلك لتركيز «بافلوف» على موضوع إفراز اللعاب أساسا للتعلم الشرطى ، لأن هذه الأساليب ألبحثية لا توصل إلا إلى نتائج هزيلة عن السلوك ، لأن الدور الذى تلعبه النواحى النفسية فى إفراز اللعاب له أهمية بالنسبة لحياة الكائن الحى .

وكان «بخترف» راغبا فى تأسيس علم النفس علما موضوعيا مثل بقية العلوم (الفيزياء مثلا) مما جعله ينظر إلى منهج البحث باستخدام الاستبطان على أنه منهج غير دقيق ، وفضل أن يدرس علم النفس من وجهة نظر اجتماعية ومن منظور اجتماعى بيولوجى ، ويكون أسلوب الدراسة متضمنا النشاط النفسى حيث يوجد فى الشعور والإرادة والتعرف والنشاط الاجتماعى .

والنشاط النفسى الذى يدرس بموضوعية يتضمن دراسة تعبيرات ملامح الوجه والتعبيرات الصوتية والحركات والإيماءات ، وهذه الدراسة تقوم على الأفعال المنعكسة الداخلية، أى أن الاستجابة الظاهرة إنما تنبع من مثيرات داخلية .

كذلك يرى «بخترف» أن العمليات النفسية تحدث بسبب التوتر الناتج من الطاقة العصبية ، كذلك يصاحب ظاهرة الشعور التركيز الذى يرتبط بإعاقة التيار العصبى ، كما أن الشعور يتراخى أو حتى يغيب عندما يتدفق التيار العصبى سلسا غير معاق. وكذلك يشير «بخترف» إلى أن «أفعال العادات » لا نكاد نشعر بها ، بينما الأفعال التى نأتيها لأول مرة نكون عند إتياننا على شعور كامل بها .

وأهم دراسات « بخترف » على الإطلاق ما أسماه علم المنعكس Reflexology الذى يدرس فيه المنعكسات المكتسبة والموروثة ، وقد أجرى تجارب تتضمن توجيه صدمة كهربائية خفيفة لتكون مثيرا . وأجريت هذه التجارب على الحيوان والإنسان، وقد تبين منها أن الحركات المنعكسة مثل سحب اليد بسرعة عند لمس سلك به تيار كهربائى، فإن هذه الاستجابة لا تكون فقط استجابة طبيعية غير إشراطية ، ولكنها سبق وأن ارتبطت بشكل السلك أو ما يتوقع منه من خطر. وأن مثل هذه التوقعات هى التى

تفسر ما يوجد فى الحياة العقلية من روابط connections (وعلى هذا يمكن اعتبار «بخترف» من أصحاب المدرسة الترابطية). ومع ذلك اعتقد «بخترف» أن الاستجابات بمثابة أفعال منعكسة .

كما أشار «بخترف» إلى أن جميع ظواهر النشاط النفسى للإنسان هى بمثابة افعال منعكسة، على أساس أن الفعل المنعكس هو «رد فعل» حيال المثيرات الخارجية، وخلافا «لبافلوف» المتأنى حاول «بخترف» أن يعمم نتائج أعماله العلمية، واعتبر أن كل نواحى النمو الإنسانى إنما توضع تحت عنوان واحد هو علم المنعكس، واعتبر أن هذا العلم هو الأسلوب الموضوعى الدقيق لدراسة شخصية الإنسان وعلاقتها بالبيئة .

وشأنه شأن معظم علماء النفس الروس، حاول أن يقيم جسرا بين إنجازاته العلمية و النظرية «الماركسية » . فأصدر قبيل وفاته (عام ١٩٢٥م) دراسة عن علم النفس المنعكس والماركسية، حيث حاول أن يبين أن أزمة علم النفس الروسى لا تحل إلا بتبنى وجهة نظره ، وكذلك أشار إلى أن المنعكس الشرطى لا يتناقض مع الماركسية.

ومع ذلك فإن دعوته هذه لم تنجح وقوبلت بالرفض من معاصريه ، واعتبروا أن علم المنعكس ما هو إلا آلية ميكانيكية ، متأثرة بالأفكار الألمانية، ولا تتفق مع الماركسية بحال .

«كورنيلوف» Kornilov (١٨٧٩/ ١٩٥٧) :

على يد «كورنيلوف» تلقى علم النفس الروسى شيئا من الإضافة. حيث قدم ما أسماه «علم نفس رد الفعل» reactology ودعا علماء النفس الروس فى عام ١٩٢٣م إلى التخلى عن النظرة المثالية التي تشوب علم النفس الروسى ، كذلك دعاهم إلى التخلى عن الاستبطان منهجا للبحث ، وكان يرى أنه بتقليل العناصر الذاتية المتدخلة فى البحث العلمى ، فإن علم النفس يمكن أن يصبح علما موضوعيا متميزا عن العلوم الأخرى ومستقلا عنها .

هذا وقد شك عدد من علماء النفس الروس فى أن موضوعا مثل الشعور يمكن أن يتناوله علم نفس قائم على أساس من المادية، ولكن ذلك تحقق بعد إذ أصبح موضوع الشعور وحدة أساسية من علم النفس الروسى الجدلى .

وقد هاجم « كورنيلوف » بشدة فى المدة من ١٩٢٣ إلى ١٩٢٧م فى سلسلة مقالات نشرها فى مجلة «لواء الماركسية » ، هاجم الآلية والميكانيكية التى تتصف بها مدرسة علم المنعكس الشرطى عند «بختريف». وقد قصد « كورنيلوف» أن يقيم علم النفس على أساس «ماركسى» . وقد رأى أن علم النفس لكى يتأهل أن يكون «ماركسيا» يجب أن يتصف بخصائص ثلاث هى : المادية والحتمية والجدلية. وبالنسبة للمادية والحتمية رأى « كورنيلوف» أنها قد اتخذت مواقعها فى علم النفس الروسى، لكن الخاصية الثالثة وهى الجدلية كانت فى تلك الفترة ما تزال موضع رفض بعض علماء النفس.

هذا وقد اعتبر « كونيلوف» نفسه عالم النفس الماركسى الأصيل، وصاغ تعبير «علم نفس رد الفعل» وهو دراسة ردود أفعال الإنسان فى مواجهة مثيرات البيئة. ولا يعد «كورنيلوف » مفهوم رد الفعل مرادفا لمهفوم الفعل المنعكس ، لأن الفعل المنعكس فى نظره أمر فسيولوجى بحت، ولكن مفهوم رد الفعل يشتمل على مضامين أيديولوجية وكمية وكيفية ، لا يتناولها مفهوم الفعل المنعكس .

هذا وقد أشار «كورنيلوف» إلى أن الظاهرة النفسية ترتبط بالعمليات الفسيولوجية. لكن الظاهرة النفسية لا تطابق العملية الفسيولوجية بالضبط ، ذلك أن الظاهرة النفسية لها خاصية الكيفية. ورأى أن موضوع علم النفس هو « دراسة الوحدة بين الموضوعية والذاتية ، ونظرة لسلوك الكائن الحى أو الإنسان فى حدود الظروف الاجتماعية التى يعيشها » . وكذلك يعرف علم النفس على أنه العلم الذى يدرس السلوك ويدرس تطور الفرد ونموه . وبالرغم من أن العناصر البيولوجية أمر هام بالنسبة للفرد إلا أن علم النفس الماركسى يرى أن الفرد يتأثر أكثر ما يتأثر بالعوامل والتأثيرات الاجتماعية (إن وجود الفرد يحدد شعوره، ولكن شعور الفرد يحدد أيضا وجوده) أى أن هناك علاقة تأثير تبادلية بين وجود الفرد وشعوره .

كذلك اهتم «كورنيلوف» بدراسة الشخصية وأسلوب هذه الدراسة عنده هو دراسة ردود الأفعال، كاستجابات الكائن الحى للمثيرات المحيطة به . وعلى ذلك فإن

«علم نفس رد الفعل» هو دراسة ردود أفعال الفرد ، وردود الأفعال هذه بيلوجية اجتماعية . وبالنسبة للعلاقات الاجتماعية للفرد فإن ردود فعل الشخص بالنسبة لها يكتسب على مدى الأيام معناه الاجتماعى ، وبالتالى فإن علم النفس هو أحد العلوم الاجتماعية وليس علما فسيولوجيا أو طبيعيا . وإن المظاهر الطبيعية العلمية لرد الفعل تتضمن اكتساب جوانب أربعة هى :

- السرعة التى يحدث بها رد الفعل .
- الشدة التى يحدث بها رد الفعل .
- نوع الحركة التى تظهر فى رد الفعل .
- المضامين التى يحويها رد الفعل من الناحية الاجتماعية .

وبقياس ردود الأفعال فى حدود هذه الجوانب فإننا بذلك نقيس ما يسمى بالطاقة العقلية .

ومما يجدر ذكره أن أعمال « كورنيلوف » و دراساته لقيت انتقادا شديدا على أساس أنها « ليست أكثر من مادية سوقية » تتسم بالآلية ، وتفوح منها روائح السلوكية الأمريكية البورجوازية. ولقد سقط «علم نفس رد الفعل» بسبب ما لقى من هجوم ساحق، هذا لأن «كورنيلوف» خالف نظرية «لينين» الانعكاسية والتى تتلخص فى أن الشعور هو انعكاس – مثل الانعكاس فى مرآة – للعالم الخارجى ، وهو إن لم يخالفها مخالفة صريحة فقد تجاهلها على الأقل. هذا إلى أن « كورنيلوف » أغفل مفهوما أساسيا فى نظريته وهو مفهوم النمو النفسى الذى قال به «فيجوتسكى » الذى فسر النمو النفسى على أساس التطور الحضارى التاريخى .

«بلونسكى» Blonsky (١٨٨٤/ ١٩٤١م) :

هو صاحب كتاب « فى التربية » أصدره عام ١٩٢٥م وتقوم نظريته التربوية على أساس دراسة علم نفس الطفل دراسة وراثية، وقد لاقت هذه النظرية التربوية النجاح فى مؤتمر لعلماء التربية الروس الذى عقد عام ١٩٢٨م. وقد تميزت هذه النظرية

التربوية بالاعتماد على الاختبارات والمقاييس، وأكدت على أن العوامل الوراثية والعوامل البيئية هى التى تحدد نمو الطفل .

كذلك يعرف «بلونسكى » بكتابه عن « المدارس المهنية » الذى أصدره عام ١٩١٤م، الذى يحتوى على نظرية فى التعليم الحرفى وذلك فى محاولة « لمركسة التعليم » .

ويرى «بلونسكى » أن النواحى النفسية عند الإنسان تنمو وتتطور تدريجيا من خلال العمليات البيولوجية، حيث تتميز كل مرحلة من مراحل النمو بعدد من العمليات المميزة لها. وقد حاول «بلونسكى» أن يصطنع الماركسية أو يقترب منها تجنبا لما وجه إليه من انتقادات من أن ماديته رخيصة، بل انتقد بأنه يميل نحو المثالية. وفى اصطناعه الماركسية كتب عام ١٩٣٠م فى أحد أعماله العلمية « عندما أرفض دراسة الشعور دون الرجوع إلى الأساس العصبى للشعور ، وعندما أقول : إنه بدون معرفة كاملة بالمخ فإنه لا يمكن فهم علم النفس ، فإننى لا أكون بيولوجيا بل ماديا، مقيما الدليل على صحة النظرية المادية من الألف إلى الياء » .

ومهما يكن من أمر فمنذ عام ١٩٢٨م توجه «كورنيلوف» بالنقد إلى «بلونسكى» لأن دراساته التربوية استخدمت الاختبارات والمقاييس التى اعتبرها بمثابة ألعاب تسابقية سخيفة ، ثم تواصل الهجوم العنيف على أساس أن حركة القياس التى تبنتها نظرية «بلونسكى » التربوية هى حركة ضد الماركسية، لأن حركة القياس النفسى والتربوى هى حركة رأسمالية تؤكد تقسيم الناس إلى طبقات مما يبيح أن تسود طبقة على أخرى .

وإلى جانب هذا كله اتهمت أعماله التربوية بأنها «دجل علمى»، تقوم على أساس إجراء الاختبارات والاستبيانات على الطلاب وأولياء أمورهم مما يضيع وقتهم بلا فائدة. ولم يستطع «كورنيلوف» فى مواجهة هذا كله أن يفعل شيئا لتحسين موقفه ولصقت به تهمة مخالفة الخط الماركسى، مما أدى إلى إصابة نظريته التربوية بالعقم .

وحتى تكتمل صورة علم النفس الروسى فى دوره التأسيسى - الذى نرى أنه دوره الأساسى - يجب التعرض بالحديث إلى جانب خاص بعلم النفس الروسى وحده ، وهو جانب لا يخص علم النفس الأوروبى أو الأمريكى، ألا وهو أثر القيادة السياسية فى روسيا على الدراسات العلمية بصفة عامة، وعلى علم النفس بصفة خاصة .

ويجدر بنا فى هذا المقام أن نتعرض بالذكر للزعيم الروسى «لينين» Lenin (١٨٧٠/ ١٩٢٤) زعيم الثورة الروسية عام ١٩١٧م الذى أثر تأثيرا شديدا على جميع مجالات الحياة فى روسيا السياسية والاقتصادية والعلمية والأدبية ، وكان هذا التأثير ممتدا حتى بعد و فاته، حيث خلفه فى زعامة روسيا تلميذه « ستالين » Stalin (١٨٧٩/ ١٩٥٣) الذى سار على الخط نفسه، قابضا على السلطة فى روسيا بيد من حديد .

ومهما يكن من أمر فإن هذا التأثير الذى مارسته الدولة كان فعالا بالنسبة لعلم النفس ، والمثال الأمثل على هذا التأثير أن «لينين» اعتقد أن فلسفته الأساسية ، والتى تقوم عليها الجوانب المختلفة للحياة فى روسيا، هى المادية الجدلية dialictical ma-terialism وقد تأدى من ماديته الجدلية تلك إلى عدة مبادئ رأى أنها أساس لمنهج البحث العلمى . وقد أعلنت هذه المبادئ فى كتابات « لينين » المختلفة ، وفى مناقشات ومؤتمرات الحزب الشيوعى الروسى .

ويمكن تلخيص هذه المبادئ فيما يلى :

١- أن الحقائق جميعا هى أمور مادية فى طبيعتها ، كما أن كل الظواهر سواء أكانت طبيعية أم عقلية أم اجتماعية هى نتاج حركة المادة .

٢- المادة أولية والنفس أو ما يسمى بالروح هى أمر مشتق من المادة وثانوى بالنسبة لها، كما أن النفس ليس لها وجود مستقل ، بل إنها خاصية للمادة .

٣- أن الحقائق قابلة لأن تعرف ، كما أن المعارف هى انعكاس - وكأنه انعكاس فى مرآة- الأشياء الموجودة فيما حولنا ، على المخ. ومن شأن العلم أن يصل إلى القوانين التى تعكس التتابع العلمى للوقائع، وفى الوقت نفسه فلا توجد حقائق نهائية مطلقة غير قابلة للتغيير .

٤- الطبيعة كل لا يتجزأ - و الطبيعة تشمل العالم المادى والمجتمع والفرد. ولا يوجد شيء فى الطبيعة منعزلاً عن الطبيعة، حيث لا شىء يمكن أن ينعزل عن عمليات التغيير .

٥- لا يوجد شيء مطلق أو نهائى ، وأن العقل الإنسانى هو الذى أطلق هذه المسميات .

٦- أن التطور ليس نتيجة عمليات موحدة نمطية من التغير التدريجى ، ذلك أن هناك فترات من التغيير الثورى، وبهذا التغيير الثورى يتم الانتقال من مرحلة إلى مرحلة ثانية تختلف عن الأولى اختلافا كيفيا ، ويجب أن يعقب فترات التغيير الثورى فترات هادئة لا تحدث فيها إلا تغييرات طفيفة أو لا تحدث فيها تغييرات على الإطلاق .

٧- أن التغييرات جميعا هى نتيجة للصراع بين الاتجاهات المتعارضة، لذلك فإن الفكرة تولد فكرة مضادة ثم تأتى بعد ذلك فكرة مركبة من الاثنتين ، ثم لا تلبث الفكرة المركبة الجديدة أن تولد فكرة مضادة، وهكذا دواليك . وهذا يشبه قانون نفى النفى - والتغير أو التطور يتخذ هذا النمط نفسه من الصراع .

ثالثا : علم النفس الروسى الحديث والمعاصر

وهذا الدور الثالث من أدوار علم النفس الروسى ، هو استمرار للدور الثانى التأسيسى . ويميز هذا الدور وجود العالم الروسى الكبير «فيجوتسكى» ومدرسته، وآخر علماء النفس الروس الكبار « روبنشنين ».

(أ) فيجوتسكى Vygotsky (١٨٩٦/ ١٩٣٤م)

درس الفلسفة والتاريخ بجامعة موسكو، وكانت قراءاته فى علم النفس بالغة الاتساع ، كذلك كان على إطلاع فى العلوم الاجتماعية واللغوية .

وأهم أعماله العلمية على الإطلاق هو كتاب « التفكير واللغة » الذى نشر بعيد وفاته . ومما يذكر أنه توفى فى سن الثامنة و الثلاثين ، ولكنه فى حياته القصيرة - تلك

- أثرى علم النفس إثراء عظيمـا . وهو يعد فى نظر بعض مؤرخى علم النفس ثانى علماء النفس الروس بعد «بافلوف» أما مدرسته فتضم تحت لوائها «لوريا» Luria (١٩٠٢/ ١٩٧٧م) و «ليونتيف Leontiev (١٩٠٣ / ١٩٧٩م) من المعاصرين .

ومن أهم إنجازات « فيجوتسكى » نظرية التطور التاريخى الحضارى. أو ما قد تسمى أحيانا نظرية التطور الاجتماعى التاريخي . وكانت هذه النظرية بمثابة محاولة لاستخدام علم النفس الماركسى أساسا لتفسير التطور الإنسانى. وتناول التطور النفسى فى إطار جدلى على أساس أن مراحل التطور المختلفة تؤدى كل منها إلى الأخرى، وكذلك حاولت هذه النظرية البحث عن المبدأ الذى يفسر ويشرح العمليات النفسية العليا والتى تتضمن الكلام والذاكرة المنطقية وتكوين المفهوم والانتباه والاسترجاع .

وطبقا لنظرية التطور التاريخى الحضارى التى قدمها «فيجوتسكى» فإن النشاط النفسى الذى يقوم به شخصان كل منهما فى مقابل الآخر ، هو النشاط الذى يستدخل بحيث يكون من المستطاع عن طريقه أن يتأثر سلوك الأطفال الذين يحيطون بهذين الشخصين ، وما كان يظن قبل ذلك من أن النشاط العقلى للطفل أمر ولادى، عارضه «فيجوتسكى» مبينا أن النشاط إنما يتكون من خلال عملية التطور النمائى لدى الطفل. ويعد «فيجوتسكى» أول عالم روسى يطرح فكرة التطور التاريخى الحضارى تفسيرا للحياة النفسية عند الإنسان .

ويرى «فيجوتسكى » أن تطور التفكير إنما يتم تحديده عن طريق اللغة ، أى عن طريق الأدوات اللغوية للتفكير ، وكذلك عن طزيق الخبرات الاجتماعية الحضارية للطفل. وبالضرورة فإن تطور « التحدث الداخلى » inner speech يعتمد على عوامل خارجية ، وأيضا فإن تطور التفكير المنطقى يكون نتيجة التحدث الاجتماعى، كماأن النمو العقلى عند الطفل يكون مرتبطا بتسيده للأسلوب التعبيرى الاجتماعى للتفكير وهو اللغة .

وكذلك يرى «فيجوتسكى» أنه إذ قارنا مرحلة الطفولة المبكرة من حيث التحدث الداخلى والتفكير اللغوى فإنه يتبين أن المراحل التالية ليست مجرد اتصال

بالمرحلة المبكرة. إن طبيعة النمو فى ذاتها تختلف من مجرد نمو بيولوجى فى مرحلة الطفولة المبكرة إلى نمو اجتماعى حضارى فى المراحل التالية. إن التفكير اللغوى ليس من قبيل الأمر الولادى، وليس بالضرورة مظهرا طبيعيا من مظاهر السلوك، ولكن تقرره عوامل تاريخية حضارية لها خصائص معينة لا توجد فى عملية التفكير أصلا ، كما لا توجد فى عملية التحدث أصلا وإذا تعرفنا على الخصائص التاريخية للتفكير اللغوى فإننا نجد أنها تخضع للتطور المادى . ونظرية التطور المادى هذه هى فى نظر «فيجوتسكى» صحيحة فى كل ما يخص الظواهر التاريخية فى المجتمع الإنسانى، وعلى ذلك فإن مشكلة التفكير واللغة تتجاوز حدود العلوم الطبيعية وتصبح هى المسألة المركزية فى علم النفس الذى يدرس تاريخ الإنسان، ويقصد به «فيجوتسكى » علم النفس الاجتماعى .

وقبل « فيجوتسكى » كان الاهتمام بدراسة الوظائف والعمليات النفسية معزولة بعضها عن بعض، بينما حاول « فيجوتسكى » البرهنة على أن العمليات العقلية العليا هى نتيجة للتفاعل بين الأطفال والكبار ، وهذه العمليات يستدخلها الأطفال بالتدريج. وتتأتى الأفكار من ملاحظة النشاط الخارجى وما يصاحبه من استخدام اللغة والحوار. إن التطور الطبيعى للذاكرة يختلف اختلافا بينا عن التطور الاجتماعى الحضارى، لأن التطور الاجتماعى الحضارى يتضمن استخدام اللغة رموزا ذات دلالة .

وإلى جانب ذلك تعرض «فيجوتسكى» لموضوع السلوك الاختيارى Volitional behavior الذى عده نشاطا يحكمه التفكير. إن الذى يتحكم فى الإنسان ليس اللاشعور ولكن الإشراط الاجتماعى . وقد أشار « لوريا » - تلميذ «فيجوتسكى» - إلى أن علم النفس قد حاول لمدة طويلة - الوصول إلى تحليل علمى لمظاهر السلوك الاختيارى أو السلوك المركب . وفى رأى «لوريا» أن الوصول إلى نتيجة فى هذا الأمر كان أمرا مستحيلا ما دامت النظرة السائدة هى أن هذا النوع من السلوك صفة ولادية بالنسبة للحياة النفسية للإنسان، لكن التفسير الصحيح فى نظر «لوريا» هو أن المظاهر المركبة للنشاط النفسى إنما هى عمليات تم تكوينها خلال التاريخ الاجتماعى للفرد وانتظمها الجهاز العصبى .

وكذلك قدم «فيجوتسكى» نظرية فى التطور العقلى عند الأطفال المعوقين ، وتتمثل هذه الإعاقة فى عيوب الكلام ، أو عيوب السمع والتأخر العقلى ، وأشار إلى أن أهم أسباب هذه الإعاقات هو النمو النفسى غير السوى للطفل، بحيث إن اختلال النمو النفسى من شأنه أن يضخم أثر الإعاقة الجسمية البسيطة تضخيما شديدا .

هذا وقد لاقت أعمال «فيجوتسكى» الكثير من الانتقاد، لأن هذه الأعمال قد استعارت الكثير من أفكار علماء النفس فى الغرب « البورجوازى» كما انصب الانتقاد أيضا على أن هذه الاستعارات تمت دون نقد أو تمحيص، ولا سيما أن «فيجوتسكى» قد أشار فى دراساته إلى عدد من علماء الغرب مثل «واطسون» و «بياجيه» .

ومما ساعد على توجيه مزيد من الانتقاد إلى «فيجوتسكى» اهتمامه بالقياس النفسى والتربوى الذى تندد به الماركسية حيث قام بإعداد الاختبار الشهير باسمه الذى يقيس تكوين المفهوم، وقد ساعده فى إعداد هذا الاختبار أحد معاونيه وهو «ساخاروف» Sakharov . وقد أعد هذا الاختبار لكى يستخدم فى دراسة وتشخيص الفصام. وهو عبارة عن اثنين وعشرين قطعة خشبية مختلفة الأشكال والأحجام والألوان، وتعطى للمفحوصين فيه تعليمات لتصنيف هذه القطع الخشبية بحيث يمكن الحكم على قدرة المفحوص على تكوين المفهوم (استخدم هذا الاختبار فى أمريكا حيث أعده « هانفمان » و « كازانين ») .

ومن أتباع «فيجوتسكى » العالم الروسى المعاصر «لوريا» Luria (١٩٠٢ - ١٩٧٧م) الذى يتابع الاهتمام بنظرية التطور التاريخى الحضارى، حيث يرى أن أكثر المشكلات تعقيدا فى مجال السلوك الإنسانى لا يمكن أن تفهم عن طريق تحليل ترابطات المنعكس الشرطى، هذه الترابطات التى تتعلق بالجهاز العصبى ، إن حل مثل هذه المشكلات إنما يتم التوصل إليه بالوصف الدقيق لأنساق معينة من السلوك، التى تتأتى من خلال عملية التطور الاجتماعى التاريخى، والتى تتميز بكونها من خصائص الإنسان، والتى بدونها لا يمكن فهم الديناميات العصبية العليا .

وقد توصلت دراسات « لوريا » إلى فرض مؤداه أن محاولات الفرد - لكى يتحكم

فى سلوكه - تؤدى إلى نتائج عكسية، ولكن التحكم فى السلوك إنما يكون عن طريق الوسائل غير المباشرة. إن الوصول إلى مستوى السلوك الراقى الراشد ليس بسبب تجميع خبرات، لأن الشخص إنما يتطور وينمو بسبب العوامل التاريخية الحضارية، فمن خلال تطوره هذا تنشأ ميكانزمات جديدة، أو حيل تعاملية جديدة، وهذه الحيل هى ذروة التطور التاريخى الحضارى مثل التحدث والإيماءات والإشارات التى وجدت فى كل أوجه النشاط الإنسانى.

زبدة القول أنه - فقط - بتحليل الميكانزمات الحضارية يمكن لنا أن نفهم ديناميات العمليات العصبية .

ومن أتباع «فيجوتسكى » العالم الروسى المعاصر « ليونتيف » Leontiev (١٩٠٣ - ١٩٧٩) حيث أشار إلى نقطة توجيهية أساسية لعلماء النفس الروس الماركسيين. ومضمون هذه النقطة التوجيهية « أن شعور الإنسان هو أمر اجتماعى وتاريخى فى طبيعته، أى أنه يتحدد بواسطة الوجود الاجتماعى، ويتغير بصورة كيفية تبعا للظروف الاقتصادية والاجتماعية » .

وهو إلى جانب ذلك يرى أن خصائص الشخصية هى أيضا نتاج للنشاط الإنسانى، الذى يتطور من خلال العلاقات الاجتماعية، وأن التناقضات الداخلية فى حياة الفرد هى القوة الدافعة للتطور الإنسانى. كما أن العامل الحاسم فى تكوين عقلية الشخص هو ما يمارسه الناس فى المجتمع الذى يعيش فيه هذا الشخص، وليس هو القوى التى تنطلق تلقائيا من داخل الفرد . وبالتالى فإن التعليم عامل حاسم .

كما يرى «ليونتيف » أن الهدف الأول لعلم النفس هو دراسة العمليات التى بها تستدخل الأيدولوجيات ، والتى بها يستدخل العلم فى الشعور الإنسانى ، بحيث تؤثر فى تحديد سمات الشخصية. أما بالنسبة للتطور النفسى للإنسان فإن هذا التطور لا يزيد بصورة كمية ولكن بصورة كيفية ، فمثلا : طاقة الذاكرة عند الأطفال لا تزيد مع النمو العمرى، لكن الذاكرة تتغير مع النمو العمرى تغيرا كيفيا، (أى ليس من حيث الاتساع أو المدى ولكن من حيث نوعية المادة المستوعبة وترقى هذه المادة) وكذلك تتغير طرق تفكير الإنسان كلما ارتقى فى مراحل العمر ، وذلك لما يتلقاه من تعليم وتدريب .

« روبنشتين » Rubinstein (١٨٨٩ / ١٩٦٠م) :

هو عالم روسى يهودى تعلم فى ألمانيا ، وحصل منها على الدكتوراه فى الفلسفة عام ١٩١٣م . ثم عاد إلى مدينته الأصلية «أوديسا» حيث اهتم بالدراسات التربوية . وفى عام ١٩٢١م ترأس قسم علم النفس بأحد المعاهد العليا ، وقضى حياته العلمية متنقلا بين «لينتجراد» و «موسكو» محررا للكتب والمقالات . ومن أهم أعماله العلمية كتابه عن «أسس علم النفس » الذى ظهر عام ١٩٣٥م ومقالته عن « مشكلات علم النفس فى تطبيقاته الماركسية » التى ظهرت عام ١٩٣٤م .

وبإصداره كتابه عن أسس علم النفس أصبح واحدا من أكبر المؤثرين فى تيار علم النفس الروسى. وعندماعقد «مؤتمر بافلوف» عام ١٩٥٠م انتقد « روبنشتين » نفسه بأنه لم يتبع خطوات « بافلوف » ، كما أقر بأن علماء النفس الروس ما زالوا تحت تأثير المثالية وأنهم لم يكتسبوا بعد الروح الماركسية الناقدة » .

هذا ويمكن تلخيص أهم المبادئ التى أشار إليها فى كتابه أسس علم النفس فيما يلى :

* المبدأ الأول هو مبدأ الوحدة النفسية العضوية أى وحدة العمليات النفسية ، مع مادتها العضوية وهى المخ .

* المبدأ الثانى هو مبدأ النمو النفسي . ومضمونه أن النواحى النفسية مشتقة ومكونة من تطور الكائن الحى. وهذا التطور يكون بفعل المتغيرات التى تحدث فى الكائن الحى وتؤثر فى أسلوب حياته .

* المبدأ الثالث مبدأ التاريخية. ومضمونه أن النواحى النفسية تتغير وتتأثر بالحياة الاجتماعية للإنسان .

* المبدأ الرابع هو مبدأ الوحدة بين النظرية والتطبيق .

ومع ذلك فإن « روبنشتين » عدل بعضا من مواقفه إثر « مؤتمر بافلوف» الشهير، وذلك لكى يتحاشى - شأنه شأن معظم العلماء الروس - التصادم بصورة مباشرة مع النظرية الماركسية .

هذا وقد تنكر « روبنشتين » لفكرة الآلية التى اشتملت عليها أعمال « بختريف » ، كما حاول أن يعدل مسار علم النفس الروسى - بحيث يكون متفقا مع الخط الماركسى - بأن حاول أن يتجاوز ما تصور أنه اثنينية خطأ ، و هى تلك التى تفصل بين الشعور والسلوك، وذلك بأن قال : « إن الشعور عبارة عن وحدة من خبرات ذاتية ومعرفة موضوعية » ، وعلى ذلك توصل - فى رأيه - إلى نقطة انطلاق لعلم النفس الروسى مؤداها الوحدة بين شعور الكائن الحى ونشاطه .

ويرى «روبنشتين » أن نمو الشخصية يحدث من خلال النشاط الفعلى والعمل والممارسات الاجتماعية ومن تدريبات الأطفال والتعليم . كما أن الخصائص العقلية لا تظهر فقط من تلقاء نفسها ، بل أيضا تشكلها البيئة، كما أنه يرفض علم نفس الشعوب لأنه يميز بين الشعوب ويؤدى إلى ظهور النعرات القومية .

وهو يرى كذلك أن أجدى وسيلة للحصول على المعرفة الدقيقة بهذا العالم، هى دراسة عملية التغير التى تلحق به ، وعلى هذا فإن التراكب أو التداخل بين الدراسة وبين الواقع مسلمة أساسية فى مناهج البحث فى علم النفس الروسى. ومثال ذلك : المبدأ القائل بأن تعليم الأطفال هو فى الوقت نفسه دراسة لهم. وهذا معناه أن ندرس الظاهرة فى أثناء تنفيذها أو إجراء تعديل عليها . وعلى هذا يؤكد «روبنشتين » مبدأه الرابع ، وهوالعلاقة بين النظرية والتطبيق فى علم النفس ، كما يؤكد « روبنشتين » أنه على علم النفس أن يشغل نفسه بدراسة « الشعور فى إطار الحالات أو الظروف الملموسة التى يمارس فيها النشاط الإنسانى » .

وفى خلال أعماله العلمية ، اهتم « روبنشتين » بتوضيح أن الشعور أو العقل، هو مظهر محدد للنشاط النفسى، وأكد كذلك أن العمليات العقلية تخضع لصفة أساسية هى الحتمية . ونعى على السلوكية الأمريكية بأنها تجاهلت مفهوم الشعور فخلطت بين العقل والنواحى الآلية من السلوك ، ذلك أن «روبنشتين » يرى أن النشاط الإنسانى والشعور أمران متلازمان، ولا يجب على علم النفس أن يتجاهل الوحدة بين الشعور والنشاط أو السلوك الإنسانى .

وفى ضوء الوحدة بين الشعور والسلوك فإن السلوك يمكن اعتباره المظهر الخارجى، ويمكن اعتبار الشعور المظهر الداخلى، وبينهما تداخل وتأثير متبادل ، وهكذا تتحقق فى نظر «روبنشتين » الوحدة بين الشخص والموضوع، ولا يعد الشعور مجرد تأمل سلبى ، ولكن الشعور مبدأ إيجابى يقرر ويحدد ويوجه السلوك - وعلى هذا فإن تفسير السلوك على أنه مثير واستجابة ، هو تفسير غير جلى وغير دقيق، كما أن القوانين الفسيولوجية ليست كافية لتفسير النشاط أو السلوك الإنسانى، وذلك أنه أثناء الانغماس فى ممارسة النشاط الإنسانى فإن الشعور أكثر من مجرد شىء داخلى ، وعن طريق هذا النشاط الإنسانى فإن الفرد يستطيع أن يحدث ما يستطيع من تعديلات بأن يضفى على العالم الخارجى أو على الطبيعة ما قد يوجد فى نفسه من رغبات وأهداف ودوافع . وإن الشعور يحرك النشاط ، كما أن الحقائق المحيطة بنا تنعكس على الشعور، وأن الانعكاس معناه رد الفعل أو انعكاس الصورة فى المرآة .

وزبدة القول: إن النواحى النفسية للإنسان تشتمل على ارتباطات وعلاقات، وترتبط النفس بالمخ فى إطار النواحى العصبية للإنسان كما ترتبط كذلك بالعالم الخارجى فى إطار الحقائق المادية .

ويرى «روبنشتين » أن الشعور وهو العنصر الشخصى فى الإنسان هو نتيجة تطور العمليات التى يزخر بها العالم الخارجى. والشعور يواجه احتياجات الكائن الحى ويشكل النشاط ، بحيث يستطيع أن يواجه بكفاءة متطلبات البيئة المحيطة به ، ويحقق تكيفا ناجحا . وعندما يتعامل الإنسان مع البيئة فإنه يتوصل إلى العديد من الابتكارات والانجازات. وعلى هذا فإن الشعور يحرك النشاط الإنسانى ويوجهه .

ومن خلال وقائع التطور فإن الشعور الاجتماعى يؤثر على تطور الشعور الفردى من خلال عمليات التعلم والتدريب الاجتماعى. و كذلك يؤثر الشعور الاجتماعى على الشعور الفردى من خلال النشاط الإنسانى، ويصل «روبنشتين » إلى تحديد صفتين أساسيتين للنفس. الصفة الأولى النشاط العصبى والصفة الثانية بمثابة انعكاس الصورة فى المرآة بسبب ما يحفل به العالم الخارجى من أشياء .

(جـ) «تبلوف» Teplov (١٨٩٦/ ١٩٦٥م) :

تأثر « تبلوف » بأعمال «ششنوف » وأعمال « بافلوف » وقد حاول في أعماله العلمية التوصل إلى الأساس الفسيولوجي لكل ظاهرة من الظواهر النفسية، مؤكدا على أهمية التوازي بين علم النفس والفسيولوجيا، كما توجه بالنقد إلى علماء النفس الروس الماديين الأوائل ، لأنهم حاولوا إنشاء علم نفس جديد دون أن تكون له أسس أو جذور سابقة .

ومن الدراسات التي اهتم بها «تبلوف» دراسة الفروق الفردية، وهي تلك الدراسة التي أشرف عليها معهد علم النفس التابع لأكاديمية البحوث التربوية الروسية. وقد انصبت هذه الدراسات على تجارب تتضمن قياس قوة الجهاز العصبي والنشاط العصبي عند الإنسان. وقد تضمنت دراساته نواحي إحصائية ارتباطية وعاملية .

كما اهتم بدراسة الأنماط النفسية typology وعالجها في دراسة على أساس أنها أنماط من الجهاز العصبي، وكان هدفه التأكيد على الخصائص الأنماطية للجهاز العصبي وهي التي تحدد الفروق الفردية بين الناس . ورأى «تبلوف » أن دراسة هذه الفروق من مهمات علم النفس الرئيسية .

ويعرف «تبلوف» الأنماط بأنها « خصائص مركبة للجهاز العصبي ». كما يعرف المزاج بأنه «خصائص الفرد التي تظهر في الاستثارة الانفعالية ، وفي أسلوب التعبير عن المشاعر، وكذلك في سرعة الحركة » .

تلك هي الأدوار الرئيسة الثلاثة لعلم النفس الروسي، ويمكن القول بأن علم النفس الروسي رغم أنه بدأ قويا على أيدي كبار مؤسسيه إلا أن قوته تلك لم تستمر على حالها وأصابه قدر كبير من التخلخل والضعف نعرض لأسبابها توا .

علم النفس الروسي في الميزان :

يحتاج مؤرخ علم النفس إلى الانتظار عدة عقود ليستطيع أن يستطلع أثر انهيار الاتحاد السوفيتي على علم النفس الروسي - ومهما يكن من أمر فإن المؤرخ المدقق

لعلم النفس يرى أن علم النفس الروسى - سواء قبل انهيار الاتحاد السوفيتى أو بعد الانهيار - عليه العديد من الملاحظات نوجز أهمها فيما يلى :

- أن علماء النفس الروس يضعون الفسيولوجيا أساسا للسيكولوجيا - أى أن علم وظائف الأعضاء هو الأساس الذى يقوم عليه علم النفس ، وعلى هذا اتسم السلوك الإنسانى فى نظرهم بالآلية التى تتمثل فى المنعكس الشرطى وانعكاسات الدماغ ، مما دعا دراسات علم النفس الروسى إلى أن تسير فى خط واحد ولا تتفرع عنه إلى الموضوعات التى تفرع إليها علم النفس الغربى .

- أن علم النفس الروسى يقوم أساسا على النظرية المادية التى قال بها «ماركس» و «إنجلز» وطبقها «لينين» وهذه النظرية عليها اعتراضات عديدة من حيث كونها نظرية سياسية واقتصادية أما من حيث علم النفس فهناك اعتراض أساسى هو كيف لنظرية أعدت لتفسير الاقتصاد والسياسة أن تكون أساسا لدراسات علم النفس ؟

- أن علم النفس الروسى يرفض دراسات الفروق الفردية والاختبارات النفسية التى عدها العابا تسابقية سخيفة لا تتمشى مع المجتمع الاشتراكى الروسى - وإنما تتمشى مع طبيعة المجتمع الرأسمالى « العفن» . ومهما يكن من أمر فإن حركة القياس النفسى هى أقوى حركات علم النفس الحديث والمعاصر وليس ينكرها إلا متعسف .

- أن علم النفس الروسى يرفض الأخذ بما جاء فى «المدارس الغربية » ويصر على أن يتجاهلها وهو بهذا يتجاهل تراثا عظيما - مما يضطره إلى التخندق داخل مفاهيم محدودة .

- تدخلت السلطة السياسية فى روسيا فى توجيه علم النفس وجهة «رسمية » وذلك من خلال مؤتمر « بافلوف » الذى أشرنا إليه آنفا، حيث أكد هذا المؤتمر أن تكون أعمال «بافلوف» هي أساس علم النفس الروسى . ولسنا ننكر أستاذية «بافلوف» وعملقته ولكن كان يجب على علم النفس الروسى أن يتجاوز دراسات «بافلوف» وخطه العلمى - ذلك أن هذه الدراسات تمثل بواكير علم النفس التجريبى .

★ ★ ★



الفصل الحادى والعشرون

علم النفس اليابانى

تعتبر الممارسات النفسية التأملية من التراث الفكرى عند الشعب اليابانى عبر تاريخه الطويل ، كما تعتبر اليابان أكثر دول شرق آسيا تقدما فى مجال علم النفس ، وقد تطور علم النفس فى اليابان تطورا ملحوظا عبر التاريخ ، ويمكن لمؤرخ علم النفس أن يقسم علم النفس اليابانى إلى المراحل الثلاث الآتية :

١ - **المرحلة الفلسفية**: وهى قائمة على الأفكار الفلسفية ، وتقع فى الفترة قبل عام ١٨٨٠ م .

٢ - **المرحلة التجريبية**: وتقع من ١٨٨٠ م حتى الحرب الكونية الثانية ، وهي تتميز بتأثر علم النفس اليابانى بعلم النفس الغربى .

٣ - **المرحلة المعاصرة**: وتقع فى الفترة بعد نهاية الحرب الثانية حتى الآن وتتميز بظهور علم النفس التأملى اليابانى .

ومن الرواد الأوائل الذين أسهموا فى بناء علم نفس متقدم فى اليابان بعد أن كان غارقا فى التأملات الفلسفية عالمان كبيران هما :

أ - يوجيرو موتورا Yujiro Motora (١٨٥٨ / ١٩١٢م) والذى تلقى تعليمه فى جامعة « جونز هوبكنز » الأمريكية وهو أول من اهتم بعلم النفس التجريبى فى اليابان وأول من أسس مختبرا لعلم النفس في اليابان بجامعة « طوكيو » عام ١٨٨٨م

ب - ماتاتارو ماتسموتو Matataro Mastsumoto (١٨٥٦ / ١٩٤٣م) والذى تلقى تعليمه فى جامعة ييل الأمريكية واهتم بدراسات علم النفس التطبيقى .

وفى رعاية « موتورا » ازدهر علم النفس فى جامعة طوكيو اليابانية وهو أول أستاذ لعلم النفس فى اليابان - وكان متشبعا بالاتجاهات الأمريكية الوظيفية وبالألمانية البنائية ، وبعد وفاة « موتورا » ازدهرت السلوكية الواطسونية ولكن هذا الازدهار سرعان ما تلاشى فى أواخر العشرينيات وذلك بسبب النفوذ القوى لعالم النفس اليابانى « كانى ساكوما Kanae Sakuma (١٨٨٨ / ١٩٧٠م) وهو تلميذ «كهلر» و « ليفين » حيث رسخ نفوذ علم نفس الجشطلت حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. أما فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية فقد شهدت ازدياد النفوذ الأمريكى علي علم النفس اليابانى ، ولكن هذا النفوذ لم يكن لمدرسة أمريكية بعينها. أما الأحداث الهامة فى هذه الفترة فهى ظهور الاتجاهات التأملية على يد عالم النفس اليابانى « كوجى ساتو Koji Sato » (١٩٠٥ / ١٩٧١م) وهو مشهور بتأسيسه مجلة ناطقة - لعلم النفس اليابانى - باللغة الإنجليزية عام ١٩٥٧م أسماها المجلة الدولية لعلم النفس فى الشرق ، كما نذكر فى هذا المقام الطبيب النفسى اليابانى «شوما موريتا Shoma Morita » (١٨٧٤ / ١٩٣٨م) الذي ابتكر طريقة للعلاج النفسى قائمة على التأمل واشتهرت باسم « أسلوب موريتا العلاجى » .

وبعد هذه المقدمة نتحدث عن تطور علم النفس فى اليابان خلال النقاط الآتية :

علم النفس اليابانى الفلسفى القديم :

لم يكن علم النفس الغربى معروفا فى اليابان بصورة واضحة حتى أواخر القرن التاسع عشر ، حيث قام كل من « موتورا » و « ماتسموتو » بترجمة بعض الأعمال العلمية فى علم النفس وخاصة أعمال « فونت » ، وقبل هذه الجهود كانت تسود ميدان علم النفس الأفكار الفلسفية التى ترجع أساسا إلى أفكار «كونفشيوس» وأفكار « بوذا » (التى نعرض لها عند الحديث عن علم النفس الهندى) .

ومن المفكرين الذين أسهموا فى إرساء علم النفس اليابانى القديم المرتبط بالأفكار الدينية والفلسفية من يلى :

أ - « سوهو تاكيان Soho Takuan (١٥٧٣ / ١٦٤٥م) وله نظرية حول طبيعة الإنسان ، وتفترض هذه النظرية أن الفرد الإنسانى هو بمثابة كوكب صغير سيار فى هذا الكون الشاسع ، وفى نفس الوقت فإن الفرد الإنسانى هو تمثيل دقيق لهذا الكون الواسع الفسيح ، وهذا الفرد الإنسانى له عقل يسيطر على جسمه وله شعور يدرك به الكائنات المحيطة به ، وهو إلى جانب ذلك يبدى انفعالات عديدة نتيجة اتصاله بالكائنات المحيطة به .

ب - « بيجان أيشيدا Baigan Ishida » (١٦٨٥ / ١٧٤٤م) وهو أيضا صاحب نظرية فى الطبيعة الإنسانية ، وافترض فى نظريته أن السلوك بمظاهره المختلفة هو بمثابة تمثيل وانعكاس لعقل الإنسان ، وطبيعة العقل الإنسانى إنما تتشكل طبقا للخبرات الإنسانية ، وكذلك فإن عقل الإنسان لا يوجد بمعزل عن المحيط الاجتماعى والفيزيقى الذى يعيش فيه ، كما أن عقل الإنسان يكون دائما فى حالة استجابة للأشياء المحيطة به .

جـ - « هوكامادا Ho Kamada » (١٧٥٣ / ١٨٢١م) :

وهو يرى أن علم النفس هو علم طبيعى موضوعه دراسة العقل ، كما أن وظيفة هذا العقل الأساسية هى تحقيق السعادة فى الحياة الإنسانية ، وهو كذلك يرى أن التفكير والانفعال والرغبة هى من « الملكات النفسية » للإنسان - كما أنه يرى أن الإنسان إنما يتعلم الخوف أو القلق أو الحب أو السرور من خلال التجارب الحياتية .

وفى هذا العصر تأثر الفكر اليابانى فى المجالات الأدبية والإنسانية باتجاه فلسفى تراثى هو نحلة « طريق الآلهة Shintoism » وهى مجموعة من الأفكار القديمة تتجه إلى تعظيم أو تقديس بعض التقاليد أو بعض الأماكن ذات الأهمية القومية للشعب اليابانى ، كما تتضمن تقديس الأسلاف وما كانوا يتسمون به من فروسية عسكرية ، كما تشتمل هذه النحلة على فكرة مضمونها أن الأسرة الإمبراطورية اليابانية هى سليلة الشمس ! وأن إمبراطور اليابان هو ابن الشمس !

هذا إلى جانب مجموعة من الأساطير حول قوى الريح العاتية وصراعها مع الشمس ، وهذه النحلة أيضا تتضمن طقوسا تمارس فى مناسبات الميلاد والزواج والوفاة ، وتمارس طقوس هذه النحلة فى معابد بسيطة - أما الفكرة الرئيسة فى هذه النحلة فهى أن ثمة « قوة مقدسة » تبدى نفسها فى كل شىء وفى كل وقت وترجع هذه النحلة إلى القرن السابع الميلادى .

د - « مابوشى كامو Mabuchi Kamo » (١٦٩٧ / ١٧٦٩م) :

وهو مفكر حاول أن يفهم النفس من خلال تأويل وتفسير ما تزخر به الآداب اليابانية - وخاصة الشعر - من عواطف وانفعالات وكأنها محاولة منه لتفسير الأدب تفسيرا نفسيا .

هـ - « متسو فوجيتى Mitsue Fujitani » (١٧٦٧ / ١٨٣٢م) :

وهذا المفكر اتجه إلى الدراسة الفلسفية للتراث القومى اليابانى وما يحفل به من آداب وأساطير وفلسفات ، كما أنه صاحب نظرية فى الدلالة النفسية للغة - بمعنى أن اللغة لها معنى ظاهر ومعنى باطن ، كما أن اللغة هى أداة التواصل بين الأفراد .

وهذا الدور الفلسفى كما هو واضح يشبه إلى حد كبير الدور الفلسفى الذى مر به علم النفس الغربى حيث جلس الفلاسفة على كراسى علماء النفس ردحا طويلا من الزمن منذ عصر النهضة حتى ظهور علم النفس التجريبى على يد العلماء الألمان .

تأسيس علم النفس التجريبى :

أسس علم النفس التجريبى فى اليابان - كما أشرنا سابقا - على يد «موتورا» و « ماتسموتو » ونتحدث عنهما بشىء من التفصيل فيما يلى :

أ - « يوجيرو موتورا Yujiro Motora (١٨٥٨ / ١٩١٢) :

ولد فى مدينة « أوزاكا » فى اليابان - وهو المؤسس الأول لعلم النفس

التجريبى اليابانى - وهو يعد من السيكولوجيين المعتمدين علميا حيث درس فى جامعة « جونز هويكنز » الأمريكية وحصل على الدكتوراه تحت إشراف عالم النفس الأمريكى الكبير « ستانلى هول » عام ١٨٨٨ م .

وقد درس قبل التحاقه بجامعة « جونز هويكنز » - بجامعة « بوسطن » الأمريكية ، وعندما عاد إلى اليابان كان أول من يشغل هناك درجة الأستاذية فى علم النفس فى جامعة طوكيو حيث أسس أول مختبر لعلم النفس فور عودته إلى اليابان عام ١٨٨٨ م .

وله العديد من الدراسات أشهرها كتاب « علم النفس » الذى أصدره عام ١٨٩٣ و « أصول علم النفس » الذى أصدره عام ١٩١٠ و « مختصر علم النفس » الذى صدر عام ١٩١٥ - هذا إلى جانب اهتمامه بموضوع علم النفس التأملى Zen Psychology .

وكان « موتورا » طموحا ويرغب فى الوصول إلى قوانين لعلم النفس ، ليس عن طريق الدراسة المختبرية فقط ، ولكن عن طريق دراسة المواقف العادية والمتكررة فى الحياة اليومية .

ب - ماتاتارو ماتسموتو Matataro Matsumoto (١٨٥٦ / ١٩٤٣م)

وهو خليفة « موتورا » - ويعتبر المؤسس الثانى لعلم النفس التجريبى فى اليابان ، وهو مثل سابقه درس فى أمريكا وجصل على الدكتوراه عام ١٨٩٨ م ثم سافر إلى « ليبزج » حيث تدرب لمدة عام تقريبا تحت إشراف « فونت » ، وعاد إلى اليابان عام ١٩٠٠ م حيث عمل بالتدريس بجامعة طوكيو ، إلى جانب إشرافه على مختبر علم النفس بها .

وفى الفترة من (١٩١٠ إلى ١٩١٥م) عمل أستاذاً بجامعة « كيوتو Kyoto » حيث أسس فيها قسما لعلم النفس ثم مختبرا لعلم النفس ، وانتقل بعد ذلك إلى جامعة "طوكيو" وعمل بها أستاذا لعلم النفس .

وكانت اهتماماته العلمية تدور حول دراسة الوظائف العقلية متأثرا فى ذلك بعلم النفس الألمانى عند « فونت » ، هذا إلى جانب اهتمامه بعلم النفس التطبيقى.

ومن أهم مؤلفاته « سيكولوجية الذكاء » الذى أصدره عام ١٩٢٥ ، وهو كتاب كبير تزيد صفحاته على الألف صفحة ، ثم أعقبه عام ١٩٢٦ بكتاب عن « علم النفس والحياة العملية » ، هذا إلى جانب اهتمامه بدراسة سيكولوجية الفن حيث أصدر العديد من الدراسات منذ عام ١٩١٥ إلى ١٩٢٦ تتناول التفسير السيكولوجى للفنون اليابانية ، وخاصة الرسم .

وإلى جانب ما سبق ساد ميدان علم النفس اليابانى الاتجاه نحو الدراسة العلمية للسلوك الإنسانى فى أوائل القرن العشرين ، حتى قبل نشر دراسة «واطسون» الشهيرة عن « علم النفس من وجهة النظر السلوكية » عام ١٩١٢ . حيث قام العالم اليابانى « يوشى اينو Yoichi Ueno » (١٨٨٣ / ١٩٥٧م) بترجمة كتاب «جيمس انجل » عالم الوظيفية الكبير عن علم النفس إلى اللغة اليابانية عام ١٩١٠ .

كما قام العالم اليابانى « هيروشى هيامى Hiroshi Hayami » (١٨٧٦/ ١٩٤٣م) بتأثير من قراءته للأعمال الأولى للعالم الأمريكى « واطسون » بنشر بعض الدراسات عن السلوكية الأمريكية - وهذا العالم من الرعيل الأول من المشتغلين بعلم النفس فى اليابان حيث حصل على الدكتوراه فى علم النفس من جامعة طوكيو عام ١٩٢١م وسافر فى العام الجامعى ١٩٢٥ / ١٩٢٦م فى زيارة علمية لجامعة «برلين» فى ألمانيا ، كما اشترك فى ترجمة كتاب « ستانلى هول » عن المراهقة إلى اللغة اليابانية عام ١٩١٠ ، وكان مفتونا فى فترة من فترات حياته بالعالم الألمانى «فونت» بحيث إنه ألف كتابا عام ١٩١٥ بعنوان « علم النفس عند فونت » . ولم يكن «هيامى» متحمسا تماما للسلوكية الأمريكية ، ولكنه كان يميل إلى « الظاهراتية » متأثرا فى ذلك بالعالم الألمانى « هوسرل » وكان يرى أن علم النفس التقليدى « الفونتى » الذى يدرس الشعور عليه بعض التحفظات لأنه لا يستطيع أن يدرس سيكولوجية الطفل وسيكولوجية الحيوان ، إلا أن السلوكية عليها أيضا تحفظات فى إصرارها على دراسة السلوك الظاهر .

ومن أصحاب الاتجاه العلمى لدراسة السلوك عالم النفس اليابنى « ريو كيرودا Ryo Kuroda » (١٨٩٠ / ١٩٤٧) - وهو أحد العلماء الذين تدربوا فى امريكا فى جامعتى « كاليفورنيا » و « شيكاغو » ، فى الفترة من ١٩٢٠ إلى ١٩٢١ وذلك بعد حصوله على درجة الليسانس من جامعة طوكيو - كما أنه قضى فترة تدريبية ودراسية فى جامعة « ليبزج » الألمانية .

ومن أشهر مؤلفاته « علم نفس الحيوان » أصدره عام ١٩٣٦ يبين فيه موقفه من علم النفس ، حيث يرى أن الحوادث النفسية تسفر عن نفسها ، فى مظهرين هما : الشعور والسلوك ، وهو بذلك يزاوج بين النظرة السلوكية الأمريكية والنظرة الألمانية البنائية .

ومن مؤسسى علم النفس التجريبى فى اليابان فى نفس الفترة التي نتكلم عنها وهى أوائل القرن العشرين - عالم النفس اليابانى « كانى ساكوما Kanae Sakuma » (١٨٨٨ / ١٩٧٠) الحاصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٢٣ من جامعة طوكيو ، وهو من المتأثرين أيما تأثير بمدرسة الجشطلت الألمانية ، وهو من تلاميذ هذه المدرسة ، وتلقى تعليمه فى « برلين » على يد « كهلر » وعلى يد « ليفين» . وكان « ساكوما » أستاذا لعلم النفس بجامعة « كوشو Kyushu » فى الفترة من ١٩٢٥ إلى ١٩٤٨ ، وقد ترجم إلى اللغة اليابانية كتاب « كهلر » عن « علم نفس الجشطلت » . كما قام بتقديم علم نفس الجشطلت إلى اليابان وعرض أعمال العلماء الألمان ، وكان معجبا بالعالم الألمانى « كارل ستمف » .

ومما يجدر ذكره أيضا أن « ساكوما » كان من أوائل علماء النفس الذين درسوا علم النفس اللغوى ، وكرس جزءا من حياته العلمية لهذا الغرض ، ونشر العديد من الدراسات فى سيكولوجية اللغة ، وإلى جانب اهتمامه بعلم النفس اللغوى وعلم النفس الجشطلتى اهتم - شأنه فى ذلك شأن علماء النفس فى اليابان - «بعلم النفس التاملى Zen Psychology » .

علم النفس اليابانى بعد الحرب العالمية الثانية :

استمر التأثير الغربى على علم النفس اليابانى حتى نهاية الحرب الثانية ، وكانت وجوه علم النفس الغربى - وخاصة الألمان - معروفة تماما لطلاب علم النفس فى اليابان ، وذلك بالإضافة إلى « بافلوف » وبعض العلماء الأمريكيين وعلى رأسهم « واطسون » - وقد تم إنشاء أقسام علم النفس - بعد الحرب العالمية الثانية - وألحقت بكليات الآداب ، وما يزال هذا التقليد موجودا حتى الآن - وأعلى درجة تمنحها الجامعات اليابانية هى الدكتوراه فى الآداب فى علم النفس (وهى تعادل دكتوراه الفلسفة فى علم النفس التى تمنحها الجامعات الأمريكية) .

وثمة اتجاهات رئيسة فى علم النفس اليابانى بعد الحرب العالمية الثانية هى :

الأول: أمركة البحوث والدراسات النفسية فى اليابان ، وكذلك أمركة تعليم علم النفس .

الثانى: توسع الاهتمام بعلم النفس على المستوى العام .

الثالث: السعى نحو إنشاء نماذج محلية فى علم النفس تستند إلى التراث الفكرى والفلسفى اليابانى .

ومنذ منتصف القرن العشرين أتيحت العديد من الفرص لطلاب علم النفس من اليابان لاستكمال دراستهم العليا فى الجامعات الأمريكية حيث حصل العديد منهم على درجات علمية وعادوا إلى جامعات اليابان يواصلون فيها تدريس علم النفس حسب « التقليد الأمريكى » - كما توسع استخدام الحاسب الآلى فى الدراسات والبحوث النفسية ، كما صدرت كتب كثيرة فى علم النفس ، أصدرتها دور النشر اليابانية ولاقت هذه الكتب رواجا ملحوظا . وتناولت هذه الكتب موضوعات علم النفس وفروعه المختلفة ، ومن أدل الأدلة على الاهتمام العام بعلم النفس فى اليابان أن العديد من محطات التلفاز اليابانى تقدم للمشاهدين برامج تعليمية فى موضوعات علم النفس المختلفة .

ومن الخطوات الكبرى التى أدت إلى إثراء الدراسات النفسية فى اليابان قيام مجموعة من علماء النفس عام ١٩٥٨ بإصدار موسوعة علم النفس باللغة اليابانية ، وقد اشترك فى تحرير هذه الموسوعة ١٨٤ مساهما وأشرفت على تحريرها لجنة من أربعة من كبار العلماء - وقد تضمنت هذه الموسوعة سبعة آلاف مادة تغطى مجالات علم النفس المختلفة ، وتميزت هذه الموسوعة بالحداثة - بالنسبة لذلك الوقت - والدقة ، ومثلت دفعة قوية إلى الأمام بالنسبة لعلم النفس اليابانى . كما أن هذه الموسوعة كانت تورد المصطلحات التي تتناولها مع ترجمة لها باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية كلما كان ذلك ممكنا ، وهذه الترجمة مكنت قارئ الموسوعة من معرفة الأصول أو الموضوعات التي تتناولها الموسوعة وعلاقتها بعلم النفس الغربى حيث إن صياغة المصطلحات السيكولوجية باللغة اليابانية كانت أمرا جديدا فى ذلك الوقت .

ومن المهم أن نذكر أنه فى عام ١٩٨١ - صدرت طبعة جديدة من هذه الموسوعة حدث فيها - كما هو متوقع - تغيير شامل وعام ، وتغيرت هيئة تحريرها وساهم فيها أكثر من ٣٠٠ من المشتغلين بعلم النفس . وتمت إعادة كتابة معظم المادة العلمية للموسوعة القديمة وبلغت مواد الموسوعة الجديدة ثمانية آلاف مادة.

علم النفس اليابانى المعاصر ونماذجه المحلية :

يمكن القول أن علم النفس اليابانى المعاصر هو أساسا محاولة لإقامة علم نفس على أسس « محلية » مستقلة عن التيارات الغربية الواردة من أوروبا أو من أمريكا بحيث تظهر نماذج وأفكار علمية يابانية ، وقد نجح علماء النفس فى اليابان فى تحقيق هذا الهدف إلى حد كبير .

ومن الممكن إعطاء صورة لعلم النفس اليابانى المعاصر من خلال الحديث عن العلاج النفسى عند « موريتا » وعلم النفس التأملى عند « ساتو » .

أ - العلاج النفسى عند « موريتا » :

هو « شوما موريتا Shoma Morita » (١٨٧٤ / ١٩٣٨م) أستاذ الطب النفسى بكلية الطب جامعة طوكيو - وهو من المتأثرين بالعالم الألمانى « أميل كريلين » من أصحاب النموذج الطبى فى علم النفس المرضى والذى يرجع أسباب الأمراض النفسية والعقلية إلى النواحى البيولوجية . وإسهام « موريتا » الأساسى هو أسلوبه العلاجى الذى ذاع صيته خارج اليابان .

ومن الطريف أن نذكر أن « موريتا » نفسه كان أثناء فترة المراهقة يعانى من أعراض عصابية ، وكان من أسباب اتجاهه إلى دراسة الطب النفسى - محاولته فهم ما كان يعانى منه من اضطراب . وأهم أعماله العلمية كتاب « علاج حالات العصابيه والنورستانيا » وكتاب « محاضرات فى العلاج النفسى » أصدرهما عام ١٩٢١ .

وأسلوب « موريتا العلاجى » هو أسلوب يابانى فى العلاج ابتكره « موريتا » متأثرا فى ذلك بدراساته العلمية وتجربة حياته الذاتية ، وكذلك بالأفكار البوذية ، والفكرة الأساسية فى هذا الأسلوب العلاجى أنه لا يمكن بأية حال من الأحوال أن تخلو حياة الفرد من شىء من الخوف أو القلق أو مظاهر التوتر الأخرى التي تزخر بها هذه الحياة ، ويهدف هذا الأسلوب أساسا ليس إلى التخفف من هذه الأعراض بل إلى قبولها كأمر واقع والتعايش معها ، ويهدف هذا الأسلوب العلاجى إلى أن يتعلم المريض التعامل مع حقائق الحياة ومجابهتها ، وذلك لأن حقائق الحياة ينبغى التعامل معها مهما كانت مثيرة للألم أو الضيق .

ويميز هذا الأسلوب العلاجى بين المشاعر من جهة والسلوكيات من جهة أخرى ، ذلك أن المشاعر لا يمكن السيطرة عليها بواسطة الإرادة ولا يمكن توجيه المشاعر أو تحويلها مهما بذل الشخص من جهد نفسى أو جهد بدنى ، ولكن يجب على الشخص أن يعترف بوجود المشاعر ويتقبلها كما هى دون أن يقاومها لأن المقاومة هى معركة خاسرة بالضرورة ، وذلك مهما كانت هذه المشاعر سارة أو ضارة

صالحة أو طالحة حلوة أو مرة - زيدة القول إذن أنه لا مندوحة من قبول المشاعر على علاتها، ولا سيما أن الشخص غير مسئول مسئولية أخلاقية عن مشاعره لأنه ببساطة لا يملكها .

لكن الأمر على العكس من ذلك فيما يتعلق بمظاهر السلوك ؛ ذلك لأن مظاهر السلوك هذه يمكن التحكم فيها عن طريق الإرادة (وذلك باستثناء بعض المظاهر اللاإرادية مثل اللزمات العصبية أو عيوب النطق ... إلخ) وهذا التحكم الإرادى فى مظاهر السلوك يمكن أن يتم بغض النظر عن الانفعالات التي يعاينها الشخص ، والسلوكيات - خلافا للمشاعر - قد تكون خطأ أو صوابا من ناحية المعايير الأخلاقية التي تسود المجتمع ، وكذلك فإن الأفعال تخضع أيضا للمعيار الأخلاقى من حيث الخطأ والصواب وبالتالى تنطبق عليها أحكام « المسئولية الخلقية » ، وعلى ذلك فإنه من المهم أن تكون أفعال الشخص وممارساته السلوكية في حدود المسئولية الخلقية بغض النظر عن مشاعره .

ويمارس « أسلوب موريتا العلاجى » فى المؤسسات العلاجية سواء للمريض المنوم بالمستشفى أو مريض العيادة الخارجية أو حتى بالمراسلة - وقد توصل «موريتا» إلى أسلوبه هذا فى عام ١٩١٩ تقريبا ، وذلك من خلال عقد عدة جلسات علاجية في منزله مع بعض المرضى العصابين وظل يطور هذا الأسلوب العلاجى حتى وفاته .

وقد أثبت هذا « الأسلوب العلاجى » فعاليته فى علاج النهك العصبى أو النورستانيا ، وكذلك أثبت فعاليته فى علاج عصاب القلق والوساوس .

ويتلخص هذا الأسلوب العلاجى فى تنفيذ المراحل الآتية :

المرحلة الأولى: وهى عزل المريض فى حالة من الراحة التامة لمدة أسبوع تقريبا حيث لا يسمح له بالقراءة أو الكتابة كما لا يسمح له باستقبال الزوار وتمنع عنه كذلك جميع المثيرات الخارجية .

المرحلة الثانية: تكليف المريض ببعض الأعمال اليدوية البسيطة .

المرحلة الثالثة: تكليفه ببعض الأعمال الأكثر صعوبة .

المرحلة الرابعة: فترة تمهيدية لإعادته للعالم الخارجى مرة أخرى بما يزخر به هذا العالم الخارجى من مسئوليات ، ويساعده المعالج في هذه المرحلة على تبنى مواقف وسلوكيات تتسم بالإيجابية تجاه العالم الخارجى بما يخفف المظاهر العصابية لديه .

ومما يجدر ذكره أنه توجد باليابان هيئة علمية مسئولة عن « أسلوب موريتا العلاجى » وهذه الهيئة ينتسب إليها ما يزيد على خمسة آلاف شخص فى أنحاء اليابان المختلفة ، وتصدر مجلة علمية شهرية عن بحوثها وإنجازاتها ، وإلى جانب اليابان تنتشر مراكز العلاج بأسلوب « موريتا » فى الولايات المتحدة الأمريكية، وتشير النتائج إلى نسب التحسن بعد ممارسة هذا العلاج بالغة الارتفاع، ويقال أنها تصل إلى ٩٠٪ من الحالات ، وبالطبع تختلف درجة التحسن من حالة مرضية إلى أخرى .

ب- العلاج التأملى عند « ساتو »

يعتبر « كوجى ساتو Koji Sato » (١٩٠٥ / ١٩٧١م) من أكثر علماء النفس اليابانى شهرة خلال الربع الثالث من القرن العشرين . ولد فى اليابان ، وتلقى تعلميه فى جامعة « كيوتو Kyoto » وتخرج منها عام ١٩٢٨م وحصل على الدكتوراه عام ١٩٥٦ - وتقلد عدة مناصب علمية فى اليابان أهمها شغله درجة الأستاذية فى علم النفس فى جامعته الأم ، وذلك فى الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٦١ - كما أصدر أو ساهم فى إصدار دوريات علمية أهمها مجلة علم النفس اليابانى ، ومجلة علم النفس الاجتماعى .

وفى البداية كان « ساتو » من المتأثرين بعلم النفس الجشطلتى ، وكانت رسالته للدكتوراه عن موضوع الاستبصار عند « كهلر » . ثم توجه اهتمامه بعد ذلك إلى علم النفس الإكلنيكى والتحليل النفسى ، كما توجه اهتمامه أثناء الحرب العالمية

الثانية إلى دراسة علم النفس الصناعى ودراسة الروح المعنوية وكذلك توجه اهتمامه إلى « أسلوب موريتا العلاجى » .

أما قلب اهتمامه فكان « علم النفس التأملى » الذى اتجه إلى دراسته منذ عام ١٩٥٩ حتى نهاية حياته ، وقد كتب « ساتو » خلال حياته العلمية حوالى مائة مقالة علمية كان نصفها عن علم النفس التأملى ، أما أعظم إنجازاته بالنسبة لعلم النفس اليابانى فهو نقل علم النفس التأملى من الدائرة المحلية فى اليابان إلى الدائرة العالمية خارج اليابان بوجه عام وفى الولايات المتحدة بوجه خاص .

وعلم النفس التأملى عند « ساتو » يرجع إلى « التأمل البوذى Zen Bud-dism » - وهو نحلة انتشرت فى اليابان منذ القرن الرابع عشر الميلادى ، وتدعو هذه النحلة إلى التأمل والعودة إلى طبيعة الإنسان الأولى وهى طبيعة نورانية ، وقد انتشر التأمل البوذى فى الصين فى القرن الثامن ثم التاسع الميلادى ثم انتقل بعد ذلك إلى اليابان . وكان هذا المذهب التأملى مؤثرا تأثيرا شديدا على حياة اليابان فى حياتهم اليومية حيث كانوا يمارسون التأمل أثناء تناول الشاى فى احتفالات طقوسية ، كما يمارسون التأمل عند تنسيق الزهور ، ناهيك عن تأثير الاتجاه التأملى فى الشعر والأدب والفنون الجميلة ، بل أثر هذا الاتجاه التأملى على الطبقة العسكرية اليابانية التى تعرف باسم « ساموراى Samuria » (وهى طبقة عسكرية من النبلاء ظهرت فى اليابان فى القرن الحادى عشر الميلادى وتمثل الصفوة من الشعب اليابانى وتتميز هذه الطبقة بالشجاعة والانضباط وعلو الهمة هذا إلى جانب التمسك بميثاق أخلاقى رفيع ، ورغم انتهاء هذه الطبقة فى القرن التاسع عشر فى الإصلاحات التى تمت فى اليابان عام ١٨٦٨ - إلا أن أخلاقياتهم وفروسيتهم تعتبر المثال الأمثل بالنسبة للشعب اليابانى) حيث كان « الساموراى » يعتبرون التأمل أسلوبا للتدريب الروحى .

و « التأمل البوذى » يقوم على أداء ممارسات نفسية تأملية تهدف إلى الوصول إلى مرحلة الإشراق حيث يعاين المتأمل الحقائق الروحية بعيدا عن

المتعلقات الحسية ، ذلك أن التأمل يؤدى إلى الوصول إلى حقائق حدسية إشراقية لا يمكن الوصول إليها عن طريق الحواس أو المعرفة الحسية .

ويتم « التأمل » فى جلسات أو فى أروقة وقد يمارس بصورة جمعية أو بصورة فردية . حيث يجلس المتأمل أو المريد في المنزل أو فى أى مكان هادئ ويرخى عينيه بحيث يقلل المثيرات المرئية فى المحيط الذى يجلس فيه إلى أقصى حد ممكن ، وتتخذ جلسته شكل جلسة القرفصاء حيث إن هذه الجلسة - حسب ما يعتقد - تبقى الشخص فى حالة من الانتباه التام .- كما أن الصمت أمر أساسى فى الجلسة التأملية ، ويقوم المشرف أو العريف بالتأكد من أن المريد على يقظة تامة أثناء الجلسة التأملية ويمسك الغريف بيده عصا يستخدمها فى تنبيه من تنتابه سنة من النوم من بين المتأملين ، بأن يضربه ضربا خفيفا على كتفه حتي يستيقظ ، وعلى المريد أثناء جلسة التأمل أن يشخص ببصره إلى لا شىء وأن يتنفس بعمق شهيقا وزفيرا ويطلب منه أيضا أن يبحث عن أجوبة لأسئلة عجيبة مثل ما اسمك قبل أن تولد ؟! أو ماذا تسمى الصوت الذى يصدر عن يد واحدة تصفق ؟! وغير ذلك من أسئلة غريبة .

وكذلك على المريد أن يكون صامتا أثناء جلسة التأمل وفى نفس الوقت يستدخل فى ذهنه فكرة معينة مثلا أن ثمة عدوا يتربص به ، وعلى المريد كذلك أن يوضح للعريف مدى استغراقه فى التأمل حتى يعينه العريف على مزيد من الاستغراق حتى يصل إلى الإشراق ، وتستغرق جلسات التأمل هذه الساعات العديدة وقد تصل فى بعض الأحيان إلى اثنتى عشرة ساعة يوميا .

ومرارا وتكرارا يحاول المريد الوصول إلى الإشراق - وهو معاينة الحقائق الروحية - ولكنه لا يصل إليه إلا بعد جهد جهيد ومعاناة شديدة ، وبعد أن يشرف المريد على اليأس ، والمريد السعيد هو الذى يصل إلى الإشراق ويتذوقه وعند الوصول إلى الإشراق يبكى المريد فرحا وعند الوصول إلى الإشراق - أيضا - تبدأ حياة المريد الحقيقية .

هذا وتنقسم ممارسات « التأمل » إلى خمسة مستويات :

المستوى الأول: التأمل العادى وذلك بقصد تحسين الصحة النفسية والجسمية للمتأمل .

المستوى الثانى: ممارسة التأمل مع اليوجا (نتحدث عن اليوجا عند التعرض لعلم النفس فى الهند) .

المستوى الثالث: ممارسة التأمل بقصد الوصول إلى الإشراق .

المستوى الرابع: ممارسة التأمل بقصد الوصول إلى فهم طبيعة الفرد الأصلية وفهم أسلوب حياته اليومى .

المستوى الخامس: وفيه يمارس المريد التأمل مبديا فى جلسته الثقة بالنفس وبالحياة متجاوزا الصعوبات والمعوقات التى تزخر بها هذه الحياة ومرتفعا فوقها .

والمقصود من هذا « العلاج التأملى » أن يصل المريد إلى قمع رغباته وإلى كبح صراعاته وإلى السيطرة على دوافعه وانفعالاته ، وهذا العلاج التأملى يركز كذلك على استيحاء معنى لحياة الفرد ووجوده واستيحاء قناعته بحياته - أكثر من أن يهدف إلى تغيير واقع الفرد أو تحسينه ، وعلى المريد أن يتأمل مليا تجربة حياته الذاتية ويتأمل كذلك حياة الآخرين ، وهذا التأمل لحياته وحياة الآخرين من شأنه أن يخفف الشعور بالتوتر وأن يقبل المريد تصاريف الحياة كما هى وعلى علاتها . وعلى ذلك يتشبث المريد بالحياة ويشعر بالاندماج والتوحد والتآخى بينه وبين العالم الذى يعيش فيه .

ومن علماء النفس الأمريكيين الذين اهتموا بدراسة هذا الأسلوب التأملى «أريك فروم » حيث حرر عام ١٩٦٠م مقالة بعنوان « التأمل البوذى والتحليل النفسى» بين فيها أوجه الاتفاق بين الأسلوبين ، وقال أن كلا من الأسلوبين يهدف إلى تعرف الشخص إلى الجوانب اللاشعورية المحركة لسلوكه ، ومن ثم السيطرة عليها ، كما يتشابه العلاج بالتحليل النفسى بالتأمل البوذى فى أن كليهما يهدف إلى

أن يقاوم الشخص ضعفه ، كما أن الشخص فى كلا الأسلوبين سيصل فجأة - ويعد معاناة شديدة - إلى التبصر بالحقائق المستورة التى تخصه ، وفى أسلوب التحليل النفسى يساعد المعالج المريض فى الوصول إلى التبصر بحالته ، وفى أسلوب التأمل يساعد العريف المريد فى الوصول إلى الإشراق ، وعلى ذلك يرى « أريك فروم » أن التأمل هو أسلوب سيكولوجى للوصول بشخصية المريد إلى مستويات أعلى من فهم الذات خلال تجربة الإشراق .

وتبين من الدراسات التى أجراها الطبيب النفسى اليابانى « توميو هيراى Tomio Hirai » ونشرها عام ١٩٧٤ بعنوان « العلاج التأملى » أنه باستخدام أجهزة تسجيل الوظائف النفسية الجسمية مثل رسام المخ الكهربائى ، ورسام استجابة الجلد - تبدى موجات المخ (مثل موجة ألفا أو موجة بيتا) الكثير من الاتساق بالنسبة للمريدين الذى يمارسون « التأمل » ، كما أبدوا كذلك كفاءة على رسام استجابة الجلد ، إشارة كفاءة الجهاز العصبى للمريدين . مما يدل على أن التأمل لا يؤدى إلى نوع من التأثيرات السيئة على الجهاز العصبى للممارس أو المريد ، هذا إذا لم يؤد إلى تأثير إيجابى . ولاسيما إذا أخذنا فى الاعتبار أن معظم من يمارسون « العلاج التأملى » يعانون أساسا من بعض الاضطرابات مما يدل على كفاءة هذا النوع من العلاج ، ولو أن الحكم النهائى على كفاءة هذا العلاج يحتاج إلي المزيد من الدراسات سواء في المجتمع اليابانى أو خارج اليابان .

الجمعيات العلمية العلمنفسية فى اليابان :

يوجد فى اليابان عدد من الجمعيات العلمية النشطة التى تصدر المجلات العلمية وتشجع البحوث فى مجال علم النفس ومن أهم هذه الجمعيات :

١ - **الجمعية النفسية اليابانية**، وهى أكبر هذه الجمعيات، وهى تضم حوالى ٤٢٠٠ عضو ، وتصدر مجلة علمية باسم علم النفس اليابانى ، تنشر بحوثا فى موضوعات علم النفس المتنوعة .

٢ - **جمعية علم النفس التربوى اليابانية** ؛ وهى تضم حوالى ٣٢٠٠ عضو ، وتصدر مجلتين علميتين ، وتنشر بحوثا فى مجال علم النفس التربوى .

٣ - **جمعية علم النفس الإكلينيكى اليابانية** ؛ وهى تضم حوالى ١٠٠٠ عضو ، وتصدر مجلة علمية لبحوث علم النفس الإكلينيكى .

٤ - **جمعية علم النفس التطبيقى اليابانية** ؛ وهى تضم حوالى ١٠٠٠ عضو ، وتصدر مجلة علمية لبحوث علم النفس التطبيقى .

٥ - **جمعية علم النفس الجنائى اليابنية** ؛ وهى تضم حوالى ٧٣٠ عضوا ، وتصدر مجلة علمية لبحوث علم النفس الجنائى .

٦ - **جمعية علم النفس الاجتماعى اليابانية** ؛ وهى تضم حوالى ٧٠٠ عضو ، وتصدر مجلة علمية لبحوث علم النفس الاجتماعى .

٧ - **جمعية ديناميات الجماعة اليابانية** ؛ وهى تضم حوالى ٥٥٠ عضوا ، وتصدر مجلة علمية لنشر بحوث علم النفس الاجتماعى وديناميات الجماعة .

٨ - **جمعية علم نفس الحيوان اليابانية** ؛ وهى تضم حوالى ٤٦٠ عضو ، وتصدر مجلة علمية لنشر بحوث علم نفس الحيوان .

وهذه المجلات جميعا باللغة اليابانية ، وتحتوى على ملخصات باللغة الإنجليزية للبحوث والدراسات المنشورة فيها .

وفى ختام الحديث عن علم النفس اليابانى - نسأل : هل استطاع علم النفس فى اليابان أن يصل إلى العالمية ؟ - الإجابة على هذا السؤال أمر صعب . ولكنا نقول أنه رغم أن العلم لا وطن له إلا أن حدود اللغة تمثل عقبة خطيرة بالنسبة لعلم النفس اليابانى ، وذلك أن اللغة اليابانية غير معروفة تقريبا خارج اليابان ، مما يحول دون تعريف بقية دول العالم بعلم النفس فى اليابان ، ورغم أن بعض علماء النفس فى اليابان ينشرون بحوثهم باللغة الإنجليزية فى المجلات العلمية الأمريكية إلا أن هذه البحوث قليلة جدا بالقياس إلى الإنتاج العلمى الفعلى لعلم النفس

اليابانى ، وقد تنبه المشتغلون بعلم النفس فى اليابان إلى وضعهم هذا ويحاولون جاهدين أن ينشروا المزيد من الدراسات باللغة الإنجليزية حتى يمكن أن يعرفوا بقية دول العالم بهم . ومن هذه مجموعة من الدراسات أشرف على تحريرها العالم اليابانى « تاداشى هيدانو Tadashi Hidano » ونشرت بالإنجليزية عام ١٩٨٠ - بالاشتراك مع ٤٥ من المشتغلين بعلم النفس فى اليابان بعنوان «علم النفس الحديث» وهذه الدراسات تتناول موضوعات علم النفس المختلفة والتى أجريت بشأنها بحوث فى اليابان - مثل الإحساس والإدراك والتعلم والقياس ، وذلك بالإضافة إلى النواحى العيادية والجنائية والدراسات عبر الحضارية .



الفصل الثانى والعشرون
علم النفس الصينى

يمكن لنا من الناحية التاريخية أن نتتبع نشأة التفكير فى علم النفس الصينى منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وذلك عند الفيلسوف والمفكر الصينى كونفشيوس Cofucius (عاش فى الفترة من ٥٥١ إلى ٤٧٩ ق.م) حيث كان من أوائل المفكرين الذين درسوا الطبيعة البشرية ووسائل تعديلها من خلال التعليم، وكان ينادى بعودة الإنسان إلى طبيعته « الخيرة » التى ولد عليها . وكذلك يمكن تتبع علم النفس الصينى عند الفيلسوف الصينى «إكسن زى Xun Zi » (عاش فى الفترة من ٣١٣ إلى ٢٣٨ ق. م) والذى توصل إلى نظرية مؤداها أن العقل هو أمر مادى جسمى وعلى ذلك فإن الطبيعة البشرية يمكن تعديلها ، كما أشار إلى أن العالم الخارجى يدرك عن طريق الحواس والعقل .

وهذان المفكران هما مجرد أمثلة على انتشار الفكر الفلسفى فى الصين القديمة، هذا الفكر الذى ركز كثيرا على دراسة العلاقة بين الجسم والعقل وبين ما هو بالفطرة وما هو بالاكتساب، مما ينتسب إلى نظرية المعرفة فى الفلسفة التى هى قلب علم النفس الأرائكى الذى ساد العصور القديمة والعصور الوسطى ومطلع العصر الحديث .

أما علم النفس بالمعنى العلمى الحديث فقد ظهر فى الصين بعد اتصالها بالعالم الغربى ، وكان علم النفس حتى بداية القرن العشرين يدرس فى الصين كجزء من الإعداد التربوى فى المعاهد أو الكليات التى تعد المعلمين. وبعد عودة عدد من الطلاب الذين درسوا علم النفس فى الدول الغربية بدأ ظهور علم النفس الصينى

مستقلا عن التأملات الفلسفية . وكانت الخطوة الرئيسية فى هذا المجال هى تأسيس مختبر علم النفس فى جامعة «بكين» Peking عام ١٩١٧م. وفى عام ١٩٢١م تم تأسيس جمعية علم النفس الصينية، وفى عام ١٩٢٢م صدرت أول مجلة علمية فى علم النفس، ثم توسعت دراسات علم النفس فى الصين توسعا كبيرا ، ودليل ذلك أنه فى خلال العقد الرابع من القرن العشرين كانت هناك عشرة أقسام تتخصص فى دراسة علم النفس فى الجامعات الصينية المختلفة، وفى أوائل هذا العقد الرابع أيضا تم إنشاء المزيد من الجمعيات العلمية مثل جمعية القياس النفسى وجمعية التحليل النفسى وجمعية الصحة النفسية، كما نشر حوالى أربعمائة كتاب فى علم النفس، كما صدرت العديد من المجلات العلمية .

وكان علم النفس الصينى فى أوائل العقد الرابع من القرن العشرين متأثرا بالعديد من الاتجاهات منها الأوروبية مثل الجشطلت والتحليل النفسى ومنها الأمريكية مثل الوظيفية والسلوكية، ولكن مع اندلاع الحرب الصينية اليابانية عام ١٩٣٧ - و التى أسفرت عن احتلال مساحة شاسعة من الأراضى الصينية - حدثت نكسة خطيرة لدراسة علم النفس فى الجامعات الصينية حيث انتقلت معظم الجامعات الرئيسية إلى أماكن نائية بعيدا عن المدن الكبرى ، واتخذت مقار مؤقتة لها فى المناطق الجبلية النائية فى الصين. ومع النقص الشديد فى المراجع العلمية والمختبرات توقف نمو علم النفس الصينى فى تلك الفترة. وبقى هذا الجمود العلمى فى مجال علم النفس حتى الحرب العالمية الثانية ولكن مع قيام الثورة الصينية عام ١٩٤٩ حدث تطور جديد فى النهضة العلمية فى الصين .

أما الموقف الحالى بالنسبة لعلم النفس الصينى فيتلخص فى أنه توجد العديد من أقسام لعلم النفس فى الجامعات الرئيسية فى الصين، كما أن مقررات علم النفس المختلفة تدرس فى الكليات التربوية فى الصين، وهذه الكليات التربوية منتشرة فى أقاليم الصين المختلفة. كما أن «معهد علم النفس» الذى أسس عام ١٩٥٦ تحت رعاية « الأكاديمية الصينية للعلوم » يلعب دورا أساسيا فى إجراء

البحوث والدراسات النفسية، كما أن « جمعية علم النفس » فى الصين ينتمى إليها حوالى ألف عضو وتصدر ثلاث مجلات علمية.

وبعد هذه المقدمة نتحدث عن علم النفس الصينى فى النقاط الآتية :

علم النفس الصينى المعاصر (التنظير)

قبل عام ١٩٤٩ كان علم النفس الصينى يتبع بوجه عام علم النفس الغربى، ولكن مع تأسيس جمهورية الصين الشعبية بدأت مرحلة جديدة تتميز بالاستقلال عن علم النفس الغربى، وكان هدف هذه المرحلة الجديدة بناء علم نفس صينى على أساسين :

الأساس الأول : هو أن تكون المادية الجدلية الماركسية هى الأساس فى توجيه علم النفس الصينى .

الأساس الثانى : هو أن يكون علم النفس الروسى هو المثال الذى يجب على علم النفس الصينى أن يقتدى به، وعلى ذلك يتبنى علم النفس الصينى أعمال بافلوف على أساس أنها نقطة الانطلاق .

ومن أكثر الأفكار تأثيرا على علم النفس الصينى افكار «لينين» وأفكار الزعيم الصينى الكبير « ماوتسى تونج Mao tse - Tung » (١٨٩٣/ ١٩٧٦) وهو قائد الصين و مفجر ثورتها الثقافية التى استمرت من عام ٦٦ - ١٩٦٨ وهذه الأفكار جميعا مشتقة من المادية الجدلية وتطبيقات النظرية الماركسية، وأن الإنسان هو نتاج البيئة الاجتماعية وصنيعة المجتمع، وأن العقل هو انعكاس للمادة من جهة - ومن جهة أخرى انعكاس للواقع الاجتماعى للفرد، كما يؤكد الزعيم الصينى « ماو تسى تونج » أن التناقض أو التعارض بين الآراء أو الأفكار هو أساس لتطوير العالم المادى ولتطوير العقل البشرى، ويؤكد أيضا « ماو تسى تونج» أن المعرفة الحسية والتى نكتسبها من خلال الحواس الخمس هى المستوى الأول للمعرفة، أما المعرفة العقلية فهى نتيجة معالجة هذا المستوى من الأول من المعرفة عن طريق عمليات الفهم والتعميم؛ ولذلك تعتبر المعرفة العقلية فى مستوى أرقى من المعرفة الحسية.

كما تشير آراء «ماوتسى تونج» - متأثرة فى ذلك بالمادية الجدلية - إلى أن الشعور هو انعكاس عقلى للحقائق والوقائع وانعكاس الشعور هذا ليس بمثابة انعكاس الصورة فى المرآة ، ولكنه تمثل وفهم واستيعاب للعالم الخارجى وتعمق معارف الإنسان من خلال الممارسة العقلية والحوار الفكرى، بحيث تصبح معارفنا عن العالم الخارجى بمثابة « صورة صادقة » لهذا العالم ولكن هذه المعرفة - رغم ذلك - لن تكون نسخة «كربونية» أو طبق الأصل من هذا العالم . ذلك أن معارفنا عن العالم الخارجى وصورتنا المتمثلة فى الذهن عنه تتأثر بأفكارنا العقيدية .

ومن الأسس التنظيرية أيضا فى علم النفس الصينى - المبنية على تعاليم «ماو» الماركسية - أن البيئة الاجتماعية هى المحدد الأساسى للسلوك، وعلى ذلك فإن الفرد الذى يعيش منتميا إلى طبقة اجتماعية معينة يكون «مدموغا» بخصائص أيدولوجية تنتمى إلى هذه الطبقة، وكأنه يتكون لديه «شعور طبقى » وهذا الشعور الطبقى هو انعكاس لطبيعة العلاقات الاجتماعية داخل هذه الطبقة ، وعلى ذلك فإن الأفراد يمكن التمييز بينهم حسب الطبقة التى ينتمون إليها - أى كون الفرد ينتمى إلى طبقة أصحاب رأس المال أو طبقة العمال أو طبقة ملاك الأراضى أو طبقة الفلاحين، كما أن أفعال الإنسان تتحدد بعوامل عديدة منها عوامل خارجية ترجع إلى المجتمع وعوامل داخلية ترجع إلى الفرد، وعلى ذلك فإن لكل فرد سمات الشخصية التى تميزه، ولكن إذا تغيرت الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها - والطبقة الاجتماعية تنتمى إلى العوامل الخارجية - فإن ذلك يؤدى إلى تغيير فى سمات شخصيته، ومعنى هذا كله أن العوامل الخارجية أقوى فى التأثير على شخصية الفرد من العوامل الداخلية .

ومن الأسس التنظيرية لعلم النفس الصينى - أن التعليم هو قوة أخرى من شأنها أن تؤدى إلى التحولات العقائدية والفكرية ، وفى الصين الآن انتهت طبقة ملاك الأراضى وطبقة أصحاب رأس المال - ومع ذلك يوجد قليل جدا من الأشخاص الذين ما يزالون على تمسك بأيدولوجيات هاتين الطبقتين وعليهم - عن

طريق التعليم – التحول نهائيا عن هذه الأيديولوجيات البورجوازية التى أكل عليها الدهر وشرب .

ويعترف علماء النفس فى الصين أن هذه الأفكار الماركسية ليست نظريات سيكولوجية بحد ذاتها ولكنها توجهات فلسفية على علم النفس الصينى أن يلتزم بها – و ذلك إلى جانب التزامه بالحقائق الأمبيريقية « أو العملية » فى بناء نظرياته ولكن بشرط صارم ، وهو أن يكون الإطار المرجعى الماركسى هو الأساس فى تفسير وفهم وتحليل الحقائق الأمبيريقية .

ونتيجة لهذا كله وصل علم النفس الصينى إلى مسار رئيسى تحدده الرؤية الماركسية كأساس نظرى، ودراسات « بافلوف» عن المنعكس الشرطى كمنطلق تجريبى أو أمبيريقى . ولكن هذا لم يمنع بعض علماء النفس فى الصين من تبنى بعض الأفكار الغربية وعدم الاقتصار على الخلطة « الماركسية البافلوفية » وذلك أملا منهم فى تطوير علم النفس الصينى .

علم النفس الارتقائى والتربوى

بدأ علم النفس الارتقائى وعلم نفس النمو فى الصين بداية مبكرة ففى عام ١٩٢٥ قام العالم الصينى « شن هى جن Chen He - gin » بدراسة نمو الطفل مستخدما منهج التسجيل اليومى لمناشط الطفل المختلفة وكيفية نموها، وبعد ذلك استخدم العالم الصينى « هانج يى Haung Yi » دراسة القصص التى يحبها ويرددها الأطفال وتحليل محتوى هذه القصص ، كذلك قام بدراسة رسوم الأطفال وذلك لدراسة النمو العقلى عند الأطفال، كما استخدمت بعض اختبارات الذكاء المستمدة من الخزانة السيكولوجية الغربية فى قياس ذكاء الأطفال .

ومنذ قيام الصين الشعبية – انصرف اهتمام علماء النفس إلى دراسة النمو العقلى والمعرفى عن الأطفال، وقد ظهرت العديد من الدراسات التى تتناول تطور تكوين المفاهيم عند الأطفال مثل مفاهيم العدد والشكل والحجم والعلية ، وفى عام ١٩٦٢ نشر «زو زى كسان Zhu - zhi Xian » كتابا بعنوان « علم نفس الطفل» وفى عام ١٩٦٤ نشر « بان شوه Pan shuh » كتابا بعنوان « علم النفس التربوى ».

ومن أشهر الدراسات فى هذا المجال الدراسات التى أجراها «لى شنج هو Liu ching - ho » بمساعدة مجموعة من السيكولوجيين فى «معهد علم النفس » فى الصين. وكانت هذه الدراسات تدور حول قدرة الأطفال على حل مسائل الرياضيات، وخاصة مسائل الجبر وتبين من هذه الدراسات أن إدراك فكرة الكل وفكرة الجزء هى المفتاح الأساسى فى فهم الرياضيات عند الأطفال، وأن هذه الفكرة أيضا تشير إلى المستويات المختلفة للنمو المعرفى عند الطفل ، وقد أثرت نتائج هذه الدراسات على تحسين وسائل تعليم الرياضيات فى المدارس الصينية . وقد تبين كذلك من هذه الدراسات أنه يمكن تقسيم مراحل نمو المفاهيم العددية عند الطفل إلى المراحل الآتية :

المرحلة الأولى :

حيث هى بداية تكوين المفاهيم العددية، و هى فى سن الثالثة حيث يتعلم الطفل أن يعد الأعداد «شفهيا » ، حتى ٨ أو ٩ - ويستطيع كذلك أن يحصى الأشياء المحيطة به فى البيئة معددا خمسة أشياء ومشيرا إليها .

المرحلة الثانية :

حيث تكوين علاقة بين الكلمات الدالة على العدد والأشياء الدالة على العدد ، وهذه المرحلة تكون فى سن أربع أو خمس سنوات حيث يستطيع الطفل أن يعد حتى ٤٠ تقريبا ، ويستطيع أن يعرف مكونات الأعداد حتى ١٠ وعلاقتها بالأشياء الدالة عليها فى بيئته الخارجية .

المرحلة الثالثة :

حيث معالجة الأعداد والتعامل معها، وهى فى سن السادسة حتى الثامنة حيث يستطيع أن يدرك العدد المكون من ثلاثة أرقام أو أربعة أرقام - وكذلك يستطيع أن يستعمل العدد كأداة فى المعالجات الرياضية .

المرحلة الرابعة :

حيث يتكون نسق فاهم للأعداد ، وهذه المرحلة من ٩ - ١٢ سنة حيث يتمكن الطفل من فهم الأعداد حتى عشرة آلاف ، ويستطيع أن يستدل عقليا باستخدام الأعداد ويستطيع أن يستوعب مفاهيم مثل الرقم الصحيح والكسر العشرى والكسر الاعتيادى .

هذا وقد درس علماء نفس النمو فى الصين موضوع النمو العقلى عند الطفل متأثرين فى ذلك بأفكار « بياجيه » حيث قامت الباحثة «شو رو زن Shao Rui Zhen» عام ١٩٧٨ بدراسة على أطفال المرحلة الابتدائية فى الصين تتناول تكون المفاهيم عند الأطفال عن العلاقة بين الجزء و الكل والعلاقة بين الأشياء المتجاورة والعلاقة بين الأشياء المتعارضة و العلاقة بين الأشياء المتماثلة والعلاقة بين السبب والأثر والعلاقة بين الآلات واستخداماتها - وقد تبين من هذه الدراسة أن القدرة الاستدلالية تعتمد على متغيرات عديدة هى السن، والتعليم والخبرة .

كذلك قام «لو فان Liu Fan » (عام ١٩٨١) بدراسة عن تطور معرفة الطفل بالأشياء المحيطة به، وعن العلاقات المكانية بين هذه الأشياء، وشملت الدراسة مجموعات من أطفال مرحلة الروضة والمرحلة الابتدائية - وقد تبين من هذه الدراسة أن التطور المعرفى يظهر اعتبارا من سن ست أو سبع سنوات ، بحيث يستطيع الطفل أن يفهم فكرة « الصفات أو المحمولات » التى تتصل بالأشياء المحيطة به ، مثل لون زجاجة العصير أو طعمها أو سعرها أو حجمها، ولكنه لا يعرف العلاقة بين هذه الصفات (العلاقة بين الحجم والسعر أو العلاقة بين اللون والطعم) إلا بعد سن السابعة حيث يستطيع أن يفهم العلاقة بين الحجم والسعر بمعنى أنه إذا زاد حجم الزجاجة زاد سعرها . كما تبين من هذه الدراسة أن خبرات الحياة اليومية للطفل واحتكاكاته تلعب دورا رئيسيا فى نموه المعرفى .

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن اللغة الصينية لها طبيعة خاصة وتكتب بأسلوب مختلف عن اللغات الأوروبية ، وهى من حيث شكل الكتابة والأجرومية

موضع اهتمام الكثير من علماء النفس فى الصين حيث قام «وو تين - من Wu Tian min - » عام ١٩٧٩ بدراسة عن «نمو الفهم اللغوى » عند الأطفال الصينيين وقسم فيها مراحل هذا النمو إلى المراحل الست التالية :

أ- النطق البسيط أو الأصوات والمناغاة (٣ شهور) .

٢- الكلمة أو شطر الكلمة (٨ شهور) .

٣- بداية الكلام (من ٨ - ١٢ شهرا) .

٤- كلمة دالة على شيء (من ١٢ - ١٨ شهرا) .

٥- جملة بسيطة (من ١٨ - ٢٤ شهرا) .

٦- جملة مركبة (من ٢٤ - ٣٦ شهرا) .

كما لاحظ الباحث كذلك أن النمو اللغوى للطفل يتجه خلال سنوات الطفولة المبكرة (من ٢ - ٦ سنوات) من الفوضى إلى التحديد ، ومن التسيب إلى الضبط. كما يتجه من العيانى إلى المجرد، ومن الطريف أن يذكر هذا الباحث أن الحصيلة اللغوية للطفل الصينى تبلغ فى ثلاث أو أربع سنوات أكثر من ١٢٠٠ كلمة .

وفى مجال علم النفس الارتقائى وعلم النفس التربوى اهتم علماء النفس فى الصين بدراسة التفوق العقلى والتخلف العقلى عند الأطفال ، وقد استخدمت محكات لتحديد التخلف العقلى عند الأطفال وهذه المحكات هى :

١- التآزر الحركى للطفل .

٢- قدرة الطفل على رعاية نفسه بنفسه .

٣- نمو اللغة عند الطفل .

٤- تكون مفهوم العدد عند الطفل .

٥- كفاءة الطفل فى ممارسة العمليات العقلية .

كما وضعت محكات لتحديد التفوق العقلى عند الطفل وهذه المحكات هى:

١- قوة الاهتمامات المعرفية وتنوعها .

٢- كفاءة العمليات الإدراكية .

٣- القدرة على التركيز .

٤- التذكر .

٥- التفكير الابتكارى .

٦- الثقة بالنفس والمثابرة .

ويمكن القول بوجه عام أن مجال علم النفس الارتقائى وعلم نفس النمو من مجالات البحث الحيوية فى الصين ويعمل بهذا المجال المئات من السيكولوجيين سواء فى الجامعات أو فى المعاهد التربوية أو مراكز البحوث .

علم النفس التجريبى

يعتبر علم النفس التجريبى من الفروع التى يهتم بها علماء النفس فى الصين، وذلك منذ منتصف القرن العشرين تقريبا، ومن الموضوعات التى اهتموا بدراستها إدراك الحجم وإدراك المسافة ودقة الحكم وكانت هذه الموضوعات تدرس فى مختبرات علم النفس .

كذلك انصرف اهتمام العلماء إلى دراسة الظروف الفيزيقية المؤثرة على الإنتاج ، وعلى رأسها الإضاءة، هذا كله بالإضافة إلى دراسات إدراك الألوان ومقارنة الألوان وتجارب الصور اللاحقة (أو ما يسمى الأثر الباقى) بعد رؤية الألوان، وكذلك تجارب إدراك العمق وإدراك الحركة .

علم النفس الفسيولوجى والطبى :

فى أثناء العقد السادس والعقد السابع من القرن العشرين انشغل علماء النفس فى الصين بأسلوب جديد فى العلاج النفسى ، وقد بدأ هذا الأسلوب

الجديد بعلاج حالات الإنهاك العصبى (النورستانيا) ثم توسع هذا الأسلوب العلاجى بحيث شمل حالات الفصام وارتفاع ضغط الدم إلى جانب الحالات التى تعانى من قرح فى الجهاز الهضمى .

ويتلخص هذا الأسلوب العلاجى فى أن ينوم المرضى بالمستشفى ويقسمون إلى مجموعات علاجية ويبدأ البرنامج العلاجى بمحاضرات ومناقشات تحضرها مجموعة المرضى ثم يتلقون علاجا بالأدوية يصاحبه «علاج طبيعى »، وتمارين هذا العلاج الطبيعى مأخوذة من التراث الصينى مثل ممارسة التنفس العميق أو الملاكمة الوهمية (وهى ملاكمة عدو وهمى كتمرين رياضى)، وفلسفة هذا العلاج تقوم على أساس أن المريض يجب أن يكون على فهم لحالته المرضية بحيث إن هذا الفهم يؤدى إلى تقوية رغبته فى العلاج ، وفهم المريض لحالته المرضية يكون بالتوعية عن طريق المحاضرات والمناقشات، كما تقوم فلسفة هذا العلاج على أنه من الواجب على المريض استجماع قواه الجسمية والنفسية بغرض هزيمة المرض والانتصار عليه، ودور الطبيب فى هذا الأمر هو دور الناصح والمرشد بالنسبة للمريض ، بحيث يقوى من عزيمته ويشد من أزره ويعطيه المزيد من الثقة بنفسه وذلك ليحقق « الانتصار على المرض » . وقد حقق هذا الأسلوب العلاجى نجاحا مذكورا .

كما أجريت العديد من الدراسات فى الصين حول العوامل البيوكيميائية التى تؤثر على عمليتى التعلم والتذكر، كذلك توجهت الاهتمامات إلى علم النفس الفسيولوجى عند الحيوان حيث درست الاستجابات الإشراطية المتعلمة لفئران التجارب، ومن أهم النتائج التى تم التوصل إليها فى هذا المقام أن للنواحى الغذائية تأثيرا إيجابيا على عمليات التعلم بوجه عام .

ومن الطريف أن نذكر فى هذا المقام أن العلاج الصينى التقليدى الذى يستهدف التخدير أو تسكين الآلام عن طريق « وخز الأبر » كان موضع اهتمام المشتغلين بعلم النفس - حيث أجريت دراسات تهدف إلى تحديد ميكانزمات

التحكم فى الألم فى إطار محاولة التنبؤ بالعوامل السيكولوجية التى ترتبط بنجاح هذا النوع من العلاج ، وقد تبين من نتائج هذه الدراسات أنه لا توجد علاقة بين القابلية للإيحاء وبين نجاح العلاج بالأبر .

علم النفس الصناعى :

يحظى هذا الفرع من علم النفس فى الصين بالعناية حيث يهتم المجتمع الصينى بدراسة الوسائل المؤدية إلى زيادة الإنتاج والعوامل المرتبطة بهذه الزيادة، وقد أجريت العديد من الدراسات عن الدافعية والإنتاج، والعلاقات الإنسانية والإنتاج وسمات الشخصية للعامل أى الكفاءة الإنتاجية العالية. كما أجريت الدراسات التى تتناول تصميم الآلات بحيث تتلاءم مع العامل وتسهل العملية الإنتاجية . هذا كله بالإضافة إلى مجموعة من الدراسات حول الإضاءة سواء فى المصانع أو المدارس أو المؤسسات كأحد العوامل الفيزيقية المؤثرة على الإنتاج .

تعقيب :

ومن أسف أن اللغة الصينية تقف حاجزا دون انتشار دراسات علم النفس الصينى خارج الصين، كما دأب مؤرخو علم النفس على اهمال الإشارة إلى الدراسات النفسية خارج المجتمع العلمى الغربى بوجه عام والأمريكى بوجه خاص .

ومن المهم فى هذا التعقيب أن نشير إلى أحد كبار علماء النفس فى الصين وهو « شينج شى شن Ching Chi chen» حيث إن له شهرة عالمية وهو من المشاركين فى موسوعة علم النفس التى أشرف «كورسينى Corsini » على إصدارها عام ١٩٨٤ - والتى تعتبر بحق من أهم الأعمال العلمية فى تاريخ علم النفس المعاصر- وله فى هذه الموسوعة مقالة معتبرة عن علم النفس الصينى اعتمدنا عليها كمادة علمية .

وقد ولد «شينج » فى بكين عام ١٩٢٦م والتحق بجامعة «فوجن Fu jen » الصينية حيث حصل على درجتى الليسانس والماجستير فى علم النفس - وفى عام

١٩٥٠ التحق بمعهد علم النفس التابع للأكاديمية الصينية للعلوم وتدرج فى مناصبه حتى عين مديرا لقسم دراسة العمليات الحسية والإدراكية ، كما أنه يشغل منصب وكيل قسم علم النفس بجامعة بكين كبرى جامعات الصين .

وقد نشر «شينج» العديد من الدراسات فى مجال العمليات الحسية المتعلقة بالإبصار، وكذلك دراسات فى مجال إدراك الحجم وإدراك المسافة وإدراك الألوان - كما نشر العديد من الدراسات حول تاريخ علم النفس ومدارسه ، وساهم فى تحرير العديد من المؤلفات عن علم النفس العام وعن علم النفس فى الصين .

ومن المناصب العلمية التى يشغلها أنه عضو فى «بورد» أو مجلس جمعية علم النفس الصينية ، كما أنه رئيس لجنة علم النفس العام والتجريبى فى هذه الجمعية ، كما أنه وجه بارز من وجوه علم النفس المعاصر وله شهرته العالمية ، وقد زار العديد من الدول الغربية والآسيوية ، كما أنه مثل جمعية علم النفس الصينية فى الأعوام ١٩٧٨ إلى ١٩٨١م أمام المؤتمر الدولى لعلم النفس وأمام جمعية علم النفس الأمريكية وأمام جمعية علم النفس الأسترالية ، كما دعته جامعة متشجن الأمريكية خلال العام الجامعى ١٩٧٩ / ١٩٨٠م حيث زارها وزار العديد من الجامعات الأمريكية الأخرى .

ومن هذا العرض الموجز يتبين لنا أن بحوث علم النفس فى الصين تهتم بالنواحى التطبيقية أكثر من اهتمامها بالنواحى التنظيرية، وربما يرجع ذلك إلى رغبة علماء النفس فى الصين تجنب دراسة النواحى التنظيرية فى علم النفس التى سبق أن شغلت علماء النفس الروس فحجمت علم النفس الروسى المعاصر، وذلك رغم ماضيه العريق .

ومن المأمول، وخاصة بعد انتهاء الثورة الثقافية فى الصين عام ١٩٧٦م - أن تتوسع اهتمامات علماء النفس فى الصين وتتناول بحوثهم مجالات علم النفس المختلفة، وذلك حتى تساهم فى نهضة علم النفس .

★ ★ ★

الفصل الثالث والعشرون
علم النفس الهندى

تحتل التأملات الفلسفية التى تتناول موضوع الشعور والمعرفة والعلاقة بين النفس والبدن مكانا متميزا فى تراث الهند القديم ، والذى يشتمل على خليط من العقائد والفلسفات القديمة . وفى العصر الحديث عرفت الهند علم النفس الغربى الحديث - ولكن شأنها فى ذلك شأن بعض بلاد الشرق الأقصى ، توجهت إلى دراسة علم النفس الحديث وفى نفس الوقت حافظت على تراثها القديم عارضة إياه فى صورة مجددة .

وعلى ذلك يمكن القول أن ثمة خطين لعلم النفس الهندى :

الأول : علم النفس الهندى القديم المتمثل فى الممارسات المتصلة بالهندوكية والبوذية واليوجا .

الثانى : علم النفس الهندى الحديث المتأثر بعلم النفس الغربى عامة وعلم النفس الأمريكى بوجه خاص .

ونتحدث عن علم النفس الهندى فى النقاط التالية :

الممارسات النفسية فى الهندوكية :

النحلة الهندوكية هى مجموعة من العقائد الدينية التى يدين بها حوالى أربعمائة مليون شخص فى الهند والدول المجاورة لها ، والهندوكية نحلة بالغة القدم تطورت وتبدلت خلال خمسة آلاف سنة ، ولها ممارسات وعقائد غريبة وعديدة .

ومن الصعب معرفة مؤسس هذه النحلة لأنها خليط من ديانات قديمة ، وبعض الأفكار من الديانات السماوية إلى جانب أفكار السحر والشعوذة وهى تقوم على فكرة تعدد الآلهة وأهم هذه الآلهة :

١ - البراهما Brahma : وهو اهم الآلهة فى نظر الهندوس - وهو الذى انشأ الحياة وله من الأيدى أربعة ، ومن الوجوه أربعة كذلك ، وقد خرج فى أول الحياة من بيضة كونية ذهبية !!

٢ - فشنو Vishnu : وهو القائم على حفظ الحياة واستمرارها ، وهو يصور عند الهندوس على هيئة شخص نائم متوسدا حية ذات رءوس سبعة وحوله مساعدوه وأهمهم « كريشنا » .

٣ - كريشنا Krishna : وهو المسئول عن الحب والتزاوج ويصور على هيئة شاب جميل يلبس تاجا مزينا بريش الطاووس !

٤ - شيفا Shiva : وهو المسئول عن إنهاء هذا العالم !

وقد تصور الالهة فى الهندوكية على هيئة ثالوث على شكل شخص له ثلاثة رءوس ، وهذا الثالوث هو « براهما - فشنو - شيفا » على أساس أنه ثالوث مسئول عن أمور ثلاثة إنشاء الحياة ثم استمرارها ثم دمارها !!

وإلى جانب ذلك فإن الهندوس نباتيون ويقدسون البقر ، كما أنهم يؤمنون بتاسخ الأرواح ، حيث تنتقل الروح بعد موت الكائن إلى كائن آخر ثم إلى ثالث - وهكذا، كما تسمح الهندوكية بنظام الطبقات فهى تقسم المجتمع إلى طبقة الكهنة ثم المحاربين ثم التجار والفلاحين وأخيرا طبقة الخدم ، والأولى متميزة والأخيرة طبقة منبوذة ، وقد حاولت الهند منذ مطلع القرن العشرين إلغاء نظام الطبقات وحققت فى ذلك قدرا كبيرا من النجاح .

وتقوم الديانة الهندوكية كذلك على « ممارسات نفسية » وهذه الممارسات النفسية هى بقصد الوصول إلى « النرفانا nirvana » وهى محاولة الخلاص من

المتعلقات الدنيوية والاتصال أو الاتحاد بالآلهة ، وهى كذلك خلاص الإنسان من بشريته المتمثلة أساسا فى دوافعه وطموحاته وانفعالاته، وتوصله إلى أن يكون روحا محضة . ويقصد أن يصل إلى « النرفانا » عليه ممارسات تسمى « كرما Karma » وهى أعمال عليه أن يؤديها حتى يبلغ النرفانا وهى تقوم أساسا على التأمل ومقاومة الشهوات والسيطرة على النفس ، وقراءة كتاب « الفيدا Veda » وهو الكتاب المقدرس فى الديانة الهندوكية ، وكلمة « الفيدا » معناها فى اللغة السنسكريتية المعرفة المقدسة ، ويقوم هذا الكتاب على الحث على ممارسة قمع الشهوات ، وتقوم طبقة الكهنة والتى تسمى أحيانا طبقة « البراهمة » بالخدمة فى المعابد الهندوكية بقصد مساعدة الناس على الوصول إلى « النرفانا » .

الممارسات النفسية فى البوذية :

ترجع النحلة البوذية – إلى قصة فى التراث الهندى عن أمير هندى اسمه «جوتما سيد هارتا Gautma Siddharta» الذى عاش فى الفترة (٥٦٣ –٤٨٣ق.م) وكانت تعاليمه هى أساس البوذية ، ويحكى أن هذا الأمير هو ابن ملك «نيبال » وكان على درجة رفيعة من الذكاء والجمال ، وفى سن السادسة عشرة تزوج ابنة عمه ، ثم انجب منها طفلا بعد الزواج بثلاثة عشر عاما – ولكن هذا الأمير ترك حياة الرفاهية التى كان يعيش فيها وهجر أسرته وساح فى الأرض وذلك بحثا عن المعرفة وبحثا عن حلول لمعاناة الإنسان وذلك عن طريق التأمل والتفكير ، وكان يمارس تأملاته وهو جالس جلسة بسيطة فى ظل إحدى الأشجار ، وعندما بلغ الخامسة والثلاثين كرس حياته لنشر تعاليمه بين الناس ولإنشاء كوادر من الكهنة ينقلون تعاليمه فى البلاد المختلفة ، وسمى « بوذا » – وكلمة بوذا تعنى باللغة السنسكريتية الرجل الذى استيقظ .

والبوذية لها مبادئ أربعة أساسية :

١ – أن الحياة معاناة .

٢ – أن سبب المعاناة هو الجشع والرغبة والطموح .

٣ – هناك أسلوب لتخفيف المعاناة .

٤ – هذا الأسلوب هو الوصول إلى « النيرفانا » – أى الخلاص من العلائق الأرضية – وذلك باتباع الطريق النبيل التى يتمثل فى توخى الدقة والصحة والصدق فى رؤية الأشياء وفى التفكير وفي التحدث ، وكذلك ممارسة التأمل والتدبر .

كذلك تدعو البوذية إلى التآخى والحب والتمسك بالمبادئ الأخلاقية ، ويدين بالبوذية الآن حوالى خمسمائة مليون شخص ينتشرون فى بلاد جنوب شرق آسيا .

وتدور الممارسات النفسية البوذية أساسا حول التأمل بقصد أن يسيطر المتأمل على أطماعه وعلى شهواته وأن يتخذ أسلوبا للحياة – يتسم بالحب والتعاون

الممارسات النفسية فى اليوجا :

« اليوجا Yoga » هي كلمة ترجع أصلا إلى اللغة السنسكريتية وتتضمن هذه الكلمة معنيين الأول هو « التأمل » والثانى هو « الوصول » بمعنى اتصال الإنسان بأصله الكونى . ومن الناحية التاريخية نشأت « اليوجا » فى ظل «الهندوكية» و « البوذية » وقد تأثرت إلى حد كبير بما فى هاتين النحلتين من فلسفات وممارسات ، واليوجا نفسها ليست نحلة أو ديانة معينة لها عقيدة خاصة ، ولكن اليوجا هى ممارسات يقوم المريد على تنفيذها ، وهذه الممارسات يمكن أن تعتبر فى ذاتها - كممارسات بدنية وذهنية ونفسية يمكن أن تقيم من الناحية العلمية .

وممارسات اليوجا مستويات عديدة ، ويمكن لكل مريد أن يحقق منها ما يستطيع حسب إمكانياته ، وهذه المستويات هى :

١ – السيطرة البدنية .

٢ – السيطرة العقلية وتتضمن :

أ – الحب .

ب – الطاقة الابتكارية .

جـ - الأصوات المقدسة .

د - الصور المقدسة .

٣ - الفكير .

٤ - التمييز ويتضمن :

أ - المعرفة .

ب - النشاط .

جـ - القوة النفسية .

د - المعرفة الصوفية بالذات .

وكذلك فإن ممارسات اليوجا تهدف إلى أن يتعلم المريد الأمور الآتية :

١ - كبح السلوك الأنانى والسلوك غير الاجتماعى .

٢ - ممارسة النواحى السلوكية التى تتسم بالإيجابية والبناء ، وهذه تتم عن طريق تعلم السيطرة على النفس وعلى الحواس والتأمل والتفكير والعزلة .

ومن الممارسات العجيبة لليوجا - والتى قد تبلغ حد الخيال - قدرة ممارسى اليوجا على التحكم فى وظائفهم الجسمية إلى درجة لم يسبقهم إليها أحد مثل ما يقال عن قدرتهم على دفن أنفسهم أحياء والبقاء عدة أيام على هذه الحال !! أو أنهم يستطيعون السيطرة على الدورة الدموية وحركة القلب وضغط الدم ، وكذلك قدرتهم على تحمل درجات حرارة عالية تصل إلى حد المشى على النار أو الجمر أو المشى على المسامير أو غرس الإبر فى الجسم بدون نزف الدم والتقيؤ إراديا !!

واليوجا تتخذ مبدأ أساسيا وهو عدم اللجوء إلى العلاج سواء كان طبيا أو نفسيا ، لأنها هى نفسها تتضمن الأساليب التى تضمن الوصول إلى الشفاء ، ولأنها تتضمن - كما سبقت الإشارة - الأساليب التى يمكن للمريد بواسطتها تحقيق مستويات عالية من الأداء السلوكى - وهذه الأساليب الممارسية تتم تحت توجيه وإرشاد «العريف» الذى يساعد المريد فى الممارسات المختلفة .

وتقوم الفكرة الأساسية عند اليوجا على رفض العالم المادى على أساس أنه عالم زائف قائم على الوهم وعلى المريد أن يتجاوز هذا العالم المادى وأن يصل إلى الحقائق العليا بحيث يرى الأشياء على حقيقتها .

وللأسف فإن علماء النفس في أمريكا - وهم بالقطع أركان علم النفس المعاصر - لم يهتموا بالقدر الكافى بدراسة اليوجا كممارسات نفسية ، وربما يرجع ذلك إلى غرابة بعض ممارسات اليوجا ، وكونها آتية من الشرق حيث ينظر الأمريكيون إلى الشرق بوجه عام على أنه مصدر الخرافات .

ويذكر « مان Mann » (وهو استاذ بجامعة نيويورك الأمريكية ومحرر مادة اليوجا فى موسوعة علم النفس - إشراف كورسينى) أحد النماذج التي تقدمها « اليوجا » وهو نموذج يخلط بين الأفكار الفلسفية والصوفية وبين الفسيولوجيا ويسمى هذا النموذج « عبقرية البدن » - وطبقا لهذا النموذج فإن جسم الإنسان يتكون من عدة مراكز متصلة فيما بينها ولكل مركز من هذه المراكز طبيعته الخاصة وبالتالى وظيفته الخاصة بالتعاون مع المراكز الأخرى ، وعندما ينشط هذا البدن العبقرى فإنه قادر على استغلال البيئة وتحويلها إلى طاقة من شأنها أن تساعد على تقدم الإنسان ونموه ، وعلى هذا الأساس فإن الجسم الإنسانى يمكن تشبيهه بآلة لتكرير الزيت يدخل فيها الزيت الخام وتجرى عليه عمليات عديدة بحيث تستخرج مشتقاته المختلفة ولكل منها فائدته .

ويوجد بجسم الإنسان سبعة مراكز رئيسة لكل منها وظيفته التى يقوم بها . وبيان هذه المراكز كما يلى :

المركز الأول : مركز العين الثالثة ويقع فى الجبهة أعلى ملتقى الحاجبين بمقدار بوصة ، ويرتبط مركز العين الثالثة بالاستبصار والفهم .

المركز الثانى : مركز أسفل الحنجرة ويختص بالتواصل والاتصال بين الأفكار .

المركز الثالث : مركز القلب ويقع فى منتصف القسم الأعلى من الصدر ويختص بالانفعالات ، وخاصة الحب والشفقة .

المركز الرابع : مركز أسفل البطن ويختص بالقوة والتوازن .

المركز الخامس : مركز الاتصال الجنسى ويختص بالتزاوج والتكاثر .

المركز السادس : مركز أسفل العمود الفقرى ويختص بالنوم .

المركز السابع : مركز التاج وهو فى الجزء الخلفى من الرأس ويختص بالاتصال بين الفرد وبين الكون بوصفه نظاما متناغما .

وهذه المراكز هى مراكز مغلقة ويتطلب « فتحها » مجهودا يبذله الفرد لهذا الغرض ، وهذا المجهود الذى يبذله الفرد هو ببساطة ممارسات اليوجا البدنية أو التأملية . إن هذه المراكز مثلها مثل البراعم لا تتفتح وتصبح أزهارا إلا إذا أخذت حظها من السقيا ومن ضوء الشمس وما السقيا وضوء الشمس بالنسبة للمريد إلا اليوجا .

إن مفهوم عبقرية البدن أمر أساسى لمارس اليوجا ، رغم أن هذا المفهوم قد يكون غريبا لدارس علم النفس فى الغرب ، - وإن كان ليس غريبا فى بلاد الشرق - ومع ذلك فإن اليوجا تقدم مفهوم عبقرية البدن وآليته وميكانيكيته ليس كعقيدة دينية ولكن « كنموذج عمل » على ممارس اليوجا العمل على الوصول إليه ، أما الطريق الأمثل لهذ الوصول فهو ممارسات نفسية وبدنية شاقة فيها يقتلع الممارس - أو المريد - نفسه من العالم الذى يحيط به وينسلخ انسلاخا من هذا العالم بما فيه من مقومات وضرورات ، وهو إن فعل ذلك استطاع الوصول إلى هذا النموذج واستطاع فى نفس الوقت التحقق من صدقه .

وتستخدم اليوجا أساليب ممارسية عديدة لكنها جميعا ترتبط بمفهوم «عبقرية البدن » ، وعلى الممارس أن يعمل جاهدا على تنوير وإعلاء روحه وتغذيتها، ولكن عن طريق واحد - وهو الطريق الملكى الوحيد عند اليوجا - إلا وهو الاستفادة من عبقرية البدن . إن اليوجا هى بمثابة تسخير البدن فى خدمة النفس أو الروح وكأن اليوجا بهذا الأسلوب هى نوع من « السيمياء النفسية Psychic alchemy »

تحول المعادن الخسيسة - وهى ما تزخر به البيئة التي نعيش فيها من إرهاصات ومعطيات - إلى معادن نفيسة أى الوصول إلى سمو نفسى وروحى عال ، وذلك عن طريق توظيف البدن العبقرى للإنسان في خدمة نفس الإنسان وروحه .

النظرية البوذية فى الشخصية :

للبوذية نظرية فى الشخصية يعرضها الراهب البوذى « اللاما جوفندا Lama Govinda » فى كتاب أصدره عام ١٩٦٩ - بعنوان « الاتجاهات النفسية فى الفلسفة البوذية » - وعرضه « هول » و « لندزى » في كتابهما عن « نظريات الشخصية » .

والنظرية البوذية فى الشخصية تأخذ الشخصية بمعنى أقرب إلى معنى الذات ، وهذه النظرية البوذية لا تتناول نظرية الشخصية كما يتم تناولها في النظريات الغربية ولكنها تتناول الشخصية من حيث رؤية النحلة البوذية وتوجهاتها القائمة أساسا على أفكار وتعاليم « بوذا » التي عرضنا لها منذ قليل .

والشخصية أو الذات في النظرية البوذية هى جملة ما يميز الفرد من خصائص جسمية وفكرية وحسية ، وما يتخذه الفرد من مواقف ورغبات وما يعيه من ذكريات ، وكذلك ترى هذه النظرية ، أن أحداث اللحظة الحاضرة في حياتنا إنما تشكلها الأحداث الماضية ، وهذه الأحداث الحاضرة أيضا تشكل الأحداث القادمة كأن ثمة اتصالا بين الماضى والحاضر والمستقبل ، إن شخصية الإنسان مثل النهر المنساب المتدفق يتصور الناظر إلى مياهه المتدفقة أنها لا تتغير أبدا مع أنها تتغير دوما . ويسمى الراهب « جوفندا » هذه النظرية Abhidhmma بمعنى الشخصية السوية .

وهذه النظرية البوذية لا تقوم على تعاليم « بوذا » القديمة فحسب - ولكنها نتاج ممارسات عديدة وتنقيحات متوالية خلال مئات السنين قام بها رهبان البوذية - أو اللامات - فهى إذن خليط من التعاليم القديمة والممارسات الحديثة .

وموجـز هذه النظرية أن للشـخـصـيـة جـوانب مـرضـيـة وجـوانب سـوية ، إن الجوانب المرضيـة هـى التى تحدث الاضطراب النفسـى ، وأن الجـوانب السـوية هـى التى تمنع هذا الاضطراب - والوسيلة الفعالة لتقويم الجوانب المرضية وكف شـرها هو التـأمل الذى يؤدى إلى التـخلص من الجـوانب المرضـيـة والتـحـول إلى الجـوانب السوية .

أما تفصيل هذه النظرية فهو أن الجوانب المرضيـة فى الشـخصية كثيـرة - وأهمها الأضـاليل وهـى بمثابة إدراكات خطأ ، ويمكن تعـريفها على أنها سحابة تغشى عقل الإنسان بحيث تؤدى إلى سوء إدراك الأشياء المحيطة به ، وتكون هذه الأضـاليل هـى أسـاس معاناة الإنسـان لأنها تؤدى إلى عـدم وضـوح الـرؤية وإلى الفهم الخـاطئ - والمثـال الأمـثل على ذلك هو المصـابون بجنون الهـذاء أو الاضطهـاد ، حيث يتـصـور الواحد منهم أن ثمة تهديدا من شـخص أو مـجموعـة أشخـاص ، بينمـا فى الواقع لا يريد به أحـد شـرا ، وكأن لسـان حاله يقـول « العالم أعـدائى » ! ويتخيل كذلك أن الناس الذين يحيطون به يحيكون له المؤامـرات ويـدبرون له المكائد ، وهـذا كله يؤدى به إلى المعاناة وإلى الحزن وإلى التوتر .

وثمة جوانب مرضيـة أخرى فى الشخصية مثل الصلف والوحشية والشهوة الجامحة مما يؤدى بالفرد إلى سوء التصرف ، ومنها كذلك الأنوية التى تجعل الفرد لا يرى الأمـور إلا من وجهـة نظره الذاتيـة فقط غيـر مـستطيع أن يفهم الآخـرين . ومنهـا كذلك التهيج والهم مما يؤدى إلى حـالة من القلق ، وهذا القلق هو خـاصيـة أسـاسيـة فى كل اضطـراب نفسى - هذا إلى جانب صـفـات الطمع والجشع والبـخل والحسد والبلادة .

وبالإضـافـة إلى الجـوانب المرضـيـة توجـد جـوانب سـوية فى الشـخـصـيـة ، والجوانب السوية مقـابلة للجوانب المرضية ومقـاومـة لهـا ومعـارضـة إياهـا . - وأول هذه الجوانب السوية هو الاستبصـار والفهم مقـابل الأضـاليل - والاستبصـار « هو إدراك واضح للأشياء كما توجد فى الحقيقة » ، وهذا الاستبصار من شأنه أن يمنع

الأضاليل ، ومن الجوانب السوية التعقل « وهو الفهم الصحيح للأشياء » ، والاستبصار والتعقل هما أهم الجوانب السوية فى الشخصية ، ووجودهما من شأنه كبح ومنع الجوانب المرضية . أما الجوانب السوية الأخرى فهى مثل التواضع مقابل الصلف والعطف أو الرحمة مقابل الوحشية ، كما أن التواضع والتعقل يؤدى إلى صحة الحكم وإلى الوزن الصحيح للأمور - وثمة جانب سوىٌ هو الثقة أو التأكد القائم على الإدراك الصحيح - وعلى ذلك فإن الجوانب السوية التي تقوم على الاستبصار والتواضع والتعقل والعطف وصحة الحكم تتفاعل فيما بينها بحيث تؤدى إلى سلوك مقبول أخلاقيا طبقا للمعايير الشخصية أو طبقاً للمعايير الاجتماعية .

كما ترى هذه النظرية أن ثمة علاقة واتصالا بين النفس والبدن ، بحيث إن جوانب الشخصية سواء كانت مرضية أو سوية تؤثر عليهما معا . ويظهر هذا التأثير على أفكار الشخص وعلى مظاهره السلوكية ، وكذلك فإن وجود العوامل السوية يؤدى بالفرد إلى التكيف بفعالية سواء جسميا أو نفسيا مع الظروف المحيطة والمتغيرة ، ووجود الجوانب المرضية يؤدى بالفرد إلى نقص شديد فى هذا التكيف الفعال .

وطبقا لهذه النظرية أيضا فإن كلاً من الجوانب السوية والجوانب المرضية في حالة دائمة من التعارض والصراع بحيث إن وجود الجوانب المرضية يمنع وجود الجوانب السوية والعكس صحيح ، ولكن ومن حسن حظ الإنسان فإن وجود جانب واحد أو جانبين من العوامل السوية قد يكون له قوة قاهرة بحيث يمنع الجوانب المرضية جميعا .

وتؤدى الجوانب المرضية إلى الاضطراب النفسى ، كما تؤدى الجوانب السوية إلى التوازن النفسى ، ومع ذلك فإن نفسية الشخص السوى تشتمل غالبا على مجموعتين من الجوانب السوية والمرضية ، والهدف من التربية الرشيدة - فى البوذية طبعا - هو تقوية الجوانب السوية وبالتالى إضعاف الجوانب المرضية .

والطريق الوحيد لتحقيق الجوانب السوية واكتسابها هو التأمل Medita-tion ذلك أن الشخص الذى يريد أن يتخلص من الجوانب المرضية واكتساب الجوانب السوية إنما يضيف إلى شخصيته (التى تتكون من جوانب سوية وجوانب مرضية) ، أى يضيف إلى هذه الخلطة السيكولوجية الرغبة القوية فى تحسين العوامل السوية وكراهة العوامل المرضية ومحاولة التخلص منها - وما الطريق الملكى إلى ذلك ؟ إن الطريق الملكى إلى إضعاف الجوانب المرضية وتقوية العوامل السوية هو التأمل كما قلنا .

وطريقة التأمل تقوم على أن يركز المتأمل انتباهه فى موضوع معين أو فى نقطة بذاتها - مثلا يفرق الشخص (أو المريد) انتباهه فى موضوع « الشهوة الجامحة » بحيث يؤدى ذلك إلى الاستغراق التام فى التفكير فى هذا الموضوع وإلى الانغماس فيه وإلى التبصر بعواقبه وإلى التدبر بنتائجه وكذلك إلى تقليب الأمر على وجوهه بشأن الأضرار الناتجة عن ركوب « الشهوة الجامحة » واتخاذها مطية له فى حياته ، هذا كله يؤدى إلى كراهية المريد لفكرة الشهوة الجامحة وركله لهذه الفكرة خارجا ! وإلى تحول الشهوة الجامحة من أن تكون مطيته فى الحياة ، ومن الجوانب المكونة لشخصيته ، إلى أن تكون أمراً غير مرغوب فيه ومكروها ومستهجنا . وتركيز التفكير والتأمل ومداومته على هذا النحو يؤدى بالشهوة الجامحة كجانب مرضى فى الشخصية إلى أن يكون أمرا مرذولا ملفوظا بعد أن كان أمرا مستدمجا فى الشخصية .

وهكذا ومن مداومة التأمل يصل المريد إلى نموذج للشخصية المثالية تتصف بحضور صفات بناءة مثل النزاهة والتجرد ورباطة الجأش فى جميع الأحوال واليقظة الدائمة والحب والتعاطف إلى جانب الصراحة والكفاءة وتحمل المسئولية ، كما تتصف هذه الشخصية المثالية بغياب صفات سلبية مثل الجشع والطمع والتردد والامتعاض والصلف والاستياء والتلاوم والشهوة .

علم النفس الحديث فى الهند :

بدأ علم النفس الحديث فى صورته العلمية في الهند مبكرا منذ عام ١٩١٥ - وذلك بإنشاء أول قسم لعلم النفس فى الهند وذلك فى جامعة « كلكتا » . وفى عام ١٩٢٤ م تم إنشاء قسم آخر فى جامعة « ميسور » . ثم قسم ثالث عام ١٩٣٢ فى جامعة « اليجرة » ، أما عام ١٩٤٦ فهو يمثل نقطة انطلاقه جديدة بإنشاء أقسام كاملة ومستقلة لعلم النفس التجريبى وعلم النفس التطبيقى - ثم توالى إنشاء أقسام علم النفس فى الجامعات الهندية وبحلول عام ١٩٧٨ كان فى جامعات الهند خمسون جامعة تقدم مقررات علم النفس إما كمقررات تخصص رئيسى أو تخصص فرعى . وأبين دليل على اهتمام الجامعات الهندية بمقررات علم النفس أن كليات مهنية مثل كليات الزراعة والهندسة والطب والإدارة والتربية تقدم ضمن برامجها الدراسية مقررات فى علم النفس .

وتلقى دراسة علم النفس فى الهند الحماس والاهتمام سواء على مستوى المرحلة الجامعية أو علي مستوى الدراسات العليا، ومثال ذلك أنه فى الأعوام من ١٩٧٥ إلى ١٩٧٧ التحق فى أقسام علم النفس المختلفة بالجامعات الهندية للدراسة لمرحلة الماجستير ٧٣٦٩ وهو عدد كبير بالطبع ، أما مرحلة الدكتوراه فقد التحق فى الفترة نفسها ٥٩٢ طالبا - مما يدل على عظيم الاهتمام بدراسات علم النفس .

وتقدم الجامعات الهندية مقررات علم النفس المختلفة والمتنوعة ، منها ما هو مقرر إجبارى ومنها ما هو مقرر اختيارى. وتشتمل برامج الدراسة فى جميع أقسام علم النفس بالهند على المقررات الأساسية مثل مقررات علم النفس العام والتجريبى والقياس النفسى وعلم النفس الاجتماعى وعلم النفس المرضى وهكذا ، كما تميل الأقسام العلمية فى الجامعات الهندية إلى تنويع التخصصات ، وخاصة فى مرحلتى الماجستير والدكتوراه .

ومما هو جدير بالذكر أن معظم البحوث فى مجال علم النفس فى الهند تقوم بها الأقسام العلمية بالجامعات ولكن ثمة بعض المراكز تتولى الإشراف على بحوث

علم النفس وهذه المراكز أنشئت حديثا ومنها على سبيل المثال مركز دراسات علم النفس فى جامعة « يتكال » ومركز دراسات علم النفس الاجتماعى التربوى فى جامعة « الله آباد » .

ومن الأدلة على اهتمام الهند بعلم النفس الحديث إنشاء العديد من الجمعيات العلمية والمجلات العلمية ففى عام ١٩٢٢م أنشئت جمعية التحليل النفسى الهندية ، وفى عام ١٩٢٥م أنشئت الجمعية النفسية الهندية ، وفى عام ١٩٢٥م – أيضاً – أصبح لعلم النفس فرع فى « المجلس العلمى للهند » وفى نفس العام كذلك صدرت مجلة علم النفس الهندي من الجمعية النفسية الهندية، ثم توالى بعد ذلك إنشاء الجمعيات العلمية، ومنها على سبيل المثال جمعية علم النفس الإكلينيكى الهندية وجمعية علم النفس التطبيقى الهندية وعدد أعضاء هذه الجمعيات محدود إذ تتراوح عضوية كل جمعية بين ٣٠٠ ، ٤٠٠ عضو .

أما المجلات العلمية فإنها تزيد الآن على ثلاثين مجلة علمية من أشهرها مجلة علم النفس الهندى السابق الإشارة إليها ومجلة علم النفس التطبيقى الهندى ومجلة البحوث النفسية الهندية ومجلة علم النفس التربوى ومجلة علم النفس التجريبى وغيرها كثير . ومعظم هذه المجلات تصدر باللغة الإنجليزية وبعضها يصدر باللغات المحلية فى ولايات الهند المختلفة .

وقد بدأت بحوث علم النفس فى الهند مع إنشاء أول قسم لعلم النفس فى جامعة « كلكتا » عام ١٩١٥ ولكن هذه البحوث سرعان ما توسعت فى السنوات التالية ، وهذا التوسع يبدو واضحا فى الفترة التى تبدأ منذ منتصف القرن العشرين وذلك فى مجالات علم نفس الشخصية وعلم النفس الإكلينيكى وعلم النفس الاجتماعى وعلم النفس التجريبى ، ولكن هذه البحوث رغم أنها كم هائل إلا أنه يعوزها التنسيق فيما بينها ، أما البحوث التى أجريت خلال السنوات الأخيرة فإنها

تميزت بالتوسع إلى جانب التنسيق فيما بينها ومعالجة النواحى التطبيقية التى يمكن الاستفادة بها في النواحى المختلفة مثل مجال الصناعة ومجال المدرسة والمجال العلاجى ، هذا إلى جانب الاهتمام بالإعداد المهنى للأخصائى العامل فى المجالات النفسية المختلفة ، كما اهتمت البحوث النفسية بمشكلات علم النفس المرضى المتواترة فى المجتمع الهندى مثل الاكتئاب والانتحار وتعاطى العقاقير المخدرة والتخلف العقلى إلى جانب دراسة المشكلات الأسرية .

ومن المجالات التى حظيت باهتمام خاص مجال علم نفس النمو حيث توجهت البحوث إلى دراسة تطور القدرات المعرفية وتطور الميول والاتجاهات والنواحى الانفعالية ، وذلك عبر مرحلتى الطفولة والمراهقة ، كما استهدفت هذه الدراسات إعداد معايير النمو فى المتغيرات النفسية مثل الذكاء والقدرات والميول والاتجاهات خلال المستويات العمرية المختلفة بالنسبة للمجتمع الهندى - وكذلك نالت الاهتمام بحوث الشخصية مع تركيز الاهتمام على دراسة الشخصية الهندية والوصول إلى ما يمكن تسميته الصورة القومية للشخصية الهندية . كما تناولت البحوث موضوعات مثل التسلطية والحاجات الشخصية ومظاهر التغير التى حاقت بالمجتمع الهندى بسبب العوامل السياسية والاجتماعية والحضارية ، هذا كله إلى جانب دراسة التراث الشعبى الهندى ، وخاصة الأساطير القديمة كأسلوب يساعد على تفهم الصورة القومية للشعب الهندى .

وقد راعت هذه البحوث النواحى المنهجية فى علم النفس الحديث حيث توجه الاهتمام إلى دراسة بناء الاختبارات والتحليل العاملى ، كما تم التوصل إلى العديد من النماذج التى تفسر سلوك الإنسان - ومعظم البحوث النفسية سواء التى تقوم بها المؤسسات أو الأفراد تلقى التشجيع والمعونة من المجلس العلمى للهند ومن الجمعيات العلمية التى أشرنا إليها سابقا .

ورغم ما قد يوجه من نقد إلى علم النفس الهندى بسبب اعتماد المشتغلين به على علم النفس الغربى ، مما يجعل علم النفس الهندى يفتقد قدرا من ذاتيته

وتصديه لمعالجة الواقع الاجتماعى فى الهند - إلا أنه بدا الاهتمام فى الدراسات المعاصرة بصبغ بعض الدراسات السيكولوجية بصبغة محلية بحيث يمكن القول أنه يمكن لمؤرخ علم النفس أن ينظر إلى مستقبل علم النفس فى الهند بقدر كبير من الحماس والتفاؤل ، وذلك لما يجده من حماس وجدية المشتغلين بعلم النفس الهندى فى إجراء البحوث التى تعالج مشكلات مجتمع بالغ الاتساع يشتمل على عدة مئات من ملايين البشر .



خاتمة

تعرضنا فى هذا الكتاب لمساحة تاريخية واسعة من تطور علم النفس الحديث والمعاصر. وقد بينا فى كتابنا « التراث النفسى عند علماء المسلمين » تطور هذا العلم تحت مظلة الفلسفة عند فلاسفة الإغريق فى العصر القديم وفلاسفة الإسلام فى العصر الوسيط. و مع ذلك فإن علم النفس بقى تحت مظلة الفلسفة فترة طويلة فى العصر الحديث (يعتبر المؤرخون أن فتح الترك للقسطنطينية عام ١٤٥٣م هو بداية العصر الحديث) ولم يستقل علم النفس تماما عن الفلسفة إلا فى أخريات القرن التاسع عشر .

وإن القارئ لتاريخ علم النفس ليلحظ تطورا هائلا فى علم النفس المعاصر فى أواخر القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين، فما أكثر المجالات التطبيقية لهذا العلم، وما أكثر المشروعات البحثية التى يقوم بها المختصون فى علم النفس ، وما أكثر الجمعيات النفسية فى مختلف أنحاء العالم، وما أكثر المجلات العلمية التى تصدر فى علم النفس بمختلف اللغات - و ما أكثر عدد الجامعات التى تدرس علم النفس تخصصا رئيسا أو تخصصا فرعيا .

وقد شعرنا شعورا قويا أثناء تحريرنا هذا الكتاب أن علماء النفس داخل المدارس كانوا مختلفين على أساسيات، حيث اختلفوا على موضوع علم النفس واختلفوا كذلك على منهج البحث فى علم النفس، وهذا الاختلاف فى حد ذاته هو السبب الرئيس فى توسعات علم النفس فى مطلع القرن العشرين. ولعل هذا الاختلاف هو أيضا دليل على حيوية هذا العلم وشبابه .

ويشعر المؤرخ المدقق لعلم النفس أنه قد آن الأوان لكى نقيم مدارس علم النفس ونقارن بينها، سواء المدارس التى ما تزال فى الساحة والمدارس التى

أصبحت من التاريخ - أو بالأحرى على المؤرخ المدقق لعلم النفس أن يسأل : ما المدارس السائدة فى علم النفس؟ وما المدارس البائدة ؟ ورغم أن هذا السؤال فيه قدر من التجاوز إذ إن كلا من المدارس البائدة و السائدة قد أسهم فى تنمية المادة العلمية التى تكون جسم علم النفس وأسهم كذلك فى بناء القاعدة المعلوماتية لهذا العلم .

ويميل عدد كبير من المؤرخين إلى القول أن المدارس « البائدة » أو المائتة هى المدرسة الترابطية والمدرسة البنائية والمدرسة الوظيفية ومدرسة الجشطلت والمدرسة القصدية - أما المدارس « السائدة » أو الباقية فلا يبقى فى الساحة إلا امتدادات السلوكية وامتدادات التحليل النفسى ثم القوة الثالثة وهى علم النفس الإنسانى وذلك رغم تضعضع المدرسة السلوكية وذلك لوفاة «رأسها الكبير» - «سكنر» وهو الرجل الذى جعل السلوكية تتبوأ عرش علم النفس الأمريكى والعالمى فى الهزيع الأخير من القرن العشرين لا ينافسها منافس ولا ينازعها منازع. ولكن بموت « الرأس الكبير » فقدت السلوكية - فى نظرنا على الأقل - تلك السيادة والزعامة وربما إلى الأبد .

هذا ولا يجب أن ننتظر أن يكون تاريخ علم النفس فى أواخر القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين على نحو إيقاع التطور والنمو الذى حدث فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ذلك أن طبيعة العصر مختلفة . والذى يراه مؤرخ علم النفس أن عهد الرجال العظام فى علم النفس قد و لى ، فلا ننتظر أن تجود فرنسا بمثل «بينيه » ولا أن تجود ألمانيا بأمثال «فخنر» و «فونت» و«فرويد» ولا أن تجود إنجلترا بمثل «مكدوجل» ولا أن تجود أمريكا بأمثال «واطسون» و«ثورندايك » و «سكنر» ، ولا أن تجود روسيا بأمثال «بافلوف» و«بخترف» .

إن القائمين على علم النفس اليوم هم متخصصون على درجة عالية من الكفاءة ، ولكنهم ليسوا علماء موسوعيين مجددين لأن طبيعة العصر مختلفة ، ذلك أن « الانفجار المعرفى » الذى ساد جميع مجالات العلم فى أواخر القرن العشرين - ومن بينها مجال علم النفس - أدى إلى استحالة وجود الموسوعيين ، ناهيك أن كبار

علماء النفس فى أوائل القرن العشرين - داخل المدارس وخارجها - قد وضعوا الخطوط العامة والعريضة بما لا يستطيع مجدد أن يجدد فى الأصول ، وإن كان من المستطاع التجديد والإضافة فى الفروع .

وكذلك شعرنا أثناء تحرير هذا الكتاب بوجود اختلافات - حادة أحيانا - بين المدارس المختلفة . ولعل سائلا يسأل : أى طريق أتقى وأى طريق أرتقى ؟ - نقول فى الإجابة على هذا السؤال ما قاله مؤرخ علم النفس الكبير « ودورث » : إن الطريق الوسط هو خير طريق ، وبيان ذلك أنه إذا قدمت المدرسة البنائية تحليلا دقيقا للخبرة الشعورية، بالإحساس بالحرارة أو تقدير الأوزان أو مقارنة الأطوال فلنقبل من البنائية هذا التحليل الدقيق. وإذا قدم التحليل النفسى أدلة على أهمية مرحلة الطفولة المبكرة فى تكوين شخصية الإنسان ، قبلنا منها ذلك ، وإذا قدمت الترابطية أدلة تجريبية على أهمية قوانين مثل التشابه والاقتران فى عملية التعلم والذكر ، فلماذا نرفضها ! وإذا اهتمت الوظيفية ببيان وظائف الكائن الحى فى تعامله مع البيئة أخذنا ذلك منها شاكرين. وإذا أثبتت مدرسة الجشطلت قوانينها الإدراكية مثل التقارب والتشابه والإغلاق، وبينت أهمية الاستبصار فى التعلم فلا بأس من الاستفادة من نتائجها فى ميدان التعلم والإدراك. وإذا بينت القصدية أن السلوك غرضى فلنقبل بيانها هذا . وإذا قدمت السلوكية برهانا تجريبيا على كيفية حدوث المخاوف عند الأطفال فلنقبل برهانهم ، وهكذا نأخذ من كل مدرسة بطرف.

ومن المهم أن نذكر أن الوقوف بالطريق الوسط ليس هو موقف المتخلفين عن الركب أو المترددين أو قليلى الحماسة، بل هو موقف المؤرخ المدقق الذى يأخذ من كل مدرسة إنجازاتها وإسهاماتها ويبتعد عن تعسفاتها ويمالغاتها .

وثمة سؤال سنتعرض له فى هذه الخاتمة وهو : إذا كانت ألمانيا هى الموطن الأم لعلم النفس الحديث فما موطنه الآن ؟ لقد أجاب «فونت» على هذا السؤال قبل وفاته بقليل عندما قال : سيصبح علم النفس «أمريكيا تماما » وقد صح توقع هذا الرجل العظيم إذ أصبحت أمريكا موطن علم النفس للأسباب الآتية :

– توافد عدد كبير من علماء النفس الأمريكيين الشبان إلى ألمانيا فى أوائل القرن العشرين، وذلك للدراسة فى مختبر «ليبزج» وعودتهم إلى أمريكا ممتلئين تراثا وحماسا .

– هجرة عدد كبير من علماء النفس الألمان إلى أمريكا فى فترة الحرب العالمية الأولى والثانية فاستفاد بهم علم النفس الأمريكى أيما فائدة .

– ظهور السلوكية الأمريكية على يد «واطسون » دفع علم النفس الأمريكى دفعة هائلة إلى الأمام . وهذا أدى بالتالى إلى تعاظم قوته .

– ظهور المدرسة الوظيفية الأمريكية على الساحة وإن كان أثرها فى إثراء علم النفس الأمريكى والعالمى دون السلوكية بكثير .

– ظهور العديد من «المدارس الصغرى» الأمريكية مثل التحليل النفسى «المعدلة» وعلم النفس الإنسانى على نحو ما ذكرنا عند الحديث عن أهم المذاهب المعاصرة .

والسؤال الذى يطرح نفسه فى هذا المقام هو: ما مستقبل علم النفس ؟ والرأى عندنا أنه مستقبل زاهر؛ لأنه دخل ميادين الحياة اليومية من أوسع الأبواب وأصبحت له فروع تطبيقية عديدة فى شتى المجالات : الإدارة والتسويق والدعاية والإعلان والإعلام إلى جانب المجالات التقليدية مثل مجال التربية والتعليم ومجال الصناعة والمجال العسكرى إلى غير ذلك .

إن علم النفس – فى نظرنا – بنيان عظيم الأركان لكن الملحوظة الوحيدة اللافتة للنظر هى أنه رغم أن علم النفس الحديث صناعة أوروبية إلا أن علم النفس المعاصر هو صناعة أمريكية تماما، لقد تعملق علم النفس الأمريكى وساد الساحة العالمية وأحجمت أوربا عن مجاراته – حيث لا قبل لها بذلك – وأصبح علم النفس كله أمريكيا كما سبقت الإشارة وصح القول الذى نوقن به بأنه خارج أمريكا لا يوجد علم نفس .

إن تسيد أمريكا حضارة أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الواحد والعشرين هو تطور طبيعى لهذه الأمة الأمريكية الفتية والقوية، وليست السيادة لها فى مجال علم النفس فقط بل فى جميع المجالات العلمية الأخرى . ماذا نقول: إن الأيام دول، لقد بدأ علم النفس القديم على يد فلاسفة اليونان وعاش علم النفس الوسيط بين أحضان فلاسفة المسلمين ثم انتقل علم النفس الحديث إلى أوربا عامة وألمانيا خاصة ثم حط علم النفس المعاصر عصا الترحال فى أمريكا، تلك سنة التطور وتلك سنة الله سبحانه وتعالى فى خلقه ولن تجد لسنته تبديلا .

وأدل الأدلة على تجحفل علم النفس فى قلاع العلم الأمريكية أنه أثناء عرضنا لنماذج من علم النفس خارج أمريكا – مثل علم النفس الروسى والأسيوى – نرى هذه النماذج متواضعة وكأنها قزم بجانب عملاق. والرأى عندنا أن أمريكا سوف تبقى متسيدة الساحة العلمنفسية لعشرات السنين القادمة. ولا نتوقع أنه خلال هذه العشرات من السنين أن ينافسها منافس أو ينازعها منازع .

المـراجع

أولا : أهم المراجع العربية :

١- إسـرائيل ولنفسـون . مـوسى بن ميـمـون . القاهـرة : لجنة التـأليف والتـرجـمـة والنشر، ١٩٣٦ .

٢- بثينة قنديل. علم النفس عبر العصور . القاهرة : النهضة المصرية ، ١٩٧١ .

٣- جونسو ، بوجان. تاريخ الفلسفة والعلم فى أوربا الوسيطية . بيروت : مدرسة عز الدين ، ١٩٩٣. (ترجمة على زيور ، د. على مقلد) .

٤- جوستاف لوبون. حضارة العرب . القاهرة : الهيئة المصرية للكتاب ، ٢٠٠٠ .

٥- زينب محمود الخضرى. أثر ابن رشد فى فلسفة العصور الوسطى. القاهرة : الأنجلو المصرية ، ١٩٩٥ .

٦- زينب محمود الخضرى. ابن رشد وتلاميذه اللاتين. القاهرة : مكتبة الخانجى ، ١٩٨٦ .

٧- عباس محمود العقاد . ابن رشد . القاهرة: دار المعارف ، ٢٠٠٠ .

٨- عبده الحلو. ابن رشد . بيروت : الشرق الجديد، ١٩٦٠ .

٩- عمر فروخ : ابن طفيل . بيروت : دار لبنان للطباعة والنشر، ١٩٨٢ .

١٠- عمر فروخ . تاريخ الفكر العربى . بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٧٢ .

١١- فاخر عاقل . مدارس علم النفس . بيروت : دار العلم للملاينن ، ١٩٦٨ .

١٢- فلوجل . علم النفس فى مائة عام . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٣ .

١٣- ڤيجوتسكى. التفكير واللغة. القاهرة : الأنجلو المصرية ، ١٩٧٦ .

١٤- محمد شحاتة ربيع . أصول علم النفس الصناعى . القاهرة : مؤسسة الكوثر للطباعة ، ٢٠٠١ .

١٥- محمد شحاته ربيع. التراث النفسى عند علماء المسلمين. الأسكندرية: دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٥ .

١٦- محمد شحاته ربيع وآخرون . علم النفس الجنائى . القاهرة : دار غريب، ١٩٩٥ .

١٧- محمد شحاتة ربيع ، تطبيقات فى علم النفس . الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٨ .

١٨- محمد عبد الرحمن مرحبا. المرجع فى تاريخ العلوم عند العرب . بيروت : دار العودة، ١٩٩٨ .

١٩- مونتجمرى وات . فضل الإسلام على الحضارة الغربية. القاهرة : مكتبة مدبولى ، ١٩٨٣ . (ترجمة حسين أحمد أمين) .

٢٠- يوسف كرم . تاريخ الفلسفة الحديثة . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٩ .

٢١- يوسف كرم . تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط . بيروت : دار القلم ، د.ت.

ثانيا : أهم المراجع الأجنبية :

1- Boring , E. (1950) . A History of experimental psychology. Appelton - Century - Crofts.

2- Brennan, J. (1982) History and systems of psychology. Prentice - Hall .

3- Coleman, J (1984) Abnormal Psychology and modern life . Taraposevala sons.

4- Corsini, R (1994) . Encyclopedia of psychology. Wiley .

5- Freeman, F (1962). Theory and Practice of Psychological testing. Holt Rinehart and Winston .

6- Hall, C. and Lindzy, G (1978) . Theories of personality. Wiley .

7- Hearst , E (1979) . The first century of experimental psychology. Wiley .

8- Kendall, P. and Norton - ford , J (1982) . Clinical psychology. . Wiley .

9-Leahey, T. (1980) A history of Psychology Prentice - Hall .

10- Marx, M. and Hillix. W. (1973) Systems and Theories of psychology. Mc Graw - Hill .

11- Mc leish, j (1975) Soivet Psychology . Menthuen .

12- Murphy , G and Kovach , J (1972). Historical introduction to modern psychology . Harcourt - Brace .

13- Sahakian, W (1975). History and systems of psychology . Wiley .

14- Shultz, D (1981) . History of modern psychology. Academic Press.

15- Throne, B . and Henley , T . (1997) Connections in the history of psychology . Houghton Mifflin .

16- Viney, W. and king , D. (1998) . History of Psychology. Allyn and Bacon .

17- Woodwork, R. and Sheehan , M (1975). Contemporary schools of psychology. Men thuen .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

تم بحمد الله

